

تأملات ابن تيمية في القرآن الكريم

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٤//)

،
/ / _ عمان: ٢٠١٤.

() ص

ر.أ: (// ٢٠١٤).

الواصفات: / / /

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN

ردمك

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق.



دار الجنان للنشر والتوزيع - عمان - الاردن

هاتف: ٠٠٩٦٢٦٤٦٥٩٨٩١ dar_jenan@yahoo.com

تأملات ابن تيمية في القرآن الكريم

الجزء الأول

إعداد وتجميع
رقية الغرايبة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ
النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]

من رحمة الله بالبشرية ان أنزل اليها الكتاب وهو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم الذي لا تزيج به الأهواء ولا تلتبس به الألسن ولا يخلق عن كثرة التردد ولا تنقضى عجائبه ولا يشبع منه العلماء من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى الى صراط مستقيم ومن تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

وأنزل الميزان العقلي والمنطقي العادل الذي به نرى الامور وبه نحكم بين الاشياء وبه نزن الاشياء وبه نقيمها.

فصلاح الأمة ونهضتها وسعادة البشرية وتحقيق العدل والكرامة والحرية والرحمة بالانسانية يتوقف على العودة الى الكتاب والسنة بالميزان العقلي والمنهجية العلمية وطريقة التفكير الصحيحة أنزلها الله سبحانه وتعالى قال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [النشورى: ١٧] فبذلك نستطيع ان نفقه مراد الكتاب والسنة وان نخطو الخطوات الصحيحة الواثقة نحو الفلاح والنصر والسعادة في الدنيا والآخرة.

كما اننا بذلك نستطيع ان نرسم ملامح خريطتنا ونحدد معالم منهجنا قال تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

كان ابن تيمية رحمه الله يشير دائما الى هذه المنهجية العلمية والميزان العقلي وطريقة التفكير الصحيحة مستلهما لها من الكتاب والسنة ويستطيع القارئ من خلال القراءة بتمعن وانتباه في المواضيع ان يستقرئ هذه المنهجية وهذا الميزان.

رقية الغرايبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد ﷺ وعلى آله وعلى من اتبعه بإحسانٍ إلى يوم الدين.

الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه فكل الفضل يعود إليه فبرحمة من الله ألهمني فكرة هذا الكتاب وسهل الأمور بطريقة لم أتوقعها ووهبني الصبر والمثابرة للقيام بهذا الجهد الذي استغرق مني سنوات من العمل فالحمد لله في كل لحظة ووقت.

هذا الكتاب هو جزء من كتاب تأملات ابن تيمية في القرآن (الذي سيصدر قريبا إن شاء الله) وهو مقتطفات قمت بجمعها من كتب ابن تيمية المختلفة تتعلق بالآيات وهي تلقي ضوءا على تأملات ابن تيمية في القرآن وهي ليست تفسيراً كاملاً لكنها تتكلم عن بعض مضامين الآيات كما إنها ليست في مجال محدد بل تارة تتكلم عن جانب عقائدي أو فقهي أو روحي أو لغوي أو علمي... الخ، وهي تشكل وتوضح الرؤية الفكرية والعقدية والفقهية لابن تيمية، ورؤيته هذه تؤسس لنا قاعدة في الفهم والنظر والفكر والقياس رؤية معتدلة لا تشدد فيها ولا تهاون رؤية تنظر إلى الغايات والمصالح تحكم الشرع والعقل والمنطق.

كما سيجد القارئ في هذا الكتاب رداً لابن تيمية خاضعاً لمقاييس الشرع والعقل والمنطق على أغلب الشبهات والانحرافات والبدع التي اكتنفت دعاوى بعض الجاهلين والضالين والفرق التي ضلت عن جادة الطريق في فهم القرآن.

قمت بنقل ما كتبه ابن تيمية من دون أي تدخل يذكر مني في الصياغة إلا ما ندر كتوضيح أو ذكر إلى من يعود الكلام فقط لاني اردت ان انقل رأي الشيخ ابن تيمية رحمه الله للقارئ بطريقة سهلة ميسرة.

لم يكن بالأمر السهل جمع هذه المادة من بين كتب ابن تيمية الكثيرة وتنسيقها لتساعها ودقتها ونقل ما يناسب بدون تدخل في الصياغة ولكون همتي كانت منصرفة

لتكميل هذه المادة وجمعها وعدم التوسع في عرض المواضيع بهدف تقليل حجم المادة بقدر الامكان قد يكون لذلك اثر في مستوى المادة لذا رأيت ان اضع هذا الجزء (سورة البقرة) من كتاب تاملات ابن تيمية في القرآن الكريم بين يدي القارئ لأستثير بفكره ونصائحه وتنبيهاته لتؤخذ بعين الاعتبار في تعديل الكتاب ومهما تكن الملاحظة صغيرة سيكون لها وزن عندي لان ما يهمننا ان تصل الفائدة المرجوة من الكتاب بافضل صورة.

رقية الغرايبة

rogiagh@hotmail.com



سورة البقرة

مقدمة سورة البقرة

سورة البقرة هي سنام القرآن

الله تعالى أنزل سورة البقرة وهي سنام القرآن وجمع فيها معالم الدين وأصوله وفروعه إلى أمثال ذلك فإن النظر فيها وجه من وجوه الإيجاب ولما ذكر في أولها أصناف الخلق وهم ثلاثة مؤمن وكافر ومنافق أخذ بعد ذلك يقرر أصول الدين فقرر هذه الأصول الثلاثة الإيمان بالله ثم الرسالة ثم اليوم الآخر فإنه أنزل أربع آيات في المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين وبضعة عشرة آية في صفة المنافقين ثم قال تعالى تقريراً للنبي ﷺ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم إلى قوله تعالى بسورة من مثله فإنه ذكر التحدي هكذا في غير موضع من القرآن^(١).

اعلم ان الله سبحانه وتعالى أعطى نبيه محمداً ﷺ وبارك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤت منه نبي قبله ومن تدبر هذه الآيات وفهم ما تضمنته من حقائق الدين وقواعد الإيمان الخمس والرد على كل مبطل وما تضمنته من كمال نعم الله تعالى على هذا النبي ﷺ وأمة ومحبة الله سبحانه لهم وتفضيله إياهم على من سواهم فاليهنة العلم ولو ذهبنا نستوعب الكلام فيها لخرجنا عن مقصود الكتاب ولكن لابد من كليبات يسيرة تشير إلى بعض ذلك فنقول لما كانت سورة البقرة سنام القرآن وأكثر سورة أحكاماً وأجمعها لقواعد الدين وأصوله وفروعه وهي مشتملة على ذكر أقسام الخلق المؤمنين والكفار والمنافقين وذكر أوصافهم وأعمالهم وذكر الأدلة على إثبات الخالق

(١) العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٢١٢.

سبحانه وتعالى وعلى وحدانيته وذكر نعمه وإثبات نبوة رسوله ﷺ^(١).

وعن عبد الرحمن بن زيد أنه كان مع عبد الله بن مسعود فأتى جرة العقبة فاستبطن الوادي فاستعرضها فرماها من بطن الوادي بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة قال فقلت يا أبا عبد الرحمن إن الناس يرمونها من فوقها فقال هذا والذي لا إله إلا هو مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة متفق عليه وفي رواية للبخاري فاستبطن الوادي حتى إذا حاذى الشجرة اعترضها فرماها بسبع حصيات فكبر مع كل حصاة ثم قال من هاهنا والذي لا اله غيره قام الذي أنزلت عليه سورة البقر وفي رواية لأحمد أنه انتهى إلى جرة العقبة فرماها من بطن الوادي بسبع حصيات وهو راكب يكبر مع كل حصاة وقل اللهم اجعله حجا مبرورا وذنباً مغفورا ثم قال ها هنا كان يقوم الذي أنزلت عليه سورة البقرة^(٢).

اشتملت سورة البقرة على تقرير أصول العلم وقواعد الدين

قد ذكرت في مواضع ما اشتملت عليه سورة البقرة من تقرير أصول العلم وقواعد الدين أن الله تعالى افتتحها بذكر كتابه الهادي للمتقين فوصف حال أهل الهدى ثم الكافرين ثم المنافقين فهذه جمل خبرية ثم ذكر الجمل الطلبية فدعا الناس إلى عبادته وحده ثم ذكر الدلائل على ذلك من فرش الأرض وبناء السماء وإنزال الماء وإخراج الثمار رزقا للعباد ثم قرر الرسالة وذكر الوعد والوعيد ثم ذكر مبدأ النبوة والهدى وما بثه في العالم من الخلق والأمر ثم ذكر تعليم آدم الاسماء واسجاد الملائكة له لما شرفه من العلم فإن هذا تقرير لجنس ما بعث به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق فقص جنس دعوة الأنبياء ثم انتقل إلى خطاب بنى اسرائيل وقصة موسى معهم وضمن ذلك تقرير نبوته إذ هو قرين محمد فذكر آدم الذي هو أولو موسى الذي هو نظيره وهما اللذان احتجا وموسى قتل نفسا فغفر له وآدم أكل من الشجرة فتاب عليه وكان في قصة موسى رد على الصابئة ونحوهم ممن يقر بجنس النبوات لا يوجب اتباع ما جاءوا به وقد يتأولون أخبار الأنبياء وفيها رد على أهل الكتاب بما تضمنه ذلك من الأمر بالآيمان بما جاء به محمد ﷺ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٢٩.

(٢) شرح العمدة ج: ٣ ص: ٥٣١-٥٣٢.

وتقرير نبوته وذكر حال من عدل عن النبوة إلى السحر وذكر النسخ الذي ينكره بعضهم وذكر النصارى وأن الأمتين لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم كل هذا فى تقرير أصول الدين من الوحدانية والرسالة ثم أخذ سبحانه فى بيان شرائع الاسلام التى على ملة إبراهيم فذكر ابراهيم الذي هو امام وبناء البيت الذي بتعظيمه يتميز أهل الاسلام عما سواهم وذكر استقباله وقرر ذلك^(١).

فإنه شعار الملة بين أهلها وغيرهم ولهذا يقال أهل القبلة كما يقال من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم وذكر من المناسك ما يختص بالمكان وذلك أن الحج له مكان وزمان والعمرة لها مكان فقط والعكوف والركوع والسجود شرع فيه ولا يتقيد به ولا بمكان ولا بزمان لكن الصلاة تتقيد باستقباله فذكر سبحانه هذه الأنواع الخمسة من العكوف والصلاة والطواف والعمرة والحج والطواف يختص بالمكان فقط ثم اتبع ذلك ما يتعلق بالبيت من الطواف بالجليلين وأنه لا جناح فيه جواباً لما كان عليه الأنصار فى الجاهلية من كراهة الطواف بهما لأجل اهلا لهم لمناة وجواباً لقوم توقفوا عن الطواف بهما وجاء ذكر الطواف بعد العبادات المتعلقة بالبيت بل وبالقلوب والابدان والاموال بعد ما أمروا به من الاستعانة بالصبر والصلاة اللذين لا يقوم الدين إلا بهما وكان ذلك مفتاح الجهاد المؤسس على الصبر لأن ذلك من تمام أمر البيت لأن أهل الملل لا يخالفون فيه فلا يقوم أمر البيت إلا بالجهاد عنه وذكر الصبر على المشروع والمقدور وبين ما أنعم به على هذه الأمة من البشرى للصابرين فأنها أعطيت ما لم تعط الأمم قبلها فكان ذلك من خصائصها وشعائرها كالعبادات المتعلقة بالبيت ولهذا يقرن بين الحج والجهاد لدخول كل منهما فى سبيل الله فأما الجهاد فهو أعظم سبيل الله بالنص والاجماع وكذلك الحج فى الأصح كما قال الحج من سبيل الله وبين أن هذا معروف عند أهل الكتاب بدمه لكاتم العلم ثم ذكر أنه لا يقبل ديناً غير ذلك ففي أولها ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وفي أثنائها ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أُنْدَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] فى الأول نهى عام والثاني نهى خاص وذكرها بعد البيت ليتهاهى عن قصد الأنداد المضاهية

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٤١-٤٦.

له ولييته من الأصنام والمقابر ونحو ذلك ووحيد نفسه قبل ذلك وأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثم ذكر ما يتعلق بتوحيده من الآيات ثم ذكر الحلال والحرام وأطلق الأمر في المطاعم لأن الرسول بعث بالحنيفية وشعارها وهو البيت وذكر سماحتها في الأحوال المباحة وفي الدماء بما شرعه من القصاص ومن أخذ الدية ثم ذكر العبادات المتعلقة بالزمان فذكر الوصية المتعلقة بالموت ثم الصيام المتعلق برمضان وما يتصل به من الاعتكاف ذكره في عبادات المكان وعبادات الزمان فإنه يختص بالمسجد وبالزمان استحباباً أو وجوباً بوقت الصيام ووسطه أولاً بين الطواف والصلاة لأن الطواف يختص بالمسجد الحرام والصلاة تشرع في جميع الأرض والعكوف بينهما ثم أتبع ذلك بالنهي عن أكل الأموال بالباطل وأخبر أن المحرم نوعان نوع لعينه كالميتة ونوع لكسبه كالربا والمغصوب فاتبع المعنى الثابت بالمحرم الثابت بتحريمه لعينه وذكر في أثناء عبادات الزمان المنتقل الحرام المنتقل ولهذا أتبعه بقوله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، الآية وهي أعلام العبادات الزمنية وأخبر أنه جعلها مواقيت للناس في أمر دينهم ودنياهم وللحج لأن البيت تحجه الملائكة والجن فكان هذا أيضاً في أن الحج موقت بالزمان كأنه موقت بالبيت المكاني ولهذا ذكر بعد هذا من أحكام الحج ما يختص بالزمان مع أن المكان من تمام الحج والعمرة وذكر المحصر وذكر تقديم الاحلال المتعلق بالمال وهو الهدى عن الاحلال المتعلق بالنفس وهو الحلق وأن المتحلل يخرج من إحرامه فيحل بالأسهل فالأسهل ولهذا كان آخر ما يحل عين الوطئ فإنه أعظم المحظورات ولا يفسد النسك بمحذور سواه وذكر التمتع بالعمرة إلى الحج لتعلقه بالزمان مع المكان فإنه لا يكون متمتعاً حتى يحرم بالعمرة في أشهر الحج وحتى لا يكون أهله حاضري المسجد الحرام وهو الأفقي فإنه الذي يظهر التمتع في حقه لترفعه بسقوط أحد السفرين عنه أما الذي هو حاضر فسيان عنده تمتع أو اعتمر قبل أشهر الحج ثم ذكر وقت الحج وأنه أشهر معلومات وذكر الاحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة فإن هذا يختص بزمان ومكان ولهذا قال ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِمْ الْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧] ولم يقل والعمرة لأنها تفرض في كل وقت ولأريب أن السنة فرض الحج في أشهر ومن فرض قبله خالف السنة فيما أن يلزمه ما التزمه

كالنذر إذ ليس فيه نقض للمشروع وليس كمن صلى قبل الوقت وإما أن يلزم الاحرام ويسقط الحج ويكون معتمرا وهذان قولان مشهوران ثم أمر عند قضاء المناسك بذكره وقضائها والله أعلم قضاء التفث والاحلال ولهذا قال بعد ذلك ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وهذا أيضا من العبادات الزمانية المكانية وهو ذكر الله تعالى مع رمي الجمار ومع الصلوات ودل على أنه مكاني قوله ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وإنما يكون التعجيل والتأخير في الخروج من المكان ولهذا تضاف هذه الأيام إلى مكانها فيقال أيام منى وإلى عملها فيقال أيام التشريق كما يقال ليلة جمع وليلة مزدلفة ويوم عرفة ويوم الحج الأكبر ويوم العيد ويوم الجمعة فتضاف إلى الأعمال وأماكن الأعمال إذ الزمان تابع للحركة والحركة تابعة للمكان فتدبر تناسب القرآن وارتباط بعضه ببعض وكيف ذكر أحكام الحج فيها في موضعين مع ذكر بيته وما يتعلق بمكانه وموضع ذكر فيه الأهلة فذكر ما يتعلق بزمانه وذكر أيضا القتال في المسجد الحرام والمقاصة في الشهر الحرام لأن ذلك مما يتعلق بالزمان المتعلق بالمكان ولهذا قرن سبحانه ذكر كون الأهلة مواقيت للناس والحج وذكر أن البرليس أن يشقى الرجل نفسه ويفعل مالا فائدة فيه من كونه يبرز للسماء فلا يستظل بسقف بيته حتى إذا أراد دخول بيته لا يأتيه إلا من ظهره فأخبر أن الهلال الذي جعل ميقاتا للحج شرع مثل هذا وإنما تضمن شرع التقوى ثم ذكر بعد ذلك ما يتعلق بأحكام النكاح والوالدات وما يتعلق بالأموال والصدقات والربا والديون وغير ذلك ثم ختمها بالدعاء العظيم المتضمن وضع الآصار والأغلال والعفو والمغفرة والرحمة وطلب النصر على القوم الكافرين الذين هم أعداء ما شرعه من الدين في كتابه المبين والحمد لله رب العالمين.

يقرر الله أصل الإيمان توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسله

في سورة البقرة

أصل الإيمان توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسله كما قال تعالى

﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢) ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣]، قال أبو العالية خلتان تسأل العباد يوم القيامة عنهما عما كانوا يعملون وعما اجابوا الرسل ولهذا يقرر الله هذين الأصلين في غير موضع من القرآن بل يقدمهما على كل ما سواههما لأنهما أصل الأصول مثلما ذكر في سورة البقرة فإنه إفتتحها بذكر أصناف الخلق وهم ثلاثة مؤمن وكافر ومنافق وهذا التقسيم كان لما هاجر النبي إلى المدينة فإن مكة لم يكن بها نفاق بل إما مؤمن وإما كافر والبقرة مدنية من أوائل ما نزل بالمدينة فأنزل الله أربع آيات في ذكر المؤمنين وآيتين في ذكر الكافرين وبضع عشرة آية في صفة المنافقين وإفتتحها بالإيمان بجميع الكتب والأنبياء ووسطها بذلك وختمها بذلك قال في أولها ﴿آلَ ١﴾ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢) ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤) ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥] والصحيح في قوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، أنه والذي قبله صفة لموصوف واحد فإنه لا بد من الإيمان بما انزل إليه وما أنزل من قبله والعطف لتغاير الصفات كقوله ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وقوله ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ (٥) ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (٦) ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ [الأعلى: ٢ - ٤]، وقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٧) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (٨) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٣]، إلى قوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (٩) ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ - ١١]، ومن قال ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، أراد به مشركى العرب وقوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤]، أن المراد به أهل الكتاب فقد غلط فإن مشركى العرب لم يؤمنوا بما انزل إلى الله وما أنزل من قبله فلم يكونوا مفلحين وأهل الكتاب إن لم يؤمنوا بالغيب وقيموا الصلاة ومما رزقناهم ينفقون لم يكونوا مفلحين ولهذا قال تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، فدل على أنهم صنف واحد وقال في وسط السورة ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا

أَوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦]، فأمر بالإيمان بكل ما أوتي النبيون من ربهم وقد قال في أثنائها ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ كَذِبٌ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وختمها بقوله ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ثم أنه بعد تقسيم الخلق قرر أصول الدين فقرر التوحيد أولاً ثم النبوة ثانياً بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢]، ثم قرر النبوة بقوله ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤]، فأخبر أنهم لا يفعلون ذلك كما قال ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم ذكر اللجنة فقرر التوحيد والنبوة والمعاد وهذه أصول الإيمان^(١).

كثير من أهل البدع يقر بما جاءوا به الرسل إلا في أشياء تخالف رأيه فيقدم رأيه على ما جاؤا به ويعرض عما جاؤا به فيقول إنه لا يدرى ما أرادوا به أو يحرف الكلم عن مواضعه وهؤلاء موجودون في أهل الكتاب وفي أهل القبلة ولهذا ذكر الله في أول البقرة المؤمنين والكافرين ثم ذكر المنافقين وبسط القول فيهم^(٢).

الشريعة الكاملة تجمع العدل والفضل كما في آخر سورة البقرة

القرآن بين أن السعداء أهل الجنة وهم أولياء الله نوعان أبرار مقتصدون ومقربون سابقون فالدرجة الأولى تحصل بالعدل وهي أداء الواجبات وترك المحرمات والثانية لا تحصل إلا بالفضل وهو أداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات فالشريعة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٢٧٤-٢٧٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٢٨٣.

الكاملة تجمع العدل والفضل وهوسبحانه دائما يحرم الظلم ويوجب العدل ويندب إلى الفضل كما في آخر سورة البقرة لما ذكر حكم الأموال والناس فيها إما محسن وإما عادل وإما ظالم فالمحسن المتصدق والعادل المعاوز كالبائع والظالم كالمرابي فبدأ بالإحسان والصدقة فذكر ذلك ورغب فيه فقال ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١ - ٢٦٣]، ثم ذكر تحريم الربا فقال ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ثم لما أحل البيع ذكر المداينات وحكم البيع الحلال والمؤجل وحفظ ذلك بالكتاب والشهود أو الرهن وختم السورة بأصول الإيمان من الإيمان بالكتب والرسل وهوسبحانه بعد أن افتتحها بذكر أصناف الناس وهم ثلاثة إما مؤمن وإما كافر وإما منافق فذكر نعت المؤمنين ثم ذكر نعت الكافرين ثم ذكر نعت المنافقين ثم مهد أصول الإيمان فأمر بعبادة الله تعالى وذكر آياته وآلائه ثم قرر نبوة رسله ثم ذكر اليوم الآخر والوعد والوعيد ثم ذكر بدء العالم وخلق السماوات والأرض ثم خلق آدم وإسجاد الملائكة له وخروجه من الجنة وهبوطه إلى الأرض ثم بعد أن عم بالدعوة جميع الخلق خص أهل الكتاب فخطبهم خاطب اليهود أولاً بني إسرائيل ثم النصراني ثم خاطب المؤمنين فقرر لهم قواعد دينه فذكر أصل ملة إبراهيم وبناءه للبيت ودعائه لأهل مكة ووكد الأمر بملة إبراهيم ثم ذكر ما يتعلق بالبيت من اتخاذه قبلة ومن تعظيم شعائر الله التي عنده كالصفا والمروة ثم ذكر التوحيد والحلال والحرام والمطاعم للناس عموماً ثم للذين آمنوا خصوصاً ثم ذكر ما يتعلق بالقتل من القصاص وبالموت من الوصية ثم ذكر شرائع الدين فذكر صيام شهر رمضان وما يكون فيه من الاعتكاف ثم

ذكر ما يتصل بشهر الصيام وهو أشهر الحج فذكر الحج وذكر حكم القتال عموماً وخصوصاً في البلد الحرام ولما ذكر الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة ذكر بعد ذلك الحلال والحرام في الفروج فذكر أحكام وطء النساء والحيض والإيلاء منهن والطلاق لهن واختلاعهن وذكر حكم الأولاد وإرضاعهم واعتداد النساء وخطبتهم في العدة وطلاقهن قبل الدخول وبعده ثم ذكر الصلوات والمحافظة عليهن ثم قرر المعاد وما يدل عليه من إحياء الموتى في الدنيا مرة بعد مرة فتضمنت هذه السورة الواحدة جميع ما يحتاج الناس إليه في الدين وأصوله وفروعه وافتتحها بالإيمان بالكتب والرسل ووسطها بالإيمان بالكتب والرسل وختمها بالإيمان بالكتب والرسل فإن الإيمان بالكتب والرسل هو عمود الإيمان وقاعدته وجماعه وأمر فيها الخلق عموماً وخصوصاً وذكر فيها الإيمان بالخالق وآيات ربوبيته والإيمان بالمعاد والدار الآخرة والأعمال الصالحة التي أمر بها وأن من كان من أتباع الرسل من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين قائماً بهذه الأصول وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح فهو السعيد في الآخرة الذي له أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون بخلاف من بدل منهم الكتاب أو كذب بكتاب فإن هؤلاء من الكفار فمن كان متبعاً لشرع التوراة قبل مبعث المسيح غير مبدل له فهو من السعداء وكذلك من كان متبعاً لشرع الإنجيل قبل مبعث محمد غير مبدل له فهو من السعداء ومن بدل شرع التوراة أو كذب بالمسيح فهو كافر كاليهود بعد مبعث المسيح عليه السلام وكذلك من بدل شرع الإنجيل أو كذب محمداً فهو كافر كالنصارى بعد مبعث محمد فقدماء اليهود والنصارى الذين اتبعوا الدين قبل النسخ والتبديل سعدوا وأما اليهود والنصارى الذين تمسكوا بشرع مبدل منسوخ وتركوا اتباع الكتب والرسول الذي أرسل إليهم وإلى غيرهم وعدلوا عن الشرع المنزل المحكم فهم كفارورد دعاوى اليهود والنصارى الكاذبة ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، مثل قول هؤلاء لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو قول هؤلاء لن يدخل الجنة إلا من كان نصرى فقال ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]،

وبين من كفر اليهود والنصارى مما عرف بهم حالهم لكن أكثر ما ذكر في هذه السورة اليهود كما أن أكثر ما ذكر في سورة آل عمران النصارى فإن هذه نزلت أول مقدمه المدينة وكان اليهود جيرانه وآل عمران تأخر نزولها إلى آخر الأمر لما قدم عليه نصارى نجران وفيها فرض الحج لما طهر الله مكة من المشركين فكان أكثر دعائه في أول الأمر للمشركين لأنهم جيرانه بمكة ثم لليهود لأنهم جيرانه بالمدينة ثم للنصارى لأنهم كانوا أبعد عنه من ناحية الشام واليمن والمجوس أيضا لأنهم كانوا أبعد عنه بأرض العراق وخراسان وهذا هو الترتيب المناسب يدعو الأقرب إليه فالأقرب ثم يرسل رسله إلى الأبعد وهو كان أولا مشغولا بجهاد المشركين واليهود فلما صالح المشركين صلح الحديبية وحارب يهود خيبر عقيب ذلك ففتحها الله عليه وقسمها بين الذين بايعوه تحت الشجرة الذين شهدوا صلح الحديبية تفرغ لمن بعد عنه فأرسل رسله إلى جميع من حواله من الأمم أرسل إلى ملوك النصارى بمصر والشام والحبشة فإنه كان قد مات ملك الحبشة النجاشي الذي أسلم وأخبر الناس بموته يوم مات وخرج بأصحابه إلى ظاهر المدينة فصلى عليه بهم صلاة الجنازة كما كان يصلي على سائر موتى المسلمين وتولى بعد النجاشي آخر فأرسل إليه كما ذكره مسلم في صحيحه وأرسل إلى ملوك اليمن من المشركين واليهود وإلى ملوك العرب وكان في العرب خلق كثير يهود وخلق كثير نصارى وخلق كثير مجوس فدعا جميع الخلق من اليهود والنصارى والمجوس والمشركين عربهم وعجمهم^(١).

بين الله في سورة البقرة أصل الدعوة في القرآن

ولما كان الإقرار بالصانع فطريا كما قال ﷺ كل مولود يولد على الفطرة الحديث فإن الفطرة تتضمن الإقرار بالله والإنابة إليه وهو معنى لا إله إلا الله فإن الإله هو الذى يعرف ويعبد وقد بسطت هذا المعنى فى غير هذا الموضع وكان المقصود بالدعوة وصول العباد إلى ما خلقوا له من عبادة ربهم وحده لا شريك له والعبادة أصلها عبادة القلب المستتب للجوارح فإن القلب هو الملك والأعضاء جنوده وهو المضغة الذى اذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد وانما ذلك بعلمه وحاله كان هذا

(١) الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ٦٢ - ٦٩.

الأصل الذى هو عبادة الله بمعرفته ومحبه هو أصل الدعوة فى القرآن فقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [التأاريات: ٥٦]، وقال فى صدر البقرة بعد أن صنف الخلق ثلاثة أصناف مؤمن وكافر ومنافق فقال بعد ذلك ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وذكر آلاءه التى تتضمن نعمته وقدرته ثم اتبع ذلك بتقريره النبوة بقوله ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٧.

§ البقرة (مدنية) ٢٨٦ §

﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا

رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ

عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

أسماء الحروف (فواتح السور)

ليس في القرآن من حروف الهجاء التي هي أسماء الحروف إلا نصفها وهي أربعة عشر حرفاً وهي نصف أجناس الحروف نصف المجهورة والمهموسة والمستعلية والمطبقة والشديدة والرخوة وغير ذلك من أجناس الحروف وهو أشرف النصفين والنصف الآخر لا يوجد في القرآن إلا في ضمن الأسماء أو الأفعال أو حروف المعاني التي ليست باسم ولا فعل فلا يجوز أن نعتقد أن حروف المعجم بأسمائها جميعها موجودة في القرآن لكن نفس حروف المعجم التي هي أبعاض الكلام موجودة في القرآن بل قد اجتمعت في آيتين إحداهما في آل عمران والثانية في سورة الفتح ﴿ثُمَّ أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةٌ نَّفَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ آل عمران: ١٥٤﴾ ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُم رُكْعًا سَجْدًا يَلْبِتُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ

الْكَفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ [الفتح: ٢٩] الآية (١).

أن المتشابه الحروف المقطعة فى أوائل السور يروى هذا عن ابن عباس و على هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاما تاما من الجمل الإسمية و الفعلية وانما هي أسماء موقوفة ولهذا لم تعرب فإن الأعراب إنما يكون بعد العقد و التركيب و إنما نطق بها موقوفة كما يقال أ ب ت ث ولهذا تكتب بصورة الحرف لا بصورة الإسم الذي ينطق به فإنها فى النطق أسماء و لهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاي من زيد قالوا زَا قال نطقتم بالإسم و إنما النطق بالحرف زه فهى فى اللفظ أسماء وفى الخط حروف مقطعة ألم لا تكتب ألف لام ميم كما يكتب قول النبى ﷺ من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول ألم حرف و لكن ألف حرف و لام حرف و ميم حرف و ألح لغة الرسول ﷺ وأصحابه يتناول الذي يسميه النحاة أسما وفعلا وحرفا ولهذا قال سيبويه فى تقسيم الكلام إسم و فعل و حرف جاء لمعنى ليس بإسم ولا فعل فإنه لما كان معروفا من اللغة أن الإسم حرف والفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذي يطلق النحاة عليه الحرف أنه جاء لمعنى ليس بإسم ولا فعل وهذه حروف المعانى التى يتألف منها الكلام وأما حروف الهجاء فتلك إنما تكتب على صورة الحرف المجرد و ينطق بها غير معربة ولا يقال فيها معرب ولا مبنى لأن ذلك إنما يقال فى المؤلف فإذا كان على هذا القول كل ما سوى هذه محكم حصل المقصود فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله و كلام رسوله ﷺ ثم يقال هذه الحروف قد تكلم فى معناها أكثر الناس فإن كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وإن لم يكن معروفا وهى المتشابه كان ما سواها معلوم المعنى وهذا المطلوب وأيضا فإن الله تعالى قال ﴿مَنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء وإنما يعدها آيات الكوفيون وسبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضا متشابه ولكن هذا القول يوافق ما نقل عن اليهود من طلب علم المدد من حروف الهجاء (٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٤٤٨-٤٤٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٤٢٠-٤٢١ و الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٤١١ و مجموع الفتاوى ج:

١٢ ص: ١٠٣.

وأما جمهور الأمة وأهل الحديث والفقه والتصوف فعلى ما جاءت به الرسل وما جاء عنهم من الكتب والاثارة من العلم وهم المتبعون للرسالة اتباعاً محضاً لم يشوبوه بما يخالفه من مقالة الصابئين وهو أن القرآن كلام الله لا يجعلون بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله والقرآن هو القرآن الذى يعلم المسلمون أنه القرآن حروفه ومعانيه والأمر والنهى هو اللفظ والمعنى جميعاً ولهذا كان الفقهاء المصنفون فى أصول الفقه من جميع الطوائف الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية إذا لم يخرجوا عن مذاهب الأئمة والفقهاء إذا تكلموا فى الأمر والنهى ذكروا ذلك وخالفوا من قال إن الأمر هو المعنى المجرد ويعلم أهل الاثارة النبوية أهل السنة والحديث عامة المسلمين الذين هم جماهير أهل القبلة أن قوله تعالى ﴿الْأَمْرُ﴾ ﴿ذَلِكَ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ - ٢]، ونحو ذلك هو كلام الله لا كلام غيره وكلام الله هو ما تكلم به لا ما خلقه فى غيره ولم يتكلم به^(١).

افتتحت بالإيمان الجامع وختمها بالإيمان الجامع ووسطها بالإيمان الجامع فى توحيد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها وتوحد الدين الملى دون الشرعى وما فى ذلك من اقرار ونسخ وجريان ذلك فى أهل الشريعة الواحدة بنوع من الاعتبار قال الله تعالى ﴿وَإِذْ أُنزِلَتِ الْإِبْرَاهِيمَ رُبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَمْنَ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] فهذا نص فى انه امام الناس كلهم وقال ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، وهو القدوة الذى يؤتم به وهو معلم الخير وقال تعالى ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلى آخر السورة كما قال فى أولها ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] ففتحتها بالإيمان الجامع وختمها بالإيمان الجامع ووسطها بالإيمان الجامع ونبينا اعطى فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٣٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١٠٧-١٠٨.

ذكر الله في أول سورة البقرة الأصناف الثلاثة للناس

لما كانت سورة البقرة سنام القرآن ويقال إنها أول سورة نزلت بالمدينة افتتحها الله بأربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين وبضع عشرة آية في صفة المنافقين فإنه من حين هاجر النبي صار الناس ثلاثة أصناف إما مؤمن وإما كافر مظهر للكفر وإما منافق بخلاف ما كانوا وهو بمكة فإنه لم يكن هناك منافق ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره لم يكن من المهاجرين منافق وإنما كان النفاق في قبائل الأنصار فإن مكة كانت للكفار مستولين عليها فلا يؤمن ويهاجر إلا من هو مؤمن ليس هناك داع يدعو إلى النفاق والمدينة آمن بها أهل الشوكة فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالأنصار فمن لم يظهر الإيمان أذوه فإحتاج المنافقون إلى إظهار الإيمان مع أن قلوبهم لم تؤمن والله تعالى إفتح البقرة ووسط البقرة وختم البقرة بالإيمان بجميع ما جاءت به الأنبياء فقال في أولها ما تقدم وقال في وسطها ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦) فَإِن ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِن لَّوَلُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴿[البقرة: ١٣٦ - ١٣٧]، الآية وقال في آخرها ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ءَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ءَ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ءَ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والآية الأخرى وفي الصحيحين عن النبي أنه قال الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه والآية الوسطى قد ثبت في الصحيح أنه كان يقرأ بها في ركعتي الفجر وبـ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، الآية تارة وبقل يا أيها الكافر ونوقل هو الله أحد تارة فيقرأ بما فيه ذكر الإيمان والإسلام أو بما فيه ذكر التوحيد والإخلاص^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٩٩ - ٢٠٤.

عامّة السور المدنية يذكر فيها المنافقين

تضمن حديث سؤال النبي عن الاسلام والايمان والاحسان وجوابه عن ذلك وقوله في آخر الحديث هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم فجعل هذا كله من الدين وللناس في الاسلام والايمان من الكلام الكثير مختلفين تارة ومتفقين أخرى ما يحتاج الناس معه إلى معرفة الحق في ذلك وهذا يكون بأن تبين الأصول المعلومة المتفق عليها ثم بذلك يتوصل إلى معرفة الحقيقة المتنازع فيها فنقول ما علم الكتاب والسنة والاجماع وهو من المنقول نقلا متواترا عن النبي بل هو من المعلوم بالإضطرار من دين الإسلام دين النبي أن الناس كانوا على عهده بالمدينة ثلاثة أصناف مؤمن وكافر مظهر للكفر ومنافق ظاهره الإسلام وهو في الباطن كافر ولهذا التقسيم أنزل الله في أول سورة البقرة ذكر الأصناف الثلاثة فأنزل أربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين وبضع عشرة آية في صفة المنافقين فقوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ١ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٢ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَاْخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ ٣ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢-٥]، في صفة المؤمنين وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧]، الآيتين في صفة الكفار الذين يموتون كفارا وقوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، الآيات في صفة المنافقين إلى أن ضرب لهم مثلين أحدهما بالنار والآخر بالماء كما ضرب المثل بهذين للمؤمنين في قوله تعالى ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، الآية واما قبل الهجرة فلم يكن الناس إلا مؤمن أو كافر لم يكن هناك منافق فإن المسلمين كانوا مستضعفين فكان من آمن باطنا وظاهرا ومن لم يؤمن فهو كافر فلما هاجر النبي إلى المدينة وصار للمؤمنين بها عز وانصار ودخل جمهور أهلها في الإسلام طوعا واختيارا كان بينهم من أقاربهم ومن غير أقاربهم من أظهر الاسلام موافقة رهبة أو رغبة وهو في الباطن كافر وكان رأس هؤلاء عبدالله بن أبي بن سلول وقد نزل فيه وفي امثاله من المنافقين آيات

والقرآن يذكر المؤمنين والمنافقين في غير موضع كما ذكرهم في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وسورة العنكبوت والأحزاب وكان هؤلاء في أهل المدينة والبادية كما قال تعالى ﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١] وكان في المنافقين من هو في الأصل من المشركين وفيهم من هو في الأصل من أهل الكتاب وسورة الفتح والقتال والحديد والمجادلة والحشر والمنافقين بل عامة السور المدنية يذكر فيها المنافقين قال تعالى في سورة آل عمران ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَّوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦] إلى قوله ﴿وَلْيَعْلَمِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧] وأما قبل الهجرة فلم يكن الناس إلا مؤمن أو كافر لم يكن هناك منافق فإن المسلمين كانوا مستضعفين فكان من آمن آمن باطنا وظاهرا ومن لم يؤمن فهو كافر فلما هاجر النبي إلى المدينة وصار للمؤمنين بها عز وانصار ودخل جمهور أهلها في الإسلام طوعا واختيارا كان بينهم من أقاربهم ومن غير أقاربهم من أظهر الإسلام موافقة رهبة أو رغبة وهو في الباطن كافر وكان رأس هؤلاء عبدالله بن أبي بن سلول وقد نزل فيه وفي أمثاله من المنافقين آيات ^(١).

فإن الله منذ بعث محمدا وأنزل عليه القرآن وهاجر إلى المدينة صار الناس ثلاثة أصناف مؤمن به وكافر به مظهر الكفر ومناق مستخف بالكفر ولهذا ذكر الله هذه الأصناف الثلاثة في أول سورة البقرة ذكر أربع آيات في نعت المؤمنين وآيتين في الكفار وبضع عشر آية في المنافقين وقد ذكر الله الكفار والمنافقين في غير موضع من القرآن كقوله ﴿وَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنْفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنْفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، وقوله ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥]، وعطفهم على الكفار ليميزهم عنهم بإظهار الإسلام وإلا فهم في الباطن شر من الكفار

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٤٦١ - ٤٦٣.

كما قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] وكما قال ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]، وكما قال ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِلَّا أَنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٣ - ٥٤]، وإذا كان كذلك فأهل البدع فيهم المنافق الزنديق فهذا كافر ويكثر مثل هذا في الرافضة والجهمية فإن رؤساءهم كانوا منافقين زنادقة وأول من ابتدع الرفض كان منافقا وكذلك التجهم فإن أصله زندقة ونفاق ولهذا كان الزنادقة المنافقون من القرامطة الباطنية المتفلسفة وأمثالهم يميلون إلى الرافضة والجهمية لقربهم منهم ومن أهل البدع من يكون فيه إيمان باطنا وظاهرا لكن فيه جهل وظلم^(١).

ان الله تعالى منذ بعث محمدا وأعزه بالهجرة والنصرة صار الناس ثلاثة اقسام قسما مؤمنين وهم الذين آمنوا به ظاهرا وباطنا وقسما كفارا وهم الذين اظهروا الكفر به وقسما منافقين وهم الذين آمنوا ظاهرا لا باطنا ولهذا افتتح سورة البقرة بأربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين وثلاث عشرة آية في صفة المنافقين وكل واحد من الايمان والكفر والنفاق له دعائم وشعب كما دلت عليه دلائل الكتاب والسنة وكما فسرهم امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه في الحديث المأثور عنه في الإيمان ودعائمه وشعبه فمن النفاق ما هو اكبر يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار كنفاق عبد الله بن ابي وغيره بأن يظهر تكذيب الرسول أو جحود بعض ما جاء به أو بغضه أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه أو المسرة بانخفاض دينه أو المساءة بظهور دينه ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه الا عدوا لله ورسوله وهذا القدر كان موجودا في زمن رسول الله وما زال بعده بل هو بعده اكثر منه على عهده لكون موجبات الايمان على عهده أقوى فاذا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٥٣.

كانت مع قوتها وكان النفاق معها موجودا فوجوده فيما دون ذلك أولى^(١).
لفظ الكفر والنفاق فالكفر اذا ذكر مفردا في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]،
وأمثال هذه النصوص كثير في القرآن فهذه كلها يدخل فيها المنافقون الذين هم في الباطن
كفار ليس معهم من الإيمان شيء كما يدخل فيها الكفار المظهرون للكفر بل المنافقون في
الدرك الأسفل من النار كما أخبر الله بذلك في كتابه ثم قد يقرن الكفر بالنفاق في
مواضع ففي أول البقرة ذكر أربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين وبضع
عشرة آية في صفة المنافقين فقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾
[النساء: ١٤٠]^(٢).

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]
والكتاب اسم جنس لكل كتاب أنزله الله يتناول التوراة والإنجيل كما يتناول
القرآن فذكر أن هذا الكتاب الذي أنزل عليه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب
ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة والذين يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل من قبله وبالأخرة
هم يوقنون ثم أخبر أن هؤلاء هم المفلحون فحصر الفلاح في هؤلاء فلا يكون مفلحا إلا
من كان من هؤلاء^(٣).
أنه لما أنزل قوله ذلك الكتاب وتلك آيات الكتاب ونحو ذلك لم يكن الكتاب المشار
إليه قد أنزل تلك الساعة وإنما كان قد أنزل قبل ذلك فصار كالغائب الذي يشار إليه كما
يشار إلى الغائب وهو باعتبار حضوره عند النبي يشار إليه كما يشار إلى الحاضر وأول
التقوى تقوى الشرك^(٤).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٤٣٣-٤٣٤.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٤.

(٣) الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٣٤.

(٤) الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٧٥.

لطيفة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]

أصل السماع الذي أمر الله به هو سماع ما جاء به الرسول ﷺ سماع فقه وقبول ولهذا انقسم الناس فيه أربعة أصناف صنف معرض ممتنع عن سماعه وصنف سمع الصوت ولم يفقه المعنى وصنف فقهه ولكنه لم يقبله والرابع الذي سمعه سماع فقه وقبول والصنف الرابع الذين سمعوا سماع فقه وقبول فهذا هو السماع المأمور به كما قال تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وكذلك قوله ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي بِيَدِ أَمْنُؤُا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، ومثله قوله ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، فالبيان يعم كل من فقهه والهدى والموعظة للمتقين وقوله ﴿هَٰذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٠]، وقوله ﴿الَّذِينَ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]، وهنا لطيفة تزيل إشكالا يفهم هنا وهو أنه ليس من شرط هذا المتقى المؤمن أن يكون كان من المتقين المؤمنين قبل سماع القرآن فإن هذا أولا ممتنع إذ لا يكون مؤمنا متقيا من لم يسمع شيئا من القرآن وثانيا أن الشرط إنما يجب أن يقارن المشروط لا يجب أن يتقدمه تقدما زمانيا كاستقبال القبلة في الصلاة وثالثا أن المقصود أن يبين شيئا أحدهما أن الإنتفاع به بالإهداء والإعطاء والرحمة هو وإن كان موجبا له لكن لا بد مع الفاعل من القابل إذ الكلام لا يؤثر فيمن لا يكون قابلا له وإن كان من شأنه أن يهدي ويعظ ويرحم وهذا حال كل كلام الثانی أن يبين أن المهتدين بهذا هم المؤمنون المتقون ويستدل بعدم الإهداء به على عدم الإيمان والتقوى كما يقال المتعلمون لكتاب بقراط هم الأطباء وإن لم يكونوا أطباء قبل تعلمه بل بتعلمه وكما يقال كتاب سيبويه كتاب عظيم المنفعة للنحاة وإن كانوا

إنما صاروا نحاة بتعلمه وكما يقال هذا مكان موافق للرماة والركاب^(١).

قال تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۖ سَيَذَكِّرُ مِنْ يَخْشَىٰ ۖ وَيَنْجَنِبُهَا الْأَشْقَى ۖ﴾ (الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَىٰ) [الأعلى: ٩ - ١٢]، فأخبر أن من يخشاه يتذكر والتذكر هنا مستلزم لعبادته قال الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، وقال ﴿بَصِيرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٨] ولهذا قالوا في قوله ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠]، سيتعظ بالقرآن من يخشى الله وفي قوله ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، إنما يتعظ من يرجع إلى الطاعة وهذا لان التذكر التام يستلزم التأثير بما تذكره فان تذكر محبوبا طلبه وان تذكر مرهوبا هرب منه ومنه قوله تعالى ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠]، وقال سبحانه ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ﴾ [يس: ١١] فنفي الانذار عن غير هؤلاء مع قوله ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠]، فأثبت لهم الانذار من وجه ونفاه عنهم من وجه فان الانذار هو الاعلام بالمخوف فالانذار مثل التعليم والتخويف فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه وآخر يقول علمته فلم يتعلم وكذلك من خوفته فخاف فهذا هو الذى تم تخويفه واما من خوف فما خاف فلم يتم تخويفه وكذلك من هديته فاهتدى تم هداه ومنه قوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْبَاقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ومن هديته فلم يهتد كما قال ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، فلم يتم هداه كما تقول قطعته فانقطع وقطعته فما انقطع فالمؤثر التام يستلزم اثره فمتى لم يحصل اثره لم يكن تاما والفعل اذا صادف محلا قابلا تم والا لم يتم والعلم بالمحبوب يورث طلبه والعلم بالمكروه يورث تركه ولهذا يسمى هذا العلم الداعى ويقال الداعى مع القدرة يستلزم وجود المقدور وهو العلم بالمطلوب المستلزم لارادة المعلوم المراد وهذا كله انما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٥-١٦.

وأما مع فسادها فقد يحس الانسان باللذذ فلا يجد له لذة بل يؤلمه وكذلك يلتذ بالمؤلم
الفساد الفطرة والفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعا كالمرور الذي يجد
العسل مرأ فانه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التي
مازجته وكذلك من فسد باطنه قال تعالى ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨) وَنُقَلِّبُ
أَعْيُنَهُمْ وَابْنِصْرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠] (١).

يحذر من يقبل وينتفع بالعلم من عمل به

وقوله تعالى ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠]، يقتضى أن كل من يخشى يتذكر والحشية
قد تحصل عقب الذكر وقد تحصل قبل الذكر وقوله ﴿مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠]، مطلق ومن
الناس من يظن أن ذلك يقتضى أنه لابد أن يكون قد خشي أولا حتى يذكر وليس كذلك
بل هذا كقوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقوله ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]،
وقوله ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقوله ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ
وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١]، وهو إنما خاف الوعيد بعد أن سمعه لم يكن وعيد قبل
سماع القرآن وكذلك قوله ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١]،
وهو إنما اتبع الذكر وخشى الرحمن بعد أن أنذره الرسول وقد لا يكونون خافوها قبل
الإنذار ولا كانوا متقين قبل سماع القرآن بل به صاروا متقين وهذا كما يقول القائل ما
يسمع هذا إلا سعيد وإلا مفلح وإلا من رضي الله عنه وما يدخل في الإسلام إلا من
هداه الله ونحو ذلك وإن كانت هذه الحسنات والنعم تحصل بعد الإسلام وسماع القرآن
ومثل هذا قوله ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقد قال
في نظيره ﴿وَيُنَجِّنَهَا الْأَشَقَى﴾ [الأعلى: ١١]، وإنما يشقى بتجنيتها وهذا كما يقال إنما يحذر من
يقبل وإنما ينتفع بالعلم من عمل به فمن إستمع القرآن فأمن به وعمل به صار من المتقين
الذين هو هدى لهم ومن لم يؤمن به ولم يعمل به لم يكن من المتقين ولم يكن ممن إهتدى به

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠.

بل هو كما قال الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًّى﴾ [فصلت: ٤٤]، ولم يرد أنهم كانوا مؤمنين فلما سمعوه صار هدى وشفاء بل إذا سمعه الكافر فأمن به صار فى حقه هدى وشفاء وكان من المؤمنين به بعد سماعه^(١).

أن الإنسان لا يعتقد أنه بدعائه وإنذاره وبيانه يحصل الهدى ولو كان أكمل الناس وأن الداعى وإن كان صالحا ناصحا مخلصا فقد لا يستجيب المدعو لا لنقص فى الدعاء لكن لفساد فى المدعو وهذا لأن حصول المطلوب متوقف على فعل الفاعل وقبول القابل كالسيف القاطع يؤثر بشرط قبول المحل فيه لا يقطع الحجارة والحديد ونحو ذلك والنفخ يؤثر إذ كان هناك قابل لا يؤثر فى الرماد والدعاء والتعليم والإرشاد وكل ما كان من هذا الجنس له فاعل وهو المتكلم بالعلم والهدى والنذارة وله قابل وهو المستمع فإذا كان المستمع قابلا حصل الإنذار التام والتعليم التام والهدى التام وإن لم يكن قابلا قيل علمته فلم يتعلم وهديته فلم يهتد وخاطبته فلم يصغ ونحو ذلك فقوله فى القرآن ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، هو من هذا إنما يهتدى من يقبل الإهداء وهم المتقون لا كل أحد وليس المراد أنهم كانوا متقين قبل اهتدائهم بل قد يكونوا كفارا لكن إنما يهتدى به من كان متقيا فمن إتقى الله إهتدى بالقرآن والعلم والإنذار إنما يكون بما أمر به القرآن وهكذا قوله ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، الإنذار التام فإن الحي يقبله ولهذا قال ﴿وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، فهم لم يقبلوا الإنذار ومثله قوله ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا﴾ [الأنعام: ٤٥]، وعكسه قوله ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] أي كل من ضل به فهو فاسق فهو ذم لمن يضل به فإنه فاسق ليس أنه كان فاسقا قبل ذلك ولهذا تأولها سعد بن أبى وقاص فى الخوارج وسماهم فاسقين لأنهم ضلوا بالقرآن فمن ضل بالقرآن فهو فاسق^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٧١-١٧٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٨٧-٥٨٨.

من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم

فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه واتباعهم ما يحبه ما لا يفتح به على غيرهم وهذا كما قال على الا فهما يؤتیه الله عبدا فی كتابه وفي الأثر من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وقد دل القرآن على ذلك فی غیر موضع كقوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيئًا﴾ [٦٦] وَإِذَا لَا تَتَّبِعُهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨] فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به يهديه الله صراطا مستقيما وقال تعالى ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال ﴿إِنَّهُمْ فِيهِ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وقال تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقال تعالى ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وأخبر أن اتباع ما يكرهه يصرف عن العلم والهدى كقوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] وقوله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ ءَايَةُ الْيَوْمِئِنْهَا قُلُوبُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقوله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ ءَايَةُ الْيَوْمِئِنْهَا قُلُوبُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠]، أي وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون بها ونقلب أفئدتهم أي يتركون الايمان ونحن نقلب أفئدتهم لكونهم لم يؤمنوا أول مرة أي ما يدريكم أنه لا يكون هذا وهذا حينئذ^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٢٤٥ - ٢٤٦.

ان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده
يقينا وطمأنينة وشفاء

وكثيرا ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه وقد يرد على
قلبه بعض ما يوجب النفاق ويدفعه الله عنه والمؤمن يتلى بوسأوس الشيطان وبوسأوس
الكفر التى يضيق بها صدره كما قالت الصحابة يا رسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما
لئن نجر من السماء إلى الأرض أحب اليه من أن يتكلم به فقال ذاك صريح الايمان وفى
رواية ما يتعظم ان يتكلم به قال الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة أى حصول هذا
الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الايمان كالمجاهد
الذى جاءه العدو فدافعه حتى غلبه فهذا أعظم الجهاد والصريح الخالص كاللبن الصريح
وانما صار صريحا لما كرهوا تلك الوسأوس الشيطانية ودفعوها فخلص الايمان فصار
صريحا ولا بد لعامة الخلق من هذه الوسأوس فمن الناس من يجيها فصير كافرا أو منافقا
ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها الا اذا طلب الدين فإما أن
يصير مؤمنا واما أن يصير منافقا ولهذا يعرض للناس من الوسأوس فى الصلاة ما لا
يعرض لهم اذا لم يصلوا لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الانابة إلى ربه والتقرب
اليه والاتصال به فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ويعرض لخاصة أهل العلم
والدين أكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوسأوس
والشبهات ما ليس عند غيرهم لانه لم يسلك شرع الله ومنهاجه بل هو مقبل على هواه
فى غفلة عن ذكر ربه وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة
فانه عدوهم يطلب صدهم عن الله قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]،
ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه
المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء وقال تعالى ﴿وَنُزِّلُ
مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال
تعالى ﴿هَٰذَا بَيَّانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال تعالى ﴿هُدًى

لَتَقْتَبِلَنَّ ﴿البقرة: ٢﴾، وقال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه فالشيطان يريد بوسأوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن فأمر الله القارئ إذا قرأ القرآن أن يستعيز منه قال تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿[النحل: ٩٨ - ١٠٠]﴾، فان المستعيز بالله مستجير به لاجيء اليه مستغيث به من الشيطان فالعائد بغيره مستجير به فاذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويحيره منه ولذلك قال الله تعالى ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤) وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّا يَنْزَغْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿[فصلت: ٣٤ - ٣٦]﴾، وفي الصحيحين عن النبي أنه قال انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات وعندما يأمره الشيطان بالسيئات ولهذا قال النبي ﷺ لا يزال الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله وليتته فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه فى شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع عدوه وكلما كان الإنسان أعظم رغبة فى العلم والعبادة واقدر على ذلك من غيره بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ورغبته وإرادته فى ذلك أتم كان ما يحصل له أن سلمه الله من الشيطان أعظم وكان ما يفتتن به إن تمكن منه الشيطان أعظم ولهذا قال الشعبي كل أمة علماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم وأهل السنة فى الإسلام كأهل الإسلام فى الملل وذلك ان كل أمة غير المسلمين فهم ضالون وانما يضلهم علماؤهم فعلماءهم شرارهم والمسلمون على هدى وانما يتبين الهدى بعلمائهم فعلماءهم خيارهم وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة وأئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب ولهذا أمر النبي ﷺ بقتل الخوارج ونهى عن قتال

الولاية الظلمة وأولئك لهم نهمة في العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوسأوس التي تضلهم وهم يظنونها هدى فيطيعونها ما لا يعرض لغيرهم ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى وينابيع العلم كما قال ابن مسعود لأصحابه كونوا ينابيع العلم مصابيح الحكمة سرج الليل جدد القلوب احلاس البيوت خلقان الثياب تعرفون في أهل السماء وتحفون على أهل الأرض^(١).

قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۚ﴾^(٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿[الأنفال: ٢ - ٣]، فانه ذكر وجل قلوبهم اذا ذكر الله وزيادة ايمانهم اذا تليت عليهم آياته مع التوكل عليه واقام الصلاة على الوجه المأمور به باطنا وظاهرا وكذلك الانفاق من المال والمنافع فكان هذا مستلزما للباقي فان وجل القلب عند ذكر الله يقتضى خشيته والخوف منه وقد فسروا ﴿وَجِلَتْ﴾ [الأنفال: ٢]، بفرقت وفى قراءة ابن مسعود اذا ذكر الله فرقت قلوبهم وهذا صحيح فان الوجل فى اللغة هو الخوف يقال حمرة الخجل وصفرة الوجل ومنه قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت عائشة يا رسول الله هل الرجل يزنى ويسرق^(٢).

ويخاف أن يعاقب قال لا يا ابنة الصديق هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه وقال السدى فى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، هو الرجل يريد أن يظلم أويهم بمعصية فينزع عنه وهذا كقوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾^(٣) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿[النازعات: ٤٠ - ٤١]، وقوله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦]، قال مجاهد وغيره من المفسرين هو الرجل يهمل بالمعصية فيذكر مقامه بين يدى الله فيتركها خوفا من الله واذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته فذلك يدعوصاحبه إلى فعل المأمور وترك المحذور قال سهل بن

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٨٢-٢٨٤.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٩-٢١.

عبد الله ليس بين العبد وبين الله حجاب اغلظ من الدعوى ولا طريق اليه اقرب من الافتقار واصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ ۖ وَفِي نُحُسْحَتَهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، فأخبر ان الهدى والرحمة للذين يرهبون الله قال مجاهد وابراهيم هو الرجل يريد ان يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب رواه ابن أبى الدنيا عن ابن الجعد عن شعبة عن منصور عنهما فى قوله تعالى ﴿وَلَمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وهؤلاء هم اهل الفلاح المذكورون فى قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، وهم المؤمنون وهم المتقون المذكورون فى قوله تعالى ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَاشِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهؤلاء هم المتبعون للكتاب كما فى قوله تعالى ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، واذا لم يضل فهو متبع مهتد واذا لم يشق فهو مرحوم وهؤلاء هم اهل الصراط المستقيم الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين فان اهل الرحمة ليسوا مغضوبا عليهم واهل الهدى ليسوا ضالين فتبين ان اهل رهبة الله يكونون متقين لله مستحقين لجنته بلا عذاب وهؤلاء هم الذين اتوا بالايمان الواجب.

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناء كما فى قوله ﴿وَأَجْنِبْنَاهُمْ وَهْدِيَتَهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] وكما فى قوله ﴿شَاكِرًا

لَا نَعْمِيَّ أَجَبْتُهُ وَهَدَنُ ﴿[النحل: ١٢١]﴾، ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ ﴿[الشورى: ١٣]﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ ﴿[التوبة: ٣٣]﴾، والهدى هنا هو الإيمان ودين الحق هو الإسلام وإذا أطلق الهدى كان كالإيمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا ^(١).

معرفة ما جاء به الرسول وما أراده بألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم والإيمان والسعادة والنجاة

أن معرفة ما جاء به الرسول وما أراده بألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم والإيمان والسعادة والنجاة ثم معرفة ما قال الناس في هذا الباب لينظر المعاني الموافقة للرسول والمعاني المخالفة لها والألفاظ نوعان نوع يوجد في كلام الله ورسوله ونوع لا يوجد في كلام الله ورسوله فيعرف معنى الأول ويجعل ذلك المعنى هو الأصل ويعرف ما يعنيه الناس بالثاني ويرد إلى الأول هذا طريق أهل الهدى والسنة وطريق أهل الضلال والبدع بالعكس يجعلون الألفاظ التي أحدثوها ومعانيها هي الأصل ويجعلون ما قاله الله ورسوله تبعاً لهم فيردونها بالتأويل والتحريف إلى معانيهم ويقولون نحن نفسر القرآن بالعقل واللغة يعنون أنهم يعتقدون معنى بعقلهم ورأيهم ثم يتأولون القرآن عليه بما يمكنهم من التأويلات والتفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه ولهذا قال الإمام أحمد أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس وقال يحتنب المتكلم في الفقه هذين الأصلين المجمع والقياس وهذه الطريق يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار والصغار فهي طريق الجهمية والمعتزلة ومن دخل في التأويل من الفلاسفة والباطنية الملاحدة وأما حذاق الفلاسفة فيقولون إن المراد بخطاب الرسول ﷺ إنما هو أن يخيّل إلى الجمهور ما ينتفعون به في مصالح دنياهم وإن لم يكن ذلك مطابقاً للحق قالوا وليس مقصود الرسول ﷺ بيان الحق وتعريفه بل مقصوده أن يخيّل إليهم ما يعتقدونه ويجعلون خاصة النبوة قوة التخيل فهم يقولون أن الرسول ﷺ لم يبين ولم يفهم بل ولم يقصد ذلك وهم متنازعون هل كان يعلم الأمور على ما هي عليه على قولين منهم من قال كان يعلمها لكن ما كان يمكنه

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦.

بيانها وهؤلاء قد يجعلون الرسول أفضل من الفيلسوف ومنهم من يقول بل ما كان يعرفها أو ما كان حاذقا في معرفتها وإنما كان يعرف الأمور العملية وهؤلاء يجعلون الفيلسوف أكمل من النبي ﷺ لأن الأمور العملية أكمل من العلمية فهؤلاء يجعلون خبر الله وخبر الرسول ﷺ إنما فيه التخييل وأولئك يقولون لم يقصد به التخييل ولكن قصد معنى يعرف بالتأويل وكثير من أهل الكلام الجهمية يوافق أولئك على أنه ما كان يمكنه أن يبوّج بالحق في باب التوحيد فخاطب الجمهور بما يخيل لهم كما يقولون إنه لو قال إن ربكم ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا يشار إليه ولا هو فوق العالم ولا كذا ولا كذا لنفرت قلوبهم عنه وقالوا هذا لا يعرف قالوا فخاطبهم بالتجسيم حتى يثبت لهم ربا يعبدونه وإن كان يعرف أن التجسيم باطل وهذا يقوله طوائف من أعيان الفقهاء المتأخرين المشهورين الذين ظنوا أن مذهب النفاة هو الصحيح واحتاجوا أن يعتذروا عما جاء به الرسول ﷺ من الإثبات كما يوجد في كلام غير واحد وتارة يقولون إنما عدل الرسول ﷺ عن بيان الحق ليجتهدوا في معرفة الحق من غير تعريفه ويجتهدوا في تأويل ألفاظه فتعظم أجورهم على ذلك وهم اجتهدهم في عقلياتهم وتأويلاتهم ولا يقولون إنه قصد به إفهام العامة الباطل كما يقول أولئك المتفلسفة وهذا قول أكثر المتكلمين النفاة من الجهمية والمعتزلة ومن سلك مسلكهم حتى ابن عقيل وأمثاله وأبو حامد وابن رشد الحفيد وأمثالهما يوجد في كلامهم المعنى الأول وأبو حامد إنما ذم التأويل في آخر عمره وصنف الجاهل العوام عن علم الكلام محافظة على هذا الأصل لأنه رأى مصلحة الجمهور لا تقوم إلا بإبقاء الظواهر على ما هي عليه وإن كان هو يرى ما ذكره في كتبه المضمون بها أن النفي هو الثابت في نفس الأمر فلم يجعلوا مقصوده بالخطاب البيان والهدي كما وصف الله به كتابه ونبيه حيث قال ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقال ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] وقال ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمُبِينِ﴾ [العنكبوت: ١٨] وقال ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] وأمثال ذلك وقال النبي ﷺ تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك وقال تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا

تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿١٥﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦] وقال ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ^(١).

فإن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل وله قابل

قول المصلي سمع الله لمن حمد هاي استجاب له وكما في قوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقوله ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] وقوله ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] ونحو ذلك فإن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل وله قابل فالمعلم المذكر يعلم غيره ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر وقد لا يتعلم ولا يتذكر فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير وإن لم يتعلم ولم يتذكر فقد وجد أحد طرفيه وهو الفاعل دون المحل القابل فيقال في مثل هذا علمته فما تعلم وذكرته فما تذكر وأمرته فما أطاع وقد يقال ما علمته وما ذكرته لأنه لم يحصل تاما ولم يحصل مقصوده فينفى لانتفاء كماله وتمامه وانتفاء فائدته بالنسبة إلى المخاطب السامع وإن كانت الفائدة حاصلة للمتكلم القائل المخاطب فحيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به وحيث عمم بالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا وهذا هو الهدى المذكور في قوله ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] فالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك وهو كالإنذار العام والتذكير العام وهنا قد هدى المتقين وغيرهم كما قال

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٣٥٥-٣٥٨.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] وأما قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الإهداء كقوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقوله ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠] وقوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧] وقوله ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦] وهذا كثير في القرآن^(١).

العطف يقتضي اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فيما ذكر وأن بينهما مغايرة إما في الذات وإما في الصفات وهو في الذات كثير كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج: ١٧] وأما في الصفات فمثل هذه الآية فإن الذي خلق فسوى هو الذي قدر فهدى لكن هذا الإسم والصفة ليس هو ذاك الإسم والصفة ومثله قوله ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]^(٢).

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

أصل الايمان هو الايمان بالغيب كما قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ١-٣] والغيب الذي يؤمن به ما أخبر به الرسل من الأمور العامة ويدخل في ذلك الايمان بالله وأسمائه وصفاته وملائكته والجنة والنار فالإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر يتضمن الايمان بالغيب فان وصف الرسالة هو من الغيب وتفصيل ذلك هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله ﴿وَلَكِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَكِ الْمَكِينِ وَالنَّبِيِّينَ [البقرة: ١٧٧] وقال ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٥٨ ومجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٤١٥.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٢٧ ومجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧٧.

بَعِيدًا ﴿[النساء: ١٣٦]﴾^(١).

أما ما اخبرت به الرسل ﷺ من الغيب فهو أمور موجودة ثابتة اكمل واعظم مما نشهده نحن في هذه الدار وتلك أمور محسوسة تشاهد وتحس ولكن بعد الموت وفي الدار الآخرة ويمكن ان يشهدها في هذه الدار من يختصه الله بذلك ليست عقلية قائمة بالعقل ولهذا كان الفرق بينها وبين الحسيات التي تشهدها ان تلك غيب وهذه شهادة قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] وكون الشيء غائبا وشاهدا امر اضافي بالنسبة اليها فاذا غاب عنا كان غيبا واذا شهدناه كان شهادة وليس هو فرقا يعود إلى ان ذاته تعقل ولا تشهد ولا تحس بل كل ما يعقل ولا يمكن ان يشهد بحال فانما يكون في الذهن والملائكة يمكن ان يشهدوا ويروا والرب تعالى يمكن رؤيته بالابصار والمؤمنون يرونه يوم القيامة وفي الجنة كما تواترت النصوص في ذلك عن النبي ﷺ واتفق على ذلك سلف الامة وائمها وامكان رؤيته يعلم بالدلائل العقلية القاطعة لكن ليس هو الدليل الذي سلكه طائفة من اهل الكلام كأبي الحسن وامثاله حيث ادعوا ان كل موجود يمكن رؤيته بل قالوا ويمكن ان تتعلق به الحواس الخمس السمع والبصر والشم والذوق واللمس فان هذا مما يعلم فساده بالضرورة عند جماهير العقلاء^(٢).

قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] والايان بالشيء مشروط بقيام دليل يدل عليه فعلم أن الأمور الغائبة عن المشاهدة قد تعلم بما يدل عليها^(٣).
فالمعنى في كونه غيباً هو انتفاء شهود ناله

قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفِيلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧] وقال تعالى ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦﴾ فَلَنَقْضَنَّ عَلَيْهِمْ بِعَلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿[الأعراف: ٦ - ٧]﴾ وقد قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] قال طائفة من

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٢٣٣.

(٢) الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٣١٠ والجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٨٤.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٤٩٣.

السلف الغيب هو الله أو من الإيمان بالغيب الإيمان بالله ففي موضع نفى عن نفسه أن يكون غائبا وفي موضع جعله نفسه غيبا ولهذا اختلف الناس في هذه المسألة فطائفة من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم كالقاضي وابن عقيل وابن الزاغوني يقولون بقياس الغائب على الشاهد ويريدون بالغائب الله ويقولون قياس الغائب على الشاهد ثابت بالحد والعلة والدليل والشرط كما يقولون في مسائل الصفات في إثبات العلم والخبرة والارادة وغير ذلك وأنكر ذلك عليهم طائفة منهم الشيخ أبو محمد في رسالته إلى أهل رأس العين وقال لا يسمى الله غائبا واستدل بما ذكر وفصل الخطاب بين الطائفتين أن اسم الغيب والغائب من الأمور الاضافية يراد به ما غاب عنا فلم ندركه ويراد به ما غاب عنا فلم يدركنا وذلك لأن الواحد منا إذا غاب عن الآخر مغيبا مطلقا لم يدرك هذا هذا ولا هذا هذا والله سبحانه شهيد على العباد رقيب عليهم مهيمن عليهم لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء فليس هو غائبا وإنما لما لم يره العباد كان غيبا ولهذا يدخل في الغيب الذي يؤمن به وليس هو بغائب فإن الغائب اسم فاعل من قولك غاب يغيب فهو غائب والله شاهد غير غائب وأما الغيب فهو مصدر غاب يغيب غيبا وكثيرا ما يوضع المصدر موضع الفاعل كالعدل والصوم والزور وموضع المفعول كالخلق والرزق ودرهم ضرب الأمير ولهذا يقرن الغيب بالشهادة وهي أيضا مصدر فالشهادة هي المشهود أو الشاهد والغيب هو إما المغيب عنه فهو الذي لا يشهد نقيض الشهادة وإما بمعنى الغائب الذي غاب عنا فلم نشهده فتسميته باسم المصدر فيه تنبيه على النسبة إلى الغير أي ليس هو بنفسه غائبا وإنما غاب عن الغير أو غاب الغير عنه وقد يقال اسم الشهادة والغيب يجمع النسبتين فالشهادة ما شهدنا وشهدناه والغيب ما غاب عنا وغبنا عنه فلم نشهده وعلى كل تقدير فالمعنى في كونه غيبا هو انتفاء شهود ناله وهذه تسمية قرآنية صحيحة فلو قالوا قياس الغيب على الشهادة لكانت العبارة موافقة واما قياس الغائب ففيه مخالفة في ظاهر اللفظ ولكن موافقة في المعنى فلهذا حصل في اطلاقه التنازع^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٥١-٥٣.

قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] والفحشاء من المنكر وكذلك قال ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] وإيتاء ذي القربى هو من العدل والاحسان كما أن الفحشاء والبغي من المنكر وكذلك قوله ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] وإقامة الصلاة من أعظم التمسك بالكتاب وكذلك قوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ﴾ في الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴿[الأنبياء: ٩٠] ودعائهم رغبا ورهبا من الخيرات وأمثال ذلك في القرآن كثير وهذا الباب يكون تارة مع كون أحدهما بعض الآخر فيعطف عليه تخصيصا له بالذكر لكونه مطلوبا بالمعنى العام والمعنى الخاص وتارة تكون دلالة الاسم تنوع بحال الانفراد والاقتران فإذا أفرد عم وإذا قرن بغيره خص كاسم الفقير والمسكين لما أفرد أحدهما في مثل قوله ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقوله ﴿إِطْعَمُوا عَشْرَةَ مَسْكِينٍ﴾ [المائدة: ٨٩] دخل فيه الآخر ولما قرن بينهما في قوله ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] صارا نوعين وقد قيل إن الخاص المعطوف على العام لا يدخل في العام حال الاقتران بل يكون من هذا الباب والتحقيق أن هذا ليس لازما قال تعالى ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨] وقال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة تارة لكونه له خاصية ليست لسائر أفراد العام كما في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وتارة لكون العام فيه إطلاق قد لا يفهم منه العموم كما في قوله ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿[البقرة: ٢-٤]﴾ فقوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] يتناول الغيب الذي يجب الإيمان به لكن فيه إجمال فليس فيه دلالة على أن من الغيب ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وقد يكون المقصود أنهم يؤمنون بالمخبر به وهو الغيب وبالإخبار بالغيب وهو ما

أنزل إليك وما أنزل من قبلك ومن هذا الباب قوله تعالى ﴿ أَتُلُّ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَلِكْتِبِ وَأَقْرِ الصَّلَاةِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقوله ﴿ وَالَّذِينَ يَمَسُكُونَ بِالْأَكْتِبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةِ ﴾ [الأعراف: ١٧٠] وتلاوة الكتاب هي اتباعه كما قال ابن مسعود في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ [البقرة: ١٢١] قالحللون حلاله ويحرمون حرامه ويؤمنون بمتشابهه ويعملون بمحكمه فاتباع الكتاب يتناول الصلاة وغيرها لكن خصها بالذكر لمزيتها وكذلك قوله لموسى ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٤] وإقامة الصلاة لذكره من أجل عبادته وكذلك قوله تعالى ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠] وقوله ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥] وقوله ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] فإن التوكل والاستعانة هي من عبادة الله لكن خصت بالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصها فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة إذ هو سبحانه لا يعبد إلا بمعونته^(١).

انما أولياء الله الذين وصفهم الله تعالى بولايته بقوله ﴿ أَلَا بِأُولَئِكَ أَلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [١٢] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣] ولا بد في الايمان من ان يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويؤمن بكل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله الله كما قال تعالى ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [١٣] فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ لَوْلَا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٦ - ١٣٧] وقال تعالى ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآخر في الأخبار المحضة فهذا مما لم يختلف المسلمون أنه لا نفرق بين أحد من رسله إلى

(١) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٧٥-٣٧٦ ومجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٧٧.

آخر السورة وقال في أول السورة ﴿الذِّكْرُ﴾ [١] ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُمِيزُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَا آخِرَةَ هُمُ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ [البقرة: ١ - ٥] فلا بد في الايمان من ان تؤمن ان محمدا خاتم النبيين لا نبي بعده وان الله ارسله إلى جميع الثقيلين الجن والانس فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن فضلا عن ان يكون من أولياء الله المتقين ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ليس بمؤمن كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمُ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥١ - ١٥٢] ومن الايمان به الايمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ امره ونهيه ووعده ووعيده وحلاله وحرامه فالحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله فمن اعتقد ان لاحد من الأولياء طريقا إلى الله من غير متابعة محمد فهو كافر من أولياء الشيطان واما خلق الله تعالى للخلق ورزقه اياهم واجابته لدعائهم وهدايتهم لقلوبهم ونصرهم على اعدائهم وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضار فهذا الله وحده يفعل به ما يشاء من الأسباب لا يدخل في مثل هذا وساطة الرسل^(١).

كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله

قد اتفق سلف الامة وأئمتها على ان كل احد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم فان الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الايمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل وتجب طاعتهم فيما يأمرون به بخلاف الأولياء فانهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ولا الايمان بجميع ما يخبرون به بل يعرض امرهم وخبرهم على الكتاب والسنة فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله وما

(١) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٦٩-١٧١.

خالف الكتاب والسنة كان مردودا وان كان صاحبه من أولياء الله وكان مجتهدا معذورا فيما قاله له اجر على اجتهاده لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئا وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع فان الله تعالى يقول ﴿فَأَتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وهذا تفسير قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال ابن مسعود وغيره حق تقاته ان يطاع فلا يعصى وان يذكر فلا ينسى وان يشكر فلا يكفر أى بحسب استطاعتكم فان الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها كما قال تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال تعالى ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢] وقال تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الايمان بما جاءت به الانبياء فى غير موضع كقوله تعالى ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] وقال تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ هُدَىٰ لِّتَقِيَنَّ ۖ ۝١٠٠﴾ [البقرة: ١٠٠] وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۖ ۝١٠١﴾ [البقرة: ١٠١] وقال تعالى ﴿لَيْسَ إِلَٰهٌ أَن تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِيلَ الْمَشْرِيقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ إِلَٰهَ مِن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ ۝١٠٢﴾ [البقرة: ١٠٢] وقال تعالى ﴿وَالْمَلَكُ وَالنِّبْيَةُ وَالنَّبِيُّ عَلَىٰ الْمَالِ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ ۝١٠٣﴾ [البقرة: ١٧٧] وهذا الذى ذكرته من ان أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة وانه ليس فيهم معصوم يسوغ له أولغيره اتباع ما يقع فى قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة هو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل من خالف فى هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم بل اما ان يكون كافرا واما ان يكون مفرطا فى الجهل وهذا كثير فى كلام

المشايع كقول الشيخ ابي سليمان الداراني أنه ليقع في قلبى النكتة من نكت القوم فلا اقبلها إلا بشاهدين الكتاب والسنة وقال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له ان يتكلم فى علمنا أو قال لا يقتدى به^(١).

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]

عماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي ﷺ أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهبت ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالنسك تارة^(٢).

فإن الصلاة أيضا تعم الصلاة المفروضة والتطوع وقد يدخل فيها كل ذكر الله إما لفظا وإما معنى قال ابن مسعود رضي الله عنه ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق وقال معاذ بن جبل مدارس العلم التسييح^(٣).

وبسبب الكلام في مسألة الايمان تنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الاسماء وهكذا قالوا في إسم الصلاة والزكاة

(١) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٢٠٨-٢١٠.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤٣٠.

(٣) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٣٦.

والصيام والحج إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي لكن زاد في أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة إلى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة إلى اللغة مجاز وبالنسبة إلى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد في الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بعد أن عرفهم الصلاة بالمأمور بها فكان التعريف منصرفا إلى الصلاة التي يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال في لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوي أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوي والشرعي ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى

﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩ - ١٠] وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبوجهل أو غيره قد نهى النبي عن الصلاة وقال لئن رأيته يصلي لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه فإذا قيل ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى

﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩ - ١٠] فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال في اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبي ﷺ والمسلمون يأتون بالنبي فإذا قيل لهم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفي النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا اجمال في ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاء وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠٠.

إقامة الصلاة تتضمن إتمامها بحسب الإمكان

وهي الصلاة التي أمر بها في قوله ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨] ^(١).

ان الله سبحانه وتعالى أمر في كتابه بإقامة الصلاة واذم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال تعالى في غير موضع ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ وإقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان كما سيأتي في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال أقيموا الركوع والسجود فإني أراكم من بعد ظهري وفي رواية أتموا الركوع والسجود وسيأتي تقرير دلالة ذلك وقد أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين وأخرج أصحاب السنن أبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأصحاب المسانيد كمسند احمد وغير ذلك من أصول الإسلام عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فدخل رجل ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فرد رسول الله ﷺ وقال ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ثم سلم عليه فقال رسول الله ﷺ وعليك السلام ثم قال ارجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرجل والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمني قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راکعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم اجلس حتى تطمئن جالساً ثم افعل ذلك في صلاتك كلها وفي رواية للبخاري إذا قمت إلى الصلاة فاسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر وقرأ بما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راکعاً ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائماً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تستوي وتطمئن جالساً ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ثم ارفع حتى تستوي قائماً ثم افعل ذلك في صلاتك كلها وفي رواية له ثم اركع حتى تطمئن راکعاً ثم ارفع حتى تستوي قائماً وباقيه مثله وفي رواية وإذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك وما انتقصت من هذا فإنما انتقصته من صلاتك وعن رفاعه بن رافع رضي الله عنه أن رجلاً دخل المسجد فذكر الحديث وقال فيه فقال النبي ﷺ إنه لا تتم صلاة لأحد من الناس حتى يتوضأ فيضع

(١) الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٧٩.

الوضوء مواضعه ثم يكبر ويحمد الله عز وجل ويثني عليه ويقرأ بما شاء من القرآن ثم يقول الله أكبر ثم يركع حتى يطمئن راکعاً ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قائماً ثم يسجد حتى يطمئن ساجداً ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوي قاعداً ثم يقول الله أكبر ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله ثم يرفع رأسه فيكبر فإذا فعل ذلك فقد تمت صلاته وفي رواية إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله عز وجل فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله ويحمده ثم يقرأ من القرآن ما أذن له وتيسر وذكر نحو اللفظ الأول وقال ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه وربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله وتسترخي ثم يكبر فيستوي قاعداً على مقعدته ويقيم صلبه فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال لا تتم صلاة لأحدكم حتى يفعل ذلك رواه أهل السنن أبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن والروايتان لفظ أبي داود وفي رواية ثالثة له قال إذا قمت فتوجهت إلى القبلة فكبر ثم اقرأ بأم القرآن وبما شاء الله أن تقرأ فإذا ركعت فضع راحتك على ركبتيك وامدد ظهرك وقال إذا سجدت فمكن لسجودك فإذا رفعت فاقعد على فخذك اليسرى وفي رواية أخرى قال إذا أنت قمت في صلاتك فكبر الله عز وجل ثم اقرأ ما تيسر عليك من القرآن وقال فيه فإذا جلست في وسط الصلاة فاطمئن وافترش فخذك اليسرى ثم تشهد ثم إذا قمت فمثل ذلك حتى تفرغ من صلاتك وفي رواية أخرى قال فتوضأ كما أمرك الله ثم تشهد فأتم ثم كبر فإن كان معك قرآن فاقرأ به وإلا فاحمد الله عز وجل وكبره وهلل له وقال فيه وإن انتقصت منه شيئاً انتقصت من صلاتك فالنبي ﷺ أمر ذلك المسيء في صلاته بأن يعيد الصلاة وأمر الله ورسوله إذا أطلق كان مقتضاه الوجوب وأمره إذا قام إلى الصلاة بالطمأنينة كما أمره بالركوع والسجود وأمره المطلق على الإيجاب وأيضاً قال له فإنك لم تصل فنفي أن يكون عمله الأول صلاة والعمل لا يكون منفيًا إلا إذا انتفى شيء من واجباته فأما إذا فعل كما أوجبه الله عز وجل فإنه لا يصح نفيه لانتفاء شيء من المستحبات التي ليست بواجبه ^(١).

(١) القواعد النورانية ج: ١ ص: ٣٤.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]

فإن إجتنب الذنوب يوجب الزكاة التي هي زوال الشر وحصول الخير والمفلحون هم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات كما وصفهم في أول سورة البقرة فقال ﴿آلَ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ - ٢] والآيات وقال ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] فإذا كان قد أخبر أن هؤلاء مفلحون وأخبر أن المفلحين هم المتقون ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] وأخبر أن من زكى نفسه فهو مفلح دل ذلك على أن الزكاة تنظم الأمور المذكورة في أول سورة البقرة^(١).

فإن التزكي هو التطهر والتبرك بترك السيئات الموجب زكاة النفس كما قال ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] ولهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء والزيادة وتارة بالنظافة والإمطة والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين إزالة الشر وزيادة الخير وهذا هو العمل الصالح وهو الإحسان وذلك لا ينفع إلا بالإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له الذي هو أصل الإيمان وهو قول ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٥] فهذه الثلاث قد يقال تشبه الثلاث التي يجمع الله بينها في القرآن في مواضع مثل قوله في أول البقرة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ] [البقرة: ٢ - ٣] ومثل قوله ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ١١]^(٢).

وهذه صدقة الأنبياء وورثتهم العلماء

تأول العلماء قوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] النفقة من المال والنفقة من العلم وقال معاذ في العلم تعلمه لمن لا يعلمه صدقه وقال أبو الدرداء ما تصدق رجل بصدقه

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٩٨ - ١٩٩.

أفضل من موعظة يعظ بها جماعة فيتفرقون وقد نفعهم الله بها أو كما قال وفي الأثر نعمة العطية ونعمت الهدية الكلمة من الخبر يسمعها الرجل ثم يهديها إلى أخ له أو كما قال وهذه صدقة الأنبياء وورثتهم العلماء ولهذا كان الله وملائكته وحيتان البحر وطير الهواء يصلون على معلم الناس الخير كما أن كاتم العلم يلعبه الله ويلعبه اللاعنون وبسط هذا كثير في فضل بيان العلم وذم ضده كاتم العلم يلعبه الله ويلعبه اللاعنون وبسط هذا كثير في فضل بيان العلم وذم ضده والغرض هنا أن الله يبغض المختال الفخور البخيل به فالبخيل به الذي منعه والمختال إما أن يختال فلا يطلبه ولا يقبله واما أن يختال على بعض الناس فلا يبذله وهذا كثيرا ما يقع عند بعض الناس أنه يبخل بما عنده من العلم ويختال به وأنه يختال عن أن يتعدى من غيره وضد ذلك التواضع في طلبه وبذله والتكريم بذلك وقد كتبنا في غير موضع الكلام على جمع الله تعالى بين الخيلاء والفخر وبين البخل كما في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴿النساء: ٣٦ - ٣٧﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٣٧﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴿الحديد: ٢٣ - ٢٤﴾ في النساء والحديد وضد ذلك الاعطاء والتقوى المتضمنة للتواضع كما قال ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [الليل: ٥] وقال ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وهذان الأصلان هما جماع الدين العام كما يقال التعظيم لأمر الله والرحمة لعباد الله بالهفالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع والتواضع وذلك اصل التقوى والرحمة لعباد الله بالاحسان إليهم وهذان هما حقيقة الصلاة والزكاة فان الصلاة متضمنة للخشوع لله والعبودية له والتواضع له والذل له وذلك كله مضاد للخيلاء والفخر والكبر والزكاة متضمنة لنفع الخلق والاحسان إليهم وذلك مضاد للبخل ولهذا وغيره كثر القرآن بين الصلاة والزكاة في كتاب الله وقد ذكرنا فيما تقدم أن الصلاة بالمعنى العام تتضمن كل ما كان ذكرا لله أو دعاء له كما قال عبد الله بن مسعود ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة ولو كنت في السوق وهذا المعنى وهو دعاء الله أي قصده والتوجه إليه المتضمن ذكره على وجه الخشوع والخضوع هو حقيقة الصلاة الموجودة في جميع موارد اسم الصلاة كصلاة القائم والقاعد والمضطجع والقارئ والأمي والناطق والأخرس وإن

تنوعت حركاتها وألفاظها فإن اطلاق لفظ الصلاة على مواردنا هو بالتواطئ المنافي للاشتراك والمجاز وهذا مبسوط في غير هذا الموضع إذ من الناس من ادعى فيها الاشتراك ومنهم من ادعى المجاز بناء على كونها منقولة من المعنى اللغوي أو مزيدة أو على غير ذلك وليس الأمر كذلك بل اسم الجنس العام المتواطئ المطلق إذا دل على نوع أو عين كقولك هذا الانسان وهذا الحيوان أو قولك هات الحيوان الذي عندك وهى غنم فهنا اللفظ قد دل على شيئين على المعنى المشترك الموجود في جميع الموارد وعلى ما يختص به هذا النوع أو العين فاللفظ المشترك الموجود في جميع التصاريف على القدر المشترك وما قرن باللفظ من لام التعريف مثلاً أو غيرها دل على الخصوص والتعيين كما أن المعنى الكلى المطلق لا وجود له في الخارج فكذلك لا يوجد في الاستعمال لفظ مطلق مجرد عن جميع الأمور المعينة فان الكلام انما يفيد بعد العقد والتركيب وذلك تقييد وتخصيص كقولك اكرم الانسان أو الانسان خير من الفرس ومثله قوله ﴿وَأَقْرَبُ الصَّلَاةِ﴾ [هود: ١١٤] ونحو ذلك ومن هنا غلط كثير من الناس في المعانى الكلية حيث ظنوا وجودها في الخارج مجردة عن القيود وفي اللفظ المتواطئ حيث ظنوا تجرده في الاستعمال عن القيود والتحقيق أنه لا يوجد المعنى الكلى المطلق في الخارج إلا معينا مقيدا ولا يوجد اللفظ الدال عليه في الاستعمال إلا مقيدا مخصصا وإذا قدر المعنى مجردا كان محله الذهن وحيثئذ يقدر له لفظ مجرد غير موجود في الاستعمال مجردا والمقصود هنا أن اسم الصلاة فيه عموم واطلاق ولكن لا يستعمل الا مقرونا بقيد إنما يختص ببعض مواردنا كصلواتنا وصلاة الملائكة والصلاة من الله سبحانه وتعالى وانما يغلط الناس في مثل هذا حيث يظنون أن صلاة هذا الصنف مثل صلاة هذا مع علمهم بان هذا ليس مثل هذا فإذا لم يكن مثله لم يجب أن تكون صلاته مثل صلاته وان كان بينهما قدر متشابه كما قد حققنا هذا في الرد على الاتحادية والجهمية والمتفلسفة ونحوهم ومن هذا الباب اسماء الله وصفاته التى يسمى ويوصف العباد بما يشبهها كالحى والعليم والقدير ونحو ذلك وكذلك اسم الزكاة هو بالمعنى العام كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال كل معروف صدقة ولهذا ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال على كل مسلم صدقة وأما الزكاة المالية المفروضة فانما تجب على بعض المسلمين فى بعض الأوقات والزكاة المقارنة للصلاة

تشاركها في أن كل مسلم عليه صدقة كما قال النبي ﷺ قالوا فان لم يجد قال يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق قالوا فان لم يستطع قال يعين صانعا أو يصنع لأخرق قالوا فان لم يستطع قال يكف نفسه على الشر واما قوله في الحديث الصحيح حديث ابي ذر وغيره على كل سلامى من احدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تهليل صدقة وامر بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة فهذا إن شاء الله كتضمن هذه الأعمال نفع الخلائق فانه يمثل هذا العامل يحصل الرزق والنصر والهدى فيكون ذلك من الصدقة على الخلق ثم إن هذه الأعمال هي من جنس الصلاة وجنس الصلاة الذي ينتفع به الغير يتضمن المعنيين الصلاة والصدقة ألا ترى أن الصلاة على الميت صلاة وصدقة وكذلك كل دعاء للغير واستغفار مع أن الدعاء للغير دعاء للنفس أيضا كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكا كلما دعا له بدعوة قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل^(١).

الرزق يراد به ما أباحه الله تعالى للعبد وملكه إياه ويراد به ما يتغذى به العبد

أن لفظ الرزق يراد به ما أباحه الله تعالى للعبد وملكه إياه ويراد به ما يتغذى به العبد فالأول كقوله ﴿أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] فهذا الرزق هو الحلال والمملوك لا يدخل فيه الخمر والحرام والثاني كقوله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] والله تعالى يرزق البهائم ولا توصف بأنها تملك ولا بأنه أباح الله ذلك لها إباحة شرعية فإنه لا تكليف على البهائم وكذلك الأطفال والمجانين لكن ليس بمملوك لها وليس بمحرم عليها وإنما المحرم بعض الذي يتغذى به العبد وهو من الرزق الذي علم الله أنه يغتذى به وقدر ذلك بخلاف ما أباحه وملكه كما في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الملك فيؤمر بأربع كلمات

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٢١٢-٢١٨.

فيقال أكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح قال فوالذي نفس بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينهما إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها والرزق الحرام مما قدره الله وكتبته الملائكة وهو مما دخل تحت مشيئة الله وخلقه وهو مع ذلك قد حرمه ونهي عنه فلفاعله من غضبه وذمه وعقوبته ما هو أهله والله أعلم^(١).

الرزق يراد به شيئاً نأخذهما ما ينتفع به العبد والثاني ما يملكه العبد فهذا الثاني هو المذكور في قوله ﴿وَمَا رَزَقَهُمْ يَفْقُونَ﴾ [البقرة: ٣] وقوله ﴿أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وهذا هو الحلال الذي ملكه الله إياه وأما الأول فهو المذكور في قوله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وقوله إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ونحو ذلك والعبد قد يأكل الحلال والحرام فهو رزق بهذا الاعتبار لا بالإعتبار الثاني وما اكتسبه ولم ينتفع به هو رزق بالإعتبار الثاني دون الأول فإن هذا في الحقيقة مال وارثه لا ماله والله أعلم^(٢).

ولما كان لفظ الجبر والرزق ونحوهما فيها إجمال منع الأئمة من إطلاق ذلك نفياً أو إثباتاً كما تقدم عن الأوزاعي وأبي إسحاق الفزاري وغيرهما من الأئمة^(٣).
إذا الرجل قطع الطريق وسرق أو أكل الحرام ونحو ذلك هل هو رزقه الذي ضمنه الله تعالى له أم لا أفوتونا مأجورين^(٤)؟

الحمد لله ليس هذا هو الرزق الذي أباحه الله له ولا يجب ذلك ولا يرضاه ولا أمره أن ينفق منه كقوله تعالى ﴿وَمَا رَزَقَهُمْ يَفْقُونَ﴾ [البقرة: ٣] وكقوله تعالى ﴿أَنْفَقُوا مِمَّا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٥٤٥-٥٤٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٥٤١.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٣٢.

(٤) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٥٤٢-٥٤٤.

رَزَقْنَكُمْ ﴿[البقرة: ٢٥٤] ونحو ذلك لم يدخل فيه الحرام بل من أنفق من الحرام فإن الله تعالى يذمه ويستحق بذلك العقاب في الدنيا والآخرة بحسب دينه وقد قال الله ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] وهذا أكل المال بالباطل ولكن هذا الرزق الذي سبق به علم الله وقدره كما في الحديث الصحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد فكذا كتب ما يرزقه من حلال وحرام مع أنه يعاقبه على الرزق الحرام ولهذا كل ما في الوجود واقع بمشيئة الله وقدره كما تقع سائر الأعمال لكن لا عذر لأحد بالقدر بل القدر يؤمن به وليس لأحد أن يحتج على الله بالقدر بل لله الحجة البالغة ومن احتج بالقدر على ركوب المعاصي فحجته داحضة ومن إعتذر به فعذره غير مقبول كالذين قالوا ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] والذين قالوا ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠] كما قال تعالى ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿[الزمر: ٥٦ - ٥٧] وأما الرزق الذي ضمنه الله لعباده فهو قد ضمن لمن يتقيه أن يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وأما من ليس من التقين فضمن له ما يناسبه بأن يمنحه ما يعيش به في الدنيا ثم يعاقبه في الآخرة كما قال عن الخليل ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦] والله إنما أباح الرزق لمن يستعين به على طاعته لم يبيحه لمن يستعين به على معصيته بل هؤلاء وإن أكلوا ما ضمنه لهم من الرزق فإنه يعاقبهم كما قال ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦] وقال تعالى ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ١] فإنما أباح الأنعام لمن يحرم عليه الصيد في الإحرام وقال

تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣] فكلما أن كل حيوان يأكل ما قدر له من الرزق فإنه يعاقب على أخذ ما لم يباح له سواء كان محرم الجنس أو كان مستعينا به على معصية الله ولهذا كانت أموال الكفار غير مغصوبة بل مباحة للمؤمنين وتسمى فيثا إذا عادت إلى المؤمنين لأن الأموال إنما يستحقها من يطيع الله لا من يعصيه بها فالمؤمنون يأخذونها بحكم الاستحقاق والكفار يعتدون في إنفاقها كما أنهم يعتدون في أعمالهم فإذا عادت إلى المؤمنين فقد فاءت إليهم كما يفي المال إلى مستحقته توضع هذه الآية السطر السابع ص مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٥٤٢ بدل من الآية الغير مخرجة بعد (وقد قال الله) وقبل (وهذا أكل المال بالباطل).

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]

إن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحي الله اليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وقال الله تعالى له ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَيْبٌ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبا: ٥٠] وتقرير الحجة في القرآن بالرسول كثير كقوله ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره طريق الهداية بالرسالة التي هي القرآن وما جاءت به الرسل كثيرا جدا وكذلك ذكره حصول الهداية والفلاح للمؤمنين دون غيرهم ملء القرآن كقوله ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[البقرة: ٢ - ٥] (١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٥.

ثم ذم الذين كفروا والذين نافقوا وقوله ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿[العصر] وقوله ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿[التين: ٥ - ٦] فحكم على النوع كله والأمة الإنسانية جميعها بالخسارة والسفول إلى الغاية إلا المؤمنين الصالحين وكذلك جعل أهل الجنة هم أهل الإيمان وأهل النار هم أهل الكفر فيما شاء الله من الآيات حتى صار ذلك معلوما علما شائعا متواترا اضطرابا من دين الرسول عند كل من بلغته رسالته.

أصل الإيمان الايمان بما أنزله

الإختلاف فى تنزيهه بين المؤمنين والكافرين فإن المؤمنين يؤمنون بما أنزل والكافرون كفروا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٧٠] فالمؤمنون بجنس الكتاب والرسول من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك والكافرون بجنس الكتاب والرسول من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك وذلك أن الله أرسل الرسل إلى الناس لتبلغهم كلام الله الذي أنزله إليهم فمن آمن بالرسول آمن بما بلغوه عن الله ومن كذب بالرسول كذب بذلك فالإيمان بكلام الله داخل فى الإيمان برسالة الله إلى عباده والكفر بذلك هو الكفر بهذا فتدبر هذا الأصل فإنه فرقان هذا الاشتباه ولهذا كان من يكفر بالرسول تارة يكفر بأن الله له كلام أنزله على بشر كما أنه قد يكفر برب العالمين مثل فرعون وقومه قال الله تعالى ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] الآية وقال ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١] إلى آخر الكلام فإن فى هذه الآيات تقرير قواعد وقال عن الوحيد ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥] ولهذا كان أصل الإيمان الايمان بما أنزله قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النَّبَّاتِ﴾ [البقرة: ١ - ٣] إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ

قَبْلَكَ ﴿[البقرة: ١ - ٥] وفي وسط السورة ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ
وَأَسْمِعِلْ وَأَسْحَقْ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية وفي آخرها ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ
رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]
الآيتين وفي السورة التي تليها ﴿الْعَمَّ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلِ هَذَا لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ١ - ٤]
وذكر في اثناء السورة الايمان بما أنزل وكذلك في آخرها ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي
لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] إلى قوله ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩] الآية ولهذا عظم تقرير هذا
الاصل في القرآن فتارة يفتح به السورة إما اخباراً كقوله ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢]
وقوله ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] وقوله ﴿الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ
لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] الآية وكذلك ال طسم والحَم فَعَامَة ال الموال الر وال طسم
والحم كذلك وإما ثناء بانزاله كقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾
[الكهف: ١] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] (١).

عامة الأسماء يتنوع مسمهاها بالاطلاق والتقييد

عامة الأسماء يتنوع مسمهاها بالاطلاق والتقييد وكذلك اذا أفرد اسم طاعة الله
دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته وكذا اسم التقوى
اذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محذور قال طلق بن حبيب التقوى ان
تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله
تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٧-٩.

مُقَدِّرٍ ﴿ [القمر: ٥٤ - ٥٥] وقد يقرن بها اسم آخر كقوله ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٣﴾ [الطلاق: ٢ - ٣] وقوله ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ [النساء: ٩] وقوله ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ [التوبة: ١١٩] وأمثال ذلك فقوله ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧﴾ [النساء: ٩] مثل قوله ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ ﴿٧﴾ [الحديد: ٧] وقوله ﴿ءَامِنَ الرُّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامِنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥] فعطف قولهم على الايمان كما عطف القول السديد على التقوى ومعلوم أن التقوى اذا أطلقت دخل فيها القول السديد وكذلك الايمان اذا أطلق دخل فيه السمع والطاعة لله وللرسول وكذلك قوله ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿٧﴾ [الحديد: ٧] واذا أطلق الايمان بالله في حق أمة محمد دخل فيه الايمان بالرسول وكذلك قوله ﴿كُلٌّ ءَامِنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴿٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥] واذا أطلق الايمان بالله دخل فيه الايمان بهذه التوابع وكذلك قوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴿٤﴾ [البقرة: ٤] وقوله ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ قَبْلِهِ﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية واذا قيل ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨] دخل في الايمان برسوله الايمان بجميع الكتب والرسل والنبين وكذلك اذا قيل ﴿وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَهْلِينَ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿٢٨﴾ [الحديد: ٢٨] وإذا قيل ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ ﴿٧﴾ [الحديد: ٧] دخل في الايمان بالله ورسوله الايمان بذلك كله والانفاق يدخل في قوله في الآية الأخرى ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨] كما يدخل القول السديد في مثل قوله ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴿١٣١﴾ [النساء: ١٣١] .^(١)

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٤.

وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] هو صفة للمذكورين ليس هؤلاء صنفا آخر فإن عطف الشيء على الشيء قد يكون لتغاير الصفات وإن كانت الذات واحدة هذا هو الصحيح هنا وإن كان قد قيل إن الصنف الثاني مؤمنوا أهل الكتاب والأول هم المسلمون فهذا ضعيف وأفسد منه قول هؤلاء النصارى إن الكتاب المراد به الإنجيل كما سيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى والعطف لتغاير الصفات كقوله تعالى ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ١ - ٥] وهو سبحانه الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى هم الذين يؤمنون بالغيب ويطيعون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وهم الذين على هدى من ربهم وهم المفلحون ولكن فصل إيمانهم بعد أن أجمله لثلاث يظن ظان أن مجرد دعوى الإيمان بالغيب ينفع وإن لم يؤمن بما أنزل إلى محمد ﷺ وما أنزل إلى من قبله فلو قال أحد من الناس أنا أو من بالغيب وهو مع ذلك لا يؤمن ببعض ما أنزل على محمد ﷺ أو ببعض ما أنزل على من قبله لم يكن مؤمنا حتى يؤمن بجميع ما أنزل إليه وما أنزل إلى من قبله ولو كانوا صنفا آخر لكان المفلحون قسمين قسما يؤمنون بالغيب ولا يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل إلى من قبله وقسما يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل إلى من قبله ولا يؤمنون بالغيب وهذا باطل عند جميع الأمم المؤمنين واليهود والنصارى فإن الإيمان بما أنزل إليه وإلى من قبله يتضمن الإيمان بالغيب والإيمان بالغيب لا يتم إلا بالإيمان بجميع ما أنزله الله تبارك وتعالى والمسلمون لا يستجيز أحد منهم التكذيب بشيء مما أنزل على من قبل محمد ﷺ^(١).

والصحيح في قوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤] أنه والذي قبله صفة لموصوف واحد فإنه لا بد من الإيمان بما أنزل إليه وما أنزل من قبله والعطف لتغاير الصفات كقوله ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۝٣﴾ [الحديد: ٣] وقوله ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى: ٢ - ٤] وقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [الزمن: ١] هم

(١) الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٣٤-١٣٧ والجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢٨٢.

فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ [المؤمنون: ١ - ٣] إِلَى قَوْلِهِ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١] وَمَنْ قَالَ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] أَرَادَ بِهِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَقَوْلُهُ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] أَنْ الْمُرَادَ بِهِ أَهْلَ الْكِتَابِ فَقَدْ غُلِطَ فَإِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ لَمْ يُؤْمِنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِهِ فَلَمْ يَكُونُوا مَفْلَحِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْغَيْبِ وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ لَمْ يَكُونُوا مَفْلَحِينَ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ صِنْفٌ وَاحِدٌ ^(١).

وَقَدْ قِيلَ إِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى مَنْ قَبْلِهِ كَابَنَ سَلَامٍ وَنَحْوِهِ وَأَنْ هَؤُلَاءِ نَوْعٌ غَيْرُ النَّوَاعِ الْمُتَقَدِّمِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَقَدْ قِيلَ هَؤُلَاءِ جَمِيعُ الْمُتَقَدِّمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِهِ وَهَؤُلَاءِ هُمْ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَهُمْ صِنْفٌ وَاحِدٌ وَإِنَّمَا عَطَفُوا لِتَغَايِيرِ الصِّفَتَيْنِ كَقَوْلِهِ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ [الأعلى: ١ - ٤] فَهُوَ سَبْحَانَهُ وَاحِدٌ وَعَطَفَ بَعْضُ صِفَاتِهِ عَلَى بَعْضٍ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وَهِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ وَالصِّفَاتُ إِذَا كَانَتْ مَعَارِفَ كَانَتْ لِلتَّوْضِيحِ وَتَضَمَّنَتْ الْمَدْحَ أَوَالِذِمَ تَقُولُ هَذَا الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي فَعَلَ كَذَا وَهُوَ الَّذِي فَعَلَ كَذَا وَهُوَ الَّذِي فَعَلَ كَذَا تَعَدَّدَ مُحَاسِنُهُ وَلِهَذَا مَعَ الْإِتْبَاعِ قَدْ يَعْطَفُونَهَا وَيَنْصِبُونَ أَوْ يَرْفَعُونَ وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّوَابُ فَإِنْ الْمُؤْمِنِينَ بِالْغَيْبِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِهِ لَمْ يَكُونُوا عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا مَفْلَحِينَ وَلَا مُتَّقِينَ وَكَذَلِكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِهِ إِنْ لَمْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ يَنْفَقُونَ لَمْ يَكُونُوا عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَلَمْ يَكُونُوا مَفْلَحِينَ وَلَمْ يَكُونُوا مُتَّقِينَ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْجَمِيعَ صِفَةُ الْمُتَّقِينَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ إِهْتَدَوْا بِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقَدْ عَطَفَتْ هَذِهِ الصِّفَةُ عَلَى تِلْكَ مَعَ أَنَّهَا دَاخِلَةٌ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٢٧٦.

فيها لكن المقصود صفة ايمانهم وأنهم يؤمنون بجميع ما أنزل الله على أنبيائه لا يفرقون بين أحد منهم وإلا فإذا لم يذكر إلا الإيمان بالغيب فقد يقول من يؤمن ببعض ويكفر ببعض نحن نؤمن بالغيب^(١).

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] فاليقين طمأنينة القلب واستقرار العلم فيه

وأما اليقين فهو طمأنينة القلب واستقرار العلم فيه وهو معنى ما يقولون ماء يقن إذا استقر عن الحركة وضد اليقين الريب وهو نوع من الحركة والإضطراب يقال رابني يربيني ومنه في الحديث أن النبي مر بظبي حاقف فقال لا يريه أحد ثم اليقين ينتظم منه أمران علم القلب وعمل القلب فإن العبد قد يعلم علما جازما بأمر ومع هذا فيكون في قلبه حركة واختلاج من العمل الذي يقتضيه ذلك العلم كعلم العبد أن الله رب كل شيء ومليكه ولا خالق غيره وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله والتوكل عليه وقد لا يصحبه العمل بذلك إما لغفلة القلب عن هذا العلم والغفلة هي ضد العلم التام وإن لم يكن ضدا لأصل العلم وأما للخواطر التي تسنح في القلب من الالتفات إلى الأسباب وإما لغير ذلكوفي الحديث المشهور الذي رواه أبوبكر عن النبي أنه قال سلوا الله اليقين والعافية فما أعطى أحد بعد اليقين شيئا خيرا من العافية فسلوهما الله فأهل اليقين إذا ابتلوا ثبتوا بخلاف غيرهم فإن الإبتلاء قد يذهب إيمانه أو ينقصه قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فهذه حال هؤلاء وأما كيف يحصل اليقين فبثلاثة أشياء أحدها تدبر القرآن والثاني تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق التي تبين أنه حق والثالث العمل بموجب العلم^(٢).

فأما اليقين الذي هو صفة العبد فذاك قد فعله من حين عبد ربه ولا تصح العبادة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٩٩ - ٢٠٤.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٣٠ - ٣٣١.

إلا به وإن كان له درجات متفاوتة قال تعالى ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عَذَابَ اللَّهِ الْكَبِيرِ﴾ [البقرة: ١ - ٢] إلى قوله ﴿وَالْآخِرَةُ هُمْ يَرْجُونَ﴾ [البقرة: ٤] وقال ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] وقال عن الكفار ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] ^(١).

النفس لها هوى غالب قاهر لا يصرفه مجرد الظن وإنما يصرفه العلم بأن العذاب واقع

النفس لها هوى غالب قاهر لا يصرفه مجرد الظن وإنما يصرفه العلم بأن العذاب واقع لا محالة وأما من كان يظن أن العذاب يقع ولا يوقن بذلك فلا يترك هواه ولهذا قال ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] وقال تعالى في ذم الكفار ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] ووصف المتقين بأنهم بالآخرة يوقنون ولهذا أقسم الرب على وقوع العذاب والساعة وأمر نبيه أن يقسم على وقوع الساعة وعلى أن القرآن حق فقال ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِوَعْدِهِمْ وَلَنْ يَرَوْا يَوْمَ الْعَذَابِ﴾ [التغابن: ٧] وقال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمْ﴾ [سبا: ٣] وقال ﴿وَيَسْتَعْثِنُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣] ^(٢).

أن هؤلاء (النظار الذين يوجبون العلم والنظر وللاستدلال وينهون عن التقليد) جعلوا هذا أصل دينهم وإيمانهم وجعلوا النظر في هذا الدليل هو النظر الواجب على كل مكلف وأنه من لم ينظر في هذا الدليل فاما أنه لا يصح إيمانه فيكون كافرا على قول طائفة منهم وإما أن يكون عاصيا على قول آخرين وأما إن يكون مقلدا لا علم له بدينه لكنه ينفعه هذا التقليد ويصير به مؤمنا غير عاص والأقوال الثلاثة باطلة لأنها مفرعة

(١) الاستقامة ج: ١ ص: ٤١٨-٤١٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٨٢-١٨٣.

على أصل باطل وهو أن النظر الذي هو أصل الدين والايان هو هذا النظر في هذا الدليل فان علماء المسلمين يعلمون بالاضطرار أن الرسول لم يدع الخلق بهذا النظر ولا بهذا الدليل لا عامة الخلق ولا خاصتهم فامتنع أن يكون هذا شرطا في الايمان والعلم وقد شهد القرآن والرسول لمن شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم وأنهم عالمون بصدق الرسول وبما جاء به وعالمون بالله وبأنه لا إله إلا الله ولم يكن الموجب لعلمهم هذا الدليل المعين وقد وصف باليقين والهدى والبصيرة في غير موضع كقوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] وقوله ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] ^(١).

صفات الأتقياء والسعداء

وإنما دين الله ما بعث به رسله وأنزل به كتبه وهو الصراط المستقيم وهو طريقة أصحاب رسول الله خير القرون وأفضل الأمة وأكرم الخلق على الله تعالى بعد النبيين قال تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْكُمْ مَنْ أَلْفَوْا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فرضى عن السابقين الأولين رضا مطلقا ورضى عن التابعين لهم بإحسان وقد قال النبي في الأحاديث الصحيحة خير القرون القرن الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول من كان منكم مستناف ليستن بمن قد مات فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب رسول الله أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما يا معشر القراء استقيموا وخذوا طريق من كان قبلكم فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقا بعيدا ولئن أخذتم يميننا وشمالا لقد ضللتكم ضلالا بعيدا وقد قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه خط لنا رسول الله خطأ وخط حوله خطوطا عن يمينه وشماله ثم قال هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل

(١) النبوات ج: ١ ص: ٤٣.

منها شيطان يدعوا اليه ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقد أمرنا سبحانه أن نقول في صلاتنا ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿[الفاتحة: ٦ - ٧] وقال النبي اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه والنصارى عبدوا الله بغير علم ولهذا كان يقال تعوذوا بالله من فتنه العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون وقال تعالى ﴿فَأَمَّا يَا نَبَسَ كُمْ مَنَى هُدَى فَمَنَ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿[طه: ١٢٣ - ١٢٤] قال ابن عباس رضى الله عنهما تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة وقرأ هذه الآية وكذلك قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ هُدَى الْيُسُفَى﴾ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[البقرة: ١ - ٥] فأخبر أن هؤلاء مهتدون مفلحون وذلك خلاف المغضوب عليهم والضالين فנסأل الله العظيم أن يهدينا وسائر اخواننا صراطه المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا (١).

قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة

أصل جامع في الاعتصام بكتاب الله ووجوب اتباعه وبيان الاهتداء به في كل ما يحتاج إليه الناس من دينهم وأن النجاة والسعادة في اتباعه والشقاء في مخالفته وما دل عليه من اتباع السنة والجماعة قال الله تعالى ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٢٦ - ١٢٧.

فَأَمَّا يَا نَبِيَّكُمْ مَنِ هَدَىٰ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْدُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيْكَ ﴿طه: ١٢٣ - ١٢٦﴾ قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية وقال تعالى ﴿آلِهَ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿البقرة: ١ - ٢﴾ وقال ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣٨﴾ وقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْعَظَمَةِ ثُمَّ لَا يُفْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِنَايَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿الأعراف: ٢٠١ - ٢٠٣﴾ وقال تعالى ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿الإسراء: ٨٢﴾^(١).

إن الناس عليهم أن يؤمنوا بالله ورسوله فيصدقوه فيما أخبر ويطيعوه فيما أمر فهذا أصل السعادة وجماعها والقرآن كله يقرر هذا الأصل قال تعالى ﴿آلِهَ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿البقرة: ١ - ٥﴾ فقد وصف سبحانه بالهدى والفلاح المؤمنين الموصوفين في هذه الآيات^(٢).

والقرآن بين أن السعداء هم الذين اتبعوا الرسل ولا يكون الكامل إلا سعيدا وأن الأشقياء هم المخالفون للرسل فإنما يعذب الله في الآخرة من يخالف الرسل وبين أن من اتبع الهدى الذي جاء من عنده وهو ما جاءت به الرسل فإنه لا يضل ولا يشقى بل يكون من المهتدين المفلحين كما قال تعالى في نعتهم ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٨٠.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ١٥٥.

بِالْغَيْبِ وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْنُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا لْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾ [البقرة: ٢ - ٥] ^(١).

قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله ومن الذى قال ان التقوى مجرد ترك السيئات بل التقوى كما فسرهما الأولون والآخرين فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وقد قال تعالى فى اكبر سورة فى القرآن ﴿الذِّكْرُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْنُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٣] إلى اخرها فوصف المتقين بفعل المأمور به من الإيمان والعمل الصالح من اقام الصلاة وايتاء الزكاة وقال ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وقال ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ^(٢). فجعلهم مهتدين مفلحين ^(٣).

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]

أن الأعمال التي يعملها جميع بني آدم إما أن يتخذونها ديناً أولاً يتخذونها ديناً والذين يتخذونها ديناً إما أن يكون الدين بها دين حق أودين باطل فنقول النعيم التام

(١) الصفدية ج: ٢ ص: ٢٤٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٣٢.

(٣) منهاج السنة النبوية ج: ١ ص: ١٠٩.

هو في الدين الحق أهل الدين الحق هم الذين لهم النعيم الكامل كما أخبر الله بذلك في كتابه في غير موضع كقوله ﴿الْصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ٦ - ٧] وقوله عن المتقين المهتدين ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] وقوله تعالى ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى﴾ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدِ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦] وقوله تعالى ﴿فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] وقوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الأنفطار: ١٣ - ١٤] ووعد أهل الإيمان والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة ووعد الكفار بالعذاب التام في الدار الآخرة أعظم من أن يذكر هنا وهذا مما لم ينازع فيه أحد من أهل الإسلام^(١).

وقوله ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى يَتِيمَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ ﴿١٧﴾ [هود: ١٧] كما تقدم هو كقوله ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ ﴿٥٧﴾ [الأنعام: ٥٧] وقوله ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى يَتِيمَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤] وقوله ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ ﴿٢٢﴾ [النزمر: ٢٢] وقوله ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] فإن هذا النوع يبين أن المؤمن على أمر من الله فاجتمع في هذا اللفظ حرف الاستعلاء وحرف من لإبتداء الغاية وما يستعمل فيه حرف ابتداء الغاية فيقال هو من الله على نوعين فإنه أما أن يكون من الصفات التي لا تقوم بنفسها ولا بمخلوق فهذا يكون صفة له وما كان عينا قائمة بنفسها أو بمخلوق فهي مخلوقة فالأول كقوله ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣] وقوله ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١١٤] كما قال السلف القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدا وإليه يعود والنوع الثاني كقوله ﴿وَسَخَّرْنَا لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [البقرة: ١٣] وقوله ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] و﴿مَا أَصَابَكُم مِّن حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩]

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٣٧-١٣٨.

وكما يقال إلهام الخير وإجماؤه من الله وإلهام الشر وإجماؤه من الشيطان والوسوسة من الشيطان فهذا نوعان تارة باعتبار السبب وتارة باعتبار العاقبة والغاية فالחסنات هي النعم والسيئات هي المصائب كلها من عند الله لكن تلك الحسنات أنعم الله بها على العبد فهي منه إحسانا وتفضلا وهذه عقوبة ذنب من نفس العبد فهي من نفسه بإعتبار أن عمله السيء كان سببها وهي عقوبة له لأن النفس أرادت تلك الذنوب ووسوست بها وتارة يقال بإعتبار حسنات العمل وسيئاته وما يلقي في القلب من التصورات والإرادات فيقال للحق هومن الله ألهمه العبد ويقال للباطل أنه من الشيطان وسوس به ومن النفس أيضا لأنها أرادته كما قال عمر وابن عمر وابن مسعود فيما قالوه بجتهادهم إن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمننا ومن الشيطان والله ورسوله بريثان منه وهذا لفظ ابن مسعود في حديث بروع بنت واشق قال إن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان لأنه حكم بحكم فإن كان موفقا لحكم الله فهو من الله لأنه موافق لعلمه وحكمه فهو منه بإعتبار أنه سبحانه ألهمه عبده لم يحصل بتوسيط الشيطان والنفس وإن كان خطأ فالشيطان وسوس به والنفس أرادته ووسوست به وأن كان ذلك مخلوقا فيه والله خلقه فيه لكن الله لم يحكم به وأن لم يكن ما وقع لي من إلهام الملك كما قال ابن مسعود أن للملك بقلب ابن آدم لمة وللشيطان لمة فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق فالتصديق من باب الخير والإيعاد بالخير والشر من باب الطلب والإرادة قال تعالى ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ^(١).

والحق المبين أن كمال الانسان ان يعبد الله علما وعملا كما امره ربه وهؤلاء هم عباد الله وهم المؤمنون والمسلمون وهم أولياء الله المتقون وحزب الله المفلحون وجند الله الغالبون وهم اهل العلم النافع والعمل الصالح وهم الذين زكوا نفوسهم وكملوها كملوا القوة النظرية العلمية والقوة الارادية العملية كما قال تعالى ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] ^(٢).

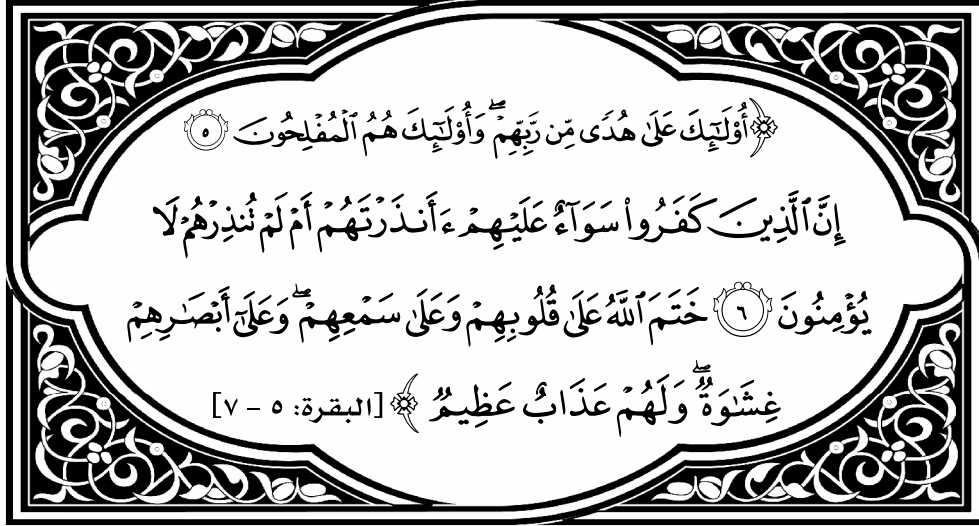
(١) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٩٦-٩٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٩٧.

قال أبو الدرداء لا تهلك أمة حتى يتبعوا أهواءهم ويتركوا ما جاءتهم به
أنبيأؤهم من البينات

قال أبو الدرداء لا تهلك أمة حتى يتبعوا أهواءهم ويتركوا ما جاءتهم به أنبيأؤهم
من البينات والهدى وقال تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾
[يوسف: ١٠٨] فمن اتبعه يدعو إلى الله على بصيرة والبصيرة هي بينة وقال ﴿وَمَنْ كَانَ مِثًّا
فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] الآية فالنور الذي يمشي به في
الناس هو البينة والبصيرة وقال ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] الآية قال أبي
بن كعب وغيره هو مثل نور المؤمن وهو نوره الذي في قلبه عبده المؤمن الناشي عن
العلم النافع والعمل الصالح وذلك بينة من ربه وقال ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ
عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] فهذا النور الذي هو عليه وشرح الصدر للإسلام هو البينة من
ربه وهو الهدى المذكور في قوله ﴿أَوَلَيْكَ عَلَى هَذِهِ مِن دَلِيلٍ﴾ [البقرة: ٥] واستعمل في هذا
حرف الاستعلاء لأن القلب لا يستقر ولا يثبت إلا إذا كان عالماً موقناً بالحق فيكون
العلم والإيمان صبغة له ينصبغ بها كما قال ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾
[البقرة: ١٣٨]^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٦٨.



صاحب العلم القلب وحجته سائر الأعضاء

إن الله سبحانه وتعالى خلق القلب للإنسان يعلم به الأشياء كما خلق العين يرى بها الأشياء والأذن يسمع بها الأشياء وكما خلق سبحانه كل عضو من أعضائه لأمر من الأمور وعمل من الأعمال فاليد للبطش والرجل للسعي واللسان للنطق والفم للذوق والأنف للشم والجلد للمس وكذلك سائر الأعضاء الباطنة الظاهرة فإذا استعمل العضو فيما خلق له وأعد من أجله فذلك هو الحق القائم والعدل الذي قامت به السماوات والأرض وكان ذلك خيرا وصالحا لذلك العضو ولربه وللشيء الذي استعمل فيه وذلك الإنسان هو الصالح الذي استقام حاله وأولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون وإذا لم يستعمل العضو في حقه بل ترك بطالا فذلك خسران وصاحبه مغبون وإن استعمل في خلاف ما خلق له فهو الضلال والهلاك وصاحبه من الذين بدلوا نعمة الله كفرا ثم إن سيد الأعضاء ورأسها هو القلب كما سمي قلبا قال النبي ﷺ إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب وقال ﷺ الإسلام علانية والإيمان في القلب ثم أشار بيده إلى صدره وقال ألا إن التقوى هاهنا ألا إن التقوى هاهنا وإذا قد خلق ليعلم به فتوجه نحو الأشياء ابتغاء العلم بها هو الفكر والنظر كما أن إقبال الإذن على الكلام ابتغاء سمعه هو الإصغاء والاستماع وانصراف الطرف إلى الأشياء طلبا لرؤيتها هو النظر فالفكر للقلب كالإصغاء للأذن إذا سمعت ما

أصغت إليه ومثله نظر العينين في شيء وإذا علم ما نظر فيه فذاك مطلوبة كما أن الأذن إذا سمعت ما أصغت إليه أو العين إذا أبصرت ما نظرت إليه وكم من ناظر مفكر لم يجب العلم ولم ينله كما أنه كم من ناظر إلى الهلال لا يبصره ومستمع إلى صوت لا يسمعه وعكسه من يؤتى علما بشيء لم ينظر فيه ولم تسبق منه سابقة فكر كمن فاجأته رؤية الهلال من غير قصد إليه أو سمع قولاً من غير أن يصغي إليه وذلك كله لأن القلب بنفسه يقبل العلم وإنما الأمر موقوف على شرائط واستعداد قد يكون فعلاً من الإنسان فيكون مطلوباً وقد يأتي فضلاً من الله فيكون موهوباً فصلاح القلب وحقه والذي خلق من أجله هو أن يعقل الأشياء لا أقول أن يعلمها فقد يعلم الشيء من لا يكون عاقلاً لهبلاً غافلاً عنه ملغياً له والذي يعقل الشيء هو الذي يقيد ويضبطه ويعيه ويثبت في قلبه فيكون وقت الحاجة إليه غنياً فيطابق عمله قوله وباطنه ظاهره وذلك هو الذي أوتي الحكمة ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقال أبو الدرداء إن من الناس يؤتى من علماً ولا يؤتى حكماً وإن شداد بن أوس ممن أوتي علماً وحكماً هذا مع أن الناس متباينون في نفس أن يعقلوا الأشياء من بين كامل وناقص وفيما يعقلونه من بين قليل وكثير وجليل ودقيق وغير ذلك هذه الأعضاء الثلاثة هي أمهات ما ينال به العلم يدرك أعني العلم الذي يمتاز به البشر عن سائر الحيوانات دون ما يشاركه فيه من الشم الذوق واللمس وهنا يدرك به ما يجب ويكره وما يميز به من يحسن إليها ويسيء إلى غير ذلك قال الله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] وقال ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩] وقال ﴿فَقَفَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦] وقال ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَاةً﴾ [البقرة: ٧] وقال فيما لكل عضو من هذه الأعضاء من العمل والقوة ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا

وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩] ثم إن العين تقصر عن القلب والأذن وتنفارقهما في شيء وهو أنها إنما ترى بها الأشياء الحاضرة والأمور الجسمانية مثل الصور والأشخاص فأما القلب والأذن فيعلم بهما ما غاب عن الإنسان وما لا مجال للبصر فيه من الأشياء بنفسه إذا كان العلم بها هو غذاؤه وخاصيته أما الأذن فإنها تحمل الكلام المشتغل على العلم إلى القلب فهي بنفسها إنما تنال القول والكلام فإذا وصل ذلك إلى القلب أخذ منه ما فيه من العلم فصاحب العلم في حقيقة الأمر هو القلب وإنما سائر الأعضاء حجته توصل إليه من الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه حتى إن من فقد شيئاً من هذه الأعضاء فإنه يفقد بفقدته من العلم ما كان هو الواسطة فيه فالأصم لا يعلم ما في الكلام من العلم والضرير لا يدري ما تحتوي عليه الأشخاص من الحكمة البالغة وكذلك من نظر إلى الأشياء بغير قلب أو استمع إلى كلمات أهل العلم بغير قلب فإنه لا يعقل شيئاً فمدار الأمر على القلب وعند هذا تستبين الحكمة في قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] حتى لم يذكر هنا العين كما في الآيات السوابق فإن سياق الكلام هنا في أمور غائبة وحكمة معقولة من عواقب الأمور لا مجال لنظر العين فيها ومثله قوله ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٤] وتبين حقيقة الأمر في قوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] فإن من يؤتى الحكمة ويتنفع بالعلم على منزلتين إما رجل رأى الحق بنفسه فقبله واتبعه ولم يحتج إلى من يدعوه إليه فذلك صاحب القلب أو رجل لم يعقله بنفسه بل هو محتاج إلى من يعلمه وتبين له ويعظه ويؤدبه فهذا أصغى فألقى السمع وهو شهيد أي حاضر القلب ليس بغائبه كما قال مجاهد أوتى العلم وكان له ذكرى وتبين قوله ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [٤٢] وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢ - ٤٣] وقوله ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ [الأنعام: ٢٥] ثم إذا كان حق القلب أن يعلم الحق فإن الله هو الحق المبين ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] إذا كان كل ما يقع عليه لمحّة ناظر ويحول في لفتة خاطر فالله ربه ومنشئه وفاطره ومبدئه لا يحيط علما إلا بما هو من آياته البينة في أرضه وسمائه وأصدق كلمة قالها ليبدأ كل شيء ما خلا الله باطل ما من شيء من الأشياء إذا نظرت إليه من جهة نفسه وجدته إلى العدم ما هو فقير إلى الحي القيوم فإذا نظرت إليه وقد تولته يد العناية بتقدير من أعطى كل شيء خلقه هم هدى رأيته حيثنذ موجودا مكسوا حلل الفضل والإحسان فقد استبان القلب إنما خلق لذكر الله سبحانه ولذلك قال بعض الحكماء المتقدمين من أهل الشام أظنه سليمان الخواص رحمه الله الذكر للقلب بمنزلة الغذاء للجسد فكما لا يجد الجسد لذة الطعام مع السقم فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذكر مع حب الدنيا أو كما قال فإذا كان القلب مشغولا بالله عاقلا للحق مفكرا في العلم فقد وضع موضعه كما أن العين إذا صرفت إلى النظر في الأشياء فقد وضعت في موضعها أما إذا لم يصرف إلى العلم ولم يرع فيه الحق فنسي ربه فلم يوضع في موضع بل هو ضائع ولا يحتاج أن يقال وضع في غير موضعه بل لم يوضع أصلا فإن موضعه هو الحق وما سوى الحق باطل فإذا لم يوضع في الحق لم يبق إلا الباطل والباطل ليس بشيء أصلا وما ليس بشيء أخرى إلا أن يكون موضعا والقلب هو بنفسه لا يقبل إلا الحق فإذا لم يوضع فيه فإنه لا يقبل غير ما خلق له ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣] وهو مع ذلك ليس بمترك مخلي فإن من لا يزال من أودية الأفكار وأقطار الأمانى لا يكون على الحال التي تكون عليها العين والأذن من الفراغ والتخلي فقد وضع في غير موضع لا مطلق ولا معلق موضوع لا موضع له وهذا من العجب فسبحان العزيز الحكيم وإنما تنكشف له هذه الحال عند رجوعه إلى الحق إما في الدنيا عند الإنابة أو عند المنقلب إلى الآخرة فيرى سوء الحال التي كان عليها وكيف كان قلبه ضالا عن الحق هذا إذا صرف إلى الباطل فأما لو ترك وحالته التي فطر عليها فارغا عن كل ذكر وخاليا من كل فكر لقد كان يقبل العلم الذي لا جهل فيه ويرى الحق الذي لا ريب فيه فيؤمن بربه وينيب إليه فإن كل مولود

يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء لا تحس فيها من جدعاء ﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠] وإنما يحول بينه وبين الحق في غالب الحال شغله بغيره من فتن الدنيا ومطالب الجسد وشهوات النفس فهو في هذه الحال كالعين الناضرة إلى وجه الأرض لا يمكنها أن ترى مع ذلك الهلال أو هو يميل إليه فيصده عن اتباع الحق فيكون كالعين التي فيها قذى لا يمكنها رؤية الأشياء ثم الهوى قد يعرض له قبل معرفة الحق فيصده عن النظر فيه فلا يتبين له الحق كما قيل حبك الشيء يعمي ويصم فيبقى في ظلمة الأفكار وكثيرا ما يكون ذلك كبيرا يمنعه عن أن يطلب الحق ﴿ فَأَلْذِنَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٢] وقد يعرض الهوى بعد أن عرف الحق فيجحدّه ويعرض عنه كما قال سبحانه فيهم ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيِّئًا لِّلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦] ثم القلب للعمل كالإناء للماء والوعاء للغسل والوادي للسيل كما قال تعالى ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧] الآية وقال للنبي ﷺ إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت فيها أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا وأصاب منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما أرسلت به ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به وفي حديث كميل بن زياد عن علي رضي الله عنه قال القلوب أوعية فخيرها أوعاها وبلغنا عن بعض السلف قال القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إلى الله تعالى أرقها وأصفها وهذا مثل حسن فإن القلب إذا كان رقيقا لنا كان قبوله للعلم سهلا يسيرا ورسخ فيه وأثر وإن يكن قاسيا غليظا يكن قبوله للعلم صعبا عسيرا ولا بد من ذلك أن يكون زكيا صافيا سليما حتى يزكو فيه العلم ويثمر ثمرا طيبا وإلا فلو قبل العلم وكان فيه كدر وخبث أفسد ذلك العلم وكان كالدغل في المزدرع إن لم يمنع الحب

من أن ينبت منعه من أن يزكو ويطيب وهذا بين لأولي الأبصار وتلخيص هذه الجملة أنه إذا استعمل في الحق فله وجهها نوجه مقبل على الحق ومن هذا الوجه يقال له وعاء وإناء لأن ذلك يستوجب ما يوعى فيه ويوضع فيه وهذه الصبغة وجود ثبوت ووجه معرض عن الباطل ومن هذا الوجه يقال له زكي وسليم وطاهر لأن هذه الأسماء تدل على عدم الشر والخبث والدغل وهذه الصبغة عدم ونفي وبهذا يتبين أنه إذا صرف إلى الباطل فله وجهان وجه الوجود أنه منصرف إلى الباطل مشغول به ووجه العدم أنه معرض عن الحق غير قابل له وهذا يبين من البيان والحسن والصدق ما في قوله إذا ما وضعت القلب في غير موضع وضع بغير إناء فهو قلب مضيع فإنه لما أراد أن يبين حال من ضيع قلبه فظلم نفسه بأن اشتغل بالباطل وملأ به قلبه حتى لم يبق فيه متسع للحق ولا سبيل له إلى الولوج فيه ذكر ذلك منه فوصف حال هذا القلب بوجهيه ونعته بمذهبيه فذكر أولاً وصف الوجود منه فقال إذا ما وضعت القلب في غير موضع يقول إذا شغلته بما لم يخلق له فصرفته إلى الباطل حتى صار موضوعاً فيه ثم الباطل على منزلتين إحداهما تشغل عن الحق ولا تعانده مثل الأفكار والهموم التي من علائق الدنيا وشهوات النفس والثانية تعاند الحق وتصده عنه مثل الآراء الباطلة والأهواء المردية من الكفر والنفاق والبدع وشبه ذلك بل القلب لم يخلق إلا لذكر الله فما سوى ذلك فليس موضعاً له ثم ذكر ثانياً ووصف العدم منه فقال بغير إناء يقول إذا وضعته بغير إناء فوضعته ولا إناء معك كما تقول حضرت المجلس بلا محبرة فالكلمة حال من الواضع لا من الموضوع والله أعلم وبيان هذه الجملة والله أعلم أنه يقول إذا ما وضعت قلبك في غير موضع فاشتغل بالباطل ولم يكن معك إناء يوضع فيه الحق ويتنزل إليه الذكر والعلم الذي هو حق القلب فقلبك إذا مضيع ضيعته من وجهي التضضيع وإن كانا متحدين من جهة أنك وضعته في غير موضوع ومن جهة أنه لا إناء معك يكون وعاء لحقه الذي يجب أن يعطاه كما لو قيل لملك قد أقبل على الله ذا اشتغلت بغير المماسكة وليس في الملك من يدبره فهو ملك ضائع لكن هنا الإناء هو القلب بعينه وإنما كان ذلك لأن القلب لا ينوب عنه غيره فيما يجب أن يصنعه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] وإنما خرج الكلام في صورة اثنين

بذكر نعتين لشيء واحد كما جاء نحوه في قوله تعالى ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ (٢) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿٣﴾ [آل عمران: ٣ - ٤] قال قتادة والربيع هو القرآن فرق فيه بين الحلال والحرام والحق والباطل وهذا لأن الشيء الواحد إذا كان له وصفان كبيران فهو مع وصف كالشيء الواحد وهو مع الوصفين بمنزلة الاثنين حتى لو كثرت صفاته لتنزل منزلة أشخاص ألا ترى أن الرجل الذي يحسن الحساب والطب بمنزلة حاسب وطبيب والرجل الذي يحسن التجارة والبناء بمنزلة نجار وبناء والقلب لما كان يقبل الذكر والعلم فهو بمنزلة الإناء الذي يوضع فيه الماء وإنما ذكر في هذا البيت الإناء من بين سائر أسماء القلب لأنه هو الذي يكون رقيقا وصافيا وهو الذي يأتي به المستطعم المستعطي في منزلة البائس الفقير ولما كان ينصرف عن البال فهو زكي وسليم فكأنه اثنان ويتبين في الصورة أن الإناء غير القلب فهو يقول إذا ما وضعت قلبك في غير موضع وهو الذي يوضع فيه الذكر والعلم ولم يكن معك إناء يوضع فيه المطلوب فتركها ثم أقبل يطلب طعاما فقيل لههات إناء نعطك طعاما فأما إذ أتيت وقد وضعت زبديتك مثلا في البيت وليس معك إناء نعطيك فيه شيئا رجعت بخفي حنين وإذا تأمل من له بصر بأساليب البيان وتصاريف اللسان وجد موقع هذا الكلام من العربية والحكمة كليهما موقعا حسنا بليغا فإن نقيض هذه الحال المذكورة أن يكون القلب مقبلا على الحق والعلم والذكر معرضا عن ذكر غير ذلك وتلك هي الحنيفة دين إبراهيم عليه السلام فإن الحنف هو الميل عن الشيء بالإقبال على آخر فالدين الحنيف هو الإقبال على الله وحده والإعراض عما سواه وهو الإخلاص الذي ترجمته كلمة الحق والكلمة الطيبة لا إله إلا هو اللهم ثبتنا عليها في الدنيا وفي الآخرة ولا حول ولا قوة إلا بالله (١).

قال تعالى ﴿ قَالَ أَهَيْطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّْي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ

(١) الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٣٣٠-٣٣٧ ومجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٣٠٧-٣١٩.

نُسِي (١٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿طه: ١٢٣ - ١٢٧﴾ فأخبر أنه إذا أتاهم هدى منه وهو ما أنزله على رسله من الذكر فمن اتبعه اهتدى وسعد في الدنيا والآخرة ومن أعرض عنه شقى وعمى ولهذا قال في أوائل البقرة في نعت المؤمنين ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] كما قال هنا ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] فان الهدى ضد الضلال والفلاح ضد الشقاء وقال تعالى ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[الأعراف: ٣٥ - ٣٦]﴾^(١).

الكافر المصر على كفره أن الإنذار لا ينفعه للحجب التي على قلبه وسمعه وبصره

فإن للناس في هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] قولين أحدهما أنها خاصة بمن يموت كافرا وهذا منقول عن مقاتل كما قال في قوله ﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] وكذلك نقل عن الضحاك قالوا نزلت في مشركي العرب كأبي جهل وأبي طالب وأبي لهب ممن لم يسلم وقال الضحاك نزلت في أبي جهل وخمسة من أهل بيته وطائفة من المفسرين لم يذكروا غير هذا القول كالثعلبي والبخاري وابن الجوزي قال البخاري هذه الآية في أقوام حقت عليهم كلمة الشقاوة في سابق علم الله وقال ابن الجوزي قال شيخنا علي بن عبيدالله وهذه الآية وردت بلفظ العموم والمراد بها الخصوص لأنها آذنت بأن الكفار حين إنذارهم لا يؤمنون وقد آمن كثير من الكفار عند إنذارهم ولو كانت على ظاهرها في العموم لكان خبر الله بخلاف مخبره فلذلك وجب نقلها إلى الخصوص والقول الثاني أن الآية على مقتضاها والمراد بها أن الإنذار وعدمه سواء بالنسبة إلى الكافر ما دام كافرا لا ينفعه الإنذار ولا يؤثر فيه كما قيل مثل ذلك في الآيات إنها غير موجبة للإيمان وقد جمع

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٣٣٦.

بينهما في قوله ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] فالآيات أفقية وأرضية وقرآنية وهي أدلة العلم والإنذار يقتضى الخوف فالآيات لمن إذا عرف الحق عمل به فهذا تنفعه الحكمة والإنذار لمن يعرف الحق وله هوي يصدّه فينذر بالعذاب الذي يدعوه إلى مخالفة هواه وهو خوف العذاب وهذا هو الذي يحتاج إلى الموعظة الحسنة وآخر لا يقبل الحق فيحتاج إلى الجدل فيجادل بالتى هي أحسن وقد قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَلَكَّمْهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] وقال ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١] فالمراد أن الكافر ما دام كافرا لا يقبل الحق سواء انذر أم لم ينذر ولا يؤمن ما دام كذلك لأن على قلبه وسمعه وبصره موانع تصد عن الفهم والقبول وهكذا حال من غلب عليه هواه وهو سبحانه لم يقل أنهم لا يؤمنون وقيل ذلك لمن سبقت عليه الشقوة أو حقت عليه الكلمة كقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧] فبين أن هؤلاء لا يؤمنون إلا حين لا ينفعهم إيمانهم وقت رؤية العذاب الأليم كإيمان فرعون المذكور قبلها وموسى قد دعا عليه فقال ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [٨٨] قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا [يونس: ٨٨ - ٨٩] وأما إذا أطلق سبحانه الكفار فهو مثل قوله ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَلَكَّمْهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] الآية فبين أنهم قد يؤمنوا إذا شاء وآية البقرة مطلقة عامة فإنه ذكر في أول السورة أربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين وبضع عشرة آية في المنافقين فبين حال الكافر المصر على كفره أن الإنذار لا ينفعه للحجب التي على قلبه وسمعه وبصره وليس قال إن الله لا يهدى أحدا من هؤلاء فيسمع ويقبل ولكن هو حين يكون كافرا لا تتناوله الآية وهذا كما يقال في الكافر الحربى لا يجوز أن تعقد له الذمة ولا يكون قط من أهل دار الإسلام ما دام حربيا فالكفار ما داموا كفارا هم بهذه المثابة

لهم موانع تمنعهم من الإيمان كما أن للمنافقين موانع تمنعهم ما داموا كذلك وإن أُنذروا وهذا كقوله ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] فهذا مثل كل كافر ما دام كافراً^(١).

وذلك لا يمنع أن يكونوا قد يسمعون إذا زال الغطاء الذي على قلوبهم وسمعهم وإبصارهم فإنهم لا يسمعون لذلك المعنى المشتق منه وهو الكفر فما داموا هذه حالهم فهم كذلك ولكن تغير الحال ممكن كما قال ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] وكما هو الواقع ومثل هذا يفيد أن الإنسان لا يعتقد أنه بدعائه وإنذاره وبيانه يحصل الهدى ولو كان أكمل الناس وأن الداعي وإن كان صالحاً ناصحاً مخلصاً فقد لا يستجيب المدعو لا لنقص في الدعاء لكن لفساد في المدعو وهذا لأن حصول المطلوب متوقف على فعل الفاعل وقبول القابل كالسيف القاطع يؤثر بشرط قبول المحل فيه لا يقطع الحجارة والحديد ونحو ذلك والنفخ يؤثر إذ كان هناك قابل لا يؤثر في الرماد والدعاء والتعليم والإرشاد وكل ما كان من هذا الجنس له فاعل وهو المتكلم بالعلم والهدى والنذارة وله قابل وهو المستمع فإذا كان المستمع قابلاً حصل الإنذار التام والتعليم التام والهدى التام وإن لم يكن قابلاً قيل علمته فلم يتعلم وهديته فلم يهتد وخاطبته فلم يصغ ونحو ذلك فقوله في القرآن ﴿هُدًى يَتَّبِعِينَ﴾ [البقرة: ٢] هو من هذا إنما يهتدي من يقبل الإهداء وهم المتقون لا كل أحد وليس المراد أنهم كانوا متقين قبل اهتدائهم بل قد يكونوا كفاراً لكن إنما يهتدى به من كان متقياً فمن إتقى الله إهتدى بالقرآن والعلم والإنذار إنما يكون بما أمر به القرآن وهكذا قوله ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠] الإنذار التام فإن الحي يقبله ولهذا قال ﴿وَيَحَقِّقْ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠] فهم لم يقبلوا الإنذار ومثله قوله ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [الأنعام: ٤٥] وعكسه قوله ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] أي كل من ضل به فهو فاسق فهو ذم لمن يضل به فإنه فاسق ليس أنه كان فاسقاً قبل ذلك ولهذا تأولها سعد بن أبي وقاص في الخوارج وسماهم فاسقين لأنهم ضلوا بالقرآن فمن ضل بالقرآن فهو

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٧٠.

فاسق فقله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٦] من هذا الباب والتقدير من ختم على قلبه وجعل على سمعه وبصره غشاوة فسواء عليك أنذرته أم لم تنذره هو لا يؤمن أي ما دم كذلك ولكن هذا قد يزول وفي صفة النبي ﷺ ﴿يَأْتِيهَا الْبُتِّيُّ إِنَّا آَرَسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] وحرزا للأمين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فأفتح به أعينا عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا وقد قال ﴿لَنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيَّ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿[يس: ٦ - ٧] فدل على أن بعضهم يؤمنون ثم قال ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلًا﴾ [يس: ٨] إلى قوله ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١] فهذا هو الإنذار التام وهو الإنذار الذي يقبله المنذر ويتنفع به وقوله ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠] هو أصل الإنذار كما يقال في البليد والمشغول الذهن بأمور الدنيا والشهوات سواء عليك أعلمته أم لم تعلمه لا يتعلم ولا يقبل الهدى ويقال في الذكي الفارغ إنما يتعلم مثل هذا ثم المشغول قد يتفرغ وقد يصلح ذهن بعد فسادة ويفسد بعد صلاحه لفساد قلبه وصلاحه وعلى هذا القول أكثر تفسير السلف كما ذكره ابن إسحاق وقد رواه ابن أبي حاتم وغيره قال ابن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٦] أي بما أنزل إليك وإن قالوا إنا قد آمنّا بما جاءنا قبلك ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] أي إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق فقد كفروا بما جاءك وبما عندهم مما جاءهم به غيرك فكيف يسمعون منك إنذارا وتحذيرا فقد تبين أنهم لا يسمعون الإنذار لكفرهم بما عندهم وما جاءهم من الحق ومعلوم ان منهم خلقا تابوا بعد ذلك وآمنوا وروى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال آيتان في قادة الأحزاب ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿[البقرة: ٦] قال هم الذين ذكرهم الله في هذه

الآية ﴿الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] قلت جعلهم قادة الأحزاب لكونهم أضلوا الأتباع فأحلّوهم دار البوار والأحزاب يوم الخندق قد أسلم عامة قادتها وحسن إسلامهم مثل عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وأبى سفيان وهؤلاء أسلم منهم من أسلم عام الفتح وهم الطلقاء ومنهم من أسلم قبل ذلك والحزب الآخر غطفان وقد أسلموا أيضا والآية لا بد أن تتناول كفار أهل الكتاب كما قال ابن إسحق فإن السورة مدنية وإن تناولت مع ذلك المشركين فهي تعم كل كافر ومقاتل والضحاك يخصصها ببعض مشركي العرب وابن السائب يقول هي إنما نزلت في اليهود منهم حيي بن أخطب وكذلك ما ذكره ابن إسحق عن ابن عباس أنها في اليهود وأبو العالية يقول إنها نزلت في قادة الأحزاب والآية تعم هؤلاء كلهم وغيرهم كما أن آيات المؤمنين والمنافقين كان سبب نزولها المؤمنين والمنافقين الموجودين وقت النزول وهي تعمهم وغيرهم من المؤمنين والمنافقين إلى قيام الساعة والمقصود أن قوله ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] كقوله ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [٥٢] ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ [الروم: ٥٢ - ٥٣] وقوله ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [٤٢] ﴿وَمَنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢ - ٤٣] وكل هذا فيه بيان أن مجرد دعائك وتبليغك وحرصك على هدايتهم ليس موجب ذلك وإنما يحصل ذلك إذا شاء الله هدايتهم فشرح صدورهم للإسلام كما قال تعالى ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [الأنحل: ٣٧] ففيه تعزية لرسوله ﷺ وبينت الآية له أن تبليغك وإن لم يهتدوا به ففيه مصالح عظيمة غير ذلك وفيه بيان أن الهدى هدى الله ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] وقد قال له ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ففيه تقرير التوحيد وتقرير مقصود الرسالة وهو سبحانه أخبر عمن لا يؤمن فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٩٦] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ

كُلُّ آيَةٍ ﴿[يونس: ٩٦ - ٩٧] وقال ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿[يس: ٦] ثم قال ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿[يس: ٧] فخص في هذه الآية وفي تلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴿[يونس: ٩٦] وهم الذين حق عليهم القول أي حق عليهم ما قاله الله سبحانه وكتبه وقدره فجعل الموجب هو التقدير السابق وهو قوله والقول وإن كان قد يكون خبرا مجردا بما سيكون وقد يكون قولا يتضمن أشياء كاليمين المتضمنة للحض والمنع فقد ذكر في مواضع تقدم اليمين كقوله ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنسِ أَجْمَعِينَ ﴿[السجدة: ١٣] ونحو ذلك فهو خبر عما قاله أو قاله وكتبه وهو التقدير الذي يتضمن أنه قدر ما يفعله وعلمه وكتبه كما تظاهرت النصوص بأن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة والقدر تضمن علمه بما سيكون ومشيتته لوجود ما قدره وعلم أن سيخلقه والقول قد يكون خبرا وقد يكون فيه معنى الطلب الحض والمنع بالقسم وإما لكتابته على نفسه كقوله ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿[الأنعام: ٥٤] وقوله ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الروم: ٤٧] وقوله يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا وأما قوله ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿[الزمر: ٧١] فهذا مختص بالكفار وهو الوعيد المتضمن الجزاء على الأعمال كما قال تعالى لإبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿[ص: ٨٥] وقوله ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿[طه: ١٢٩] أي إن عذابهم له أجل مسمى إما يوم القيامة وإما في الدنيا كيوم بدر وإما عقب الموت وقد ذكر في الآية الأقوال الثلاثة فلولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لكان العذاب لازما أي لازما لهم فإن مقتضي له قائم تام وهو كفرهم وأما إذا أطلق القول على الكفار من غير تقييد فإنه لا يريد من لا يؤمن منهم فإن اللفظ لا يدل على ذلك ألبة وأيضا فإن هذا لا فائدة فيه إذ كان أولئك غير معروفين وإنما هم طائفة قد حق عليهم القول وهم لا يتميزون من غيرهم بل هو

مأمور بإنذار الجميع وفيهم من يؤمن ومن لا يؤمن فذكر اللفظ العام وإرادة أولئك دون غيرهم ليس فيه بيان للمراد الخاص وذكر المعنى الذي أوجب أنهم لا يؤمنون قط ولا فيه تعليق بالحكم بالمعنى العام وكلام الله تعالى يسان عن مثل ذلك وما ذكر من الموانع هي موجودة في كل من لم يقبل الإنذار سواء كان كافرا أو منافقا وفاسقا أو غير ذلك لسبب يوجب ذلك فيمتنع قبول الإنذار بسبب الموانع لكن هذه الموانع قد تزول فإنها ليست لازمة لكل كافر وإذا كان المانع ما سبق من القول الذي حق عليهم فقد لا يزول أبدا كما قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧] وقد يذكر هذا وهذا وأما إذا اقتصر على ذكر الموانع التي فيهم ولم يذكر ما سبق من القول فهذه الموانع يرجى زوالها ويمكن ما لم يذكر معها ما يقتضي إمتناع تغير حالهم وحصول الهدى^(١).

والذين زعموا وقوع التكليف بالمتنع لذاته كالرازي وغيره إحتجوا بأن الله كلف أبا لهب بالإيمان مع علمه بأنه لا يؤمن وإخباره بأنه لا يؤمن فكلفه بالجمع بين النقيضين بأن يفعل الشيء وبأن يصدق أنه لا يكون مصدقا بذلك وهو صادق في تصديقه إذا لم يكن وإحتجوا بأنه كلف خلاف المعلوم وخلاف المعلوم محال فيكون حقيقة التكليف أنه يجعل علم الله جهلا وهذا ممتنع لذاته وهؤلاء جعلوا لفظ ما لا يطاق لفظا عاما يدخل فيه كل فعل لكون القدرة عندهم لا تكون إلا مع الفعل ويدخل فيه خلاف المعلوم ويدخل فيه المعجوز عنه ويدخل فيه الممتنع لذاته ثم ذكروا نحو عشر حجج يستدلون بها على جواز هذا الجنس فإذا فصل الأمر عليهم ثبت أن دعواهم جواز ما لا يطاق للعجز عنه سواء كان ممتنعا لذاته أو ممكنا باطلا لا دليل عليها وأما جواز تكليف ما يقدر العبد عليه من العبادة ويقولون هم أنه لا يكون قادرا عليه إلا حين الفعل فهذا مما إتفق الناس على جواز التكليف به لكن ثم نزاع لفظي ومعنوي في كونه يدخل فيما لا يطاق فصار ما أدخلوه في هذا الأسم أنواعا مختلفة منها ما ينازعون في جوازه أو وقوعه ومنها ما ينازعون في إسمه وصفته لا في وقوعه أما تكليف أبي لهب وغيره بالإيمان فهذا حق وهو

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٧٠.

إذا أمر أن يصدق الرسول في كل ما يقوله وأخبر مع ذلك أنه لا يصدقه بل يموت كافرا لم يكن هذا متناقضا ولا هو مأمور أن يجمع بين النقيضين فإنه مأمور بتصديق الرسول في كل ما بلغ وهذا التصديق لا يصدر منه فإذا قيل له أمرناك بأمر ونحن نعلم أنك لا تفعله لم يكن هذا تكليفا للجمع بين النقيضين فإن قال تصديقكم في كل ما تقولون يقتضى أن أكون مؤمنا إذا صدقتكم وإذا صدقتكم لم أكن مؤمنا لأنكم أخبرتم أنى لا تؤمن بكل ما أخبر به قيل له لو وقع منك لم يكن فيه هذا الخبر ولم يكن يخبر أنك لا تؤمن فأنت قادر على تصديقنا وبتقدير وجوده لا يحصل هذا الخبر وإنما وقع لأنك أنت لم تفعل ما قدرت عليه من تصديقنا بهذا الخبر فوقع بعد تكذيبك وتركك ما كنت قادرا عليه لم نقل لك حين أمرناك بالتصديق العام وأنت قادر عليه ولو قيل لك آمن ونحن نعلم أنك لا تؤمن بهذا الخبر فالذي أمرت أن تؤمن به هو الإخبار بأن محمدا رسول الله وهذا أنت قادر عليه ولا تفعله وإذا صدقتنا في خبرنا أنك لا تؤمن لم يكن هنا تناقض لكن لا يمكن الجمع بين الإيمان والتصديق فإنه لم يقع ونحن لم نأمرك بهذا بل أمرناك بإيمان مطلق تقدر عليه وأخبرنا مع ذلك أنك لا تفعل ذلك المقدور عليه ولم نقل لك صدقنا في هذا وهذا في حال واحدة لكن الواجب عليك هو التصديق المطلق والتصديق بهذا لا يجب عليك حينئذ ولو وقع منك التصديق المطلق إمتنع منا هذا الخبر بل هذا الخبر إنما وقع لما علمنا أنه لا يقع منك التصديق المطلق وهذا كله لو قدر أن أبا هب أسمع هذه الآية وأمر بالتصديق بها وليس الأمر كذلك لكن لما أنزل الله قوله ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣] لم يسلم لهم أن الله أمر نبيه بإسماع هذا الخطاب لأبي هب وأمر أبا هب بتصديقه بل لا يقدر أحد أن ينقل أن النبي ﷺ أمر أبا هب أن يصدق بنزول هذه السورة فقولوه أنه أمر أن يصدق بأنه لا يؤمن قول باطل لم ينقله أحد من علماء المسلمين فنقله عن النبي ﷺ قول بلا علم بل كذب عليه فإن قيل فقد كان الإيمان واجبا على أبي هب ومن الإيمان أن يؤمن بهذا قيل له لا نسلم أنه بعد نزول هذه السورة وجب على الرسول أن يبلغه إياها بل ولا غيرها بل حقت عليه كلمة العذاب كما حقت على قوم نوح إذ قيل له ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] وبعد

ذلك لا يبقى الرسول مأمور بتبليغهم الرسالة فإنه قد بلغهم فكفروا حتى حقت عليهم كلمة العذاب باعيانهم وقد يخبر الله الرسول عن معين أنه لا يؤمن لكن لا يأمره أن يعلمه بذلك بل هو مأمور بتبليغه وإن كان الرسول يعلم أنه لا يؤمن كالذين قال الله فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ ۚ أَلَيْسَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧] وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] فهؤلاء قد يعلم بعض الملائكة وبعض البشر من الأنبياء وغيرهم في معين منهم أنه لا يؤمن وإن كانوا مأمورين بتبليغه أمر الله ونهيه وليس في ذلك تكليفه بالجمع بين النقيضين وذلك خلاف المعلوم فإن الله يفعل ما يشاء بقدرته وما لا يشاء يعلم أنه لا يفعله وأنه قادر عليه لو شاء لفعله وعلمه أنه لا يفعله لا يمنع أن يكون قادرا عليه والعباد الذين علم الله أنهم يطيعونه بإرادتهم ومشيتهم وقدرتهم وإن كان خالقا لذلك فخلقه لذلك أبلغ في علمه به قبل أن يكون كما قال تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك: ١٤] وما لم يفعلوه فما أمرهم به يعلم أنه لا يكون لعدم إرادتهم له لا لعدم قدرتهم عليه وليس الأمر به أمرا بما يعجزون عنه بل هو أمر بما لو أرادوه لقدروا على فعله لكنهم لا يفعلونه لعدم إرادتهم له وجههم ومن وافقه من المعتزلة إشتروا في أن مشيئة الله ومحبه ورضاه بمعنى واحد ثم قالت المعتزلة وهو لا يحب الكفر والفسوق والعصيان فلا يشاؤه فقالوا إنه يكون بلا مشيئة وقالت الجهمية بل هو يشاء ذلك فهو يحبه ويرضاه وأبو الحسن وأكثر أصحابه وافقوا هؤلاء فذكر أبو المعالي الجويني أن أبا الحسن أول من خالف السلف في هذه المسألة ولم يفرق بين المشيئة والمحبة والرضا وأما سلف الأمة وأئمتها وأكابر أهل الفقه والحديث والتصوف وكثير من طوائف النظر كالكلابية والكرامية وغيرهم فيفرون بين هذا وهذا ويقولون أن الله يحب الإيمان والعمل الصالح ويرضى به كما لا يأمر ولا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان ولا يحبه كما لا يأمر به وإن كان قد شاء ولهذا كان حملة الشريعة من الخلف والسلف متفقين على أنه لو حلف ليفعلن واجبا أو مستحبا كقضاء دين يضيق وقته أو عبادة يضيق وقتها وقال إن شاء الله ثم لم يفعله لم يحث وهذا يبطل قول القدرية ولو قال إن كان الله يحب ذلك

ويرضاه فإنه يحنث كما لو قال إن كان يندب إلى ذلك ويرغب فيه أو يأمر به أمر إيجاب أو إستحباب وهذا يرد على الجهمية ومن اتبعهم كأبي الحسن الأشعري ومن وافقه من المتأخرين وبسط هذه الأمور له موضع آخر والمقصود هنا جواب هذه المسألة فإن هذه الإشكالات المذكورة إنما ترد على قول جهم ومن وافقه من المتأخرين من أصحاب أبي الحسن الأشعري وغيرهم وطائفة من متأخري أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأما أئمة أصحاب مالك والشافعي وأحمد وعامة أصحاب أبي حنيفة فإنهم لا يقولون بقول هؤلاء بل يقولون بما اتفق عليه السلف من أنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ويثبتون الفرق بين مشيئته وبين محبته ورضاه فيقولون إن الكفر والفسوق والعصيان وإن وقع بمشئته فهو لا محبة ولا يرضاه بل بسخطه ويبغضه ويقولون إرادة الله في كتابه نوعان نوع بمعنى المشيئة لما خلق كقوله ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَهْدِهِ وَيُشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ^٤﴾ [الأنعام: ١٢٥] ونوع بمعنى محبته ورضاه لما أمر به وإن لم يخلقه كقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^{٥٦}﴾ ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا^{٥٧}﴾ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨]

وبهذا يفضل النزاع في مسألة الأمر هل هو مستلزم للإرادة أم لا فإن القدرية تزعم أنه مستلزم للمشيئة فيكون قد شاء المأمور به ولم يكن والجهمية قالوا أنه غير مستلزم لشيء من الإرادة لا محبة له ولا رضاه به إلا إذا وقع فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وكذلك عندهم ما أحبه ورضيه كان وما يحبه لم يرضه لم يكن وتأولوا قوله ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ^{٥٨}﴾ [الزمر: ٧] على أن المراد ممن لم يقع منه الكفر أولاً يرضاه ديناً كما يقولون لم يشاء ممن لم يقع منه أولاً يشاءه ديناً إذا كانوا موافقين للجهمية والقدرية في أنه لا فرق

بين المحبة والمشية وقد قال الله تعالى ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] فاخبر انه اذا وقع الكفر من عباده لم يرضه لعباده كما قال ﴿إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨] وقال ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] مع قوله ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] وفصل الخطاب ان الأمر ليس مستلزما لمشية ان يخلق الرب الأمر الفعل المأمور به ولا ارادة ان يفعله بل قد يأمر بما لا يخلقه وذلك مستلزم لمحبة الرب ورضاه من العبد ان يفعله بمعنى انه اذا فعل ذلك احبه ورضيه وهو يريد منه ارادة الأمر من المأمور بما امره به لمصلحته وان لم يريد ان يخلقه وان يعينه عليه لما له في ترك ذلك من الحكمة فان له حكمه بالغة فيما خلقه وفيما لم يخلقه وفرق بين ان يريد ان يخلق هو الفعل ويجعل غيره فاعلا يحسن اليه ويتفضل عليه بالإعانة له على مصلحته وبين ان يأمر غيره بما يصلحه ويبين له ما ينفعه اذا فعله وان كان لا يريد هو نفسه ان يعينه لما في ترك اعانته من الحكمة لكون الاعانة قد تستلزم ما يناقض حكمة والمنهى عنه الذي خلقه هو يبغضه وعمقته كما يمقت ما خلقه من الاعيان الخبيثة كالشياطين والخبائث ولكنه خلقها لحكمه يحبها ويرضاها ونحن نعلم ان العبد يريد ان يفعل ما لا يحبه لافضائه إلى ما يحبه كما يشرب المريض الدواء الكريه لافضائه إلى ما يحبه من العافية ويفعل ما يكرهه من الاعمال لافضائه إلى مطلوبه المحبوب له ولا منافاة بين كون الشيء بغضا اليه مع كونه مخلوقا له لحكمه يحبها وكذلك لا منافاة بين ان يحبه اذا كان ولا يفعله لان فعله قد يستلزم تفويت ما هو احب اليه منه أو وجود ما هو ابغض اليه من عدمه^(١).

فإن الله قد أخبر عما يكون من أفعال العباد قبل أن تكون بل أعلم بذلك من شاء من ملائكته وغير ملائكته وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧] وقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] وهذا خبر عن المستقبل وأنهم

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٧٨.

لا يؤمنون وقال تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] وقال ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وهذا قسم منه على ذلك وهو الصادق البار في قسمه وصدقه مستلزم لعلمه بما أقسم عليه وهو دليل على أنه قادر على ذلك وقد يستدل به على أنه خالق أفعال العباد إذ لو كانت أفعالهم غير مقدورة له لم يمكنه أن يملأ جهنم بل كان ذلك إليهم إن شاؤا عصوه فملأها وإن شاؤا أطاعوه فلم يملأها لكن قد يقال أنه علم أنهم يعصونه فأقسم على جزائهم على ذلك وقد يجاب عن ذلك بأن علمه بالمستقبل قبل أن يكون مستلزم لخلقه له فإنه سبحانه لا يستفيد العلم من غيره كالملائكة والبشر ولكن علمه من لوازم نفسه فلو كانت أفعاله خارجة عن مقدوره ومراده لم يجب أن يعلمها كما يعلم مخلوقاته وبسط هذا له موضع آخر^(١).

فذاً المعرض عما يجب من استماع المشتغل عنه باستماع الغناء كما هو فعل كثير من الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وحال كثير من المتنسكة في اعتياضهم بسماع المكاء والتصدية عن سماع قول الله تعالى ومثل هذا قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشوة^٦ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿[البقرة: ٦ - ٧]﴾^(٢).

لطائف لغوية

قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] والتسوية جعل الشئين سواء^(٣).

قال تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧] فان البصر يرى غير مباشرة المرئي والذوق والشم واللمس لا يحصل له

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٩٥.

(٢) الاستقامة ج: ١ ص: ٢٢٩.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٣٣.

الاحساس إلا بمباشرة المحسوس والسمع وإن كان يحس الأصوات فالمقصود الأعظم به معرفة الكلام وما يخبر به المخبرون من العلم وهذا سبب تفضيل طائفة من الناس لالسمع على البصر كما ذهب إليه ابن قتيبة وغيره وقال الأكثرون البصر أفضل منالسمع والتحقيق أن إدراك البصر أكمل كما قاله الأكثرون كما قال النبي ﷺ ليس المخبر كالمعاين لكنالسمع يحصل به من العلم لنا أكثر مما يحصل بالبصر فالبصر أقوى وأكمل والسمع أعم وأشمل وهاتان الحاستان هما الأصل في العلم بالمعلومات التي يمتاز بهاالانسان عن البهائم استطراد ولهذا يقرن الله بينهما الفؤاد في مواضع كقوله تعالى ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَاةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧] ^(١).

قال تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَاةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧] ودار الرحمة الخالصة هي الجنة وعذابه اسم جامع لكل شر ودار العذاب الخالص هي النار ^(٢).

قال تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَاةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧] أن المسمع وإن كان أصله نفس السمع الذي يشبه الإدراك لكن اذا كان المسموع طلبا ففائدته وموجبه الاستجابة والقبول واذا كان المسموع خبرا ففائدته التصديق والاعتقاد فصار يدخل مقصوده وفائدته في مسماه نفيا وإثباتا فيقال فلان يسمع لفلان أى يطيعه فى أمره أو يصدقه فى خبره وفلان لا يسمع ما يقال له أى لا يصدق الخبر ولا يطيع الأمر كما بين الله السمع عن الكفار فى غير موضع كقوله ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١] وقوله ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّرُ الدُّعَاءَ﴾ [الأنبياء: ٤٥] وذلك لأن سمع الحق يوجب قبوله ايجاب الاحساس الحركة وايجاب علم القلب حركة القلب فان الشعور بالملائم يوجب الحركة اليه والشعور

(١) الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٩٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥.

بالمنافر يوجب النفرة عنه فحيث انتفى موجب ذلك دل على إنتفاء مبدئه ولهذا قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] ولهذا جعل سمع الكفار بمنزلة سمع البهائم لأصوات الرعاة أى يسمعون مجرد الأصوات سمع الحيوان لا يسمعون ما فيها من تأليف الحروف المتضمنة للمعاني السمع الذى لا بد أن يكون بالقلب مع الجسم^(١).

ليس كل من أظهر الإسلام يكون مؤمنا فى الباطن فان الظاهر لا بد له من باطن يحققه

ان الظاهر لا بد له من باطن يحققه ويصدقه ويوافقه فمن قام بظاهر الدين من غير تصديق بالباطن فهو منافق ومن ادعى باطنا يخالف ظاهرا فهو كافر منافق بل باطن الدين يحقق ظاهره ويصدقه ويوافقه وظاهره يوافق باطنه ويصدقه ويحققه فكما ان الانسان لا بد له من روح وبدن وهما متفقان فلا بد لدين الانسان من ظاهر وباطن يتفقان فالباطن للباطن من الانسان والظاهر للظاهر منه والقرآن مملوء من ذكر أحكام الباطن والظاهر والباطن أصل الظاهر كما قال أبوهريرة القلب ملك والأعضاء جنوده فاذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده وقد قال النبى ألا وان فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد ألا وهي القلب وفى المسند عن النبى انه قال الاسلام علانية والايمان فى القلب وقد قال تعالى ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] وقال تعالى ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقال تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] وقال تعالى

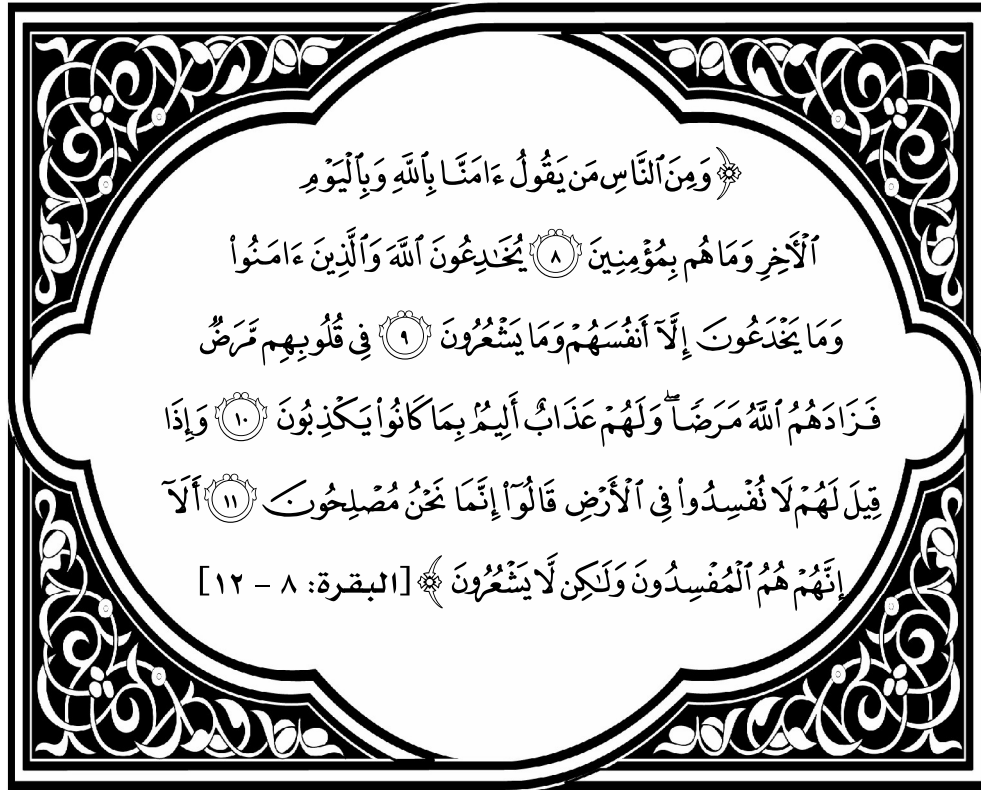
(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٩٩.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢] وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] وأمثال هذا كثير في القرآن وقال في حق الكفار ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ ۖ ﴾ [المائدة: ٤١] وقال ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ ۖ ﴾ [البقرة: ٧] وأمثال ذلك فنسأل الله العظيم أن يصلح بواطننا وظواهرنا ويوفقنا لما يحبه ويرضاه من جميع أمورنا بمنه وكرمه والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً^(١).

وليس كل من أظهر الإسلام يكون مؤمناً في الباطن اذ قد عرف في المظهرين للإسلام المؤمن والمنافق قال الله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨] وقال تعالى ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١] وقال تعالى ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٢٦٨-٢٦٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ١٢٨.



أصلى الإيمان هما الإيمان بالله وباليوم الآخر التوحيد والمعاد
أصلى الإيمان هما الإيمان بالله وباليوم الآخر التوحيد والمعاد كما قرن بينهما في
مواضع كثيرة كقوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٨] ^(١).
والإيمان بالله واليوم الآخر يتضمن الإيمان بالمبدأ والمعاد وهو الإيمان بالخلق
والبعث كما جمع بينهما في قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ
بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] وقال تعالى ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
بَصِيرٌ﴾ [نجم: ٢٨] وقال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧] وقد بين
الله على لسان رسوله من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر ما هدى الله به عباده وكشف به
مراده ^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١١٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٣٠.

أن جنس فعل المأمور به أعظم من جنس ترك المنهى عنه

أن جنس فعل المأمور به أعظم من جنس ترك المنهى عنه وان جنس ترك المأمور به أعظم من جنس فعل المنهى عنه وان مثوبة بني آدم على أداء الواجبات أعظم من مثوبتهم على ترك المحرمات وان عقوبتهم على ترك الواجبات أعظم من عقوبتهم على فعل المحرمات وقد ذكرت بعض ما يتعلق بهذه القاعدة فيما تقدم لما ذكرت أن العلم والقصد يتعلق بالموجود بطريق الأصل ويتعلق بالمعدوم بطريق التبع وبيان هذه القاعدة من وجوه أحدها ان أعظم الحسنات هو الايمان بالله ورسوله وأعظم السيئات الكفر والايان أمر وجودي فلا يكون الرجل مؤمنا ظاهرا حتى يظهر أصل الايمان وهو شهادة أن لا إله الا الله وشهادة أن محمدا رسول الله ولا يكون مؤمنا باطنا حتى يقر بقلبه بذلك فينتفي عنه الشك ظاهرا وباطنا مع وجود العمل الصالح والا كان كمن قال الله فيه ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] وكمن قال تعالى فيه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] وكمن قال فيه ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] والكفر عدم الايمان باتفاق المسلمين سواء اعتقد نقيضه وتكلم به أولم يعتقد شيئا ولم يتكلم ولا فرق في ذلك بين مذهب أهل السنة والجماعة الذين يجعلون الايمان قولا وعملا بالباطن والظاهر وقول من يجعله نفس اعتقاد القلب كقول الجهمية واكثر الاشعرية أو إقرار اللسان كقول الكرامية أو جميعها كقول فقهاء المرجئة وبعض الأشعرية فان هؤلاء مع أهل الحديث وجهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنبلية وعامة الصوفية وطوائف من أهل الكلام من متكلمي السنة وغير متكلمي السنة من المعتزلة والخوارج وغيرهم متفقون على أن من لم يؤمن بعد قيام الحجة عليه بالرسالة فهو كافر سواء كان مكذبا أو مرتابا أو معرضا أو مستكبرا أو مترددا أو غير ذلك لك وإذا كان أصل الايمان الذي هو أعظم القرب والحسنات والطاعات فهو مأمور به والكفر الذي هو أعظم الذنوب والسيئات والمعاصي ترك هذا المأمور به سواء اقترن به فعل منهى عنه من التكذيب أو لم يقترن به شيء بل كان تركا للايمان فقط علم ان جنس

فعل المأمور به أعظم من جنس ترك المنهى عنه^(١).

ان من جملة أفعالهم أسرار خلاف ما يظهرون وهم يرون هذا صلاحا لفظ الصلاح والفساد فاذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير وكذلك الفساد يتناول جميع الشر وكذلك اسم المصلح والمفسد قال تعالى في قصة موسى ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩] وقال موسى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿[الأعراف: ١٤٢] وقال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢] والضمير عائد على المنافقين في قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]. وهذا مطلق يتناول من كان على عهد النبي ومن سيكون بعدهم ولهذا قال سلمان الفارسي أنه عنى بهذه الآية قوما لم يكونوا خلقوا حين نزولها وكذا قال السدي عن أشياخه الفساد الكفر والمعاصي وعن مجاهد ترك امثال الأوامر واجتناب النواهي والقولان معناهما واحد وعن ابن عباس الكفر وهذا معنى قول من قال النفاق الذي صافوا به الكفار وأطلعوهم على أسرار المؤمنين وعن أبي العالية ومقاتل العمل بالمعاصي وهذا أيضا عام كالأولين وقولهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] فسر بانكار ما أقروا به أي انا انما نفعل ما أمرنا به الرسول وفسر بأن الذي نفعله صلاح ونقصد به الصلاح وكلا القولين يروى عن ابن عباس وكلاهما حق فانهم يقولون هذا وهذا يقولون الأول لمن لم يطلع على بواطنهم ويقولون الثاني لأنفسهم ولمن أطلع على بواطنهم لكن الثاني يتناول الأول فان من جملة أفعالهم أسرار خلاف ما يظهرون وهم يرون هذا صلاحا قال مجاهد أرادوا أن مصافاة الكفار صلاح لافساد وعن السدي إن فعلنا هذا هو الصلاح وتصديق محمد فساد وقيل أرادوا أن هذا صلاح في الدنيا فان الدولة ان كانت للنبي ﷺ فقد أمنوا بمتابعته وان كانت

(١) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٣٠.

للكفار فقد آمنوهم بمصافاتهم ولأجل القولين قيل في قوله ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢] أى لا يشعرون ان ما فعلوه فساد لا صلاح وقيل لا يشعرون أن الله يطلع نبيه على فسادهم والقول الأول يتناول الثانى فهو المراد كما يدل عليه لفظ الآية^(١).

والفساد ضد الصلاح فكما ان كل قول أو عمل يحبه الله فهو من الصلاح فكل قول أو عمل يبغضه الله فهو من الفساد قال سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] يعنى الكفر والمعصية بعد الايمان والطاعة ولكن الفساد نوعان لازم وهو مصدر فسد يفسد فسادا ومتعد وهو اسم مصدر افسد يفسد افسادا كما قال تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]^(٢).

فى الحديث أساس النفاق الذي يبني عليه الكذب

قال تعالى ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥] فوصفهم بالقوة فى العمل والبصيرة فى العلم وأصل القوة قوة القلب الموجبة لمحبة الخير وبغض الشر فإن المؤمن قوته فى قلبه وضعفه فى جسمه والمنافق قوته فى جسمه وضعفه فى قلبه فالإيمان لا بد فيه من هذين الأصلين التصديق بالحق والمحبة له فهذا أصل القول وهذا أصل العمل فلهما من هذين الأصلين التصديق بالحق والمحبة له فهذا أصل القول وهذا أصل العمل ثم الحب التام مع القدرة يستلزم حركة البدن بالقول الظاهر والعمل الظاهر ضرورة كما تقدم فمن جعل مجرد العلم والتصديق موجبا لجميع ما يدخل فى مسمى الإيمان وكل ما سمي إيمانا فقد غلط بل لا بد من العلم والحب والعلم شرط فى محبة المحبوب كما أن الحياة شرط فى العلم لكن لا يلزم من العلم بالشئ والتصديق بثبوت محبته إن لم يكن بين العالم والمعلوم معنى فى الحب أحب لأجله ولهذا كان الإنسان يصدق بثبوت

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٨٣-٨٤.

(٢) الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٧٣٤.

أشياء كثيرة ويعلمها وهو يبغضها كما يصدق بوجود الشياطين والكفار ويبغضهم ونفس التصديق بوجود الشيء لا يقتضي محبته لكن الله سبحانه يستحق لذاته أن يحب ويعبد وأن يحب لأجله رسوله والقلوب فيها معنى يقتضي حبه وطاعته كما فيها معنى يقتضي العلم والتصديق به فمن صدق به وبرسوله ولم يكن محبا له ولرسوله لم يكن مؤمنا حتى يكون فيه مع ذلك الحب له ولرسوله وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما فى القلب ولازمه ودليله ومعلوله كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضا تأثير فيما فى القلب فكل منهما يؤثر فى الآخر لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له والفرع يستمد من أصله والأصل يثبت ويقوى بفرعه كما فى الشجرة التى يضرب بها المثل لكلمة الإيمان قال تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥] وهي كلمة التوحيد والشجرة كلما قوي أصلها وعرق وروي قويت فروعها وفروعها أيضا إذا إغتنزت بالمطر والريح أثر ذلك فى أصلها وكذلك الإيمان فى القلب والإسلام علانية ولما كانت الأقوال والأعمال الظاهرة لازمة ومستلزمة للأقوال والأعمال الباطنة كان يستدل بها عليها كما فى قوله تعالى ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] فأخبر أن من كان مؤمنا بالله واليوم الآخر لا يوجدون موادين لأعداء الله ورسوله بل نفس الإيمان ينافى مودتهم فإذا حصلت المادة دل ذلك على خلل الإيمان وكذلك قوله ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا اتَّخَذُوا هُمُ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠ - ٨١] وكذلك قوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي

سَكِيلِ اللَّهِ أَؤَلِّتِكُمْ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ [الحجرات: ١٥] فأخبر تعالى أن هؤلاء هم الصادقون في قولهم آمنا ودل ذلك على أن الناس في قولهم آمنا صادق وكاذب والكاذب فيه نفاق بحسب كذبه قال تعالى في المنافقين ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] إلى قوله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] وفي يكذبون قراتان مشهورتان وفي الحديث أساس النفاق الذي يبنى عليه الكذب وقال تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وقال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧] وقال ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨] ومثل هذا كثير وبالجملة فلا يستريب من تدبر ما يقول في أن الرجل لا يكون مؤمنا بمجرد تصديق في القلب مع بغضه لله ولرسوله وإستكباره عن عبادته ومعاداته له ولرسوله^(١).

اصل الشرك في المشركين الذين فرقوا دينهم إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله

إن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ولهذا جاء في الحديث الذي في الترمذى من احب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد إستكمل الإيمان فإنه إذا كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله ودل ذلك على كمال الإيمان وذلك أن كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله وذلك عبادة الله وحده لا شريك له والعبادة تتضمن كمال الحب وكمال الذل والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ولا بد لكل حى من حب وبغض فإذا كانت محبته لمن يحبه الله وبغضه لمن يبغضه الله دل ذلك على صحة الإيمان في قلبه لكن قد يقوى ذلك وقد

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٤١-٥٤٣.

يضعف بما يعارضه من شهوات النفس واهوائها الذى يظهر في بذل المال الذى هو مادة النفس فإذا كان حبه لله وعطاؤه لله ومنعه لله دل على كمال الإيمان باطنا وظاهرا واصل الشرك فى المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله كما قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] ومن كان حبه لله وبغضه لله لا يحب إلا الله ولا يبغض إلا الله ولا يعطى إلا الله ولا يمنع إلا الله فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال يقول الله من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألتنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيننه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه وصار أحدهم يدرك بالله ويتحرك بالله بحيث أن الله يجيب مسأله ويعيده مما استعاذ منه وقد ذم فى كتابه من أحب أندادا من دونه قال تعالى ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعُجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] وذم من إتخذ الهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه وهذا قد يكون فعل القلب فقط وقد مدح تعالى وذم فى كتابه فى غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] ومثل هذا كثير فى كتاب الله وسنة رسوله وإتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعى القلوب واعمالها مثل قوله فى الحديث الصحيح المتفق عليه لا تباغضوا ولا تحاسدوا^(١).

فلا يكون ما يظهر من الأعمال ثمرة للإيمان الباطن ولا موجبا له ومن مقتضاه

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٧٥٤-٧٥٦.

وذلك أن المقتضي لهذا الظاهر إن كان هو نفس الإيمان الباطن لم يتوقف وجوده على غيره فإن ما كان معلولا للشيء وموجبا له لا يتوقف على غيره بل يلزم من وجوده وجوده فلو كان الظاهر موجب للإيمان الباطن لوجب أن لا يتوقف على غيره بل إذا وجد الموجب وجد الموجب وأما إذا وجد معه تارة وعدم أخرى أمكن أن يكون من موجب ذلك الغير وأمكن أن يكون موقوفا عليهما جميعا فإن ذلك الغير إما مستقل بالإيمان أو مشارك للإيمان وأحسن أحواله أن يكون الظاهر موقوفا عليهما معا على ذلك الغير وعلى الإيمان بل قد علم أنه يوجد بدون الإيمان كما في أعمال المنافق فحينئذ لا يكون العمل الظاهر مستلزما للإيمان ولا لازما له بل يوجد معه تارة ومع نقيضه تارة ولا يكون الإيمان علة له ولا موجبا ولا مقتضيا فيبطل حينئذ أن يكون دليلا عليه لأن الدليل لابد أن يستلزم المدلول وهذا هو الحق فإن مجرد التكلم بالشهادتين ليس مستلزما للإيمان النافع عند الله ولهذا قال النبي لسعد لما قال هو مؤمن قالا ومسلم وقال تعالى ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَ كُفْرًا﴾ [المتحنة: ١٠] فدل ذلك على أن مجرد إظهار الإسلام لا يكون دليلا على الإيمان في الباطن إذ لو كان كذلك لم تحتج المهاجرات اللاتي جئن مسلمات إلى الإمتحان ودل ذلك على أنه بالإمتحان والاختبار يتبين باطن الإنسان فيعلم أهو مؤمن أم ليس بمؤمن كما في الحديث المرفوع إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله يقول ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨] فإذا قيل الأعمال الظاهرة تكون من موجب الإيمان تارة وموجب غيره أخرى كالتكلم بالشهادتين تارة يكون من موجب إيمان القلب وتارة يكون تقية كإيمان المنافقين قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمْ الْيَوْمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] ونحن إذا قلنا هي من ثمرة الإيمان إذا كانت صادرة عن إيمان القلب لا عن نفاق قيل فإذا كانت صادرة عن إيمان إما أن يكون نفس الإيمان موجبا لها وإما أن تقف على أمر آخر فإذا كان نفس الإيمان موجبا لها

ثبت أنها لازمة لإيمان القلب معلولة لا تنفك عنه وهذا هو المطلوب وإن توقفت على أمر آخر كان الإيمان جزء السبب جعلها ثمرة للجزء الآخر ومعلولة له إذ حقيقة الأمر أنها معلولة لهما وثمرتهما فتبين أن الأعمال الظاهرة الصالحة لا تكون ثمرة للإيمان الباطن ومعلولة له إلا إذا كان موجبا لها ومقتضيا لها وحينئذ فالموجب لازم لموجبه والمعلول لازم لعلته وإذا نقصت الأعمال الظاهرة الواجبة كان ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان فلا يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب أن تعدم الأعمال الظاهرة الواجبة بل يلزم من وجود هذا كاملا وجود هذا كاملا كما يلزم من نقص هذا نقص هذا إذ تقدير إيمان تام في القلب بلا ظاهر من قول وعمل كتقدير موجب تام بلا موجبه وعلة تامة بلا معلولها وهذا ممتنع^(١).

التقية هي شعار النفاق

لواضمر المنافقون النفاق ولم يتكلموا به كانوا منافقين قال تعالى ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِنِّي أَخْرَجُ مَا تَخَذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤] وأيضا قد أخبر الله عنهم أنهم يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم وأنهم كاذبون فقال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] وقال تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وقد قال النبی الاسلام علانية والايمان فى القلب وقد قال الله تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] وفى الصحيحين عن سعد أن النبی أعطى رجالا ولم يعط رجلا فقلت يا رسول الله أعطيت فلانا وفلانا وتركت فلانا وهو مؤمن فقال أو مسلم مرتين أو ثلاثا^(٢).

فالمنافق لما أتى بظاهر الاسلام دون حقائق الايمان لم ينفعه ذلك وكان من أهل

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٨١-٥٨٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٥٧.

الخسران بل كان فى الدرك الأسفل من النار قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

[البقرة: ٨ - ٩] الآيات فان الله أنزل فى أول سورة البقرة اربع آيات فى صفة المؤمنين وآيتين فى صفة الكافرين وبضع عشرة آية فى صفة المنافقين وقال تعالى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

[المنافقون: ١] السورة وقال تعالى ﴿لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] الآية والملاحظة يظهر من موافقة المسلمين ويبطنون خلاف ذلك وهم شر من المنافقين فان المنافقين نوعان نوع يظهر الايمان ويبطن الكفر ولا يدعى أن الباطن الذى يبطنه من الكفر هو حقيقة الايمان والملاحظة تدعى أن ما تبطنه من الكفر هو حقيقة الايمان وإن الانبياء والأولياء هم من جنسهم ويبطنون ما يبطنونه مما هو كفر وتعطيل فهم يجمعون بين ابطان الكفر وبين دعواهم ان ذلك الباطن هو الايمان عند أهل العرفان فلا يظهر من للمستجيب لهم ان باطنه طعن فى الرسول والمؤمنين وتكذيب له بل يجعلون ذلك من كمال الرسول وتمام حاله وان الذى فعله هو الغاية فى الكمال وأنه لا يفعله الا أكمل الرجال من سياسة الناس على السيرة العادلة وعمارة العالم على الطريقة الفاضلة وهذا قد يظنه طوائف حقا باطنا وظاهرا فيؤول أمرهم إلى أن يكون النفاق عندهم هو حقيقة الايمان وقد علم بالاضطرار أن النفاق ضد الايمان ولهذا كان أعظم الأبواب التى يدخلون منها باب التشيع والرفض لأن الرفضة هم أجهل الطوائف وأكذبها وأبعدها عن معرفة المنقول والمعقول وهم يجعلون التقية من أصول دينهم ويكذبون على أهل البيت كذبا لا يحصيه الا الله حتى يرووا عن جعفر الصادق أنه قال التقية دينى ودين آبائى والتقية هى شعار النفاق فان حقيقتها عندهم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم وهذا حقيقة النفاق ثم اذا كان هذا من اصول دينهم صار كل ما ينقله الناقلون عن على أو غيره من أهل البيت مما فيه موافقة أهل السنة والجماعة يقولون هذا قالوه على سبيل التقية ثم فتحوا باب النفاق للقرامطة الباطنية

الفلاسفة من الاسماعيلية والنصيرية ونحوهم فجعلوا ما يقوله الرسول هو من هذا الباب أظهر به خلاف ما أبطن وأسر به خلاف ما أعلن فكان حقيقة قولهم أن الرسول هو امام المنافقين وهو الصادق المصدوق المبين للناس ما نزل اليهم المبلغ لرسالة ربه المخاطب لهم بلسان عربى مبين قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤] وقال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣] وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [النجم: ١٧] وقال تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَذًا ﴾ [مريم: ٩٧]^(١).

فان الله قد ذكر في سورة التوبة وغيرها من علامات المنافقين وصفاتهم أموراً متعددة كقوله ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِي وَلَا نَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة: ٤٩] وقوله ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨] وقوله ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦١] ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [التوبة: ٧٥] إلى قوله ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٧] إلى أمثال ذلك من الصفات التي يصف بها المنافقين وذكر علاماتهم وذكر الأسباب الموجبة للنفاق وكل ما كان موجبا للنفاق فهو دليل عليه وعلامة له وقد كان من علامتهم التخلف عن الجماعة كما في الصحيح عن ابن مسعود انه قال أيها الناس حافظوا على هؤلاء الصلوات الخمس حيث ينادى بهن فإنهن من سنن الهدى وان الله شرع لنبية سنن الهدى وإنكم لو صليتم في بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصفو عامة علامات النفاق وأسبابه ليست في أحد من أصناف

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٢٦٢-٢٦٥.

الامة اظهر منها في الرافضة حتى يوجد فيهم من النفاق الغليظ الظاهر ما لا يوجد في غيرهم وشعار دينهم التقية التي هي أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه وهذا علامة النفاق كما قال الله تعالى ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَنْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمُ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿[آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧] وقال تعالى ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولَاؤُا﴾ [التوبة: ٧٤] وقال تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] وفيها قراءتان يكذبون ويكذبون وفي الجملة فعلامات النفاق مثل الكذب والخيانة وإخلاف الوعد والغدر لا يوجد في طائفة أكثر منها في الرافضة وهذا من صفاتهم القديمة حتى أنهم كانوا يغدرون بعلي والحسن والحسين وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر وهذا لبسطه موضوع آخر^(١).

المنافق عمله حابط في الآخرة

والمنافق عمله حابط في الآخرة وإن المنافقين وصفهم بكفر في قلوبهم وأنهم يبتغون خلاف ما يظهرون كما قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿[البقرة: ٨ - ١٠] الآيات وقال ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] فالمنافقون يصفهم في القرآن بالكذب وأنهم يقولون بأفواههم

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ١٥٠-١٥٣.

ما ليس فى قلوبهم وبأن فى قلوبهم من الكفر ما يعاقبون عليه^(١).
أن الإيمان الظاهر الذى تجرى عليه الأحكام فى الدنيا لا يستلزم الإيمان فى الباطن
الذى يكون صاحبه من اهل السعادة فى الآخرة فان المنافقين الذين قالوا ﴿ءَامَنَّا بِاللّٰهِ
وَبِالرَّسُولِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] هم فى الظاهر مؤمنون يصلون مع الناس
ويصومون ويحجون ويغزون والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم كما كان المنافقون على
عهد رسول الله ولم يحكم النبى ﷺ فى المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر لافى
مناكحتهم ولا موارثتهم ولا فحوذلك بل لما مات عبدالله بن أبى بن سلول وهو من اشهر
الناس بالنفاق ورثه ابنه عبدالله وهو من خيار المؤمنين وكذلك سائر من كان يموت منهم
يرثه ورثته المؤمنون واذا مات لأحدهم وارث ورثوه مع المسلمين وقد تنازع الفقهاء فى
المنافق الزنديق الذى يكتنم زندقته هل يرث ويورث على قولين والصحيح أنه يرث
ويورث وإن علم فى الباطن أنه منافق كما كان الصحابة على عهد النبى ﷺ لأن الميراث
مبناه على الموالاة الظاهرة لا على المحبة التى فى القلوب فإنه لو علق بذلك لم تمكن
معرفة والحكمة اذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها وهو ما أظهره من موالاة
المسلمين فقول النبى لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم لم يدخل فيه المنافقون وان
كانوا فى الآخرة فى الدرك الأسفل من النار بل كانوا يورثون ويرثون وكذلك كانوا فى
الحقوق والحدود كسائر المسلمين وقد أخبر الله عنهم أنهم يصلون ويذكرون ومع هذا لم
يقبل ذلك منهم فقال ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ
وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] وقال ﴿إِنَّ
الْمُتَفَقِّهِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا
يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ قال تلك صلاة المنافق
تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى شيطان قام
فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً وكانوا يخرجون مع النبى فى المغازى كما خرج ابن

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٤٣.

أبى فى غزوة بنى المصطلق وقال فيها ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] وفى الصحيحين عن زيد بن أرقم قال خرجنا مع النبى فى سفر اصاب الناس فيها شدة فقال عبدالله بن أبى لأصحابه لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله وقال ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] فأتيت النبى فأخبرته فأرسل إلى عبدالله بن أبى فسأله فاجتهد يمينه ما فعل وقالوا كذب زيد يا رسول الله فوقع فى نفسى مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقى فى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِّقُونَ﴾ [المنافقون: ١] فدعاهم النبى ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم وفى غزوة تبوك استنفرهم النبى كما إستنفر غيرهم فخرج بعضهم معه وبعضهم تخلفوا وكان فى الذين خرجوا معه من هم بقتله فى الطريق هموا بجل حزام ناقلته ليقع فى واد هناك فجاءه الوحى فأسر إلى حذيفة أسماءهم ولذلك يقال هو صاحب السر الذى لا يعلمه غيره كما ثبت ذلك فى الصحيح ومع هذا ففى الظاهر تجرى عليهم أحكام أهل الإيمان وبهذا يظهر الجواب عن شبهات كثيرة تورد فى هذا المقام فإن كثيرا من المتأخرين ما بقى فى المظهرين للإسلام عندهم إلا عدل أو فاسق وأعرضوا عن حكم المنافقين والمنافقون ما زالوا ولا يزالون إلى يوم القيامة والنفاق شعب كثيرة وقد كان الصحابة يخافون النفاق على أنفسهم ففى الصحيحين عن النبى قال آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وفى لفظ مسلم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم وفى الصحيحين عن عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه شعبة منهم كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا ائتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر وكان النبى ﷺ أولا يصلى عليهم ويستغفر لهم حتى نهاه الله عن ذلك فقال ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقَمِّ عَلَى قَبْرِهٖ﴾ [التوبة: ٨٤] وقال ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] فلم يكن يصلى عليهم ولا يستغفر لهم ولكن دماؤهم وأموالهم معصومة لا يستحل منهم ما يستحله من الكفار الذين لا يظهرون أنهم مؤمنون بل يظهرون الكفر

دون الإيمان فإنه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ولما قال لأسامة بن زيد اقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله قال إنما قالها تعودا قال هلا شققت عن قلبه وقال إنى لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا اشتق بطونهم وكان إذا استؤذن فى قتل رجل يقول أليس يصلى أليس يتشهد فإذا قيل له أنه منافق قال ذاك فكان حكمه فى دمائهم وأموالهم كحكمه فى دماء غيرهم لا يستحل منها شيئا إلا بامر ظاهر مع أنه كان يعلم نفاق كثير منهم وفيهم من لم يكن يعلم نفاقه قال تعالى ﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١] وكان من مات منهم صلى عليه المسلمون الذين لا يعلمون أنه منافق ومن علم أنه منافق لم يصل عليه وكان عمر إذا مات ميت لم يصل عليه حتى يصلى عليه حذيفة لأن حذيفة كان قد علم أعيانهم^(١).

أنه لم يثبت المدح الا على إيمان معه العمل لا على ايمان خال عن عمل قال حدثنا اسحاق حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن عبدالكريم الجزرى عن مجاهد أن أبا ذر سأل النبى ﷺ عن الايمان فقرا عليه ﴿لَيْسَ الْإِيمَانُ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى آخر الآية وروى ابن بطة باسناده عن مبارك بن حسان قال قلت لسالم الأفطس رجل أطاع الله فلم يعصه ورجل عصى الله فلم يطعه فصار المطيع إلى الله فأدخله الجنة وصار العاصى إلى الله فأدخله النار هل يتفاضلان فى الايمان قال لا قال فذكرت ذلك لعطاء فقال سلهم الايمان طيب أو خبيث فان الله قال ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧] فسألتهم فلم يجيبونى فقال بعضهم ان الايمان يبطن ليس معه عمل فذكرت ذلك لعطاء فقال سبحان الله أما يقرؤون الآية التى فى البقرة ﴿لَيْسَ الْإِيمَانُ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ﴾

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢١٠-٢١٣.

أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
 وَالنَّبِيِّينَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾ قال ثم وصف الله على هذا الاسم ما لزمه من العمل فقال
 ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ
 وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى قوله ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فقال سلهم هل
 دخل هذا العمل فى هذا الاسم وقال ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾
 [الإسراء: ١٩] فالزم الاسم العمل والعمل الاسم والمقصود هنا أنه لم يثبت المدح الا على
 ايمان معه العمل لا على ايمان خال عن عمل فاذا عرف أن الذم والعقاب واقع فى ترك
 العمل كان بعد ذلك نزاعهم لا فائدة فيه بل يكون نزاعا لفظيا مع أنهم مخطئون فى اللفظ
 مخالفون للكتاب والسنة وان قالوا انه لا يضره ترك العمل فهذا كفر صريح وبعض
 الناس يحكى هذا عنهم وأنهم يقولون ان الله فرض على العباد فرائض ولم يرد منهم أن
 يعملوها ولا يضرهم تركها وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون لا يدخل النار من
 أهل التوحيد أحد لكن ما علمت معينا أحكى عنه هذا القول وانما الناس يحكونه فى
 الكتب ولا يعينون قائله وقد يكون قول من لا خلاق له فان كثيرا من الفساق والمنافقين
 يقولون لا يضر مع الايمان ذنب أو مع التوحيد وبعض كلام الرادين على المرجئة وصفهم
 بهذا ويدل على ذلك قوله تعالى فى آخر الآية ﴿وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾
 [البقرة: ١٧٧] فقوله صدقوا أى فى قولهم آمنوا كقوله ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ
 قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] إلى قوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ
 الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] أى هم الصادقون فى قولهم آمنّا بالله بخلاف الكاذبين
 الذين قال الله فيهم ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
 إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وقال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ
 وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فى قلوبهم

مَرَضُ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿البقرة: ٨ - ١٠﴾ وفى ﴿يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] البقرة قراءتان مشهورتان فانهم كذبوا فى قولهم آمنا بالله واليوم الآخر وكذبوا الرسول فى الباطن وان صدقوه فى الظاهر وقال تعالى ﴿الْمَلَأْنَا قُلُوبَهُمْ كِبًا فَشَطَا عَنْ رَسُولِهِ﴾ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت: ١ - ٣] فبين أنه لابد أن يفتن الناس أى يمتحنهم وابتليهم ويختبرهم يقال فتنت الذهب اذا أدخلته النار لتمييزه مما اختلط به ومنه قول موسى ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ ﴿١٥٥﴾ [الأعراف: ١٥٥] أى محتتك واختبارك وابتلاؤك كما ابتليت عبادك بالحسنات والسيئات ليتبين الصبار الشكور من غيره وابتليتهم بارسال الرسل وانزال الكتاب ليتبين المؤمن من الكافر والصادق من الكاذب والمنافق من المخلص فتجعل ذلك سببا لضلالة قوم وهدى آخرين والقرآن فيه كثير من هذا يصف المؤمنين بالصدق والمنافقين بالكذب لأن الطائفتين قالتا بالستهما آمنا فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق ومن قال بلسانه ما ليس فى قلبه فهو كاذب منافق قال تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٦ - ١٦٧﴾ فلما قال فى آية البر ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] دل على أن المراد صدقوا فى قولهم آمنا فان هذا هو القول الذى أمروا به وكانوا يقولونه ^(١).

وقد مدح تعالى وذم فى كتابه فى غير موضع على المحبة والارادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] ومثل هذا كثير فى كتاب الله وسنة رسوله واتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب وأعمالها بل قول

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٨٤.

القلب وعمله هو الأصل مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ومنه ما لا يقترن به ذلك الا مع الفعل بالجوارح الظاهرة اذا كانت مقدورة وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل^(١).

ان المرض والنفاق فى القلب يوجب الريب فى الأنباء الصادقة
وان المنافق لابد أن تختلف سريره وعلايته وظاهره وباطنه ولهذا يصفهم الله فى كتابه بالكذب كما يصف المؤمنين بالصدق قال تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] وقال ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وأمثال هذا كثير وقال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وقال ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ فَقَلَّ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]^(٢).

قال الله تعالى ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] فالذين فى قلوبهم مرض فقد تكرر ذكرهم فى هذه السورة فذكروا هنا وفى قوله ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠] وفى قوله ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] وذكر الله مرض القلب فى مواضع فقال تعالى ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩] والمرضى فى القلب كالمريض فى الجسد فكما أن هذا هو إحالة عن الصحة والإعتدال من غير موت فكذلك قد يكون فى القلب مرض يحيله عن الصحة والإعتدال من غير أن يموت القلب سواء أفسد إحساس القلب وإدراكه أو أفسد عمله وحركته وذلك كما

(١) الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٨٥.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٢١.

فسروه هو من ضعف الإيمان إما بضعف علم القلب وإما بضعف عمله وحركته فيدخل فيه من ضعف تصديقه ومن غلب عليه الجبن والفرع فإن أدواء القلب من الشهوة المحرمة والحسد والجبن والبخل وغير ذلك كلها أمراض وكذلك الجهل والشكوك

والشبهات التي فيهو على هذا فقله ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] هو إردة الفجور وشهوة الزنا كما فسروه به ومنه قول النبي وأى داء أدوأ من البخل وقد جعل الله تعالى كتابه شفاء لما فى الصدور وقال النبي ﷺ إنما شفاء العي السؤال وكان يقول فى دعائه اللهم إنى اعوذ بك من منكرات الاخلاق والأهواء والأدواء ولن يخاف الرجل غير الله الا لمرض فى قلبه كما ذكروا ان رجلا شكأ إلى احمد بن حنبل خوفا من بعض الولاة فقال لو صححت لم تخف احدا اى خوفك من اجل زوال الصحة من قلبك ولهذا أوجب الله على عباده ان لا يخافوا حزب الشيطان بل لا يخافون غيره تعالى فقال ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] اى

يخوفكم أولياءه وقال لعموم بنى اسرائيل تنبئها لنا ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْتَأْسَ وَآخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال ﴿لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَآخْشَوْنِ﴾ [البقرة: ١٥٠] وقال تعالى ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَآخْشَوْنَ﴾ [المائدة: ٣] وقال ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨] ^(١).

وقال ﴿الَّذِينَ يُلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وقال ﴿أَلَا تَقْبَلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً كَرِهَ اللَّهُ فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣] فدللت هذه الآية وهى قوله تعالى ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩] على ان المرض والنفاق فى القلب يوجب الريب فى الأنباء الصادقة التى توجب امن

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٤٤٨-٤٥٠.

الانسان من الخوف حتى يظنوا انها كانت غرورا لهم.

والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم
النافع

والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع
كقوله ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨] وقال ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ
طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] وقال ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ أَنَّهُآ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٩) وَنُقَلِّبُ
أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصِرُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠]
وقال ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وقال ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾
[الصف: ٥] (١).

فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم

فمن يتبع من الحق ما علمه يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق فمن عمل بما
علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾
[محمد: ١٧] وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْئًا﴾ (٦٦) وَإِذَا
لَا تَنبِيْهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿[النساء: ٦٦ - ٦٨] وقال تعالى
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرِسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِّنْ رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ
بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨] وقال تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦] وشواهد هذا كثيرة
فى الكتاب والسنة وكذلك من اعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعوا لهواه فان ذلك

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٥٢.

يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ
 اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] وقال تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ
 مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وقال تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا
 الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٨] وَنُقِلَبُ أَفْتَدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ
 أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠].

وهذا استفهام نفى وانكار اي وما يدريكم انها اذا جاءت لا يؤمنون وانا نقلب
 افئتدهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة على قراءة من قرأ انها بالكسر تكون جزما
 بأنها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلب افئتدهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ولهذا قال
 من قال من السلف كسعيد بن جبير ان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وان من عقوبة
 السيئة السيئة بعدها وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي انه
 قال عليكم بالصدق فان الصدق يهدي إلى البر وان البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل
 يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وياكم والكذب فان الكذب يهدي
 إلى الفجور وان الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى
 يكتب عند الله كذابا فأخبر النبي ان الصدق اصل يستلزم البر وان الكذب يستلزم
 الفجور وقد قال تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [١٣] وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الأنفطار: ١٣ - ١٤] ولهذا
 كان بعض المشائخ اذا امر بعض متبعيه بالتوبة واحب ان لا ينفره ولا يشعب قلبه امره
 بالصدق ولهذا كان يكثر في كلام مشائخ الدين وائتمته ذكر الصدق والاخلاص حتى
 يقولون قل لمن لا يصدق لا يتبعني ويقولون الصدق سيف الله في الارض وما وضع
 على شيء الا قطعه ويقول يوسف بن اسباط وغيره ما صدق الله عبد الا صنع له وأمثال
 هذا كثير والصدق والاخلاص هما في الحقيقة تحقيق الايمان والاسلام فان المظهرين
 الاسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق والفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق فان اساس
 النفاق الذي يبنى عليه هو الكذب ولهذا اذا ذكر الله حقيقة الايمان نعتة بالصدق كما في
 قوله تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] إلى

قوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وقال تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] فأخبر ان الصادقين في دعوى الايمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب ايمانهم ريبة وجاهدوا في سبيله باموالهم وانفسهم وذلك ان هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين كما قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] قال ابن عباس ما بعث الله نبيا الا اخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وامره ان ياخذ الميثاق على امته لئن بعث محمد وهم احياء ليؤمنن به ولينصرنه وقال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] فذكر تعالى انه انزل الكتاب والميزان وانه انزل الحديد لاجل القيام بالقسط وليعلم الله من ينصره ورسله ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر وكفى بربك هاديا ونصيرا والكتاب والحديد وان اشتركا في الانزال فلا يمنع ان يكون احدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر حيث نزل الكتاب من الله كما قال تعالى ﴿نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [البقرة: ٢] وقال تعالى ﴿الرَّكَنُ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١] وقال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتُلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] والحديد أنزل من الجبال التي خلق فيها وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هو جامع الدين في قوله تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] الي قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

[البقرة: ١٧٧] وأما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب في آيات متعددة كقوله تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠] وقوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١] وقوله تعالى ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٧] ونحو ذلك في القرآن كثير ومما ينبغي ان يعرف ان الصدق والتصديق يكون في الاقوال وفي الاعمال كقول النبي وآله وسلم في الحديث الصحيح كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليدان تزنيان وزناهما البطش والرجلان تزنيان وزناهما المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ويقال حملوا على العدو حملة صادقة اذا كانت ارادتهم للقتال ثابتة جازمة ويقال فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك ولهذا يريدون بالصادق الصادق في ارادته وقصده وطلبه وهو الصادق في عمله ويريدون الصادق في خبره وكلامه والمنافق ضد المؤمن الصادق وهو الذي يكون كاذبا في خبره أو كاذبا في عمله كالمرائي في عمله قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢ مَذْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا يَهْدِهِ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢ - ١٤٣] (١).

مرض القلوب وتزكيتها

قال الله تعالى عن المنافقين ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠] وقال تعالى ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣] وقال ﴿ لَنْ يَنْفَعَكَ الْيَتِيمَ الْمُنْكَفِرُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٠-١٥ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ٣٩-٤١ والتحفة العراقية ج: ١ ص: ٣٩

بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ [الأحزاب: ٦٠] وقال ﴿وَلَا يَرَانِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^١
وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴿[المدثر: ٣١] وقال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] وقال ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^٢ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿[الإسراء: ٨٢] وقال ﴿وَيَشِفُّ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾^٣ وَيَذْهَبُ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ ﴿[التوبة: ١٤ - ١٥] ومرض البدن خلاف صحته وصلاحه وهو فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية فادراكه إما ان يذهب كالعمى والصمم واما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه كما يدرك الحلو مرا وكما يخيل اليه أشياء لا حقيقة لها فى الخارج وأما فساد حركته الطبيعية فمثل ان تضعف قوته عن الهضم أو مثل ان يبغض الأغذية التى يحتاج اليها ويحب الأشياء التى تضره ويحصل له من الآلام بحسب ذلك ولكن مع ذلك المرض لم يمت ولم يهلك بل فيه نوع قوة على إدراك الحركة الارادية فى الجملة فيتولد من ذلك ألم يحصل فى البدن إما بسبب فساد الكمية أو الكيفية فالأول اما نقص المادة فيحتاج إلى غذاء واما بسبب زياداتها فيحتاج إلى استفرغ والثانى كقوة فى الحرارة والبرودة خارج عن الاعتدال فيدأوى فصل وكذلك مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسر به تصويره وإرادته فتصوره بالشبهات التى تعرض له حتى لا يرى الحق وأيراه على خلاف ما هو عليه وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب كما فسر مجاهد وقتادة قوله ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] أى شك وتارة وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] ولهذا صنف الخرائطى كتاب اعتلال القلوب أى مرضها واراد به مرضها بالشهوة والمريض يؤذي الصحيح فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك من الأمور التى لا يقوى عليها لضعفه بالمرض والمرض فى الجملة يضعف المريض يجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوى والصحة، تحفظ بالمثل وتزال بالضد والمرض يقوى بمثل سببه ويزول بضده فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد ضعف قوته حتى ربما يهلك وان حصل له ما

يقوى القوة ويزيل المرض كان بالعكس ومرض القلب ألم يحصل فى القلب كالغيظ من عدواستولى عليك فان ذلك يؤلم القلب قال الله تعالى ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥] فشفأؤهم يزوال ما حصل فى قلوبهم من الألم ويقال فلان شفى غيظه وفى القود استشفاء أولياء المقتول ونحو ذلك فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن وكل هذه آلام تحصل فى النفس وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب قال النبى هلا سألوا إذا لم يعلموا فانما شفاء العى السؤال والشاك فى الشئ المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ويقال للعالم الذى أجاب بما يبين الحق قد شفانى بالجواب والمرض دون الموت فالقلب يموت بالجهل المطلق ويمرض بنوع من الجهل فله موت ومرض وحياة وشفاء وحياته وموته ومرضه وشفأؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفأؤه فلهذا مرض القلب اذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه وان حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفأؤه قال تعالى ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣] لأن ذلك أورث شبهة عندهم والقاسية قلوبهم ليسها فأولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض فصار ملقى الشيطان فتنة لهم وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الايمان فصار فتنة لهم وقال ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠] كما قال وقال ﴿وَلَقَوْلِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [المدثر: ٣١] لم تمت قلوبهم كموت الكفار والمنافقين وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين بل فيها مرض شبهة وشهوات وكذلك ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] وهو مرض الشهوة فان القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت اليها بخلاف القلب المريض بالشهوة فانه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه فذا خضعن بالقول طمع الذى فى قلبه مرض والقرآن شفاء لما فى الصدور ومن فى قلبه امراض الشبهات والشهوات ففيه من البيئات مايزيل الحق من الباطل فيزيل امراض الشبهة المفسدة للعلم والتصوير والأدراك بحيث يرى الأشياء على ما هى عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التى

فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغي بعد ان كان مريدا للغي مبغضا للرشاد فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للارادات الفاسده حتى يصلح القلب فتصلح ارادته ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي ويغتذى القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذى البدن بما ينميهِ ويقومه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن والزكاة في اللغة النماء والزيادة في الصلاح يقال زكا الشيء اذا نما في الصلاح فالقلب يحتاج ان يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن ان يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره كذلك القلب لا يزكو في نمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا والصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب قال الله تعالى ﴿حُذِّمْنَ أَمْوَالُهُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب وكذلك ترك المعاصي فانها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن ومثل الدغل في الزرع فاذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعه واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب اذا تاب من الذنوب كتن استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر سيئا فاذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل قال تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] وقال تعالى ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَنْزِعُوا فَأَنْزِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨] وقال ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠] وقال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [١] وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠] وقال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ [١٤] وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٥] وقال تعالى ﴿وَمَا يَذُرْ بِكَ لَعَلَّهٖ يَرْزُقْكَ﴾ [عبس: ٣] وقال تعالى ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى﴾ [١٨] وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشَى﴾ [النازعات: ١٨ - ١٩] فالتزكية وان كان اصلها النماء والبركة

وزيادة الخير فانما تحصل بازالة الشر فلهذا صار التزكى يجمع هذا وهذا وقال ﴿وَوَيْلٌ
لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿[فُصِّلَتْ: ٦ - ٧] وهى التوحيد
والايمان الذى به يزكو القلب فانه يتضمن نفى إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات
الحق فى القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله وهذا أصل ما تزكوبه القلوب والتزكية جعل
الشئ زكيا إنما فى ذاته وإما فى الاعتقاد والخبر^(١).

أن صلاح حال الإنسان فى العدل كما ان فساده فى الظلم وأن الله سبحانه عدله
وسواه لما خلقه وصحة جسمه وعافيته من اعتدال اخلاطه واعضائه ومرض ذلك
الانحراف والميل وكذلك استقامة القلب واعتداله واقتصاده وصحته وعافيته وصلاحه
متلازمة كقوله تعالى عن المنافقين ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بِمَا
كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿[البقرة: ١٠] وما ذكر الله من مرض القلوب وشفائها بمنزلة ما ذكر من
موتها وحياتها وسمعها وبصرها وعقلها وصممها وبكمها وعمائها لكن المقصود مرض
القلب فنقول المرض نوعان فساد الحس وفساد الحركة الطبيعية وما يتصل بها من الإرادية
وكل منهما يحصل بفقد ألم وعذاب فكما أنه مع صحة الحس والحركة الإرادية والطبيعية
تحصل اللذة والنعمة فكذلك بفسادها يحصل الألم والعذاب ولهذا كانت النعمة من النعيم
وهو ما ينعم الله به على عباده مما يكون فيه لذة ونعيم وقال التكاثر لتسألن يومئذ عن
النعيم أي عن شكره فسبب اللذة إحساس الملائم وسبب الألم إحساس المنافي ليس اللذة
والألم نفس الإحساس والإدراك وإنما هو نتيجه وثمرته ومقصوده وغايته فالمرض فيه ألم
لا بد منه وإن كان قد يسكن احيانا لمعارض راجح فالمقتضى له قائم يهيج بأدنى سبب
فلا بد فى المرض من وجود سبب الألم وإنما يزول الألم بوجود المعارض والراجح ولذة
القلب وألمه أعظم من لذة الجسم وألمه أعني ألمه ولذته النفسانيين وإن كان قد يحصل فيه
من الألم من جنس ما يحصل فى سائر البدن بسبب مرض الجسم فذلك شيء آخر فلذلك
كان مرض القلب وشفاءه اعظم من مرض الجسم وشفائه فتارة يكون من جملة الشبهات

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٩٢-٩٧ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ٣-٥.

ففي قلوب المنافقين المرض من هذا الوجه من جهة فساد الاعتقادات وفساد الإرادات قلبه وألمه فكما أن الإنسان إذا صار لا يسمع بأذنه ولا يبصر بعينه كان ذلك مرضاً مؤلماً له بما يفوته من المصالح ويحصل له من المضار فكذلك إذا لم يسمع ولم يبصر ولم يعلم بقلبه الحق من الباطل ولم يميز بين الخير والشر والعي والرشاد كان ذلك من أعظم أمراض^(١).

النفاق يتبع بعض والكفر يتبع بعض ويزيد وينقص كما ان الايمان يتبع بعض ويزيد وينقص

ان الأمور المذمومة في الشريعة هو ما ترجح فسادُه على صلاحه كما أن الأمور الحمودة ما ترجح صلاحه على فسادِه فالحسنات تغلب فيها المصالح والسيئات تغلب فيها المفاسد والحسنات درجات بعضها فوق بعض والسيئات بعضها أكبر من بعض فكما أن أهل الحسنات ينقسمون إلى الأبرار المقتصدين والسابقين المقربين فأهل السيئات ينقسمون إلى الفجار الظالمين والكفار المكذبين وكل من هؤلاء هم درجات عند الله ومن المعلوم أن الحسنات كلما كانت أعظم كان صاحبها أفضل فإذا انتقل الرجل من حسنة إلى أحسن منها كان في مزيد التقريب وإن انتقل إلى ما هو دونها كان في التأخر والرجوع وكذلك السيئات كلما كانت أعظم كان صاحبها أولى بالغضب واللعنة والعقاب قال تعالى في السيئات ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]^(٢).

النفاق يتبع بعض والكفر يتبع بعض ويزيد وينقص كما ان الايمان يتبع بعض ويزيد وينقص
قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧] وقال ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿

(١) أمراض القلوب ج: ١ ص: ٢٩ ومجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٣٩.

(٢) الاستقامة ج: ١ ص: ٤٦٢.

[التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] وقال ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٨]

وقال ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] ^(١).

ويعاقب على كل من الذنوب بالآخر كما قال ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] ^(٢).

فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى وكذلك يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا السَّيِّئُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧] وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَنَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧] وقال تعالى في المنافقين ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] فبين سبحانه وتعالى ان الشخص الواحد قد يكون فيه قسط من ولاية الله بحسب إيمانه وقد يكون فيه قسط من عداوة الله بحسب كفره ونفاقه وقال تعالى ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١] وقال تعالى ﴿لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] ^(٣).

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]

فالمنافقون الذين يظهرون خلاف ما يبطنون يعاقبون على أنهم لم تؤمن قلوبهم بل أضمرت الكفر قال تعالى ﴿يَقُولُونَ بِالسِّتَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١] وقال ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] وقال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] فالمنافق لابد أن يظهر في قوله وفعله ما يدل على نفاقه وما أضمره كما قال عثمان بن عفان ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفتلات لسانه وقد قال تعالى عن المنافقين ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [محمد: ٣٠] ثم قال ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] وهو جواب قسم محذوف أي والله لتعرفهم في

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١٨٨.

(٢) رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٢٩.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٧٥.

لحن القول فمعرفة المنافق في لحن القول لا بد منها وأما معرفته بالسيما فموقوفة على المشيئة^(١).

اصل الصلاح التوحيد والإيمان وأصل الفساد الشرك والكفر
فإن الله أمر بالصلاح ونهى عن الفساد وبعث رسله بتحصيل المصالح وتكميلها
وتعطيل المفاسد وتقليلها ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وقال شعيب ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]
وقال تعالى ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥] وقال تعالى ﴿وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢]^(٢).
وقوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١] أي لا تعلموا بمعصية الله
تعالى فكل من عمل بمعصية الله فهو مفسد والمحرمات معصية الله فالشارع ينهى عنه ليمنع
الفساد ويدفعه^(٣).

فقد جاء في الحديث الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل وروى أن هذه
الآية نزلت في أهل الرياء ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾
[التكليف: ١١٠] وكان شداد بن أوس يقول يا بقايا العرب يا بقايا العرب إنما أخاف عليكم
الرياء والشهوة الخفية قال أبو داود السجستاني صاحب السنن المشهورة الخفية حب
الرياسة وذلك أن حب الرياسة هو أصل البغى والظلم ما أن الرياء هو من جنس الشرك
أو مبدأ الشرك والشرك أعظم الفساد كما أن التوحيد أعظم الصلاح ولهذا قال تعالى
﴿إِنْ فَرَعَوْتَ عِلَّا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِيعُ ابْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي
نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] إلى أن ختم السورة بقوله ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ
بُجِعْتُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] وقال ﴿مِنْ أَجْلِ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٤٠.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ٢٦٦.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ٢٦٦.

ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾ [المائدة: ٣٢] وقالت الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فاصل الصلاح التوحيد والإيمان وأصل الفساد الشرك والكفر كما قال عن المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢] وذلك أن صلاح كل شيء أن يكون بحيث يحصل له وبه المقصود الذي يراد منه ولهذا يقول الفقهاء العقد الصحيح ما ترتب عليه أثره وحصل به مقصوده والفساد ما لم يترتب عليه أثره ولم يحصل به مقصود والصحيح المقابل للفساد اصطلاحهم هو الصالح وكان يكثر في كلام السلف هذا لا يصلح أو يصلح كما كثر في كلام المتأخرين يصلح ولا يصلح والله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته وبدنه تبع لقلبه كما قال النبي في الحديث الصحيح ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب وصلاح القلب فى أن يحصل له وبه المقصود الذى خلق له من معرفة الله ومحبه وتعظيمه وفساده فى ضد ذلك فلا صلاح للقلوب بدون ذلك قط والقلب له قوتان العلم والقصد كما أن للبدن الحس والحركة الإرادية فكما أنه متى خرجت قوى الحس والحركة عن الحال الفطرى الطبيعى فسدت فإذا خرج القلب عن الحال الفطرية التى يولد عليها كل مولود وهى أن يكون مقرا لربه مريدا له فيكون هو منتهى قصده وإرادته وذلك هى العبادة إذ العبادة كمال الحب بكمال الذل فمتى لم تكن حركة القلب ووجهه وإرادته لله تعالى كان فاسدا إما بأن يكون معرضا عن الله وعن ذكره غافلا عن ذلك مع تكذيب أو بدون تكذيب أو بان يكون له ذكر وشعور ولكن قصده وإرادته غيره لكون الذكر ضعيفا لم يجتذب القلب إلى إرادة الله ومحبه وعبادته وإلا فمتى قوى علم القلب وذكره أوجب قصده وعلمه قال تعالى ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَّن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩ - ٣٠] فأمر نبيه بأن يعرض عمن كان معرضا عن ذكر الله ولم يكن له مراد إلا ما يكون فى الدنيا وهذه حال من فسد قلبه ولم يذكر ربه ولم ينب إليه فيريد وجهه ويخلص له الدين ثم قال ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾

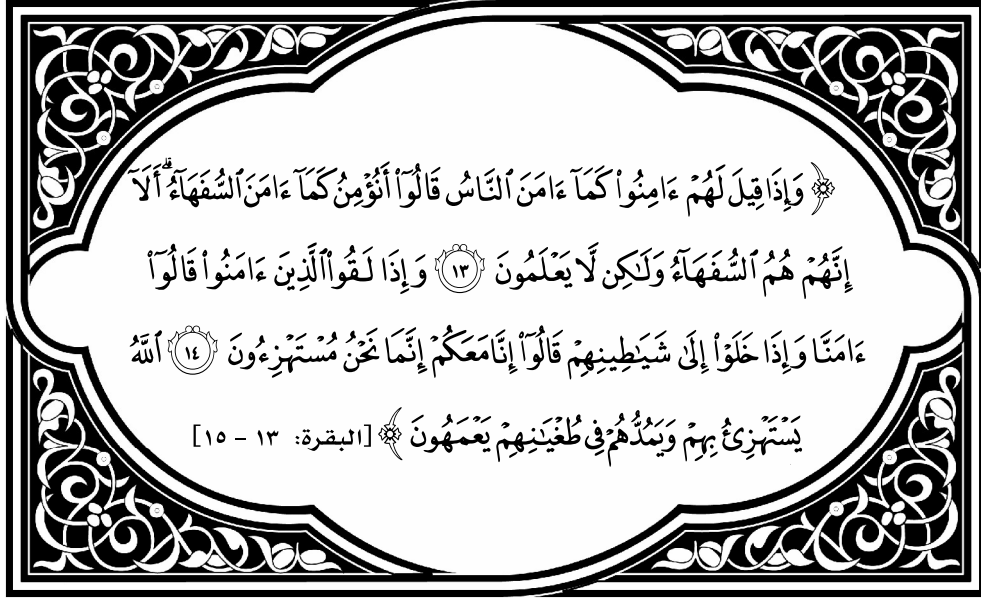
[النجم: ٣٠] فأخبر أنهم لم يحصل لهم علم فوق ما يكون في الدنيا فهي أكبر همهم ومبلغ علمهم وأما المؤمن فأكبر همه هو الله وإليه إنتهى علمه وذكره وهذا الآن باب لواسع عظيم قد تكلمنا عليه في مواضعه وإذا كان التوحيد أصل صلاح الناس والإشراك أصل فسادهم والقسط مقرون بالتوحيد إذ التوحيد أصل العدل وإرادة العلو مقرونة بالفساد إذ هو أصل الظلم فهذا مع هذا وهذا مع هذا كالملازمين في قرن فالتوحيد وما يتبعه من الحسنات هو صلاح وعدل ولهذا كان الرجل الصالح هو القائم بالواجبات وهو البر وهو العدل والذنوب التي فيها تفريط أو عدوان في حقوق الله تعالى وحقوق عباده هي فساد وظلم ولهذا سمى قطاع الطريق مفسدين وكانت عقوبتهم حقا لله تعالى لإجتماع الوصفين والذي يريد العلو على غيره من أبناء جنسه هو ظالم له باغ إذ ليس كونك عاليا عليه بأولى من كونه عاليا عليك وكلاهما من جنس واحد فالقسط والعدل أن يكونوا أخوة كما وصف الله المؤمنين بذلك^(١).

فان اظهار كلمة الكفر والطعن في المرسلين والقدر في كتاب الله ودينه ورساله وكل سبب بينه وبين خلقه لا يكون اشد منه فسادا وعامة الاي في كتاب الله التي تنهى عن الافساد في الارض فان من اكثر المراد بها الطعن في الانبياء كقوله سبحانه عن المنافقين الذين ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] قال تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُمْ أَلَمْ نَقْسِدْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢] وانما كان افسادهم نفاقهم وكفرهم وقوله ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] وقوله سبحانه ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] وقوله سبحانه ﴿وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]^(٢).

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٦٣-١٦٥ والفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤١٧.

(٢) الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٧٣٧-٧٣٨.



الذام للصحابة وأهل الحديث والسنة جاهلا ظالما فيه شعبة نفاق
إذا كان مؤمنا

ومن المعلوم أن أهل الحديث والسنة أخص بالرسول واتباعه فلهم من فضل الله وتخصيصه إياهم بالعلم والحلم وتضعيف الأجر ما ليس لغيرهم كما قال بعض السلف أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل فهذا الكلام تنبيه على ما يظنه أهل الجاهالة والضلالة من نقص الصحابة في العلم والبيان أو اليد والسنان وبسط هذا لا يتحملة هذا المقام والمقصود التنبيه على أن كل من زعم بلسان حاله أو مقالته أن طائفة غير أهل الحديث أدركوا من حقائق الأمور الباطنة الغيبية في أمر الخلق والبعث والمبدأ والمعاد وأمر الإيمان بالله واليوم الآخر وتعرف واجب الوجود والنفس الناطقة والعلوم والأخلاق التي تزكوا بها النفوس وتصلح وتكمل دون أهل الحديث فهو إن كان من المؤمنين بالرسول فهو جاهل فيه شعبة قوية من شعب النفاق وإلا فهو منافق خالص من الذين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُنْ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣] وقد يكون من ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ [غافر: ٣٥]

ومن ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦] وقد يبين ذلك بالقياس العقلي الصحيح الذي لا ريب فيه وإن كان ذلك ظاهرا بالفطرة لكل سليم الفطرة فإنه متى كان الرسول أكمل الخلق وأعلمهم بالحقائق وأقومهم قولاً وحالاً لزم أن يكون أعلم الناس به أعلم الخلق بذلك وأن يكون أعظمهم موافقة له واقتداء به أفضل الخلق ولا يقال هذه الفطرة يغيرها ما يوجد في المنتسبين إلى السنة والحديث من تفريط وعدوان لأنه يقال إن ذلك في غيرهم أكثر والواجب مقابلة الجملة بالجملة في الحمود والمذموم هذه هي المقابلة العادلة وإنما غير الفطرة قلة المعرفة بالحديث والسنة واتباع ذلك مع ما يوجد في المخالفين لها من نوع تحقيق لبعض العلم وإحسان لبعض العمل فيكون ذلك شبهة في قبول غيره وترجيح صاحبه ولا غرض لنا في ذكر الأشخاص وقد ذكر أبو محمد بن قتيبة في أول كتاب مختلف الحديث وغيره من العلماء في هذا الباب ما لا يحصى من الأمور المبينة لما ذكرناه وإنما المقصود ذكر نفس الطريقة العلمية والعملية التي تعرف بحقائق الأمور الخبرية النظرية وتوصل إلى حقائق الأمور الإرادية العملية فمتى كان غير الرسول قادراً على علم بذلك أو بيان له أو محبة لإفادة ذلك فالرسول أعلم بذلك وأحرص على الهدى وأقدر على بيانه منه وكذلك أصحابه من بعده وأتباعهم وهذه صفات الكمال والعلم والإرادة والإحسان والقدرة عليه كما قال النبي في دعاء الاستخارة اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب فعلمنا ﷺ أن نستخير الله بعلمه فيعلمنا من علمه ما نعلم به الخير ونستقدره بقدرته فيجعلنا قادرين إذ الاستفعال هو طلب الفعل كما قال في الحديث الصحيح يقول الله تعالى يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم فاستهداء الله طلب أن يهدينا واستطعامه طلب أن يطعمنا هذا قوت القلوب وهذا قوت الأجسام وكذلك استخارته بعلمه واستقداره بقدرته ثم قال وأسألك من فضلك العظيم فهذا السؤال من جوده ومنه وعطائه وإحسانه الذي يكون بمشيئته ورحمته وحنانه ولهذا قال فإنك تقدر ولا أقدر

وتعلم ولا أعلم ولم يقل إني لا أرحم نفسي لأنه في مقام الاستخارة يريد الخير لنفسه ويطلب ذلك لكنه لا يعلمه ولا يقدر عليه إن لم يعلمه الله إياه ويقدره عليه فإذا كان الرسول أعلم الخلق بالحقائق الخيرية والطلبية وأحب الخلق للتعليم والهداية والإفادة وأقدر الخلق على البيان والعبارة امتنع أن يكون من هو دونه أفاد خواصه معرفة الحقائق أعظم مما أفادها الرسول لخواصه فامتنع أن يكون عند أحد من الطوائف من معرفة الحقائق ما ليس عند علماء الحديث وإذا لم يكن في الطوائف من هو أعلم بالحقائق وأبين لها منه وجب أن يكون كل ما يذمون به من جهل بعضهم هو في طائفة المخالف الذام لهم أكثر فيكون الذام لهم جاهلاً ظالماً فيه شعبة نفاق إذا كان مؤمناً وهذا هو المقصود ثم إن هذا الذي بيناه مشهود بالقلب أعلم ذلك في كل أحد ممن أعرف مفصلاً وهذه جملة يمكن تفصيلها من وجوه كثيرة لكن ليس هذا موضعه^(١).

والكفار بالرسول من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب وقوم إبراهيم وموسى ومشركى العرب والهند والروم والبربر والترك واليونان والكشديين وسائر الأمم المتقدمين والمستأخرين يتبعون ظنونهم واهواءهم ويعرضون عن ذكر الله الذى آتاهم من عنده كما قال لهم لما اهبط آدم من الجنة ﴿فَأَمَّا يَا تَيْنَكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[البقرة: ٣٨ - ٣٩] وفى موضع آخر ﴿فَأَمَّا يَا تَيْنَكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾^(٣٩) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴿[طه: ١٢٣ - ١٢٤] الآية وفى أخرى ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾^(٤٠) [الأعراف: ٣٥] ثم إنهم مع أنهم ما نزل الله بما هم عليه من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الانفس يزعمون أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي والأمثال المضروبة ويسمون أنفسهم الحكماء والفلاسفة ويدعون الجدل والكلام والقوة والسلطان والمال ويصفون إتباع المرسلين بأنهم سفهاء وراذل وضلال ويسخرون منهم قال الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ١٤٠-١٤١.

السُّفَهَاءُ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ١٣﴾^(١).

قال أبو ذر يا رسول الله أو للإنس شياطين قال نعم شر من شياطين الجن قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢] وفي حديث أبي ذر الطويل الذي رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه بطوله قال يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن فقال يا رسول الله أو للإنس شياطين قال نعم شر من شياطين الجن وقد قال تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [البقرة: ١٤] والمنقول عن عامة المفسرين أن المراد شياطين الإنس وما علمت أحدا قال إنهم شياطين الجن فعن ابن مسعود وابن عباس والحسن والسدي أنهم رؤوسهم في الكفر وعن أبي العالية ومجاهد إخوانهم من المشركين وعن الضحاك وابن السائب كهنتهم والآية تتناول هذا كله وغيره ولفظها يدل على أن المراد شياطين الإنس لأنه قال ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] ومعلوم أن شيطان الجن معهم لما لقوا الذين آمنوا لا يحتاج أن يخلوا به وشيطان الجن هو الذي أمرهم بالنفاق ولم يكن ظاهرا حتى يخلوا معهم ويقول إنا معكم لا سيما إذا كانوا يظنون أنهم على حق كما قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣] ولو علموا أن الذي يأمرهم بذلك شيطان لم يرضوه وقد قال الخليل بن أحمد كل متمرّد عند العرب شيطان وفي اشتقاقه قولان أحدهما أنه من شطن يشطن إذا بعد عن الخير والنون أصلية قال أمية بن أبي الصلت في صفة سليمان عليه السلام أيما شاطن عصاه عكاه ثم يلقي في السجن والأغلال عكاه أوثقه وقال النابغة نأت بسعاد عنك نوى شطون فبانت والفؤاد بها رهين ولهذا قرنت به اللعنة فإن اللعنة هي البعد من الخير والشيطان بعيد من الخير فيكون وزنه

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ١١.

فيعالا وفيعال نظير فعال وهو من صفات المبالغة مثل القيام والقوام فالقيام فيعال والقوام
 فعال ومثل العياذ والعواذ وفي قراءة عمر الحي القيام فالشيطان المتصف بصفة ثابتة قوية
 في كثرة البعد عن الخير بخلاف من بعد عنه مرة وقرب منه أخرى فإنه لا يكون شيطانا
 ومما يدل على ذلك قولهم تشيطن يتشيطن شيطنة ولو كان من شاط يشيط لقل تشيط
 يتشيط والذي قال هو من شاط يشيط إذا احترق والتهب جعل النون زائدة وقال وزنه
 فعلان كما قال الشاعر وقد يشيط على أرماحنا البطل وهذا يصح في الإشتقاق الأكبر
 الذي يعتبر فيه الإتفاق في جنس الحروف كما يروى عن أبي جعفر أنه قال العامة مشتق
 من العمى ما رضى الله أن يشبههم بالأنعام حتى قال ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]
 وهذا كما يقال السرية مأخوذة من السر وهو النكاح ولوجرت على القياس لقل سريرة
 فإنها على وزن فعيلة ولكن العرب تعاقب بين الحرف المضاعف والمعتل كما يقولون
 تقضي البازي وتقضض قال الشاعر تقضى البازي إذا البازي كسر ومنه قوله تعالى
 ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وهذه الهاء تحتمل أن تكون
 أصلية فجزمت بلم ويكون من سانهت وتحتمل أن تكون هاء السكت كالهاء من كتابيه
 وحسابيه واقتده وماليه وسلطانيه وأكثر القراء يثبتون الهاء وصلا ووقفا وحمة والكسائي
 يحذفانها من الوصل هنا ومن اقتده فعلى قراءتهما يجب أن تكون هاء السكت فإن
 الأصلية لا تحذف فتكون لفظة لم يتسن كما تقول لم يتغن وتكون مأخوذة من قولهم تسنى
 يتسنى وعلى الإحتمال الآخر تكون من تسنه يتسنه والمعنى واحد قال ابن قتيبة أى لم
 يتغير بمر السنين عليه قال واللفظ مأخوذ من السنه يقال سانهت النخلة إذا حملت عاما
 وحالت عاما فذكر ابن قتيبة لغة من جعل الهاء أصلية وفيها لغتان يقال عاملته مسانهة
 ومسانة ومن الشواهد لما ذكره ابن قتيبة قول الشاعر فليست بسنهاء ولا رجبية ولكن
 عرايا في السنين الجوائح يمدح النخلة والمقصود مدح صاحبها بالجود فقال إنه يعريها لمن
 يأكل ثمرها لا يرجبها لتخلية ثمرها ولا هي بسنهاء والمفسرون من أهل اللغة يقولون في
 الآية معناه لم يتغير وأما لغة من قال إن أصله سنوة فهي مشهورة ولهذا يقال في جمعها
 سنوات ويشابهه في الإشتقاق الأكبر الماء الآسن وهو المتغير المنتن ويشابهه في الإشتقاق

الأصغر الحمأ المسنون فإنه من سن يقال سننت الحجر على الحجر إذا حككته والذي يسيل بينهما سنن ولا يكون إلا متتنا وهذا أصح من قول من يقول المسنون المصبوب على سنة الوجه أو المصبوب المفرغ أي أبدع صورة الإنسان فإن هذا إنما كان بعد أن خلق من الحمأ المسنون ونفس الحمأ لم يكن على صورة الإنسان ولا صورة وجهه ولكن المراد المنتف قوله ﴿لَمْ يَتَسَنَّه﴾ [البقرة: ٢٥٩] بخلاف قوله ﴿مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: ١٥] فإنه من قولهم أسن يأسن فهذا من جنس الاشتقاق الأكبر لاشتراكهما في السين والنون والنون الأخرى والهمزة والهاء متقاربتان فإنهما حرفا حلق وهذا باب واسع والمقصود أن اللفظين إذا اشتركا في أكثر الحروف وتفاوتا في بعضها قيل أحدهما مشتق من الآخر وهو الإشتقاق الأكبر والأوسط أن يشتركا في الحروف لا في ترتيبها كقول الكوفيين الإسم مشتق من السمة والإشتقاق الأصغر الخاص بالإشتراك في الحروف وترتيبها وهو المشهور كقولك علم يعلم فهو عالم وعلى هذا فالشيطان مشتق من شطن وعلى الإشتقاق الأكبر هو من باب شاط يشيط لأنهما اشتركا في الشين والطاء والنون والياء متقاربتان^(١).

وهذا سلف الأمة والتابعين لهم بأحسن وأئمة المسلمين فأنهم يقولون ان الشياطين توسوس في نفوس بني ادم كالعقائد الفاسدة والامر باتباع الهوى وان الملائكة بالعكس انما تقذف في القلوب الصدق والعدل قال ابن مسعود ان للملك لمة وللشيطان لمة فلملة الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق ولمة الشيطان ايعاد بالشر وتكذيب بالحق وفي الصحيح عن النبي ﷺ انه قال ما منكم من احد الا وقد وكل به قرينه من الملائكة ومن الجن قالوا واياك يا رسول الله قال وياي الا ان الله اعاني عليه فأسلم وفي لفظ فلا يأمرني الا بخير قال تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ (١) مَلِكِ النَّاسِ ۝ (٢) إِلَهِ النَّاسِ ۝ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس] والقول الصحيح الذي عليه اكثر السلف ان المعنى من شر الموسوس من الجنة ومن الناس من شياطين الانس والجن وقال ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ١٨٨-١٩٣.

يُوحَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿١١٢﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال النبي ﷺ لا بي ذر يا ابا ذر
 تعود بالله من شياطين الانس والجن قال يا رسول الله أو للانس وشياطين قال نعم شر
 من شياطين الجن قال تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا
 مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] وهم شياطينهم من الانس كما قال ذلك عامة
 السلف وكما يدل عليه سياق القران فان شياطين الجن لم يكونوا يحتاجون إلى ان يخلوا
 بهم ولا هم يقولون لهم انا معكم انما نحن مستهزءون^(١).

ذم من يتولى الكفار من أهل الكتاب قبلنا وبين أن ذلك ينافى الايمان
 فإن المؤمنين أولياء الله وبعضهم أولياء بعض والكفار أعداء الله وأعداء المؤمنين
 وقد أوجب الموالاة بين المؤمنين وبين ان ذلك من لوازم الايمان ونهى عن موالاة الكفار
 وبين ان ذلك متنافى فى حق المؤمنين وبين حال المنافقين فى موالاة الكافرين فأما موالاة
 المؤمنين فكثيرة كقوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥] إلى قوله ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦] وقال ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
 بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨)
 ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩) ترى
 كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا
 اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٨١] فذم من يتولى الكفار
 من أهل الكتاب قبلنا وبين أن ذلك ينافى الايمان وقال عن المنافقين ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]^(٢).

(١) الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٥٠٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ١٩٢.

قال رسول الله ﷺ لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة
ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ
لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا
يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة
رضي الله عنه عن النبي ﷺ لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون شبرا بشبر
وذراعا بذراع فويل يا رسول الله كفارس والروم قال ومن الناس إلا أولئك أخبر أنه
سيكون في أمتة مضاهاة لليهود والنصارى وهم أهل الكتاب ومضاهاة لفارس والروم
وهم الأعاجم وقد كان ﷺ ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء وليس هذا إخبارا عن جميع
الأمّة بل قد تواتر عنه أنه قال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة
وأخبر ﷺ ان الله لا يجمع هذه الأمّة على ضلالة وأن الله لا يزال يغرس في هذا الدين
غرسا يستعملهم فيه بطاعته فعلم بخبره الصدق أن لا بد أن يكون في أمتة قوم متمسكين
بهديه الذي هو دين الإسلام محضا وقوم منحرفين إلى شعبة من شعب دين اليهود أو إلى
شعبة من شعب دين النصارى وإن كان الرجل لا يكفر بهذا الانحراف بل وقد لا يفسق
أيضا بل قد يكون الانحراف كفرا وقد يكون فسقا وقد يكون سيئة وقد يكون خطأ وهذا
الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه
بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلا وأنا أشير إلى بعض أمور أهل
الكتاب والأعاجم التي ابتليت بها هذه الأمّة ليجتنب المسلم الحنيف الانحراف عن
الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم أو الضالين قال الله سبحانه ﴿وَدَّ كَثِيرٌ
مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ
مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩] فذم اليهود على ما حسدوا المؤمنين على الهدى
والعلم وقد يتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه الله لعلم
نافع أو عمل صالح وهو خلق مذموم مطلقا وهو في هذا الموضع من أخلاق المغضوب
عليهم وقال الله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ
وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٦ - ٣٧]

فوصفهم بالبخل الذي هو البخل بالعلم والبخل بالمال وإن كان السياق يدل على أن البخل بالعلم هو المقصود الأكبر فلذلك وصفهم بكتمان العلم في غير آية مثل قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] الآية وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] الآية وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ مِمَّا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤] الآية وقوله تعالى ﴿وَإِذْ لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] فوصف المغضوب عليهم بأنهم يكتُمون العلم تارة بخلا به وتارة اعتياضا عن إظهاره بالدنيا وتارة خوفا أن يحتج عليهم بما أظهروه منهو هذا قد ابتلى به طوائف من المنتسبين إلى العلم فإنهم تارة يكتُمون العلم بخلا به وكراهة أن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه وتارة اعتياضا عنه برياسة أو مال ويخاف من إظهاره انتقاص رياسته أو نقص ماله وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة فيكتم من العلم ما فيه حجة لمخالفه وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطلو لهذا قال عبد الرحمن بن مهدي وغيره أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم وليس الغرض تفصيل ما يجب وما يحتسب بل الغرض التنبيه على مجامع يتفطن اللبيب بها لما ينفعه الله به^(١).

ان الجزاء من جنس العمل

قوله ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] وأما الاستهزاء والمكر بان يظهر الانسان الخير والمراد شر فهذا اذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق فهو ذنب محرم وأما اذا كان

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧.

جزاء على من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلا حسنا قال الله تعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤ - ١٥] فان الجزاء من جنس العمل وقال تعالى ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرًا مَّكْرًا﴾ [النمل: ٥٠] كما قال ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٦] وقال ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ لِيُؤْسَفَ﴾ [يوسف: ٧٦] وكذلك جزاء المعتدى بمثل فعله فان الجزاء من جنس العمل وهذا من العدل الحسن وهو مكر وكيد اذا كان يظهر له خلاف ما يبطن^(١).

قال أصحاب محمد ﷺ كل من عمل سوءا فهو جاهل

واعلم أن المذهب إذا كان باطلا في نفسه لم يمكن الناقد له أن ينقله على وجه يتصور تصورا حقيقيا فإن هذا لا يكون الا للحق فأما القول الباطل فإذا بين فيبانه يظهر فسادا حتى يقال كيف اشتبه هذا على أحد ويتعجب من اعتقادهم اياه ولا ينبغي للإنسان أن يعجب فما من شيء يتخيل من أنواع الباطل الا وقد ذهب إليه فريق من الناس ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات وأنهم صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ وأنهم لا يفقهون وأنهم لا يعقلون وأنهم في قول مختلف يؤفك عنه من أفك وأنهم في ريبهم يترددون وأنهم يعمهون^(٢).

قال أصحاب محمد ﷺ كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٧١.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١٤٥.

يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الأبواب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون^(١).

لطائف لغوية

وقد يراد باللقاء الوصول إلى الشيء والوصول إلى الشيء بحسبه ومن دليل ذلك أن الله تعالى قد قال ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]^(٢).

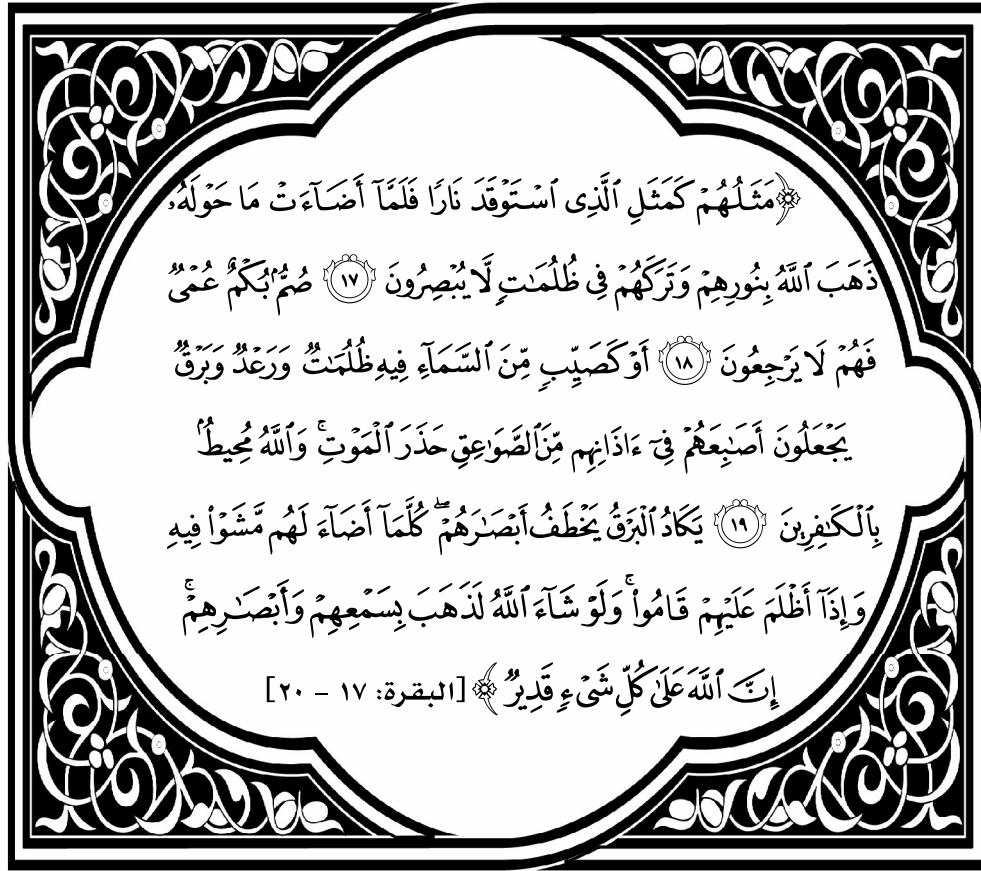
عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله ﴿هُدًى يَنْتَفَيْنَ﴾ [البقرة: ٢] والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناء كما فى قوله ﴿وَأَجْنَيْتَهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] وكما فى قوله ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْبَنَهُ وَهَدَنَهُ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] وكذلك قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣] والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايان المطلق يدخل فيه هذا وهذا ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله ﴿إِنَّهُمْ أَفْوَءُ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾^(٦٩) ﴿فَهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾^(٧٠) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧١] وقوله ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾^(٧٧) ﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِّمْ لَعْنَا كَبِيرَا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨] وقوله

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧٨.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٤٦٣.

﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢] وفى قوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] وقوله ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦.



إن المنافقين يفتقدون النور الذي كان المؤمنون يمشون به
سورة النور وسطها بذكر النور الذي هو مادة كل خير وصلاح كل شيء وهو ينشأ
عن امتثال أمر الله واجتناب نهيه وعن الصبر على ذلك فانه ضياء فان حفظ الحدود
بتقوى الله يجعل الله لصاحبه نورا كما قال تعالى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنَ
رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨] فصد النور الظلمة ولهذا عقب
ذكر النور وأعمال المؤمنين فيها بأعمال الكفار وأهل البدع والضلال فقال ﴿وَالَّذِينَ
كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] إلى قوله ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ
يَكَدْ يَرَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] وكذلك الظلم ظلمات يوم القيامة
وظلم العبد نفسه من الظلم فان للسيئة ظلمة في القلب وسوادا في الوجه ووهنا في

البدن ونقصا في الرزق وبغضا في قلوب الخلق كما روى ذلك عن ابن عباس يوضح ذلك أن الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور ومثل أعمال الكفار بالظلمة والإيمان اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه والكفر اسم جامع لكل ما يبغضه الله وينهى عنه وإن كان لا يكفر العبد إذا كان معه أصل الإيمان وبعض فروع الكفر من المعاصي كما لا يكون مؤمنا إذا كان معه أصل الكفر وبعض فروع الإيمان ولغض البصر اختصاص بالنور كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى وقد روى أبو هريرة عن النبي أنه قال إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن زاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فذلك الران الذي ذكر الله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] رواه الترمذي وصححه وفي الصحيح انه قال انه ليغان على قلبي وإنى لأستغفر الله في اليوم مائة مرة والغين حجاب رقيق أرق من الغيم فأخبر أنه يستغفر الله استغفاراً يزيل الغين عن القلب فلا يصير نكتة سوداء كما أن النكتة السوداء إذا أزيلت لا تصير رينا وقال حذيفة إن الإيمان يبدو في القلب لمظة بيضاء فكلما ازداد العبد إيمانا ازداد قلبه بياضا فلو كشفتم عن قلب المؤمن لرأيتموه أبيض مشرقا وإن النفاق يبدو منه لمظة سوداء فكلما ازداد العبد نفاقا ازداد قلبه سودا فلو كشفتم عن قلب المنافق لوجدتموه أسود مربدا وقال ﷺ إن النور إذا دخل القلب إنشرح وإنفسح قيل فهل لذلك من علامة يا رسول الله قال نعم التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله وفي خطبة الإمام أحمد التي كتبها في كتابه في الرد على الجهمية والزنادقة قال الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يحبون بكتاب الله الموتى ويصبرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لأبليس قد أحيوه وكم من ضال تائه حيران قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمشابهة من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم نعوذ بالله من شبه المضلين قلت وقد قرن الله سبحانه في كتابه في غير موضع بين

أهل الهدى والضلال وبين أهل الطاعة والمعصية بما يشبه هذا كقوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۝١١ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝١٢ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝١٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿[فاطر: ١٩ - ٢٢] وقال ﴿﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَحِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾﴾ [هود: ٢٤] الآية وقال في المنافقين ﴿﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا ﴾﴾ [البقرة: ١٧] وقال ﴿﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧] الآية وقال ﴿﴿ أَلَمْ يَكُنْ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾﴾ [إبراهيم: ١] والآيات في ذلك كثيرة وهذا النور الذي يكون للمؤمن في الدنيا على حسن عمله وإعتقاده يظهر في الآخرة كما قال تعالى ﴿﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾﴾ [التحريم: ٨] الآية فذكر النور هنا عقيب أمره بالتوبة كما ذكره في سورة النور عقيب أمره بغض البصر وأمره بالتوبة في قوله ﴿﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾﴾ [النور: ٣١] وذكر ذلك بعد أمره بحقوق الأهلين والأزواج وما يتعلق بالنساء وقال في سورة الحديد ﴿﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾﴾ [الحديد: ١٢] الآيات إلى قوله في المنافقين ﴿﴿ مَا وَدَّكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾﴾ [الحديد: ١٥] فأخبر سبحانه أن المنافقين يفقدون النور الذي كان المؤمنون يمشون به ويطلبون الإقتباس من نورهم فيحجبون عن ذلك بحجاب يضرب بينهم وبين المؤمنين كما أن المنافقين لما فقدوا النور في الدنيا كان ﴿﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾﴾ [البقرة: ١٧] ^(١).

التقسيم في المثليين لتنوع الاشخاص ولتنوع أحوالهم

قال غير واحد من السلف في صفة المنافقين الذين ضرب لهم المثل في سورة

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٢٨٢-٢٨٥.

البقرة أنهم أبصروا ثم عموا وعرفوا ثم أنكروا وآمنوا ثم كفروا وكذلك قال قتادة ومجاهد ضرب المثل لاقبالهم على المؤمنين وسماعهم ما جاء به الرسول وذهاب نورهم قال ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧) ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧ - ١٨] إلى ما كانوا عليه وأما قول من قال المراد بالنور ما حصل في الدنيا من حقن دمائهم وأموالهم فاذا ماتوا سلبوا ذلك الضوء كما سلب صاحب النار ضوءه فلفظ الآية يدل على خلاف ذلك فانه قال ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧) ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧ - ١٨] ويوم القيامة يكونون في العذاب كما قال تعالى ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (١٣) ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحديد: ١٣ - ١٤] الآية وقد قال غير واحد من السلف أن المنافق يعطى يوم القيامة نورا ثم يطفأ ولهذا قال تعالى ﴿يَوْمَ لَا يُخْرَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا﴾ [التحریم: ٨] قال المفسرون اذا رأى المؤمنون نور المنافقين يطفأ سألوا الله أن يتم لهم نورهم ويبلغهم به الجنة قال ابن عباس ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نورا يوم القيامة فأما المنافق فيطفأ نوره وأما المؤمن فيشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق فهو يقول ﴿رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحریم: ٨] وهو كما قال فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وهو ثابت من وجوه اخر عن النبي ورواه مسلم من حديث جابر وهو معروف من حديث ابن مسعود وهو أطولها ومن حديث أبي موسى في الحديث الطويل الذى يذكر فيه أنه ينادى يوم القيامة لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الامة فيها منافقوها فيأتيهم الله فى صورة غير صورته التى يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك وهذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا جاء ربنا عرفناه

فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه وفي رواية فيكشف عن ساقه وفي رواية فيقول هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها فيقولون نعم فيكشف عن ساقه فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه الا اذن له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد نفاقا ورياء الا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه فتبقى ظهورهم مثل صياصي البقر فيرفعون رؤوسهم فاذا نورهم بين أيديهم وبأيانهم ويطفأ نور المنافقين فيقولون ذرونا نقتبس من نوركم فيبين أن المنافقين يحشرون مع المؤمنين في الظاهر كما كانوا معهم في الدنيا ثم وقت الحقيقة هؤلاء يسجدون لربهم وأولئك لا يتمكنون من السجود فإنهم لم يسجدوا في الدنيا له بل قصدوا الرياء للناس والجزاء في الآخرة هو من جنس العمل في الدنيا فلماذا أعطوا نورا ثم طفيء لأنهم في الدنيا دخلوا في الايمان ثم خرجوا منه ولهذا ضرب الله المثل بذلك وهذا المثل هو لمن كان فيهم آمن ثم كفر وهؤلاء الذين يعطون في الآخرة نورا ثم يطفأ ولهذا قال ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] إلى الإسلام في الباطن وقال قتادة ومقاتل لا يرجعون عن ضلالهم وقال السدي لا يرجعون إلى الإسلام يعنى في الباطن والا فهم يظهرونه وهذا المثل انما يكون في الدنيا وهذا المثل مضروب لبعضهم وهم الذين آمنوا ثم كفروا وأما الذين لم يزالوا منافقين فضرب لهم المثل الآخر وهو قوله ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] وهذا أصح القولين فان المفسرين اختلفوا هل المثلان مضروبان لهم كلهم أو هذا المثل لبعضهم على قولين والثاني هو الصواب لأنه قال ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة: ١٩] وانما يثبت بها أحد الأمرين فدل ذلك على أنهم مثلهم هذا وهذا فانهم لا يخرجون عن المثلين بل بعضهم يشبه هذا وبعضهم يشبه هذا ولوكانوا كلهم يشبهون المثلين لم يذكر أو بل يذكر الواو العاطفة وقول من قال أو ههنا للتخيير كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين ليس بشيء لأن التخيير يكون في الأمر والطلب لا يكون في الخبر وكذلك قول من قال أو بمعنى الواو أو لتشكيك المخاطبين أو الإبهام عليهم ليس بشيء فإن الله يريد بالامثال البيان والتفهيم لا يريد التشكيك والإبهام والمقصود تفهيم المؤمنين

حالمهم ويدل على ذلك أنه قال فى المثل الأول ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾ [البقرة: ١٨] وقال فى الثانى ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيْءًا ذَاتِهِمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩) يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْطُفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٩ - ٢٠] فبين فى المثل الثانى أنهم يسمعون ويصرون ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم وفى الأول كانوا يصرون ثم صاروا فى ظلمات لا يصرون صم بكم عمى وفى الثانى اذا أضاء لهم البرق مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا فلهم حالان حال ضياء وحال ظلام والأولون بقوا فى الظلمة فالأول حال من كان فى ضوء فصار فى ظلمة والثانى حال من لم يستقر لا فى ضوء ولا فى ظلمة بل تختلف عليه الأحوال التى توجب مقامه واستراتبه يبين هذا أنه سبحانه ضرب للكفار أيضا مثلين بحرف أو فقال ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْتُهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٢٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُهُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩ - ٤٠] فالأول مثل الكفر الذى يحسب صاحبه أنه على حق وهو على باطل كمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فانه لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم فلهذا مثل بسراب بقيعة والثانى مثل الكفر الذى لا يعتقد صاحبه شيئا بل هو فى ظلمات بعضها فوق بعض من عظم جهله لم يكن معه إعتقاد أنه على حق بل لم يزل جاهلا ضالا فى ظلمات متراكمة وأيضا فقد يكون المنافق والكافر تارة متصفا بهذا الوصف وتارة متصفا بهذا الوصف فيكون التقسيم فى المثلين لتنوع الاشخاص ولتنوع أحوالهم وبكل حال فليس ما ضرب له هذا المثل هو مماثل لما ضرب له هذا المثل لإختلاف المثلين صورة ومعنى ولهذا لم يضرب للإيمان الا مثل واحد لان الحق واحد فضرب مثله بالنور وأولئك ضرب لهم المثل بضوء لا حقيقة له كالسراب بالبقية أوبالظلمات المتراكمة وكذلك المنافق يضرب له المثل بمن أبصر ثم عمى أو هو مضطرب يسمع ويصير ما لا ينتفع به فتبين أن من المنافقين من كان آمن ثم كفر باطنا وهذا مما

استفاض به النقل عند أهل العلم بالحديث والتفسير والسير أنه كان رجال قد آمنوا ثم نافقوا وكان يجري ذلك لأسباب منها أمر القبلة لما حولت ارتد عن الإيمان لأجل ذلك طائفة وكانت محنة إمتحن الله بها الناس قال تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣] ^(١).

كان من الناس من قد يؤمن بالرسول مجملا فاذا جاءت امور أخرى لم يؤمن بها فيصير منافقا مثل طائفة نافقت لما حولت القبلة إلى الكعبة وطائفة نافقت لما انهزم المسلمون يوم أحد ونحو ذلك ولهذا وصف الله المنافقين في القرآن بأنهم آمنوا ثم كفروا كما ذكر ذلك في سورة المنافقين وذكر مثل ذلك في سورة البقرة فقال ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ^(١٧) ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ﴾ [البقرة: ١٧ - ١٨] وقال طائفة من السلف عرفوا ثم أنكروا وأبصروا ثم عموا فمن هؤلاء من كان يؤمن أولا ايمانا مجملا ثم يأتي أمور لا يؤمن بها فينافق في الباطن وما يمكنه اظهار الردة بل يتكلم بالنفاق مع خاصته وهذا كما ذكر الله عنهم في الجهاد فقال ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠ - ٢١] وبالجمله فلا يمكن المنازعة أن الإيمان الذي أوجبه الله يتباين فيه أحوال الناس ويتفاضلون في ايمانهم ودينهم بحسب ذلك ^(٢).

وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته

قاعدة نافعة في وجوب الاعتصام بالرسالة وبيان ان السعادة والهدى في متابعة الرسول وأن الضلال والشقاء في مخالفته وان كل خير في الوجود إما عام وإما خاص فممنشأه من جهة الرسول وأن كل شر في العالم مختص بالعبد فسببه مخالفة الرسول أو الجهل بما جاء به وأن سعادة العباد في معاشهم ومعادهم باتباع الرسالة والرسالة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٧٤-٢٧٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٥٣-٥٤.

ضرورة للعباد لابد لهم منها وحاجتهم اليها فوق حاجتهم إلى كل شىء والرسالة روح
 العالم ونوره وحياته فأى صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور والدنيا مظلمة
 ملعونة الا ما طلعت عليه شمس الرسالة وكذلك العبد ما لم تشرق فى قلبه شمس
 الرسالة ويناله من حياتها وروحها فهو فى ظلمة وهو من الأموات قال الله تعالى ﴿وَمَنْ
 كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾
 [الأنعام: ١٢٢] فهذا وصف المؤمن كان ميتا فى ظلمة الجهل فأحياء الله بروح الرسالة ونور
 الإيمان وجعل له نورا يمشى به فى الناس واما الكافر فميت القلب فى الظلمات وسمى
 الله تعالى رسالته روحا والروح اذا عدم فقد فقدت الحياة قال الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا
 إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾
 [الشورى: ٥٢] فذكر هنا الأصلين وهما الروح والنور فالروح الحياة والنور النور وكذلك
 يضرب الله الأمثال للوحى الذى انزله حياة للقلوب ونورا لها بالماء الذى ينزله من
 السماء حياة للأرض وبالنار التى يحصل بها النور وهذا كما فى قوله تعالى ﴿أَنْزَلَ مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ
 زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ
 كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧] فشبه العلم بالماء المنزل من السماء لأن به حياة القلوب
 كما ان بالماء حياة الأبدان وشبه القلوب بالأودية لأنها محل العلم كما ان الأودية محل
 الماء فقلب يسع علما كثيرا وواد يسع ماء كثيرا وقلب يسع علما قليلا وواد يسع ماء
 قليلا وأخبر تعالى أنه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء وأنه يذهب جفاء أى
 يرمى به ويخفى والذى ينفع الناس يمكث فى الأرض ويستقر وكذلك القلوب تخالطها
 الشهوات والشبهات فاذا ترابى فيها الحق ثارت فيها تلك الشهوات والشبهات ثم تذهب
 جفاء ويستقر فيها الايمان والقرآن الذى ينفع صاحبه والناس وقال ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي
 النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ [الرعد: ١٧] فهذا المثل الآخر
 وهو النارى فالأول للحياة والثانى للضيء ونظير هذين المثالين المثالان المذكوران فى

سورة البقرة فى قوله تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] إلى قوله ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعْدٌ وَّرَقٌ﴾ [البقرة: ١٩] إلى آخر الآية واما الكافر ففى ظلمات الكفر والشرك غير حى وإن كانت حياته حياة بهيمية فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التى سببها سبب الايمان وبها يحصل للعبد السعادة والفلاح فى الدنيا والآخرة فان الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عبادته فى تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم وتكميل ما يصلحهم فى معاشهم ومعادهم وبعثوا جميعا بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصل اليه وبيان حالهم بعد الوصول اليه^(١).

وأصل صلاح القلب هوحياته واستنارته قال تعالى ﴿وَمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَىٰ بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها فى غير موضع كقوله ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠] وقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ثم قال ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَٰهٌ مُّحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقال تعالى ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [يونس: ٣١] ومن انواعه انه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وفى الحديث الصحيح مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت وفى الصحيح ايضا جعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا وقد قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُوءٌ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩] وذكر سبحانه آية النور آية الظلمة فقال ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِءٍ كَمَشْكُوفٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۖ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، فهذا مثل نور الايمان فى قلوب المؤمنين ثم قال

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٩٤-٩٥.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُهُ لَمْ يَكْدِرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿النور: ٣٩ - ٤٠﴾ فالأول مثل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها يحسبها صاحبها شيئاً ينفعه فإذا جاءها لم يجدها شيئاً ينفعه فوفاه الله حسابه على تلك الأعمال والثاني مثل للجهل البسيط وعدم الايمان والعلم فان صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئاً فان البصر إنما هو بنور الايمان والعلم قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّهٖ﴾ [يوسف: ٢٤] وهو برهان الايمان الذي حصل في قلبه فصرف الله به ما كان هم به وكتب له حسنة مكاملة ولم يكتب عليه خطيئة اذا فعل خيراً ولم يفعل سيئة وقال تعالى ﴿لَنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] وقال ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُلِهٖ يُؤْتِكُمْ كِفَٰلَيْنِ مِّن رَّحْمَتِهٖ وَيَجْعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهٖ﴾ [الحديد: ٢٨] ولهذا ضرب الله للايمان مثلين مثلاً بالماء الذي به الحياة وما يقترن به من الزبد ومثلاً بالنار التي بها النور وما يقترن بما يوقد عليه من الزبد وكذلك ضرب الله للنفاق مثلين قال تعالى ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧] وقال تعالى في المنافقين ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ١٧﴾ صُمْ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيٓ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ

وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ [البقرة: ١٧ - ٢٠] فضرب لهم كالذى أوقد النار كلما اضاءت اطفأها الله والمثل المائى كالمثل النازل من السماء وفيه ظلمات ورعد وبرق يرى ولبسط الكلام فى هذه الأمثال موضع آخر وإنما المقصود هنا ذكر حياة القلوب وإنارتها وفى الدعاء المأثور اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا والربيع هو المطر الذى ينزل من السماء فینبت به النبات قال النبى ﷺ إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم والفصل الذى ينزل فيه أول المطر تسمية العرب الربيع لنزول المطر الذى ينبت الربيع فيه وغيرهم يسمى الربيع الفصل الذى يلى الشتاء فان فيه تخرج الأزهار التى تخلق منها الثمار وتنبت الأوراق على الأشجار والقلب الحى المنور فانه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل والقلب الميت فانه لا يسمع ولا يبصر قال تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] ^(١).

ضرب الأمثال للتصوير تارة وللتصديق أخرى

أن مادة العدل والتسوية والتمثيل والقياس والاعتبار والتشريك والتشبيه والتنظير من جنس واحد فيستدل بهذه الأسماء على القياس الصحيح العقلي والشرعي ويؤخذ من ذلك تعبير الرؤيا فان مداره على القياس والاعتبار والمثابهة التى بين الرؤيا وتأويلها ويؤخذ من ذلك ما فى الأسماء واللغات من الاستعارة والتشبيه إما فى وضع اللفظ بحيث يصير حقيقة فى الاستعمال وإما فى الاستعمال فقط مع القرينة اذا كانت الحقيقة أخرى فان مسميات الأسماء المتشابهة متشابهة ويؤخذ من ذلك ضرب الأمثال للتصوير تارة وللتصديق أخرى وهونافعة جدا وذلك أن أدرك النفس لعين الحقائق قليل وما لم يدركه فإنما يعرفه بالقياس على ما عرفته فاذا كان هذا فى المعرفة ففي التعريف ومخاطبة الناس أولى وأحرى ثم التماثل والتعادل يكون بين الوجودين الخارجيين وبين الوجودين العلميين الذهنيين وبين الوجود الخارجى والذهنى فالأول يقال هذا مثل هذا والثانى يقال

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٠٢ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ٩.

فيه مثل هذا كمثل هذا والثالث يقال فيه هذا كمثل هذا فالمثل إما أن يذكر مره أو مرتين أو ثلاث مرات إذا كان التمثيل بالحقيقة الخارجية كما في قوله ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] ^(١).

الأمثال المعينة التي يقاس فيها الفرع باصل معين موجود أو مقدر وهي في القرآن بضع واربعون مثلاً كقوله ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] إلى آخره وقوله ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] ^(٢).

إن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل

قال أصحاب محمد ﷺ كل من عمل سوءاً فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلاً بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازاً وإن لم يكن كل من ترك شيئاً من الأعمال كافراً أو خارجاً عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعمياً وصماً وبكماً وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نوراً وأنهم يسمعون ويعقلون ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٨٣.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٦٧.

(٣) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧٨.

البصر والسمع هما الأصل في العلم بالمعلومات التي يمتاز بها الانسان عن البهائم

فان البصر يرى غير مباشرة المرئي والذوق والشم واللمس لا يحصل له الاحساس إلا بمباشرة المحسوس والسمع وإن كان يحس الأصوات فالمقصود الأعظم به معرفة الكلام وما يخبر به المخبرون من العلم وهذا سبب تفضيل طائفة من الناس لالسمع على البصر كما ذهب إليه ابن قتيبة وغيره وقال الأكثرون البصر أفضل من السمع والتحقيق أن إدراك البصر أكمل كما قاله الأكثرون كما قال النبي ﷺ ليس المخبر كالمعائن لكن السمع يحصل به من العلم لنا أكثر مما يحصل بالبصر فالبصر أقوى وأكمل والسمع أعم وأشمل وهاتان الحاستان هما الأصل في العلم بالمعلومات التي يمتاز بها الانسان عن البهائم استطراد ولهذا يقرن الله بينهما الفؤاد في مواضع كقوله تعالى ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال تعالى ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] في حق المنافقين وقال في حق الكافرين ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] ^(١).

قال الحسن البصري ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل

ولا ريب أن الحق نوعان حق موجود وبه يتعلق الخبر الصادق وحق مقصود وبه يتعلق الأمر الحكيم والعمل الصالح وضد الحق الباطل ومن الباطل الثاني قول النبي كل هو يلهو الرجل به فهو باطل إلا رمية بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فانهن من الحق والحق الموجود إذا أخبر عنه بخلافه كان كذبا وهؤلاء لا يميزون بين الحق والباطل بين الحق الموجود الذي ينبغي اعتقاده والباطل المعدوم الذي ينبغي نفيه في الخبر عنهما ولا بين الحق المقصود الذي ينبغي اعتماده والباطل الذي ينبغي إجتنابه بل يقصدون ماهوده وأمكنهم منهما وأصدق الحق الموجود ما أخبر الله بوجوده والخبر الحق المقصود ما أمر الله به وإن شئت قلت أصدق خبر عن الحق الموجود خبر الله وخير أمر بالحق المقصود

(١) الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٩٧.

أمر الله والإيمان يجمع هذين الأصلين تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر وإذا قرن بينهما قيل ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧] والعمل خير من القول كما قال الحسن البصري ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل^(١).

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

إن العمى والبكم يكون في القلب واللسان كما قال تعالى ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] وقال ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وقال النبي هلا سألوا إذا لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال وفي الاثر العي عي القلب لا عي اللسان أو قال شر العي عي القلب وكان مسعود يقول إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه وسيأتي عليكم زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه^(٢).

قال تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۖ سِيذَرُكَ مِنْ يَخْشَىٰ ۖ وَيَنْجَنِيهَا الْأَشْقَىٰ﴾ [الذرى: ١١] الذى يصل النار الكبرى ﴿[الأعلى: ٩ - ١٢] فأخبر ان من يخشاه يتذكر والتذكر هنا مستلزم لعبادته قال الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] وقال ﴿تَبَصَّرْهُ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٨] ولهذا قالوا فى قوله ﴿سِيذَرُكَ مِنْ يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠] سيتعظ بالقرآن من يخشى الله وفى قوله ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] انما يتعظ من يرجع إلى الطاعة وهذا لان التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره فان تذكر محبوبا طلبه وان تذكر مرهوبا هرب منه ومنه قوله تعالى ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠] وقال سبحانه ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: ١١] فنفى الانذار عن غير هؤلاء مع قوله ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١٠٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٦٥.

لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ [يس: ١٠] فأثبت لهم الانذار من وجه ونفاه عنهم من وجه فان الانذار هو الاعلام بالمخوف فالانذار مثل التعليم والتخويف فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه وآخر يقول علمته فلم يتعلم وكذلك من خوفته فخاف فهذا هو الذى تم تخويفه واما من خوف فما خاف فلم يتم تخويفه وكذلك من هديته فاهتدى تم هداه ومنه قوله تعالى ﴿هُدًى لِّلَّذِينَ﴾ [البقرة: ٢] ومن هديته فلم يهتد كما قال ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] فلم يتم هداه كما تقول قطعته فانقطع وقطعته فما انقطع فالمؤثر التام يستلزم اثره فمتى لم يحصل اثره لم يكن تاما والفعل اذا صادف محلا قابلا تم والا لم يتم والعلم بالمحبوب يورث طلبه والعلم بالمكروه يورث تركه ولهذا يسمى هذا العلم الداعى ويقال الداعى مع القدرة يستلزم وجود المقدور وهو العلم بالمطلوب المستلزم لارادة المعلوم المراد وهذا كله انما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها وأما مع فسادها فقد يحس الانسان باللذيق فلا يجد له لذة بل يؤلمه وكذلك يلتذ بالمؤلم الفساد الفطرة والفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعا كالمروور الذى يجد العسل مرأ فانه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التى مازجته وكذلك من فسد باطنه قال تعالى ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنَقَلُبُ فَتَنَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠] وقال تعالى ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] وقال فى الآية الأخرى ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨] والغلف جمع أغلف وهو ذو الغلاف الذى فى غلاف مثل الأكلف كأنهم جعلوا المانع خلقة أى خلقت القلوب وعليها أغطية فقال الله تعالى ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨] و﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] وقال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦] وكذلك قالوا ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا

تَقُولُ ﴿هُود: ٩١﴾ قَالَ ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأَنْفَال: ٢٣] أَى لَأَفْهَمَهُمْ مَا سَمِعُوهُ
ثم قال ولو أفهمهم مع هذه الحال التى هم عليها ﴿لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأَنْفَال: ٢٣]
فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا ولو فهموا لم يعملوا فنفى عنهم صحة القوة العلمية
وصحة القوة العملية وقال ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الْأَنْفَال: ٢٣]
﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْدَاؤُا ذَٰلِكَ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٧٩] وقال ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وقال عن المنافقين ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] ومن الناس من يقول لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر والنطق جعلوا صما بكما عمليا أو لما أعرضوا عن السمع والبصر والنطق صاروا كالصم العمى البكم وليس كذلك بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت كما قال الله تعالى ﴿فَلِإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] والقلب هو الملك والأعضاء جنوده
واذا صلح صلح سائر الجسد واذا فسد فسد سائر الجسد فيبقى يسمع بالأذن الصوت كما تسمع البهائم والمعنى لا يفقهه وان فقه بعض الفقه لم يفقه فقها تاما فان الفقه التام يستلزم تأثيره فى القلب محبة المحبوب وبغض المكروه فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلًا^(١).

وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن

كل ما كان بعد عدمه فانما يكون بمشيئة الله وقدرته وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فما شاء وجب كونه وهو تحت مشيئة الرب وقدرته وما لم يشأ امتنع كونه مع قدرته عليه كما قال تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٥-٢٧.

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿البقرة: ٢٠﴾ فكون الشيء واجب الوقوع لكونه قد سبق به القضاء على انه لا بد من كونه لا يمتنع ان يكون واقعا بمشيئته وقدرته وارادته وان كانت من لوازم ذاته كحياته وعلمه فان ارادته للمستقبلات هي مسبوقه بارادته للماضي ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وهوانما أراد هذا الثاني بعد أن أراد قبله ما يقتضى ارادته فكان حصول الارادة اللاحقة بالارادة السابقة^(١).

قدرة الرب لا يفعل بها إلا مع وجود مشيئته فإن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وليس كل ما كان قادرا عليه فعله قال تعالى ﴿يَا قَدِيرِينَ عَلَّمَ أَنْ تُسَوِّىَ بَنَاهُ﴾ [القيامة: ٤] وقال تعالى ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] وقد ثبت في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم قال النبي ﷺ أعوذ بوجهك أو من تحت أرجلكم قال أعوذ بوجهك أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض قال هاتان أهون وقال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] وقد قال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨] وقال ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣] ومثل هذا متعدد في القرآن وإذا كان لو شاء لفعله دل على أنه قادر عليه فإنه لا يمكن فعل غير المقدور وإذا كان كذلك علم أن الفعل لو وجد بمجرد كونه قادرا لوقع كل مقدور بل لا بد مع القدرة من الإرادة^(٢).

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أى فى مواضع كثيرة جدا وقد بسطت الكلام فى الرد على من أنكر قدرة الرب فى غير موضع كما قد كتبناه على الأربعين والمحصل وفى شرح الأصبهانية وغير ذلك وتكلمنا على ما ذكره الرازى وغيره فى مسألة كون الرب قادرا مختارا وما وقع فيها من

(١) مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٤٥.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٢٧١.

التقصير الكثير مما ليس هذا موضعه والمقصود هنا الكلام بين أهل الملل الذين يصدقون الرسل فنقول هنا مسائلًا لمسألة الأولى قد أخبر الله أنه على كل شيء قدير والناس في هذا على ثلاثة أقوال طائفة تقول هذا عام يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين وكذلك دخل في المقدور كما قال ذلك طائفة منهم ابن حزم وطائفة تقول هذا عام مخصوص يخص منه الممتنع لذاته فإنه وإن كان شيئًا فإنه لا يدخل في المقدور كما ذكر ذلك ابن عطية وغيره وكلا القولين خطأ والصواب هو القول الثالث الذي عليه عامة النظار وهو أن الممتنع لذاته ليس شيئًا ألبتة وأن كانوا متنازعين في المعدو فإن الممتنع لذاته لا يمكن تحققه في الخارج ولا يتصوره الذهن ثابتًا في الخارج ولكن يقدر اجتماعهما في الذهن ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنع في الخارج إذ كان يمتنع تحققه في الأعيان وتصوره في الأذهان إلا على وجه التمثيل بأن يقال قد تجتمع الحركة والسكون في الشيء فهل يمكن في الخارج أن يجتمع السواد والبياض في محل واحد كما تجتمع الحركة والسكون فيقال هذا غير ممكن فيقدر اجتماع نظير الممكن ثم يحكم بإمتناعه وأما نفس اجتماع البياض والسواد في محل واحد فلا يمكن ولا يعقل فليس بشيء لا في الأعيان ولا في الأذهان فلم يدخل في قوله وهو على كل شيء قدير المسألة الثانية أن المعدوليس بشيء في الخارج عند الجمهور وهو الصواب وقد يطلقون أن الشيء هو الموجود فيقال على هذا فيلزم أن لا يكون وقادرا إلا على موجود وما لم يخلقه لا يكون قادرا عليه وهذا قول بعض أهل البدع قالوا لا يكون قادرا إلا على ما أراده دون ما لم يردده ويحكي هذا عن تلميذ النظام والذين قالوا إن الشيء هو الموجود من نظار المثبتة كالأشعرى ومن وافقه من أتباع الأئمة أحمد وغير أحمد كالقاضي أبي يعلى وابن الزاغوني وغيرهما يقولون أنه قادر على الموجود فيقال أن هؤلاء أثبتوا ما لم تثبت الآيات فالآية أثبتت قدرته على الموجود وهؤلاء قالوا هو قادر على الموجود والمعدوم والتحقيق أن الشيء إسم لما يوجد في الأعيان ولما يتصور في الأذهان فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شيء في التقدير والعلم والكتاب وأن لم يكن شيئًا في الخارج ومنه قوله ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ولفظ الشيء في الآية يتناول هذا وهذا فهو على كل شيء ما وجد وكل ما يتصوره الذهن موجودا إن تصور أن يكون

موجودا قدير لا يستثنى من ذلك شيء ولا يزداد عليه شيء كما قال تعالى ﴿لَيْلَ قَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ [القيامة: ٤] وقال ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] وقد ثبت في الصحيحين أنها لما نزلت قال النبي ﷺ أعوذ بوجهك فلما نزل ﴿أَوْ يَلْسَكُمُ شَيْعًا وَيَذِقَ بَعْضُكُم بِأَسَ بَعْضٌ﴾ [الأنعام: ٦٥] الآية قال هاتان أهون فهو قادر على الأولتين وإن لم يفعلهما وقال ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِمْ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] قال المفسرون لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشا وتهلك مواشيكم وتخرب أراضيكوم ومعلوم أنه لم يذهب به وهذا كقوله ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨] إلى قوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] وهذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاجا وهو لم يفعله ومثل هذا ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فإنه أخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء وهو لم يفعلها فلوم يكن قادرا عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها المسألة الثالثة أنه على كل شيء قدير فيدخل في ذلك أفعال العباد وغير أفعال العباد وأكثر المعتزلة يقولون أن أفعال العبد غير مقدورة المسألة الرابعة أنه يدخل في ذلك أفعال نفسه وقد نطقت النصوص بهذا وهذا كقوله تعالى ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١] ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُمْحِيَ الْمَوْتِ﴾ [القيامة: ٤٠] ﴿لَيْلَ قَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ [القيامة: ٤] ونظائره كثيرة والقدرة على الأعيان جاءت في مثل قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥] وجاءت منصوبا عليها في الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ [الزحرف: ٤١] فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم وهذا نص في قدرته على الأعيان المفعولة وقوله ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] و﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾

[الغاشية: ٢٢] ونحو ذلك وهو يدل بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر وذلك يستلزم قدرته عليهم وقوله ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] على قول الحسن وغيره من السلف ممن جعله من القدرة دليل على أن الله قادر عليه وعلى أمثاله وكذلك قول الموصي لأهله لئن قدر الله على ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا من العالمين فلما حرقوه أعاده الله تعالى وقال لهم احملك على ما صنعت قال خشيتك يارب فغفر له وهو كان مخطئا في قوله لئن قدر الله على ليعذبني كما يدل عليه الحديث وأن الله قدر عليه لكن لحشيته وإيمانه غفر الله له هذا الجهل والخطأ الذي وقع منه وقد يستدل بقوله ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكَ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] إلى قوله ﴿فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣] على قول من جعله من القدرة فإنه يتناول القدرة على المخلوقين وإن كان سبحانه قادرا أيضا على خلقه فالقدرة على خلقه قدرة عليه والقدرة عليه قدرة على خلقه وجاء أيضا الحديث منصوبا في مثل قول النبي ﷺ لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده لله أقدر عليك منك على هذا فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد وأنه أقدر عليه منه على عبده وفيه إثبات قدرة العبد^(١).

لطائف لغوية

فإن ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة فإن ما شاء الله كان ولا يكون شيء إلا بقدرته وما تعلقت به القدرة من الموجودات تعلقت به المشيئة فإنه لا يكون شيء إلا بقدرته ومشيتته وما جاز أن تتعلق به القدرة جاز أن تتعلق به المشيئة وكذلك بالعكس وما لا فلا ولهذا قال ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] والشيء في الأصل مصدر شاء يشاء شيئا كنال ينال نيلا ثم وضعوا المصدر موضع المفعول فسموا المشيئة شيئا كما يسمى المنيل نيلا فقالوا نيل المعدن وكما يسمى المقدور قدرة والمخلوق خلقا فقوله ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] أي على كل ما يشاء فممنه ما قد شيء فوجد ومنه ما لم يشأ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٧-١٢.

لكنه شيء في العلم بمعنى أنه قابل لأن يشاء وقوله ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ٢٠] يتناول ما كان شيئاً في الخارج والعلم أو ما كان شيئاً في العلم فقط بخلاف ما لا يجوز أن تتناوله المشيئة وهو الحق تعالى وصفاته أو الممتنع لنفسه فإنه غير داخل في العموم ولهذا إتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء^(١).

فإن لفظ كل شيء يعم في كل موضع بحسب ما سبقت له كما في قوله ﴿يُكَلِّمُ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] وقوله ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] و﴿تَدْمِثُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] و﴿فَتَحْنَاهُ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رُجُومًا﴾ [الذاريات: ٤٩]^(٢).
﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] قدير منزّه عن العجز والضعف^(٣).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٨٣.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٢٣٢.

(٣) الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧.



بعد تقسيم الخلق قرر أصول الدين

ثم أنه بعد تقسيم الخلق قرر أصول الدين فقرر التوحيد أولاً ثم النبوة ثانياً بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢] ثم قرر النبوة بقوله ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤] فإن لم تفعلوا فأتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴿٢٤﴾ [البقرة: ٢٤ - ٢٤] فأخبر

انهم لا يفعلون ذلك كما قال ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] ثم ذكر اللجنة فقرّر التوحيد والنبوة والمعاد وهذه أصول الإيمان^(١).

عبادة الله بمعرفته ومحبته هو أصل الدعوة في القرآن

لما كان الإقرار بالصانع فطرياً كما قال ﷺ كل مولود يولد على الفطرة الحديث فإن الفطرة تتضمن الإقرار بالله والإنابة إليه وهو معنى لا إله إلا الله فإن الإله هو الذى يعرف ويعبد وقد بسطت هذا المعنى فى غير هذا الموضع وكان المقصود بالدعوة وصول العباد إلى ما خلقوا له من عبادة ربهم وحده لا شريك له والعبادة أصلها عبادة القلب المستتبع للجوارح فإن القلب هو الملك والأعضاء جنوده وهو المضغة الذى اذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد وانما ذلك بعلمه وحاله كان هذا الأصل الذى هو عبادة الله بمعرفته ومحبته هو أصل الدعوة فى القرآن فقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال فى صدر البقرة بعد أن صنف الخلق ثلاثة أصناف مؤمن وكافر ومنافق فقال بعد ذلك ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وذكر آلاءه التى تتضمن نعمته وقدرته ثم اتبع ذلك بتقريره النبوة بقوله ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]^(٢).

دلائل الربوبية

ما فى المخلوقات من وجود المنافع للمحتاجين وكشف الضر عن المضرورين والاحسان إلى المخلوقات وأنواع الرزق والهدى والمسرات هو دليل على رحمة الخالق سبحانه والقرآن يثبت دلائل الربوبية بهذا الطريق تارة يدلهم بالآيات المخلوقة على

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٢٧٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٧.

وجود الخالق ويثبت علمه وقدرته ومشيتته وتارة يدهم بالنعمة والآلاء على وجود بره وإحسانه المستلزم رحمته وهذا كثير في القرآن وإن لم يكن مثل الأول أو أكثر منه ولم يكن أقل منه بكثير كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴿[البقرة: ٢١ - ٢٢]﴾ (١).

أنه كما علم بما في مصنوعاته من الأحكام والإتقان أنه عالم وبما أن فيها من التخصيص أنه يريد فيعلم بما فيها من النفع للخلائق أنه رحيم وبما فيها من الغايات المحمودة أنه حكيم والقرآن يبين آيات الله الدالة على قدرته ومشيتته وآياته الدالة على إنعامه ورحمته وحكمته ولعل هذا أكثر في القرآن كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴿[البقرة: ٢١ - ٢٢]﴾ (٢).

فضاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة

اعْبُدُوا ضمير الخطاب كما أن جميع الموجودين في وقت النبي ﷺ وبعده إلى يوم القيامة مخاطبون بهذا الكلام لأنه كلام الله وإنما الرسول مبلغ عن الله وهذا مذهب عامة المسلمين وإن كان بعض من تكلم في أصول الفقه اعتمد أن ضمير الخطاب إنما يتناول الموجودين حين تبليغ الرسول وأن سائر الموجودين دخلوا إما بما علمناه بالاضطرار من استواء الحكم كما لو خاطب النبي ﷺ واحدا من الأمة وإما بالسنة وإما بالاجماع وإما بالقياس ولما كان الإقرار بالصانع فطريا كما قال ﷺ كل مولود يولد على الفطرة الحديث فإن الفطرة تتضمن الإقرار بالله والإنابة إليه وهو معنى لا إله إلا الله فإن الإله هو الذي يعرف ويعبد وقد بسطت هذا المعنى في غير هذا الموضع وكان المقصود بالدعوة وصول العباد إلى ما خلقوا له من عبادة ربهم وحده لاشريك له والعبادة أصلها عبادة القلب

(١) العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٢٦.

(٢) العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٢٠٠.

المستتبع للجوارح فإن القلب هو الملك والأعضاء جنوده وهو المضغة الذى اذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد وانما ذلك بعلمه وحاله كان هذا الأصل الذى هو عبادة الله بمعرفته ومحبهه هو أصل الدعوة فى القرآن فقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال فى صدر البقرة بعد أن صنف الخلق ثلاثة أصناف مؤمن وكافر ومنافق فقال بعد ذلك ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وذكر آلاءه التى تتضمن نعمته وقدرته ثم اتبع ذلك بتقريره النبوة بقوله ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] قال تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] قال جبير بن مطعم لما سمعتها أحسست بفؤادى قد تصدع وهو استفهام إنكار يقول أوجدوا من غير مبدع فهم يعلمون أنهم لم يكونوا من غير مكون ويعلمون أنهم لم يكونوا نفوسهم وعلمهم بحكم أنفسهم معلوم بالفطرة بنفسه لا يحتاج أن يستدل عليه بأن كل كائن محدث أوكمل ممكن لا يوجد بنفسه ولا يوجد من غير موجد ودعوة الأنبياء عليهم السلام أنه جاء بالطريق الفطرية كقولهم ﴿أَفَى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] وقول موسى ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقوله فى القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [١١] الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢] وأما المقاصد فالقرآن أخبر بالعلم به والعمل له فجمع بين قوتى الإنسان العلمية والعملية الحسية والحركية الإرادية الإدراكية والإعتمادية القولية والعملية حيث قال ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] فالعبادة لا بد فيها من معرفته والإنابة اليه والتذلل له والإفتقار اليه وهذا هو المقصود واذا حصل الاعتراف بالرب والاقرار به من غير عبادة وإنابة كان وبالا على صاحبه وشقاء له كما جاء فى الحديث أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه كإبليس اللعين فإنه معترف

بربه مقر بوجوده لكن لما لم يعبد له كان رأس الأشقياء وكل من شقى فباتباعه له كما قال ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَتَّبَعُ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] فلا بد أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه مع أنه معترف بالرب مقر بوجوده وانما أبى واستكبر عن الطاعة والعبادة والقوة العلمية مع العملية بمنزلة الفاعل والغاية ولهذا قيل العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر والمراد بالعمل هنا عمل القلب الذى هو انابته إلى الله وخشيته له حتى يكون عابدا له فالرسل والكتب المنزلة أمرت بهذا وأوجبته بل هو رأس الدعوة ومقصودها وأصلها والطريقة النبوية القرآنية السننية الجماعية فيها العلم والعمل كاملين ففاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وقال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وذلك يتضمن الإقرار به وعبادته وحده فإن الإله هو المعبود ولم يقل حتى يشهدوا أن لا رب إلا الله فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له التى لها خلق الخلق وبها أمروا وكذلك قوله لمعاذ إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال نوح عليه السلام ﴿إِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ [نوح: ٣] وكذلك الرسل فى سورة الأعراف وغيرها^(١). ذلك أنه علم بالاضطرار أن الرسل كانوا يجعلون ما عبده المشركون غير الله ويجعلون عابده عابدا لغير الله مشركا بالله عادلا به جاعلا له ندا فانهم دعوا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهذا هو دين الله الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو الاسلام العام الذى لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره ولا يغفر لمن تركه بعد بلاغ الرسالة كما قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وهو الفارق بين أهل الجنة وأهل النار والسعداء والأشقياء كما قال النبي من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وقال من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحا وهى رأس الدين وكما قال أمرت أن أقاتل

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٧-١٢.

الناس حتى يشهدوا أن لا إله الا الله وأنى رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله وفضائل هذه الكلمة وحقائقها وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون وهى حقيقة الأمر كله كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] فأخبر سبحانه أنه يوحى إلى كل رسول بنفى الألوهية عما سواه وإثباتها له وحده وزعم هؤلاء الملاحدة المشركون (مثل ابن عربي) أن كل شيء يستحق الألوهية كاستحقاق الله لها وقال تعالى ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وزعم هؤلاء الملاحدة أن كل شيء فإنه إله معبود فأخبر سبحانه أنه لم يجعل من دون الرحمن آلهة وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦] فأمر الله سبحانه بعبادته واجتناب الطاغوت وعند هؤلاء أن الطواغيت جميعها فيها الله أوهى الله ومن عبدها فما عبد إلا الله وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢] فأمر سبحانه بعبادة الرب الخالق لهذه الآيات ^(١).

قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وقال النبى ﷺ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه فإنه ﷺ ميز بين مقصود ومقصود وهذا المقصود فى الجملة لابد منه فى كل فعل اختياري قال النبى ﷺ أصدق الأسماء حارث وهمام فإن كل بشر بل كل حيوان لابد له من همة وهو الإرادة ومن حرث وهو العمل إذ من لوازم الحيوان أنه يتحرك بإرادته ثم ذلك الذي يقصده هو غايته وإن

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٢٥٦-٢٥٧ والصفدية ج: ٢ ص: ٢٤٢.

كان قد يحدث له بعد ذلك القصد قصد آخر وإنما تطمئن النفوس بوصولها إلى مقصودها وبها يتميز من يعبد الله خلصا له الدين ممن يعبد الطاغوت أو يشرك بعبادة ربه ومن يريد حرث الآخرة ممن يريد حرث الدنيا وهو الدين الخالص لله الذي تشترك فيه جميع الشرائع الذي نهى الأنبياء عن التفرق فيه كما قال تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ولهذا كان دين الأنبياء واحدا وإن كانت شرائعهم متنوعة قال تعالى ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [الأنحل: ٣٦] وقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ^(١).

العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ومن هذا الباب لفظ العبادة فاذا أمر بعبادة الله مطلقا دخل في عبادته كل ما أمر الله به فالتوكل عليه مما أمر به والاستعانة به مما أمر به فيدخل ذلك في مثل قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وفي قوله ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] وقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] وقوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤] وقوله ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] ثم قد يقرن بها اسم آخر كما في قوله ﴿يَاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٦ ص: ٢٤-٢٥.

نَسْتَعِثُ ﴿[الفاصلة: هـ] وقوله ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقول نوح ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [نوح: ٣] ^(١).

إن الإيمان والتوحيد لا بد فيهما من عمل القلب كحب القلب فلا بد من إخلاص الدين لله والدين لا يكون دينا إلا بعمل فان الدين يتضمن الطاعة والعبادة وقد انزل الله عز وجل سورتي الإخلاص قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد أحدهما في توحيد القول والعلم والثانية في توحيد العمل والارادة فقال في الأول ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص] فأمره ان يقول هذا التوحيد وقال في الثاني ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ۝ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون] فأمره ان يقول ما يوجب البراءة من عباده غير الله وإخلاص العبادة لله والعبادة أصلها الصدق والإرادة والعبادة إذا افردت دخل فيها التوكل ونحوه وإذا قرنت بالتوكل صار التوكل قسيما لها كما ذكرناه في لفظ الإيمان قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال تعالى ﴿يَتَّخِذُهَا النَّاسُ أَعْبَادًا رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] فهذا ونحوه يدخل فيه فعل المأمورات وترك المحظورات والتوكل من ذلك وقد قال في موضع آخر ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِثُ﴾ [الفاصلة: هـ] وقوله ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] ومثل هذا كثيرا ما يجيء في القرآن تنوع دلالة اللفظ في عمومته وخصوصه بحسب الأفراد والاقتران ^(٢).

العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٣.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٥٢ والفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٦١-٣٦٢ ورسالة في تحقيق التوكل ج: ١ ص: ٩١ ومجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٢٨٦.

وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والاحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وامثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والانابة إليه واخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وامثال ذلك هي من العبادة لله ذلك ان العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وبها ارسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] وجعل ذلك لازما لرسوله إلى الموت قال ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] وبذلك وصف ملائكته وانبياءه فقال تعالى ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [١١] يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠] وذم المستكبرين عنها بقوله ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ونعت صفوة خلقه بالعبودية له فقال تعالى ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦] وقال تعالى عن المسيح الذي ادعت فيه الالهية والنبوة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩] ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لا تطروني كما اطرت النصارى عيسى بن مريم فانما انا عبد فقولوا عبد الله ورسوله وقد نعتة الله بالعبودية في اكمل احواله فقال في الاسراء ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الاسراء: ١] وقال في الايحاء ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وقال في الدعوة ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] وقال في التحدى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] فالدين كله داخل في العبادة.

الذي عليه جمهور المسلمين أن الله خلقهم لعبادته وهو فعل ما أمروا به ولهذا

179

[النساء: ١] فقد أمرهم بما خلقهم له وأرسل الرسل إلى الإنس والجن ومحمد أرسل إلى الثقلين وقرأ القرآن على الجن وقد روى أنه لما قرأ عليهم سورة الرحمن وجعل يقرأ ﴿فَإَيَّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] يقولون ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد فهذا هو المعنى الذى قصد بالآية قطعاً وهو الذى تفهمه جماهير المسلمين ويحتجون بالآية عليه ويعترفون بأن الله خلقهم ليعبدوه لا ليضيعوا حقه وفى الصحيحين عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال له يامعاذ أتدري ما حق الله على عبادة قال الله ورسوله أعلم قال فإن حق الله على عبادة أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم قال فإن حقهم عليه أن لا يعذبهم وفى المسند عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحي جعل الذل والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم^(١).

والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته

ففى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً وفى الصحيحين عن النبى انه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا الله ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر اصوله وأجل قواعده بل هى اصل كل عمل من اعمال الايمان والدين وكما ان التصديق به اصل كل قول من أقوال الايمان والدين فان كل حركة فى الوجود انما تصدر عن محبة إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك فى قاعدة المحبة من القواعد الكبار فجميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر الا عن المحبة المحمودة وأصل المحبة المحمودة هى محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملاً صالحاً بل جميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٥٢-٥٣.

محبة الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه كما ثبت فى الصحيح عن النبى انه قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيرى فانا منه برئ وهو كله للذى أشرك وثبت فى الصحيح فى حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار القارئ المرائى والمجاهد المرائى والمتصدق المرائى بل اخلاص الدين لله هو الدين الذى لا يقبل الله سواه وهو الذى بعث به الأولين والآخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة اهل الايمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وابليس انه قال ﴿فِعَزَّيْكَ لَا تُعْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣] وقال تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] وقال ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٩٩) ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ - ١٠٠] فبين ان سلطان الشيطان واغواءه انما هو لغير المخلصين ولهذا قال فى قصة يوسف ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] واتباع الشيطان هم اصحاب النار كما قال تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] وقد قال سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وهذه الآية فى حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه ومادونه يغفره لمن يشاء واما قوله ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] فتلك فى حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها وقد اخبر سبحانه ان الأولين والآخرين انما امروا بذلك فى غير موضع كالسورة التى قرأها النبى على ابى لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (٤) ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٤ - ٥] الآية وهذا حقيقة قول لا اله الا الله وبذلك بعث

جميع الرسل قال الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ لاسيما افضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا ابراهيم ومحمدا عليهما السلام فان هذا الاصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما فابراهيم هو الامام الذي قال الله فيه ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم قال سبحانه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٣٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨] فهذه الكلمة هي كلمة الاخلاص لله وهي البراءة من كل معبود الا من الخالق الذي فطرنا ونبينا ﷺ هو الذي اقام الله به الدين الخالص لله دين التوحيد وقمع به المشركين من كان مشركا في الأصل ومن الذين كفروا من اهل الكتب وقال فيما رواه الامام أحمد وغيره بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف امرى ومن تشبه بقوم منهم وقد تقدم بعض ما انزل الله عليه من الآيات المتضمنة للتوحيد وقال تعالى ايضا ﴿وَالصَّفَاتِ صَفًا﴾ [الصافات: ١] إلى قوله ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤] إلى قوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ آيُنَا لَنَارِكُوا إِلَهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٥ - ٣٧] إلى قوله ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَهَهُمْ مَكْرُومٌ﴾ [الصافات: ٤٠ - ٤٢] إلى ما ذكره من قصص الأنبياء في التوحيد واخلاص الدين

لله إلى قوله ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿[الصافات: ١٥٩ - ١٦٠] وقال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥ - ١٤٦] وفي الجملة فهذا الأصل في سورة الأنعام والأعراف والنور وآل طسم وآل حم وآل المر وسور المفصل وغير ذلك من السور المكية ومواضع من السور المدنية كثير فظاهر فهو اصل الأصول وقاعدة الدين حتى في سورتي الاخلاص قل يا ايها الكافرون وقل هو الله أحد وهاتان السورتان كان النبي يقرأ بهما في صلاة التطوع كركعتي الطواف وسنة الفجر وهما متضمنتان للتوحيد فاما قل يا ايها الكافرون فهي متضمنة للتوحيد العملى الأرادى وهو اخلاص الدين لله بالقصد والارادة وهو الذى يتكلم به مشائخ التصوف غالبا واما سورة قل هو الله احد فمتضمنة للتوحيد القولى العملى كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة ان رجلا كان يقرأ قل هو الله احد فى صلاته فقال النبي سلوه لم يفعل ذلك فقال لانها صفة الرحمن فانا احب ان اقرأ بها فقال اخبروه ان الله يحبه ولهذا تضمنت هذه السورة من وصف الله سبحانه وتعالى الذى ينفى قول اهل التعطيل وقول اهل التمثيل ما صارت به هى الأصل المعتمد فى سائل الذات كما قد بسطنا ذلك فى غير هذا الموضع وذكرنا اعتماد الأئمة عليها مع ما تضمنته من تفسير الأحاد الصمد كما جاء تفسيره عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين وما دل على ذلك من الدلائل لكن المقصود هنا هو التوحيد العملى وهو اخلاص الدين لله وان كان احد النوعين مرتبطا بالآخر فلا يوجد أحد من اهل التعطيل الجهمية واهل التمثيل المشبهة الا وفيه نوع من الشرك العملى اذ اصل قولهم فيه شرك وتسوية بين الله وبين خلقه أو بينه وبين المعدومات كما يسوى المعطلة بينه وبين المعدومات فى الصفات السلبية التى لا تستلزم مدحا ولا ثبوت كمال أو يسوون بينه وبين الناقص من الموجودات فى صفات النقص وكما يسوى اذا اثبتوا هم ومن ضاها هم من المثلة بينه وبين المخلوقات فى حقائقها حتى قد يعبدونها فيعدونها فيعدلون بربهم ويجعلون له اندادا ويسوون المخلوقات برب العالمين واليهود كثيرا ما يعدلون الخالق بالمخلوق ويمثلونه به

حتى يصفوا الله بالعجز والفقر والبخل ونحو ذلك من النقائص التي يجب تنزيهه عنها وهي من صفات خلقه والنصارى كثيرا ما يعدلون المخلوق بالخالق حتى يجعلوا في المخلوقات من نعوت الربوبية وصفات الالهية ويجوزون له مالا يصلح الا للخالق سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا والله سبحانه وتعالى قد امرنا ان نسأله ان يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين انعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين وقد قال النبي اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وفي هذه الأمة من فيه شبه من هؤلاء وهؤلاء كما قال النبي لتبعن سنن من كان قبلكم حذوا القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن والحديث في الصحيحين فاذا كان اصل العمل الديني هو اخلاص الدين لله وهو ارادة الله وحده فالشئ المراد لنفسه هو المحبوب لذاته وهذا كمال المحبة لكن اكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة كقوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] وامثال هذا والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته فالمحسوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبودا والمعظم الذي لا يجب لا يكون معبودا ولهذا قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فبين سبحانه ان المشركين بربهم الذين يتخذون من دون الله اندادا وان كانوا يحبونهم كما يحبون الله فالذين آمنوا اشد حبا لله منهم الله ولأوثانهم لأن المؤمنين اعلنم بالله والحب يتبع العلم وأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده اعلم بالله والحب يتبع العلم ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده وأولئك جعلوا بعض حبهم لغيره واشركوا بينه وبين الأنداد في الحب ومعلوم أن ذلك اكمل^(١).

لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن احب شيئا ولم يذل له لم

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٥١-٥٦ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ٦٣.

يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيته ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعووه فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا^(١).

فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم ان المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه أو ان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل الخلق واضلهم وقال تعالى ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) ﴿يَسْتَحْسِرُونَ الْإِلَّ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠] ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (٢١) ﴿لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٧] إلى قوله ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقال تعالى ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢] إلى قوله ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣] وهذا ونحوه مما فيه وصف اكابر المخلوقات بالعبادة وذم من خرج عن ذلك متعدد في القرآن وقد اخبر انه ارسل جميع الرسل بذلك فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [الأنحل: ٣٦]

(١) الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٣١.

وقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] ^(١).

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]

ومن الذى قال ان التقوى مجرد ترك السيئات بل التقوى كما فسرهما الأولون والآخرين فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وقد قال تعالى فى اكبّر سورة فى القرآن ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ^(٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿البقرة: ١ - ٣﴾ إلى اخرها فوصف المتقين بفعل المأمور به من الإيمان والعمل الصالح من اقام الصلاة وايتاء الزكاة وقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] ^(٣).

وقد أنزل الله عليه في غير موضع أمر جميع الخلق بعبادته ^(٣).

لطائف لغوية

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايقة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوباً للأمر مقصوداً له كما في قوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٨٩] ﴿وَأَحْسِنُوا ۖ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣] وفي قوله ﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التغابن: ٨] وفي قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٧٦-١٧٧ والفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٧٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٣٢.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٨٧.

أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴿البقرة: ٢١﴾ وفي قوله ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ [يونس: ٨٤] فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به ^(١).

الاحكام المرتبة على الأسماء العامة نوعان أحدهما ما يثبت لكل فرد من أفراد ذلك العام سواء قدر وجود الفرد الآخر أو عدمه والثاني ما يثبت لمجموع تلك الأفراد فيكون وجود كل منها شرطاً في ثبوت الحكم للآخر مثال الأول قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٦] ومثال الثاني قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فإن الخلق ثابت لكل واحد من الناس وكلا منهم مخاطب بالعبادة والطهارة وليس كل واحد من الأمة أمة وسطاً ولا خير أمة ثم العموم المقابل بعموم آخر قد يقابل كل فرد من هذا بكل فرد من هذا كما في ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ ءَ وَكُتِبَ عَلَيْهِ ءَ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فإن كل واحد من المؤمنين آمن بكل واحد من الملائكة والكتب والرسول وقد يقابل المجموع بالمجموع بشرط الاجتماع منهما كما في قوله ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّتَقَتَا﴾ [آل عمران: ١٣] فإن الالتقاء ثبت لكل منهما حال اجتماعهما وقد يقابل شرط الاجتماع من أحدهما كقوله ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فإن مجموع الأمة خير للناس مجتمعين ومنفردين وقد يقابل المجموع بالمجموع بتوزيع الأفراد على الأفراد فيكون لكل واحد من العمومين واحد من العموم الآخر كما يقال لبس الناس ثيابهم وركب الناس دوابهم فإن كل واحد منهم ركب دابته ولبس ثوبه وكذلك إذا قيل الناس يحبون أولادهم أى كل واحد يحب ولده ومن هذا قوله سبحانه ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أى كل والدة ترضع ولدها بخلاف ما لو قلت الناس يعظمون الأنبياء فإن

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥١.

كل واحد منهم يعظم كل واحد من الأنبياء^(١).

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]

قال تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] قد خلق الله تعالى الأشياء بأسباب كما قال تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال تعالى ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]^(٢).

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]

قال تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وذكر تعالى في سورة الاخلاص أنه أحد ليس له كفوا أحد فنفي بذلك أن يكون شيئاً من الأشياء له كفوا وبين أنه أحد لا نظير له^(٣).

أن الكمال لازم لواجب الوجود واجب له يمتنع سلب الكمال عنه والكمال أمور وجودية فالأمور العدمية لا تكون كمالات إلا إذا تضمنت أموراً وجودية إذ العدم المحض ليس بشيء فضلاً عن أن يكون كمالاتاً فإن الله سبحانه إذا ذكر ما يذكره من تنزيهه ونفى النقائص عنه ذكر ذلك في سياق إثبات صفات الكمال له كقوله تعالى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فنفي السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيومية وهذه من صفات الكمال وكذلك قوله ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] فإن نفي عزوب ذلك عنه يتضمن علمه به وعلمه به من صفات الكمال وكذلك قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣١ ص: ١٢٨.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٨٠.

(٣) منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ١٨٣-١٨٥.

مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿ق: ٣٨﴾ فتزويه لنفسه عن مس اللغوب يقتضى كمال قدرته والقدرة من صفات الكمال فتزويه يتضمن كمال حياته وقيامه وعلمه وقدرته وهكذا نظائر ذلك فالرب تعالى موصوف بصفات الكمال التي لا غاية فوقها إذ كل غاية تفرض كمالا إما أن تكون واجبة له أو ممكنة أو ممتنعة والقسمان الأخيران باطلان فوجب الأول فهو منزّه عن النقص وعن مساواة شيء من الأشياء له في صفات الكمال بل هذه المساواة هي من النقص أيضا وذلك لأن المتماثلين يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه فلو قدر أنه مائل شيئا في شيء من الأشياء للزم اشتراكهما فيما يجب ويجوز ويمتنع على ذلك الشيء وكل ما سواه ممكن قابل للعدم بل معدوم مفتقر إلى فاعل وهو مصنوع مربوب محدث فلو مائل غيره في شيء من الأشياء للزم أن يكون هو والشيء الذي مائله فيه ممكنا قابلا للعدم بل معدوما مفتقرا إلى فاعل مصنوعا مربوبا محدثا وقد تبين أن كماله لازم لذاته لا يمكن أن يكون مفتقرا فيه إلى غيره فضلا عن أن يكون ممكنا أو مصنوعا أو محدثا فلو قدر مماثلة غيره له في شيء من الأشياء للزم كون الشيء الواحد موجودا معدوما ممكنا واجبا قديما محدثا وهذا جمع بين النقيضين فالرب تعالى مستحق للكمال على وجه التفصيل كما أخبرت به الرسل فإن الله تعالى أخبر أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه سميع بصير وأنه عليم قدير عزيز حكيم غفور رحيم ودود مجيد وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر وأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش وأنه كلم موسى تكليما وناداه وناجاه إلى غير ذلك مما جاء به الكتاب والسنة وقال في التنزيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] فنزه نفسه عن النظير باسم الكفاء والمثل والند والسمى وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع وكتبنا رسالة مفردة في قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وما فيها من الأسرار والمعاني الشريفة فهذه طريقة الرسل وأتباعهم من سلف الأمة وأئمتها إثبات مفصل ونفي مجمل إثبات صفات الكمال على وجه التفصيل ونفي النقص

والتمثيل كما دل على ذلك سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٢).

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الايمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كقول له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأحسن حديثا من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨١) ﴿وَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢] فسيح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والاثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] (٢).

ومذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله في النفي والاثبات والله سبحانه وتعالى قد نفى عن نفسه مماثلة المخلوقين فقال الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٢) ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ﴾ (٣) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ

(١) الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٨.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٣٠-١٣١ والعقيدة الواسطية ج: ١ ص: ١٣ والعقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٢٤-٢٥.

كُفُّوا أَحَدٌ ﴿٦٥﴾ فبين أنه لم يكن أحد كفوا له وقال تعالى ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] فأنكر أن يكون له سمى وقال تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] وقال تعالى ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] وقال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ففيما أخبر به عن نفسه من تنزيهه عن الكفو والسمى والمثل والند وضرب الأمثال له بيان أن لا مثل له فى صفاته ولا أفعاله فان التماثل فى الصفات والأفعال يتضمن التماثل فى الذات فان الذاتين المختلفتين يمتنع تماثل صفاتهما وأفعالهما اذ تماثل الصفات والأفعال يستلزم تماثل الذوات فان الصفة تابعة للموصوف بها والفعل أيضا تابع للفاعل بل هو مما يوصف به الفاعل فاذا كانت الصفتان متماثلتين كان الموصوفان متماثلين حتى أنه يكون بين الصفات من التشابه والاختلاف بحسب ما بين الموصوفين كالانسانين كما كانا من نوع واحد فتختلف مقاديرهما وصفاتهما بحسب اختلاف ذاتيهما ويتشابه ذلك بحسب تشابه ذلك اذا قيل بين الانسان والفرس تشابه من جهة أن هذا حيوان وهذا حيوان اختلاف من جهة أن هذا ناطق وهذا صاهل وغير ذلك من الامور كان بين الصفتين من التشابه والاختلاف بحسب ما بين الذاتين وذلك أن الذات المجردة عن الصفة لا توجد الا فى الذهن فالذهن يقدر ذاتا مجردة عن الصفة ويقدر وجودا مطلقا لا يتعين وأما الموجودات فى أنفسها فلا يمكن فيها وجود ذات مجردة عن كل صفة ولا وجود مطلق لا يتعين ولا يتخصص واذا قال من قال من أهل الاثبات للصفات انا اثبت صفات الله زائدة على ذاته فحقيقة ذلك أنا نثبتها زائدة على ما أثبتنا النفاة من الذات فان النفاة اعتقدوا ثبوت ذات مجردة عن الصفات فقال أهل الاثبات نحن نقول باثبات صفات زائدة على ما اثبتته هؤلاء وأما الذات نفسها الموجودة فتلك لا يتصور أن تتحقق بلا صفة أصلا بل هذا بمنزلة من قال اثبت انسانا لا حيوانا ولا ناطقا ولا قائما بنفسه ولا بغيره ولا له قدرة ولا حياة ولا حركة ولا سكون أو نحو ذلك أو قال أثبت نخلة ليس لها ساق ولا جذع ولا ليف ولا غير ذلك فان هذا يثبت ما لا حقيقة له فى الخارج ولا يعقل ولهذا كان السلف والأئمة يسمون نفاة الصفات معطلة لأن حقيقة قولهم تعطيل ذات الله تعالى وان كانوا هم قد لا يعلمون ان قولهم مستلزم للتعطيل بل يصفونه بالوصفين المتناقضين فيقولون هو موجود قديم واجب ثم ينفون لوازم وجوده فيكون حقيقة قولهم

موجود ليس بموجود حق ليس بحق خالق ليس بخالق فينفون عنه النقيضين إما تصريحاً بنفيها وإما إمساكاً عن الأخبار بواحد منهما ولهذا كان محققوهم وهم القرامطة ينفون عنه النقيضين فلا يقولون موجود ولا لا موجود ولا حى ولا لا حى ولا عالم ولا لا عالم قالوا لأن وصفه بالاثبات تشبيه له بالموجودات ووصفه بالنفى فيه تشبيه له بالمعدومات فآل بهم اغراقهم فى نفي التشبيه إلى أن وصفوه بغاية التعطيل ثم أنهم لم يخلصوا مما فروا منه بل يلزمهم على قياس قولهم أن يكونوا قد شبهوه بالمتنع الذى هو أحسن من الموجود والمعدوم الممكن ففروا فى زعمهم من تشبيهه بالموجودات والمعدومات ووصفوه بصفات الممتنعات التى لا تقبل الوجود بخلاف المعدومات الممكنات وتشبيهه بالممتنعات شر من تشبيهه بالموجودات والمعدومات الممكنات وما فر منه هؤلاء الملاحدة ليس بمحذور فانه اذا سمى حقاً موجوداً قائماً بنفسه حياً عليماً رؤوفاً رحيماً وسمى المخلوق بذلك لم يلزم من ذلك أن يكون مماثلاً للمخلوق اصلاً ولو كان هذا حقاً لكان كل موجود مماثلاً لكل موجود ولكان كل معدوم مماثلاً لكل معدوم ولكان كل ما ينفى عنه شىء من الصفات مماثلاً لكل ما ينفى عنه ذلك الوصف فاذا قيل السواد موجود كان على قول هؤلاء قد جعلنا كل موجود مماثلاً للسواد واذا قلنا للبياض معدوم كنا قد جعلنا كل معدوم مماثلاً للبياض ومعلوم أن هذا فى غاية الفساد ويكفى هذا خزيًا لحزب الاتحاد واذا لم يلزم مثل ذلك فى السواد الذى له أمثال بلا ريب فاذا قيل فى خالق العالم أنه موجود لا معدوم حى لا يموت قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم فمن أين يلزم أن يكون مماثلاً لكل موجود ومعدوم وحى وقائم ولكل ما ينفى عنه العدم وما ينفى عنه صفة العدم وما ينفى عنه الموت والنوم كأهل الجنة الذين لا ينامون ولا يموتون وذلك أن هذه الاسماء العامة المتواطئة إلى تسميها النحاة اسماء الاجناس سواء اتفقت معانيها فى محالها أو تفاضلت كالسواد ونحوه وسواء سميت مشككة وقيل أن المشككة نوع من المتواطئة اما أن تستعمل مطلقة وعامة كما اذا قيل الموجود ينقسم إلى واجب وممكن وقديم ومحدث وخالق ومخلوق والعلم ينقسم إلى قديم ومحدث واما أن تستعمل خاصة معينة كما اذا قيل وجود زيد وعمرو وعلم زيد وعمرو وذات زيد وعمرو فاذا استعملت خاصة معينة دلت على ما يختص به المسمى لم تدل على ما يشركه فيه غيره فى الخارج فان ما يختص به

المسمى لا شركة فيه بينه وبين غيره فاذا قيل علم زيد ونزول زيد واستواء زيد ونحو ذلك لم يدل هذا الا على ما يختص به زيد من علم ونزول واستواء ونحو ذلك لم يدل على ما يشركه فيه غيره لكن لما علمنا أن زيدا نظير عمرو وعلمنا أن علمه نظير علمه ونزوله نظير نزوله واستواءه نظير استوائه فهذا علمناه من جهة القياس والمعقول والاعتبار لا من جهة دلالة اللفظ فاذا كان هذا في صفات المخلوق فذلك في الخالق أولى فاذا قيل علم الله وكلام الله ونزوله واستوائه ووجوده وحياته ونحو ذلك لم يدل ذلك على ما يشركه فيه أحد من المخلوقين بطريق الأولى ولم يدل ذلك على مماثلة الغير له في ذلك كما دل في زيد وعمرو لأننا هناك علمنا التماثل من جهة الاعتبار والقياس لكون زيد مثل عمرو وهنا نعلم أن الله لا مثل له ولا كفو ولا ند فلا يجوز أن نفهم من ذلك أن علمه مثل علم غيره ولا كلامه مثل كلام غيره ولا استواءه مثل استواء غيره ولا نزوله مثل نزول غيره ولا حياته مثل حياة غيره ولهذا كان مذهب السلف والأئمة اثبات الصفات ونفى مماثلتها لصفات المخلوقات فالله تعالى موصوف بصفات الكمال الذى لا نقص فيه منزّه عن صفات النقص مطلقا ومنزه عن أن يماثله غيره فى صفات كماله فهذان المعنيان جمعا التنزيه وقد دل عليهما قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ^(١) اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ [الاخلاص: ١-٢] فالاسم الصمد يتضمن صفات الكمال والاسم الأحد يتضمن نفى المثل كما قد بسط الكلام على ذلك فى تفسير هذه السورة فالقول فى صفاته كالقول فى ذاته والله تعالى ليس كمثله شئ لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله لكن يفهم من ذلك أن نسبة هذه الصفة إلى موصوفها كنسبة هذه الصفة إلى موصوفها فعلم الله وكلامه ونزوله واستوائه هو كما يناسب ذاته ويليق بها كما أن صفة العبد هى كما تناسب ذاته وتليق بها ونسبة صفاته إلى ذاته كنسبة صفات العبد إلى ذاته ولهذا قال بعضهم اذا قال لك السائل كيف ينزل أو كيف استوى أو كيف يعلم أو كيف يتكلم ويقدر ويخلق فقل له كيف هو فى نفسه فاذا قال أنا لا أعلم كيفية ذاته فقل له وأنا لا أعلم كيفية صفاته فان العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف ^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٣٢٥ - ٣٣٠ والعقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٥٣.

النبي ﷺ نهى أمته عن دقيق الشرك وجليلة

وأصل دين الإسلام أن نعبد الله وحده ولا نجعل له من خلقه ندا ولا كفوا ولا سميا قال تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] وقال تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] وقال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقال تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أى الذنب اعظم قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزاني بجليلة جارك فأنزل الله تصديق رسوله ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الزمر: ١٦٨] وقال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فمن سوى بين الخالق والمخلوق فى الحب له أو الخوف منه والرجاء له فهو مشرك والنبي نهى أمته عن دقيق الشرك وجليلة حتى قال من حلف بغير الله فقد أشركرواه أبودأود وغيره وقال له رجل ما شاء الله وشئت فقال أ جعلتني لله ندا بل ما شاء الله وحده وقال لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد وجاء معاذ بن جبل مرة فسجد له فقال ما هذا يا معاذ فقال يا رسول الله رأيتهم فى الشام يسجدون لأساقفتهم يا معاذ إنه لا يصلح السجود إلا لله ولو كنت أمرا أحدا ان يسجد لأحد لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها من عظم حقه عليها^(١).

وقال تعالى فى النفى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] فبين فى هذه الآيات ان الله لا كقوله ولا ند له ولا مثل له ولا سمي له فمن قال إن علم الله كعلمى أوقدرته كقدرتى أو كلامه مثل كلامى أو إرادته

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٣٣٩.

ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتي ومحبتى ورضائى وغضبى أو استواءه على العرش كاستواء أو نزوله كنزولى أو اتيانه كاتيانى ونحو ذلك فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه تعالى الله عما يقولون وهو ضال خبيث مبطل بل كافر ومن قال ان الله ليس له علم ولا قدرة ولا كلام ولا مشيئة ولا سمع ولا بصر ولا محبة ولا رضى ولا غضب ولا استواء ولا اتيان ولا نزول فقد عطل اسماء الله الحسنى وصفاته العلى وألحد فى اسماء الله وآياته وهو ضال خبيث مبطل بل كافر بل مذهب الأئمة والسلف اثبات الصفات ونفى التشبيه بال مخلوقات اثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل كما قال نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها ومما يبين ذلك أن الله تعالى أخبرنا ان فى الجنة ماء ولبنا وخمرا وعسلا ولحما وفاكهة وحريرا وذهبا وفضة وغير ذلك وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما ليس فى الدنيا مما فى الجنة الا الاسماء فاذا كانت المخلوقات فى الجنة توافق المخلوقات فى الدنيا فى الاسماء والحقائق ليست مثل الحقائق فكيف يكون الخالق مثل المخلوق إذا وافقه فى الاسم والله تعالى قد اخبر انه سميع بصير واخبر عن الانسان انه سميع بصير وليس هذا مثل هذا واخبر انه حى وعن بعض عبادہ أنه حى وليس هذا مثل هذا واخبر انه رؤوف رحيم واخبر عن نبيه انه رؤوف رحيم وليس هذا مثل هذا واخبر انه عليم حلیم واخبر عن بعض عبادہ بأنه عليم حلیم وليس هذا مثل هذا وسمى نفسه الملك وسمى بعض عبادہ الملك وليس هذا مثل هذا وهذا كثير فى الكتاب والسنة فكان سلف الأمة وأئمتها كأئمة المذاهب مثل ابى حنيفة ومالك والشافعى واحمد وغيرهم على هذا إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل لا يقولون بقول أهل التعطيل نفاة الصفات ولا بقول أهل التمثيل المشبهة للخالق بالمخلوقات فهذه طريقة الرسل ومن آمن بهم وأما المخالفون للرسل صلوات الله وسلامه عليهم من المتفلسفة وأشباههم فيصفون الرب تعالى بالصفات السلبية ليس كذا ليس كذا ليس كذا ولا يصفونه بشيء من صفات الاثبات بل بالسلب الذى يوصف به المعدوم فيبقى ما ذكره مطابقا للمعدوم فلا يبقى فرق بين ما يثبتونه وبين المعدوم وهم يقولون إنه موجود ليس بمعدوم قيتناقضون يثبتونه من وجه ويححدونه من وجه آخر ويقولون إنه وجود مطلق لا يتميز بصفة وقد علم

الناس ان المطلق لا يكون موجودا فانه ليس فى الأمور الموجودة ما هو مطلق لا يتعين ولا يتميز عن غيره وإنما يكون ذلك فيما يقدره المرء فى نفسه فيقر أمرا مطلقا وان كان لا حقيقة له فى الخارج فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لا يجعلون الخالق سبحانه وتعالى موجودا مبينا لخلقه بل إما ان يجعلوه مطلقا فى ذهن الناس أو يجعلوه حالا فى المخلوقات أو يقولون هو وجود المخلوقات ومعلوم أن الله كان قبل ان يخلق المخلوقات وخلقها فلم يدخل فيها ولم يدخلها فيه فليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته وعلى ذلك دل الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها فالجهمية المعطلة نفاة الصفات من المتفلسفة والمعتزلة وغيرهم الذين امتحنوا المسلمين كما تقدم كانوا على هذا الضلال فلما أظهر الله تعالى أهل السنة والجماعة ونصرهم بقى هذا النفى فى نفوس كثير من اتباعهم فصاروا يظهرون تارة مع الرافضة القرامطة الباطنية وتارة مع الجهمية الاتحادية وتارة يوافقونهم^(١).

فلا بد للبعد أن يثبت لله ما يجب اثباته له من صفات الكمال وينفى عنه ما يجب نفيه عنه مما يضاد هذه الحال ولا بد له فى أحكامه من ان يثبت خلقه وأمره فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته وعموم مشيئته ويثبت أمره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه من القول والعمل ويؤمن بشرعه وقدره إيمانا خاليا من الزلل وهذا يتضمن التوحيد فى عبادته وحده لا شريك له وهو التوحيد فى القصد والإرادة والعمل والأول يتضمن التوحيد فى العلم والقول كما دل على ذلك سورة قل هو الله احد ودل على الآخر سورة قل يا أيها الكافر ونوهما سورتا الإخلاص وبهما كان النبى يقرأ بعد الفاتحة فى ركعتى الفجر وركعتى الطواف وغير ذلك فأما الأول وهو التوحيد فى الصفات فالأصل فى هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله نفيًا وإثباتًا فيثبت لله ما اثبتته لنفسه وينفى عنه ما نفاه عن نفسه وقد علم ان طريقة سلف الامة وأئمتها إثبات ما اثبتته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع اثبات ما اثبتته من الصفات من غير الحاد لا فى أسمائه ولا فى

(١) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٤٨٢-٤٨٤.

آياته فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَنَ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفى مماثلة المخلوقات اثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل كما قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ففي قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] رد للتشبيه والتمثيل وقوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] رد للإلحاد والتعطيل والله سبحانه بعث رسله باثبات مفصل ونفى مجمل فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل كما قال تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] قال اهل اللغة هل تعلم له سميا أى نظيرا يستحق مثل اسمه ويقال مساميا يساميه وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] مثيلا أو شبيها وقال تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]^(١).

والله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم وللأنبياء حق وللمؤمنين حق ولبعضهم على بعض حق فحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشركوا به كما تقدم فى حديث معاذ ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ويتوكلوا عليه ويرغبوا اليه ولا يجعلوا لله ندا لا فى محبته ولا خشيته ولا دعائه ولا الإستعانة به كما فى الصحيحين أنه قال من مات وهو يدعو ندا من دون الله دخل النار وسئل أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك وقيل له ما شاء الله وشئت فقال أ جعلتني لله ندا بل ما شاء الله وحده وقال تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٠٥.

الشرك بالله أعظم ذنب عصى الله به

إعلم رحمك الله أن الشرك بالله أعظم ذنب عصى الله به قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] وفي الصحيحين أنه سئل أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك زال ند المثل قال تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وقال تعالى ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨] فمن جعل لله ندا من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الألهية والربوبية فقد كفر بإجماع الأمة فإن الله سبحانه هو المستحق للعبادة لذاته لأنه المألوه المعبود الذى تأله القلوب وترغب إليه وتفرع إليه عند الشدائد وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية فكيف يصلح أن يكون إلهًا قال الله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ أَنْزَلْنَاهُ لَكُفُورًا مَبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥] وقال تعالى ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] وقال الله تعالى ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢] وقال تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُفْرُنتُهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥١] وقال تعالى ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١] ^(١).

وأصل الشرك انما هو اتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله ومن كان حبه لله وبغضبه لله لا يحب الا الله ولا يبغض الا الله ولا يعطي الا الله ولا يمنع الا الله فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال يقول الله من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب الي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٨٧-٨٨.

أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه
فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل بعد تقربهم بما يحبه من
الفرائض أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه وصار أحدهم يدرك بالله ويتحرك
بالله بحيث أن الله يحيب مسألته ويعذه مما استعاذ منه وقد ذم في كتابه من أحب أندادا من
دونه قال تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ
الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وذم من اتخذ الهه هواه
وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه وهذا قد يكون فعل القلب فقط^(١).

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]

آيات التحدي

والقرآن كلام الله وفيه الدعوة والحجة فله به اختصاص على غيره كما ثبت عنه
في الصحيح أنه قال ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله
البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة
والقرآن يظهر كونه آية وبرهانا له من وجوه جملة وتفصيلا أما الجملة فإنه قد علمت
الخاصة والعامة من عامة الأمم علما متواترا أنه هو الذي أتى بهذا القرآن وتواترت
بذلك الأخبار أعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم
والقرآن نفسه فيه تحدي الأمم بالمعارضة والتحدي هو أن يجدهم أي يدعوهم فيبعثهم
إلى أن يعارضوه فيقال فيه حداني على هذا الأمر أي بعثني عليه ومنه سمي حادي العيس
لأنه مجدها يبعثها على السير وقد يريد بعض الناس بالتحدي دعوى النبوة ولكنه أصله
الأول قال تعالى في سورة الطور ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا
صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣ - ٣٤] فهنا قال ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤] في
أنه تقوله فإنه إذا كان محمد قادرا على أن يتقوله كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما

(١) الزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٨٢.

يتكلم به من نظم ونثر كان هذا ممكنا للناس الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثلهم إنه تحداهم بعشر سور مثله فقال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣] ثم تحداهم بسورة واحدة منه فقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٢٧] ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧ - ٣٨] فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتریات هم وكل من استطاعوا من دون الله ثم تحداهم بسورة واحدة هم ومن استطاعوا قال ﴿فَالَّذِي يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤] وهذا أصل دعوته وهو الشهادة بأنه لا إله إلا الله والشهادة بأن محمدا رسول الله وقال تعالى ﴿فَالَّذِي يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٤] كما قال ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦] أي هو يعلم أنه منزل لا يعلم أنه مفترى كما قال ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧] أي ما كان لأن يفترى يقول ما كان ليفعل هذا فلم ينف مجرد فعله بل نفي احتمال فعله وأخبر بأن مثل هذا لا يقع بل يمتنع وقوعه فيكون المعنى ما يمكن ولا يحتمل ولا يجوز أن يفترى هذا القرآن من دون الله فإن الذي يفتره من دون الله مخلوق والمخلوق لا يقدر على ذلك وهذا التحدي كان بمكة فإن هذه السور مكية سورة يونس وهود والطور ثم أعاد التحدي في المدينة بعد الهجرة فقال في البقرة وهي سورة مدنية ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] ثم قال ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] فذكر أمرين أحدهما قوله ﴿فَإِنْ

لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴿البقرة: ٢٤﴾ يقول إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق فخافوا الله أن تكذبوه فيحيق بكم العذاب الذي وعد به المكذبين وهذا دعاء إلى سبيل ربه بالموعظة الحسنة بعد أن دعاهم بالحكمة وهو جداهم بالتي هي أحسنو الثاني قوله قوله ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ﴿البقرة: ٢٤﴾ ولن لنفي المستقبل فثبت الخبر أنهم فيما يستقبل من الزمان لا يأتون بسورة من مثله كما أخبر قبل ذلك وأمره أن يقول في سورة سبحان وهي سورة مكية افتتحها بذكر الإسراء وهو كان بمكة بنص القرآن والخبر المتواتر وذكر فيها من مخاطبته للكفار بمكة ما يبين بذلك بقوله ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ﴿الإسراء: ٨٨﴾ فعم بالخبر جميع الخلق معجزا لهم قاطعا بأنهم إذا اجتمعوا كلهم لا يأتون بمثل هذا القرآن ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك وهذا التحدي والدعاء هو لجميع الخلق وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن وعرفه الخاص والعام وعلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورة مثله ومن حين بعث وإلى اليوم الأمر على ذلك مع ما علم من أن الخلق كلهم كانوا كفارا قبل أن يبعث ولما بعث إنما تبعه قليل وكان الكفار من أحرص الناس على إبطال قوله مجتهدين بكل طريق يمكن تارة يذهبون إلى أهل الكتاب فيسئلونهم عن أمور من الغيب حتى يسألوه عنها كما سألوه عن قصة يوسف وأهل الكهف وذي القرنين كما تقدم وتارة يجتمعون في مجمع بعد مجمع على ما يقولونه فيه وصاروا يضربون له الأمثال فيشبهونه بمن ليس مثله لمجرد شبه ما مع ظهور الفرق فتارة يقولون مجنون وتارة يقولون ساحر وتارة يقولون كاهن وتارة يقولون شاعر إلى أمثال ذلك من الأقوال التي يعلمون هم وكل عاقل سمعها أنها افتراء عليه فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة مرة بعد مرة وهي تبطل دعوته فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها فإنه مع وجود هذا الداعي التام المؤكد إذا كانت القدرة حاصلة وجب وجود المقدور ثم هكذا القول في سائر أهل الأرض فهذا القدر يوجب علما بينا لكل أحد بعجز جميع أهل الأرض عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلة وبغير حيلة وهذا أبلغ من الآيات التي يكرر جنسها كإحياء الموتى فإن هذا لم يأت أحد بنظيره وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط

أو نظمه وأسلوبه فقط ولا من جهة إخباره بالغيب فقط ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة من جهة اللفظ ومن جهة النظم ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذلك من جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي وعن الغيب المستقبل ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة^(١).

وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] وسواء كان المراد بذلك الفاتحة أو القرآن كله فإنه يدل على أن القرآن العظيم له إختصاص بهذا الوصف على ما ليس كذلك وقد سمي الله القرآن كله مجيدا وكراما وعزيزا وقد تحدى الخلق بأن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة منه فقال ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤] وقال ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِينَ﴾ [هود: ١٣] وقال ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]^(٢).

إن الآيات جميعها تدل على صدق الأنبياء فإن آيات الله مرة أو مرتين أو ثلاثا لا يشترط في ذلك تكرار بل شرطها أن لا يكون لها نظير في العالم لغير الانبياء ومن يشهد بالنبوة ولم يوجد لغيرهم كان هذا دليلا على أنها مختصة بالانبياء ومن أطلق خرق العادة ولم يفسره ويبينه فلم يعرف خاصتها بل ظن أن ما وجد من السحر والكهانة خرق عادة أو ظن أن خرق العادة أن لا يعارضها معارض من المرسل اليهم وكثير من المنتهين الكذابين أتوا بخوارق من جنس خوارق السحرة والكهان ولم يكن من أولئك القوم من أتى بمثلها لكن قد علم أن في العالم مثلها في غير ذلك المكان أو في غير ذلك الزمان وإنما الخارق كما قال في القرآن ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا

(١) الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ٤٢٥-٤٢٨ والجواب الصحيح ج: ١ ص: ٤٢٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ١٤.

وأما نبوة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام فإنها تعرف بطرق كثيرة منها المعجزات ومعجزاته منها القرآن ومنها غير القرآن والقرآن معجز بلفظه ونظمه ومعناه وإعجازه يعلم بطريقتين جملي وتفصيلي أما الجملي فهو أنه قد علم بالتواتر أن محمد ﷺ ادعى النبوة وجاء بهذا القرآن وأن في القرآن آيات التحدي والتعجيز كقوله تعالى ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وأخبر مع ذلك أنهم لن يفعلوا فقال ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] وقد علم أيضا بالتواتر أنه دعا قريشا خاصة والعرب عامة وأن جمهورهم في أول الأمر كذبوه وأذوه وأذوا الصحابة وقالوا فيه أنواع القول مثل قولهم هوساخر وشاعر وكاهن ومعلم ومجنون وأمثال ذلك وعلم أنهم كانوا يعارضونه ولم يأتوا بسورة من مثله وذلك يدل على عجزهم عن معارضته لأن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة ومعلوم أن إرادتهم كانت من أشد الإرادات على تكذيبه وإبطال حجته وأنهم كانوا أحرص الناس على ذلك حتى قالوا فيه ما يعلم أنه باطل بأدنى نظر وفيلسوفهم الكبير الوحيد فكر وقدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر وليس هذا موضع ذكر جزئيات القصص إذ المقصود ذكر ما علم بالتواتر من أنهم كانوا من أشد الناس حرصا ورغبة على إقامة حجة يكذبونه بها ثم انتشرت دعوته في أرض العرب ثم في سائر الأرض إلى هذا الوقت وآيات التحدي قائمة متلوة وما قدر أحد أن يعارضه بما يظن أنه مثل (الرجوع إلى المرجع فيه نقص آخره) ^(١).

علينا أن نؤمن له ونؤمن بما جاء به

علينا أن نؤمن له ونؤمن بما جاء به والله تعالى ذكر هذين فذكر أولا ما يثبت نبوته وصدقه بقوله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ فَإِنَّهُمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣-١٤] كما تقدم التنبيه على ذلك ولما كان الذي يمنع الإنسان من اتباع الرسول

(١) العقيدة الأصفهانية ج: ١ ص: ٢٠٨-٢٠٩.

شيئان أما الجهل وأما فساد القصد ذكر ما يزيل الجهل وهو الآيات الدالة على صدقه ثم ذكر أهل فساد القصد بقوله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[هود: ١٥ - ١٦] فهؤلاء أهل الفساد القصد فهذان الأمران هما المانعان للخلق من اتباع هذا الرسول كما أنه في البقرة ذكر ما يوجب العلم وحسن القصد فقال ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] ثم قال ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] ^(١).

أنه تفرق أهل الكتاب في النبي ﷺ كل يقول فيه قولاً هو نظير تفرق سائر الكفار فإن الكفار بالأنبياء من عاداتهم أن تقول كل طائفة فيه قولاً يناقض قول الطائفة الأخرى وكذلك قولهم في الكتاب الذي أنزل عليه وأقوالهم كلها أقوال مختلفة باطلة وهذا هو الاختلاف المذموم الذي ذكره الله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤] ^(٢).

فإنه أتاهم بجلية ما في الصحف الأولى كالتوراة والإنجيل مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئاً فإذا أخبرهم بالغيوب التي لا يعلمها إلا نبي أو من أخبره نبي وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبر أحد من الأنبياء تبين لهم أنه نبي وتبين ذلك لسائر الأمم فإنه إذا كان قومه المعادون وغير المعادين له مقرين بأنه لم يجتمع بأحد يعلمه ذلك صار هذا منقولاً بالتواتر وكان مما أقر به مخالفوه مع حرصهم على الطعن لو أمكن فهذه الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة على قومه وعلى جميع من بلغه خبر ذلك وقد

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٩٢-٩٣.

(٢) الجواب الصحيح ج: ١ ص: ١٦٠.

أخبر بالغيوب المستقبلية وهذه تقوم بها الحجة على من عرف تصديق ذلك الخبر كما قال تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤] فأخبر أنهم لن يفعلوا ذلك في المستقبل وكان كما أخبر^(١).

فكمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله

ولفظ العبد فى القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبد فلا يطلق عليه لفظ عبده ونحو هذا كثير وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها^(٢).

ورسول الله ﷺ هو أفضل الخلائق وسيد ولد آدم وله الوسيلة فى المقامات كلها ولم يكن حاله أنه لا يريد شيئا ولا أنه يريد كل واقع كما أنه لم يكن حاله أنه يتبع الهوى بل هو منزّه عن هذا وهذا قال الله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤] وقال تعالى ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ إِنَّمَا ﴿١٩﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] وقال ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۚ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] والمراد بعبده عابده المطيع لأمره وإلا فجميع المخلوقين عباد بمعنى أنهم معبدون مخلوقون مدبرون وقد قال الله لنبيه ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] قال الحسن البصرى لم يجعل الله لعمل المؤمن أجلا دون الموت وقد قال الله تعالى له ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [التقوى: ٤] قال ابن عباس ومن وافقه كابن عيينة وأحمد بن حنبل على دين عظيم والدين فعل ما أمر به وقالت عائشة كان خلقه القرآن رواه مسلم وقد أخبرت أنه لم يكن يعاقب لنفسه ولا ينتقم لنفسه لكن يعاقب الله ويتنقم لله وكذلك أخبر أنس أنه كان يعفو عن حظوظه وأما حدود الله فقد قالوا الذى نفسى بيده لو أن فاطمة

(١) الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٤٠٨ والجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٧٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٤٣.

بنت محمد سرقت لقطعت يدها أخرجاه في الصحيحين^(١).

فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم ان المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه أو ان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل الخلق واضلهم وقال تعالى ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿[الأنبياء: ١٩ - ٢٠] وهذا ونحوه مما فيه وصف اكابر المخلوقات بالعبادة ودم من خرج عن ذلك متعدد في القرآن وقد اخبر انه ارسل جميع الرسل بذلك فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ﴿[النحل: ٣٦] وقال ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿[الذاريات: ٥٦] وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء إلى عبادة الله كقول نوح ومن بعده عليهم السلام ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ﴿[الأعراف: ٥٩] وفي المسند عن ابن عمر عن النبي انه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف امرى وقد بين ان عباده هم الذين ينجون من السيئاتقال الشيطان ﴿يَا أَغْوَيْنِي لَا أَزِينَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿[الحجر: ٣٩ - ٤٠] وقال تعالى في حق يوسف ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿[يوسف: ٢٤] وبها نعت كل من اصطفى من خلقه كقوله ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَلِنُثَبِّتَهُنَّ لِنَاصِرٍ لِنَا الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ ﴿[ص: ٤٥ - ٤٧]. وقوله ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿[ص: ١٧] وقال عن سليمان ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿[ص: ٣٠] وعن أيوب ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿[ص: ٤٤] وقال ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ ﴿[ص: ٤١] وقال نوح عليه

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٥٠٣.

السلام ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] وقال ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] وقال ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] وقال ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] وقال ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وقال ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] وقال ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ومثل هذا كثير متعدد في القرآن^(١).

﴿وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

التقوى كما فسرها الأولون والآخرين فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله أن التقوى اما تقوى الله واما تقوى عذابه كما قال ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] فالتقوى اتقاء المحذور بفعل المأمور به وبترك المنهى عنه وهو بالأول اكثر وانما سمي ذلك تقوى لأن ترك المنهى عنه وفعل المأمور به سبب الأمن من ذم الله وسخط الله وعذاب الله فالباعث عليه خوف الاثم بخلاف ما فيه منفعة وليس في تركه مضرة فان هذا هو المستحب الذي له ان يفعله وله أن لا يفعله فذكر ذلك باسم التقوى ليبين وجوب ذلك وان صاحبه متعرض للعذاب بترك التقوى ونقول ثانيا انه حيث عبر بالتقوى عن ترك المنهى ان قيل ذلك كما في قوله ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] قال بعض السلف البر ما امرت به والتقوى ما نهيت عنه فلا يكون ذلك الا مقرونا بفعل المأمور به كما ذكر معها البر وكما في قول نوح ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ [نوح: ٣] وذلك لان هذه التقوى مستلزمة لفعل المأمور به ونقول ثالثا ان اكثر بنى آدم قد يفعل بعض المأمور به ولا يترك المنهى عنه الا الصديقون كما قال سهل لان المأمور به له مقتضى في النفس

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٧٦-١٧٧ والفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٧٨.

واما ترك المنهى عنه إلى خلاف الهوى ومجاهدة النفس فهو أصعب وأشق فقل أهله ولا يمكن أحدا أن يفعله الا مع فعل المأمور به لا تتصور تقوى وهى فعل ترك قط فان من ترك الشرك واتباع الهوى المضل واتباع الشهوات المحرمات فلا بد أن يفعل من المأمور به أمورا كثيرة تصده عن ذلك فتقواهم تحفظ لهم حسناتهم التى امروا بها وتمنعهم من السيئات التى تضرهم بخلاف من فعل ما أمر به وما نهى عنه مثلا فان وجود المنهى عنه يفسد عليه من المأمور به ما يفسد فلا يسلم له ولهذا كانت العاقبة للتقوى كما قال تعالى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢] ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ﴿وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وذلك لأن المتقين بمنزلة من أكل الطعام النافع واتقى الاطعمة المؤذية فصح جسمه وكانت عاقبته سليمة وغير المتقى بمنزلة من خلط من الاطعمة فانه وان اغتذى بها لكن تلك التخاليل قد تورثه أمراضا اما مؤذية واما مهلكة ومع هذا فلا يقول عاقل ان حاجته وانتفاعه بترك المضر من الاغذية اكثر من حاجته وانتفاعه بالأغذية النافعة بل حاجته وانتفاعه بالأغذية التى تناولها اعظم من انتفاعه بما تركه منها بحيث لو لم يتناول غذاء قط لهلك قطعا واما اذا تناول النافع والضار فقد يرجى له السلامة وقد يخاف عليه العطب واذا تناول النافع دون الضار حصلت له الصحة والسلامة فالأول نظير من ترك المأمور به والثانى نظير من فعل المأمور به والمنهى عنه وهو المخلط الذى خلط عملا صالحا واخر سيئا والثالث نظير المتقى الذى فعل ما امر به واجتنب ما نهى عنه فعظم امر التقوى لتضمنها السلامة مع الكرامة لا لأجل السلامة فقط فانه ليس فى الآخرة دارا الا الجنة أو النار فمن سلم من النار دخل الجنة ومن لم ينعم عذب فليس فى الادميين من يسلم من العذاب والنعيم جميعا فتدبر هذا فكل خصلة قد أمر الله بها أو أثنى عليها ففيها فعل المأمور به ولا بد تضمنا أو استلزاما وحدها لنيل الخير عن الشر والثواب عن العقاب^(١).

العذاب انما اعد للكافرين فان جهنم لهم خلقت
العذاب انما اعد للكافرين فان جهنم لهم خلقت لانهم لابد ان يدخلوها وما هم

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٣٥.

منها بمخرجين واهل الكبائر من المؤمنين يجوز ان لا يدخلوها اذا غفر الله لهم وإذا دخلوها فانهم يخرجون منها ولوبعد حين قال سبحانه ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] فامر سبحانه المؤمنين ان لا ياكلوا الربا وان يتقوا الله وان يتقوا النار التي اعدت للكافرين فعلم انهم يخافوا عليهم من دخول النار اذا اكلوا الربا وفعلوا المعاصي مع انها معدة للكافرين لا لهم وكذلك جاء في الحديث اما اهل النار الذين هم اهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون واما اقوام لهم ذنوب فيصيبهم سفع من نار ثم يخرجهم الله منها وهذا كما ان الجنة اعدت للمتقين^(١).

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]

أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا

إن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الإيمان هو ما في القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما في القلب وحيث عطف عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس في مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل في المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمه الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل في الأول وقالوا هذا في كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨] وقوله

(١) الصارم المسلول ج: ٢ ص: ١١١.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]

وقوله ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢]

فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [محمد: ٢] وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة: ٥] والصلاة والزكاة من العبادة فقوله ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧] كقوله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة: ٥] فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا غيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذي لا بد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لا بد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت في الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل في العام وقيل بل الأعمال في الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما في القلب ولكن هي لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة في إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم في كلام النبي فإذا عطف عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنصيحا ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه في غير موضع أن الصادق في قوله آمنت لا بد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان في هؤلاء يدل على إنتفائه عن سواهم^(١).

ولفظ الإيمان قيل أصله التصديق وليس مطابقا له لا بد بل ان يكون تصديقا عن

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٥٦.

غيب وإلا فالخبر عن مشهود ليس تصديقه إيماناً لأنه من الأمن الذي هو الطمأنينة وهذا
 انما يكون فى المخبر الذي قد يقع فيه ريب والمشهودات لا ريب فيها الا على هذا فأما
 تصديق القلب فقط كما تقول الجهمية ومن إتبعهم من الأشعرية وإما القلب واللسان
 كما تقوله المرجئة أو باللسان كما تقوله الكرامية وإما التصديق بالقلب والقول والعمل
 فان الجميع يدخل فى مسمى التصديق على مذهب أهل الحديث كما فسرهُ شيخ الاسلام
 وغيره وقيل بل هو الاقرار لان التصديق انما يطابق الخبر فقط واما الاقرار فيطابق الخبر
 والامر كقوله ﴿أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ [آل عمران: ٨١] ولأن قر وآمن
 متقاربان فالإيمان دخول فى الأمن والاقرار دخول فى الإقرار وعلى هذا فالكلمة إقرار
 والعمل بها إقرار أيضاً هو فى الكتاب بمعنيين أصل وفرع واجب فالأصل الذي فى
 القلب وراء العمل فلهذا يفرق بينهما بقوله ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]
 والذي يجمعهما كما فى قوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] و﴿لَا يَسْتَعِزُّكَ الَّذِينَ
 يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٤٤] وحد الحيا ووفد عبد القيس وهو مركب من
 أصل لا يتم بدونه ومن واجب ينقص بفواته نقصا يستحق صاحبه العقوبة ومن مستحب
 يفوت بفواته علو الدرجة فالناس فيه ظالم لنفسه ومقتصد وسابق كالحج وكالبدن
 والمسجد وغيرهما من الأعيان والأعمال والصفات فمن سواء أجزائه ما اذا ذهب نقص
 عن الاكمل ومنه ما نقص عن الكمال وهو ترك الواجبات أو فعل المحرمات ومنه ما نقص
 ركنه وهو ترك الاعتقاد والقول الذي يزعم المرجئة والجهمية أنه مسمى فقط وبهذا تزول
 شبهات الفرق وأصله القلب وكماله العمل الظاهر بخلاف الإسلام فإن أصله الظاهر
 وكماله القلب أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما
 مستلزم للباطن والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان فمن قصد منهم إخراج
 أعمال القلوب أيضاً وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل
 الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء
 الباطن فبقى النزاع فى أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الإيمان يدل عليه
 بالتضمن أولاً لمسمى الإيمان والتحقيق أنه تارة يدخل فى الاسم وتارة يكون لازماً

للمسمى بحسب افراد الاسم واقتترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الاسلام خارجا عنه كما فى حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما فى قوله ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٨٢] فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبى إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما فى القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبى العيان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أويكذبه^(١).

فألهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل

وأصدق الحق الموجود ما أخبر الله بوجوده والخبر الحق المقصود ما أمر الله به وإن شئت قلت أصدق خبر عن الحق الموجود خبر الله وخير أمر بالحق المقصود أمر الله والإيمان يجمع هذين الأصلين تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر وإذا قرن بينهما قيل ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥] والعمل خير من القول كما قال الحسن البصرى ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل^(٢).
قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] فألهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله ﴿وَبَيَّرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]^(٣).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٣٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١٠٢.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٥٩.

الجنة لم تعلق الا باسم الايمان

فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الإسلام واخباره أنه دينه الذي ارتضاه وأنه لا يقبل دينا غيره ومع هذا فما قال ان الجنة أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل انما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٧٢] فهو يعلقها باسم الايمان المطلق أو المقيد بالعمل الصالح كقوله ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] الآيات في هذا المعنى كثيرة فالوعد بالجنة والرحمة في الآخرة وبالسلامة من العذاب علق باسم الايمان المطلق والمقيد بالعمل الصالح ونحو ذلك وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به ورسوله ولم يعلق باسم الإسلام فلو كان من اتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلما لا مؤمنا لكان من اهل الجنة وكانت الجنة يستحقها من يسمى مسلما وان لم يسم مؤمنا وليس الأمر كذلك بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان وهذا أيضا مما إستدل به من قال إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة اذ لو كان الأمر كذلك لكان وعد الجنة معلقا باسم الإسلام كما علق باسم الايمان وكما علق باسم التقوى واسم البر في مثل قوله ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المراسلات: ٤١] وقوله ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٢] وباسم أولياء الله كقوله ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الذِّينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ] ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكَلِمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤] فلما لم يجر إسم الإسلام هذا المجرى علم أن مسماه ليس ملازما لمسمى الايمان كما يلازمه اسم البر والتقوى وأولياء الله وأن إسم الإسلام يتناول من هو من أهل الوعيد وان كان الله يشبه على طاعته مثل أن يكون في قلبه ايمان ونفاق يستحق به العذاب فهذا يعاقبه الله ولا

يخلده في النار لأن في قلبه مثقال ذرة أو أكثر من مثقال ذرة من إيمان^(١).

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾

انك تعلم انا لا نعلم ما غاب عنا الا بمعرفة ما شهدناه فنحن نعرف اشياء بحسنا الظاهر أو الباطن وتلك معرفة معينة مخصوصة ثم انا بعقولنا نعتبر الغائب بالشاهد فيبقى في اذهاننا قضايا عامة كلية ثم اذا خوطبنا بوصف ما غاب عنا لم نفهم ما قيل لنا الا بمعرفة المشهود لنا فلولا أنا نشهد من أنفسنا جوعا وعطشا وشبعا وريا وحبا وبغضا ولذة والمأوى ورضى وسخطا لم نعرف حقيقة ما نخطب به اذا وصف لنا ذلك وأخبرنا به عن غيرنا وكذلك لو لم نعلم ما في الشاهد حياة وقدرة وعلم وكلاما لم نفهم ما نخطب به اذا وصف الغائب عنا بذلك وكذلك لو لم نشهد موجودا لم نعرف وجود الغائب عنا فلا بد فيما شهدناه وما غاب عنا من قدر مشترك هو مسمى اللفظ المتواطىء فهذه الموافقة والمشاركة والمشتبهة والمواطأة نفهم الغائب ونثبتها وهذا خاصة العقل ولو لا ذلك لم نعلم الا ما نحسه ولم نعلم أمورا عامة ولا أمورا غائبة عن أحساسنا الظاهرة والباطنة ولهذا من لم يحس الشيء ولا نظيره لم يعرف حقيقته ثم ان الله تعالى أخبرنا بما وعدنا به في الدار الآخرة من النعيم والعذاب وأخبرنا بما يؤكل ويشرب وينكح ويفرش وغير ذلك فلولا معرفتنا بما يشبه ذلك في الدنيا لم نفهم ما وعدنا به ونحن نعلم مع ذلك ان تلك الحقائق ليست مثل هذه حتى قال ابن عباس رضى الله عنه ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء وهذا تفسير قوله ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] على أحد الأقوال فبين هذه الموجودات في الدنيا وتلك الموجودات في الآخرة مشابهة وموافقة واشتراك من بعض الوجوه وبه فهمنا المراد واحبيناه ورغبنا فيه أو أبغضناه ونفرنا عنه وبينهما مباينة ومفاضلة لا يقدر قدرها في الدنيا وهذا من التأويل الذى لا نعلمه نحن بل يعلمه الله تعالى ولهذا كان قول من قال ان المتشابه لا يعلم تأويله الا الله حقا وقول من قال ان الراسخين في العلم يعلمون تأويله حقا وكلا القولين مأثور عن السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان فالذين قالوا انهم يعلمون تأويله مرادهم بذلك أنهم يعلمون

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٤٧-٣٤٨.

تفسيره ومعناه والا فهل يحل لمسلم أن يقول أن النبي ما كان يعرف معنى ما يقوله ويبلغه من الآيات والاحاديث بل كان يتكلم بألفاظ لها معان لا يعرف معانيها ومن قال انهم لا يعرفون تأويله ارادوا به الكيفية الثابتة التي اختص الله بعلمها ولهذا كان السلف كربيعة ومالك بن أنس وغيرهما يقولون الاستواء معلوم والكيف مجهول وهذا قول سائر السلف كابن الماجشون والامام أحمد بن حنبل وغيرهم وفي غير ذلك من الصفات فمعنى الاستواء معلوم وهو التأويل والتفسير الذى يعلمه الراسخون والكيفية هي التأويل المجهول لبنى آدم وغيرهم الذى لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى وكذلك ما وعد به فى الجنة تعلم العباد تفسير ما أخبر الله به وأما كيفيته فقد قال تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال النبي ﷺ فى الحديث الصحيح يقول الله تعالى اعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فما اخبرنا الله به من صفات المخلوقين نعلم تفسيره ومعناه ونفهم الكلام الذى خوطبنا به ونعلم معنى العسل واللحم واللبن والحريز والذهب والفضة ونفرق بين مسميات هذه الأسماء واما حقائقها على ما هي عليه فلا يمكن ان نعلمها نحن ولا نعلم متى تكون الساعة وتفصيل ما اعد الله عز وجل لعباده لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل بل هذا من التأويل الذى لا يعلمه الا الله تبارك وتعالى فاذا كان هذا فى هذين المخلوقين فالأمر بين الخالق والمخلوق اعظم فان مباينة الله لخلقه وعظمته وكبريائه وفضله اعظم واكبر مما بين مخلوق ومخلوق فاذا كانت صفات ذلك المخلوق مع مشابهتها لصفات هذا المخلوق بينهما من التفاضل والتباين ما لا نعلمه فى الدنيا ولا يمكن أن نعلمه بل هو من التأويل الذى لا يعلمه الا الله تبارك وتعالى فصفات الخالق عز وجل أولى أن يكون بينها وبين صفات المخلوق من التباين والتفاضل ما لا يعلمه الا الله تبارك وتعالى وأن يكون هذا من التأويل الذى لا يعلمه كل أحد بل منه ما يعلمه الراسخون ومنه ما يعلمه الانبياء والملائكة ومنه ما لا يعلمه الا الله^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٣٤٧-٣٤٩.

قال ابن عباس ليس فى الدنيا مما فى الجنة الا الأسماء

قال الله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] ويقول أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال ابن عباس ليس فى الدنيا مما فى الجنة الا الأسماء فان الله قد أخبر أن فى الجنة خمرا ولبنا وماء وحريرا وذهبا وفضة وغير ذلك ونحن نعلم قطعا أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه بل بينهما تباين عظيم مع التشابه كما فى قوله ﴿وَأَتَوُا بِهِمْ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] على أحد القولين أنه يشبه ما فى الدنيا وليس مثله فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق كما أشبهت الحقائق الحقائق من بعض الوجوه فنحن نعلمها اذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ولكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها فى الدنيا ولا سبيل إلى ادراكنا لها لعدم ادراك عينها أو نظيرها من كل وجه وتلك الحقائق على ما هى عليه هى تأويل ما أخبر الله به وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم فانهم ينكرون أن يكون فى الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن ومن دخل فى الإسلام وناقى المؤمنين تأول ذلك على أن هذه أمثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحانى ان كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد وان كان من منافقة الملتين المقرين بحشر الأجساد تأول ذلك على تفهيم النعيم الذى فى الجنة من الروحانى والسماع الطيب والروائح العطرة فكل ضال يحرف الكلم عن مواضعه إلى ما اعتقد ثبوته وكان فى هذا أيضا متبعا للمتشابه اذ الأسماء تشبه الأسماء والمسميات تشبه المسميات ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها فهؤلاء يتبعون هذا التشابه ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧] بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن تكون فى الجنة هذه الحقائق ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] ليردوه إلى المعهود الذى يعلمونه فى الدنيا قال الله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] فان تلك الحقائق قال الله فيها ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] لا ملك مقرب ولا نبي مرسل^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٣ ص: ٢٧٨.

لطائف لغوية

قوله تعالى ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥] فيقال النهر كالقرية والميزاب كما يستعمل لفظ القرية تارة في السكان في مثل قوله ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] وتارة في المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال^(١).

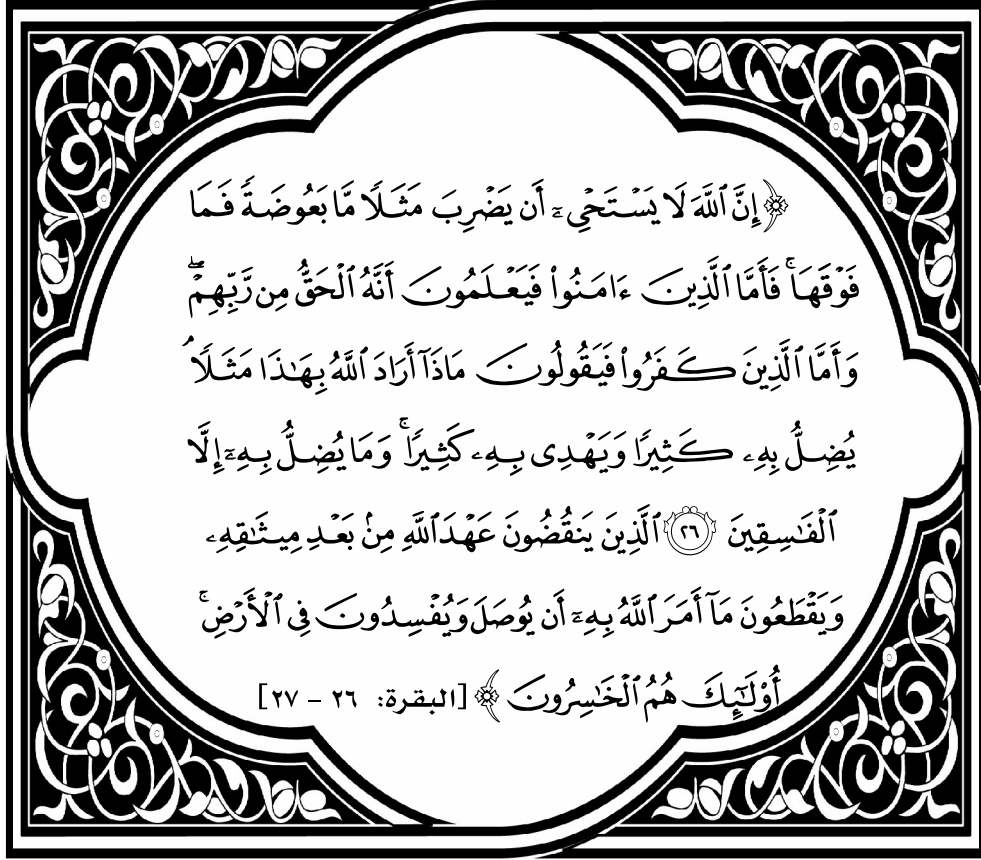
قال تعالى ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ٢٥] وقول جمهور الناس إنه قد يشبه الشيء الشيء من وجه دون وجه فرق بينهما عند الإطلاق فإن العقل يعلم أن الأعراض مثل الألوان تشبه في كونها ألوانا مع أن السواد ليس مثل البياض وكذلك الأجسام والجواهر عند جمهور العقلاء تشبه في مسمى الجسم والجوهر وإن كانت حقائقها ليست متماثلة فليست حقيقة الماء مماثلة لحقيقة التراب ولا حقيقة النبات مماثلة لحقيقة الحيوان ولا حقيقة النار مماثلة لحقيقة الماء وإن اشتركا في أن كلا منهما جوهر وجسم وقائم بنفسه وأيضا فمعلوم في اللغة أنه يقال هذا يشبه هذا وفيه شبه من هذا إذا أشبهه من بعض الوجوه وإن كان مخالفا له في الحقيقة^(٢).

لفظ التشابه ليس هو التماثل في اللغة قال تعالى ﴿وَأَتُوا بِهِمْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ٢٥] وقال تعالى ﴿مِثْلُهَا وَغَيْرِ مِثْلِهَا﴾ [الأنعام: ١٤١] ولم يرد به شيئا هو مماثل في اللغة^(٣).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٦٤.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٤٤٥.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١١٣.



﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا
فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا
يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا
الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ
وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿البقرة: ٢٦ - ٢٧﴾

والله سبحانه ضرب الأمثال للناس في كتابه لما في ذلك من البيان
فالحق يظهر صحته بالمثل المضروب له والباطل يظهر فساده بالمثل المضروب له لأن
الإنسان قد لا يعلم ما في نفس محبوبه أو مكروهه من حمد وذم إلا بمثل يضرب له فإن
حبك الشيء يعمى ويصم والله سبحانه ضرب الأمثال للناس في كتابه لما في ذلك من
البيان والإنسان لا يرى نفسه وأعماله إلا إذا مثلت له نفسه بأن يراها في مرآة وتمثل له
أعماله بأعمال غيره ولهذا ضرب الملكان المثل لدأود عليه السلام بقول أحدهما ﴿إِنَّ هَذَا
أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ
إِلَى نَجْمِهِ ﴿ص: ٢٣ - ٢٤﴾ الآية وضرب الأمثال مما يظهر به الحال وهو القياس العقلي
الذي يهدي به الله من يشاء من عباده قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ

مَثَلٍ لِّعَلَّهِمْ يَنْذِكُرُونَ ﴿٢٧﴾ [النَّازِعَات: ٢٧] وقال تعالى ﴿وَلِئَلَّكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وهذا من الميزان الذي أنزله الله كما قال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧] وقال ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] ^(١).

أن ضرب المثل هو القياس إما قياس التمثيل فيكون المثل هو المفرد وإما قياس الشمول فيكون تسميته ضرب مثل كتسميته قياسا كما بينته في غير هذا الموضع من جهة مطابقة المعاني الذهنية للأعيان الخارجية ومماثلتها لها ومن جهة مطابقة ذلك المفرد المعين للمعنى العام الشامل للأفراد ولسائر الأفراد فإن الذهن يرتسم فيه معنى عام يماثل الفرد المعين وكل فرد يماثل الآخر فصار هذا المعنى يماثل هذا وكل منهما يماثل المعنى العام الشامل لهما وبهذا والله أعلم سمي ضرب مثل وسمى قياسا فإن الضرب الجمع والجمع في القلب واللسان وهو العموم والشمول فالجمع والضرب والعموم والشمول في النفس معنى ولفظا فإذا ضرب مثلا فقد صيغ عموما مطابقا أو صيغ مفردا مشابها فتدبر هذا فإنه حسن إن شاء الله ولك أن تقول كل إخبار بمثل صوره المخبر في النفس فهو ضرب مثل لأن المتكلم جمع مثلا في نفسه ونفس المستمع بالخبر المطابق للمخبر فيكون المثل هو الخبر وهو الوصف كقوله ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] وقوله ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣] وبسط هذا اللفظ واشتماله على محاسن الأحكام والأدلة قد ذكرته في غير هذا الموضع ^(٢).

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لسعد عسى أن تخلف فينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون فكيف يمكن أن يشهد أن الله لم ينصب على توحيده دليلا ولا جعل للنجاة من عذابه وسيلة ولا جعل لما يفعله المتوكل من عباده سببا وهو مسبب الأسباب وخالق كل شيء بسبب منه لكن الأسباب كما قال فيها أبو حامد وأبو الفرج بن الجوزي

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ٣٤٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٤٢.

وغيرهما الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحوالأسباب أن تكون أسبابا تغيير في وجه العقل والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع^(١).

إن الايمان بالقدر من تمام التوحيد

أهل الهدى والفلاح فيؤمنون بهذا وهذا ويؤمنون بأن الله خالق كل شيء وربهم ومليكه وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير وأحاط بكل شيء علما وكل شيء أحصاه في امام مبين ويتضمن هذا الأصل من اثبات علم الله وقدرته ومشيتته ووحدانيته وربوبيته وأنه خالق كل شيء وربهم ومليكه ما هو من أصول الايمان ومع هذا فلا ينكرون ما خلقه الله من الأسباب التي يخلق بها المسببات كما قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بِيَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَقَّ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَدْرِ مَيْتٍ فَأَنْزَلْنَاهُ بِهَ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ۖ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال تعالى ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ۖ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦] وقال تعالى ﴿يُضِلُّ بِهِ ۖ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ ۖ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] فأخبر أنه يفعل بالاسباب ومن قال إنه يفعل عندها لا بها فقد خالف ما جاء به القرآن وأنكر ما خلقه الله من القوى والطبائع وهو شبيه بإنكار ما خلقه الله من القوى التي في الحيوان التي يفعل الحيوان بها مثل قدرة العبد كما أن من جعلها هي المبدعة لذلك فقد أشرك بالله وأضاف فعله إلى غيره وذلك أنه ما من سبب من الأسباب إلا وهو مفتقر إلى سبب آخر في حصول مسببه ولا بد من مانع يمنع مقتضاه اذا لم يدفعه الله عنه فليس في الوجود شيء واحد يستقل بفعل شيء اذا شاء الا الله وحده قال تعالى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [التداريات: ٤٩] أى فتعلمون أن خالق الأزواج واحد ولهذا من قال ان الله لا يصدر عنه الا واحد لأن الواحد لا يصدر عنه الا واحد كان جاهلا فإنه ليس في الوجود واحد صدر عنه وحده شيء لا واحد ولا اثنان الا الله الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون فالنار التي خلق الله فيها حرارة لا يحصل الاحراق الا بها وبمحله يقبل

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٣٦٥.

الاحتراق فاذا وقعت على السمندل والياقوت ونحوهما لم تحرقهما وقد يطلى الجسم بما يمنع احراقه والشمس التى يكون عنها الشعاع لابد من جسم يقبل انعكاس الشعاع عليه فاذا حصل حاجز من سحاب أو سقف لم يحصل الشعاع تحته وقد بسط هذا فى غير هذا الموضوع والمقصود هنا أنه لابد من الايمان بالقدر فإن الايمان بالقدر من تمام التوحيد كما قال ابن عباس هو نظام التوحيد فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيدته ومن وحد الله وكذب بالقدر نقص توحيدته ولا بد من الايمان بالشرع وهو الايمان بالأمر والنهى والوعد والوعيد كما بعث الله بذلك رسله وأنزل كتبه^(١).

ومن قال أن قدرة العبد وغيرها من الأسباب التى خلق الله تعالى بها المخلوقات ليست أسبابا أو أن وجودها كعدمها وليس هناك إلا مجرد إقتران عادي كإقتران الدليل بالمدلول فقد جحد ما في خلق الله وشرعه من الأسباب والحكم والعلل ولم يجعل في العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها ولا في القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها ولا في النار قوة تمتاز بها عن التراب تحرق بها وهؤلاء ينكرون ما في الأجسام المطبوعة من الطبائع والغرائز قال بعض الفضلاء تكلم قوم من الناس في إبطال الأسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم ثم أن هؤلاء لا ينبغي للإنسان أن يقول أنه شيع بالخيز وروى بالماء بل يقول شيعت عنده ورويت عنده فإن الله يخلق الشيع والري ونحو ذلك من الحوادث عند هذه المقترنات بها عادة لا بها وهذا خلاف الكتاب والسنة فإن الله تعالى يقول ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] الآية وقال تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال تعالى ﴿فَتَلَوُهمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وقال ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] وقال ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١١٣.

بِهِ جَنَّتِ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ [ق: ٩] وَقَالَ تَعَالَى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩] وَقَالَ تَعَالَى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُتَخِلِّفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠] ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿النحل: ١٠ - ١١﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦] إِلَى قَوْلِهِ ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] وَقَالَ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ ابْتِغَىٰ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴿[المائدة: ١٥ - ١٦] وَمِثْلَ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ وَكَذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَقَوْلِهِ لَا يَمُوتُن أَحَدُكُمْ إِلَّا آذَنْتُمُونِي بِهِ حَتَّى أَصْلِي عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ بِصَلَاتِي عَلَيْهِ بَرَكَهَ وَرَحْمَةً وَقَالَ ﷺ إِنْ هَذِهِ الْقُبُورُ مَمْلُوءَةٌ عَلَىٰ أَهْلِهَا ظُلْمَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ نُورًا وَمِثْلَ هَذَا كَثِيرٌ وَنَظِيرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَبْطَلُوا الْأَسْبَابَ الْمَقْدُورَةَ فِي خَلْقِ اللَّهِ مِنْ أَبْطُلِ الْأَسْبَابِ الْمَشْرُوعَةِ فِي أَمْرِ اللَّهِ كَالَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ مَا يَحْصُلُ بِالْإِعْدَاءِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْخَيْرَاتِ إِنْ كَانَ مَقْدُورًا حَصَلَ بِدُونِ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْدُورًا لَمْ يَحْصُلْ بِذَلِكَ وَهَؤُلَاءِ كَالَّذِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ أَفَلَا نَدْعُ الْعَمَلَ وَنَتَكَلَّمَ عَلَى الْكِتَابِ فَقَالَ لَا أَعْمَلُوا فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خَلَقَ لَهُ وَفِي السَّنَنِ أَنَّهُ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ أَدْوِيَةَ نَتَدَاوَى بِهَا وَرَقِي نَسْتَرْقِي وَتَقَاةَ نَتَقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا فَقَالَ هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْإِلْتِفَاتُ إِلَى الْأَسْبَابِ شُرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا تَغْيِيرٌ فِي وَجْهِ الْعَقْلِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْأَسْبَابَ وَالْمُسَبِّبَاتِ وَجَعَلَ هَذَا سَبَبًا لِهَذَا فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ إِنْ كَانَ هَذَا مَقْدُورًا حَصَلَ بِدُونِ السَّبَبِ وَإِلَّا لَمْ يَحْصُلْ جَوَابُهُ أَنَّهُ مَقْدُورٌ بِالسَّبَبِ وَلَيْسَ مَقْدُورًا بِدُونِ السَّبَبِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ إِنْ اللَّهُ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَقَالَ أَعْمَلُوا فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خَلَقَ لَهُ أَمَا مِنْ كَانَ

من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال أكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح قال فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها فبين أن هذا يدخل الجنة بالعمل الذي يعمل به وهذا يدخل النار بالعمل الذي يعمل به ويختم له به كما قال ﷺ إنما الأعمال بالخواتيم وذلك لأن جميع الحسنات تحبط بالردة وجميع السيئات تغفر بالتوبة ونظير ذلك من صام ثم أفطر قبل الغروب أو صلى وأحدث عمدا قبل كمال الصلاة بطل عمله وبالجمله فالذي عليه سلف الأمة وأئمتها ما بعث الله به رسله وأنزل كتبه فيؤمنون بخلق الله وأمره بقدره وشرعه بحكمه الكوني وحكمه الديني وإرادته الكونية والدينية كما قال في الآية الأولى ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقال نوح عليه السلام ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقال تعالى في الإرادة الدينية ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْإِسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦] وقال ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وهم مع إقرارهم بأن الله خالق كل شيء وربهم ومليكه وأنه خلق الأشياء بقدرته ومشئته يقرون بأنه لا إله إلا هو لا يستحق العبادة غيره ويطيعونه ويطيعون رسله ويحبونه ويرجونهم ويخشونه ويتكلمون عليه وينيبون اليه ويوالون أوليائه ويعادون أعداءه ويقرون بحبته لما أمر به ولعباده المؤمنين ورضاه

بذلك وبغضه لما أنهى عنه وللكافرين وسخطه لذلك ومقته له ويقرون بما إستفاض عن النبي ﷺ من أن الله أشد فرحا بتوبة عبده التائب من رجل أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فطلبها فلم يجدها فقال تحت شجرة فلما إستيقظ إذا بدابته عليها طعامه وشرابه فالله أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته فهو إلههم الذي يعبدونه وربهم الذي يسألونه كما قال تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفتح: ٢] إلى قوله ﴿إِنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا نَسْتَعِينُ﴾ [الفتح: ٥] فهو المعبود المستعان والعبادة تجمع كمال الحب مع كمال الذل فهم يحبونه أعظم مما يحب كل محب محبوبه^(١).

الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع

وفي خطبة النبي الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا فجمع بين حمده والاستعانة به والإستغفار له فقد تبين أن الإلتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد وهو ظلم وجهل وهذه حال من دعا غير الله وتوكل عليه وأما قولهم (قول السلف) محو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل فهو كذلك وهو طعن في الشرع أيضا فإن كثيرا من أهل الكلام أنكروا الأسباب بالكلية وجعلوا وجودها كعدمها كما أن أولئك الطبيعيين جعلوها عللا مقتضية وكما أن المعتزلة فرقوا بين أفعال الحيوان وغيرها والأقول الثلاثة باطلة فإن الله يقول ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَنِيٍّ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال تعالى ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦] وقال تعالى ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] وأمثال ذلك فمن قال يفعل عندها لآبها فقد خالف لفظ القرآن مع أن الحس والعقل يشهد أنها أسباب ويعلم الفرق بين الجبهة وبين العين في إختصاص أحدهما بقوة ليست في الآخر

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٣٧-١٤١ ومجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٨٨.

وبين الخبز والخصى في أن أحدهما يحصل به الغذاء دون الآخر وأما قولهم الإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع بل هو أيضا قدح في العقل فإن أفعال العباد من أقوى الأسباب لما نيظ بها فمن جعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أو يجعل المتقين كالفجار فهو من أعظم الناس جهلا وأشدهم كفرا بل ما أمر الله به من العبادات والدعوات والعلوم والأعمال من أعظم الأسباب فيما نيظ بها من العبادات وكذلك ما نهى عنه من الكفر والفسوق والعصيان هي من أعظم الأسباب لما علق بها من الشقاوات ومع هذا فقد قال خير الخلق أنه لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل ولما قال لهم ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعدة من النار قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل قال لا إعملوا فكل ميسر لما خلق له إما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة وكذلك الدعاء والتوكل من أعظم الأسباب لما جعله الله سببا له فمن قال ما قدر لي فهو يحصل لي دعوت أو لم أدع وتوكلت أو لم أتوكل فهو بمنزلة من يقول ما قسم لي من السعادة والشقاوة فهو يحصل لي آمنت أو لم أؤمن وأطعت أم عصيت ومعلوم أن هذا ضلال وكفر وأن كان الأول ليس مثل هذا في الضلال إذ ليس تعليق المقاصد بالدعاء والتوكل كتعليق سعادة الآخرة بالإيمان لكن لا ريب أن ما جعل الله سببا له بمنزلة ما جعل العمل الصالح سببا له وهو قادر على أن يفعل له سبحانه بدون هذا السبب وقد يفعله بسبب آخر وكذلك من ترك الأسباب المشروعة المأمور بها أمر بإيجاب أوامر إستحباب من جلب المنافع أو دفع المضار قاده في الشرع خارج عن العقل ومن هنا غلطوا في ترك الأسباب المأمور بها وظنوا أن هذا من تمام التوكل والتوكل مقرون بالعبادة في قوله ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] والعبادة فعل المأمور فمن ترك العبادة المأمور بها وتوكل لم يكن أحسن حالا ممن عبده ولم يتوكل عليه بل^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٧٦ - ١٧٧.

قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة

فإذا كان النظر في دليل هاد كالقرآن وسلم من معارضات الشيطان تضمن ذلك النظر العلم والهدى ولهذا أمر العبد بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند القراءة وإذا كان النظر في دليل مضل والناظر يعتقد صحته بأن تكون مقدمته أو إحداها متضمنة للباطل أو تكون المقدمات صحيحة لكن التأليف ليس بمستقيم فإنه يصير في القلب بذلك اعتقاد فاسد وهو غالب شبهات أهل الباطل المخالفين للكتاب والسنة من المتفلسفة والمتكلمين ونحوهم فإذا كان الناظر لا بد له من منظور فيه والنظر في نفس المتصور المطلوب حكمه لا يفيد علما بل ربما خطر له بسبب ذلك النظر أنواع من الشبهات يحسبها أدلة لفرط تعطش القلب إلى معرفة حكم تلك المسألة وتصديق ذلك التصور وأما النظر المفيد للعلم فهو ما كان في دليل هاد والدليل الهادي على العموم والإطلاق هو كتاب الله وسنة نبيه فإن الذي جاءت به الشريعة من نوعي النظر هو ما يفيد وينفع ويحصل الهدى وهو يذكر الله وما نزل من الحق فإذا أراد النظر والاعتبار في الأدلة المطلقة من غير تعيين مطلوب فذلك النظر في كتاب الله وتدبره كما قال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿[المائدة: ١٥ - ١٦] وقال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿[الشورى: ٥٢ - ٥٣] وأما النظر في مسألة معينة وقضية معينة لطلب حكمها والتصديق بالحق فيها والعبد لا يعرف ما يدل على هذا أو هذا فمجرد هذا النظر لا يفيد بل قد يقع له تصديقات يحسبها حقا وهي باطل وذلك من إلقاء الشيطان وقد يقع له تصديقات تكون حقا وذلك من إلقاء الملك وكذلك إذا كان النظر في الدليل الهادي وهو القرآن فقد يضع الكلم مواضعه ويفهم مقصود الدليل

فيهتهدي بالقرآن وقد لا يفهمه أو يحرف الكلم عن مواضعه فيضل به ويكون ذلك من الشيطان كما قال تعالى ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وقال ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وقال ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [١٢٤] وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] وقال ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] وقال ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨] فالناظر في الدليل بمنزلة المترائي للهِلال قد يراه وقد لا يراه لعشي في بصره وكذلك أعمى القلب وأما الناظر في المسألة فهذا يحتاج إلى شيئين إلى أن يظفر بالدليل الهادي وإلى أن يهتدي به وينتفع فأمره الشرع بما يوجب أن ينزل على قلبه الأسباب الهادية ويصرف عنه الأسباب المعوقة وهو ذكر الله تعالى والغفلة عنه فإن الشيطان وسواس خناس فإذا ذكر العبد ربه خنس وإذا غفل عن ذكر الله وسوس وذكر الله يعطي الإيمان وهو أصل الإيمان والله سبحانه هو رب كل شيء ومليكه وهو معلم كل علم وواهبه فكما أن نفسه أصل لكل شيء موجود فذكره والعلم به أصل لكل علم وذكره في القلب والقرآن يعطي العلم المفصل فيزيد الإيمان كما قال جندب بن عبدالله البجلي وغيره من الصحابة تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. فأمره أن يقرأ باسم الله فتضمن هذا الأمر بذكر الله وما نزل من الحق وقال ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥] فذكر سبحانه أنه خلق أكرم الأعيان الموجودة عموماً وخصوصاً وهو الإنسان وأنه المعلم للمعلم عموماً وخصوصاً للإنسان وذكر التعليم بالقلم الذي هو آخر المراتب ليستلزم تعليم القول وتعليم العلم الذي في القلب^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٣٦-٣٨.

أصل جامع في الاعتصام بكتاب الله ووجوب اتباعه وبيان الاهتداء به في كل ما يحتاج إليه الناس من دينهم وأن النجاة والسعادة في اتباعه والشقاء في مخالفته وما دل عليه من اتباع السنة والجماعة قال الله تعالى ﴿قَالَ أَهِيْطَا مِنْهَا جَمِيْعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا اِئْتِنَاكُمْ مِّنِّيْ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىْ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيْ أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيْرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) طه: ١٢٣ - ١٢٦ قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية وقال تعالى ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُوْلُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِيْنَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُوْنَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِيْنَ فِي قُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٤-١٢٥) وقال تعالى ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيْرًا وَيَهْدِيْ بِهِ كَثِيْرًا﴾ (البقرة: ٢٦) (١).

الفاسقون ضلوا به بسبب تحريفهم الكلم عن مواضعه وتأويله على غير ما أراد الله فتمسكوا بمتشابهه وأعرضوا عن محكمه

قوله ﴿سَيَذْكُرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠] يقتضى أن كل من يخشي يتذكر والخشية قد تحصل عقب الذكر وقد تحصل قبل الذكر وقوله ﴿مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠] مطلق ومن الناس من يظن أن ذلك يقتضى أنه لابد أن يكون قد خشي أولاً حتى يذكر وليس كذلك بل هذا كقوله ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِيْنَ﴾ [البقرة: ٢] وقوله ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] وقوله ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] وقوله ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْْبَ﴾ [يس: ١١] وهو إنما خاف الوعيد بعد أن سمعه لم يكن وعيد قبل سماع القرآن وكذلك قوله ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْْبَ﴾ [يس: ١١]

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٨١.

وهو إنما إتبع الذكر وخشى الرحمن بعد أن أنذره الرسول وقد لا يكونون خافوها قبل الإنذار ولا كانوا متقين قبل سماع القرآن بل به صاروا متقين وهذا كما يقول القائل ما يسمع هذا إلا سعيد وإلا مفلح وإلا من رضي الله عنه وما يدخل في الإسلام إلا من هداه الله ونحو ذلك وإن كانت هذه الحسنات والنعم تحصل بعد الإسلام وسماع القرآن ومثل هذا قوله ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٠] وقد قال في نظيره ﴿وَيَنْجِنَهَا أَلْأَشْفَى﴾ [الأعلى: ١١] وإنما يشقى بتجنيتها وهذا كما يقال إنما يحذر من يقبل وإنما ينتفع بالعلم من عمل به فمن إستمع القرآن فآمن به وعمل به صار من المتقين الذين هو هدى لهم ومن لم يؤمن به ولم يعمل به لم يكن من المتقين ولم يكن ممن إهتدى به بل هو كما قال الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءُوهُ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] ولم يرد أنهم كانوا مؤمنين فلما سمعوه صار هدى وشفاء بل إذا سمعه الكافر فآمن به صار فى حقه هدى وشفاء وكان من المؤمنين به بعد سماعه وهذا كقوله فى النوع المذموم ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧] ولا يجب أن يكونوا فاسقين قبل ضلالهم بل من سمعه فكذب به صار فاسقا وضل وسعد بن أبى وقاص وغيره أدخلوا فى هذه الآية أهل الأهواء كالخوارج وكان سعد يقول هم من ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧] ولم يكن علي وسعد وغيرهما من الصحابة يكفرونهم وسعد أدخلهم فى هذه الآية لقوله ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وهم ضلوا به بسبب تحريفهم الكلم عن مواضعه وتأويله على غير ما أراد الله فتمسكوا بمتشابهه وأعرضوا عن محكمه وعن السنة الثابتة التى تبين مراد الله بكتابه فخالفوا السنة وإجماع الصحابة مع ما خالفوه من محكم كتاب الله تعالى ولهذا أدخلهم كثير من السلف فى الذين ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]

﴿الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩] وبسط هذا له موضع آخر^(١).

يخبر الله تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب

جمهور أهل السنة يقولون إن العبد فاعل لفعله حقيقة لا مجازا وإنما نازع في ذلك طائفة من متكلمة أهل الاثبات كالأشعري ومن اتبعه والقرآن مملوء بما يدل على أن أفعال العباد حادثة بمشيئة الله وقدرته وخلقه فيجب الإيمان بكل ما في القرآن ولا يجوز أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض^(٢).

أهل السنة وجمهورهم يقولون بما دل عليه الشرع والعقل قال الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَنِي مِثَاقٍ فَأَنْزَلْنَاهُ بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] وقال ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦] وقال ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] سورة البقرة ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة يخبر الله تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب^(٣).

منهم (الرافضة) يتركون الأسباب الدنيوية ويجعلون وجود السبب كعدمه ومنهم قوم يتركون الأسباب الأخروية فيقولون إن سبق العلم والحكم أنا سعادة فنحن سعداء وإن سبق أنا أشقياء فنحن أشقياء فلا فائدة في العمل ومنهم من يترك الدعاء بناء على هذا الأصل الفاسد ولا ريب أن هذا الأصل الفاسد مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وأئمة الدين ومخالف لصريح المعقول ومخالف للحس والمشاهدة وقد سئل النبي ﷺ عن إسقاط الأسباب نظرا إلى القدر فرد ذلك كما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا يا رسول الله أفلا

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٧١.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٢٥٨.

(٣) منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ١١٤.

ندع العمل ونتكل على الكتاب فقال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له وفي الصحيح أيضا أنه قيل له يا رسول الله أرأيت ما يكدر الناس فيه اليوم ويعملون أشيء قضى عليهم ومضى أم فيما يستقبلون مما أتاهم فيه الحجة فقال بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا فقال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق هو في السنن عن النبي ﷺ أنه قيل له أرأيت أدوية نتدأوى بها ورقى نسترقى بها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وقد قال تعالى في كتابه ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال تعالى ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْفُشُورُ﴾ [فاطر: ٩] ^(١).

ان حصول المطلوب متوقف على فعل الفاعل وقبول القابل

أن الإنسان لا يعتقد أنه بدعائه وإنذاره وبيانه يحصل الهدى ولو كان أكمل الناس وأن الداعي وإن كان صالحا ناصحا مخلصا فقد لا يستجيب المدعو لا لنقص في الدعاء لكن لفساد في المدعو وهذا لأن حصول المطلوب متوقف على فعل الفاعل وقبول القابل كالسيف القاطع يؤثر بشرط قبول المحل فيه لا يقطع الحجارة والحديد ونحو ذلك والنفخ يؤثر إذ كان هناك قابل لا يؤثر في الرماد والدعاء والتعليم والإرشاد وكل ما كان من هذا الجنس له فاعل وهو المتكلم بالعلم والهدى والنذارة وله قابل وهو المستمع فإذا كان المستمع قابلا حصل الإنذار التام والتعليم التام والهدى التام وإن لم يكن قابلا قيل علمته فلم يتعلم وهديته فلم يهتد وخاطبته فلم يصغ ونحو ذلك فقوله في القرآن ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] هو من هذا إنما يهتدي من يقبل الإهتداء وهم المتقون لا كل أحد وليس المراد أنهم كانوا متقين قبل اهتدائهم بل قد يكونوا كفارا لكن إنما يهتدى به من كان متقيا فمن إتقى الله إهتدى بالقرآن والعلم والإنذار إنما يكون بما أمر به القرآن وهكذا قوله ﴿لِيُنذِرَ

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٣٦٤.

مَنْ كَانَ حَيًّا ﴿يس: ٧٠﴾ الإنذار التام فإن الحي يقبله ولهذا قال ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠] فهم لم يقبلوا الإنذار ومثله قوله ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخَشَّهَا﴾ [النازعات: ٤٥] وعكسه قوله ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] أي كل من ضل به فهو فاسق فهو ذم لمن يضل به فإنه فاسق ليس أنه كان فاسقا قبل ذلك ولهذا تأولها سعد بن أبي وقاص في الخوارج وسماهم فاسقين لأنهم ضلوا بالقرآن فمن ضل بالقرآن فهو فاسق^(١).

فصاحب البدعة يبقى صاحب هوى يعمل لهواه لا ديانة

فصاحب البدعة يبقى صاحب هوى يعمل لهواه لا ديانة ويصد عن الحق الذي يخالفه هو اه فهذا يعاقبه الله على هواه ومثل هذا يستحق العقوبة في الدنيا والآخرة ومن فسق من السلف الخوارج ونحوهم كما روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال فيهم قوله تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦ - ٢٧] فقد يكون هذا قصده لا سيما إذا تفرق الناس فكان ممن يطلب الرياسة له ولأصحابه وإذا كان المسلم الذي يقاتل الكفار قد يقاتلهم شجاعة وحمية ورياء وذلك ليس في سبيل الله فكيف بأهل البدع الذين يخاصمون ويقاتلون عليها فإنهم يفعلون ذلك شجاعة وحمية وربما يعاقبون لما اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله لا لمجرد الخطأ الذي اجتهدوا فيه^(٢).

الاشتراك بين بني آدم تارة يثبت بضعلم وهو التعاقد على ما فيه خيرهم وتارة يثبت بضعل الله تعالى

فإن بني آدم لا يمكن عيشهم إلا بما يشتركون فيه من جلب منفعتهم ودفع مضرتهم فاتفقهم على ذلك هو التعاقد والتحالف ولهذا كان الوفاء بالعهود من الأمور التي اتفق أهل الأرض علي إيجابها لبعضهم علي بعض وإن كان منهم القادر الذي لا يوفي بذلك كما اتفقوا في إيجاب العدل والصدق فإذا اتفقوا وتعاقدوا علي اجتلاب الأمر الذي

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٥٧٠.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٢٥٠.

يحبونه ودفع الأمر الذي يكرهونه أعان بعضهم بعضا علي اجتلاب المحبوب ونصر بعضهم بعضا علي دفع المكروه ولو لم يتعاقدوا بالكلام فنفس اشتراكهم في أمر يوجب عليهم اجتلاب ما يصلح ذلك الأمر المشترك ودفع ما يضره كأهل النسب الواحد وأهل البلد الواحد فإن التناسب والتجاور يوجب التعاون علي جلب المنفعة المشتركة ودفع الضرر المشترك فصار الاشتراك بينهم تارة يثبت بفعلهم وهو التعاقد علي ما فيه خيرهم وتارة يثبت بفعل الله تعالى وقد جمع الله عز وجل هذين الأصلين في قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] وذكر في هذه السورة الأمور التي بينهم من جهة الخلق وهي من جهة العقود كما قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤] وقال تعالى ﴿الَّذِينَ يُوَفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [٢٠] ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢٠ - ٢١] وقال تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [٣٦] ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٦ - ٢٧] وإذا كان لا بد في كل ما يشتركون فيه من تحالف وغير تحالف من التعاون علي جلب المحبوب والتناصر لدفع المكروه فالمحبوب هو الموالي والمكروه هو المعادي فلا بد لكل بني آدم من ولاية وعداوة ولهذا جميعهم يتمادحون بالشجاعة والسماحة فإن السماحة إعانة علي وجود المحبوب بالأموال والمنافع وغير ذلك والشجاعة نصر لدفع المكروه بالقتال وغيره ولا قوام لشيء من أمور بني آدم إلا بذلك ومبني ذلك بينهم علي العدل في المشاركات والمعاوضات فظهر أن جميع أمور بني آدم لا بد فيها من تعاون بينهم ودفع ومنع لغيرهم فلا بد لهم من عقد وقدرة والعقد أصله الإرادة كما قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ [النساء: ١] أى يتعاقدون ويتعاقدون والقدرة القدرة^(١).

قال الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] والعقود هي العهود وقال تعالى ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقال

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٢١-١٢٢.

تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَسْئُولٌ﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا﴾
الله من قَبْلُ لَا يُؤْلَوْنَ الْأَذْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿[الأحزاب: ١٥] فقد أمر سبحانه بالوفاء
بالعقود وهذا عام وكذلك أمر بالوفاء بعهد الله وبالعهد وقد دخل في ذلك ما عقده المرء
على نفسه بدليل قوله ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ١٥] فدل على أن عهد
الله يدخل فيه ما عقده المرء على نفسه وإن لم يكن الله قد أمر بنفس ذلك المعهود عليه
قبل العهد كالنذر والبيع إنما أمر بالوفاء به ولهذا قرنه بالصدق في قوله ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ
فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] لأن العدل في القول خبر يتعلق
بالماضى والحاضر والوفاء بالعهد يكون في القول المتعلق بالمستقبل كما قال تعالى
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا
آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ
بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿[التوبة: ٧٥ - ٧٧] فأما من كان عهده موقتا
فلم يبح له نقضه بدليل قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ
يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] وقال ﴿إِلَّا
الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾
[التوبة: ٧] وقال ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] فانما أباح
النبد عند ظهور أمارات الخيانة لأن المحذور من جهتهم وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨] ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المعارج: ٣٢] في سورتي
المؤمنون والمعارج وهذا من صفة المستثنين من الهلع المذموم بقوله ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا
﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ
﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ اللَّهِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ
عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا

مَلَكَتْ أَيْمَانَهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ مَنِ ابْتِغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿المعارج: ١٩ - ٣٢﴾ وهذا يقتضى وجوب ذلك لأنه لم يستثن من المذموم إلا من اتصف بجميع ذلك ولهذا لم يذكر فيها إلا ما هو واجب وكذلك فى سورة المؤمنين قال فى أولها ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿المؤمنون: ١٠ - ١١﴾ فمن لم يتصف بهذه الصفات لم يكن من الوارثين لأن ظاهر الآية الحصر فان إدخال الفصل بين المبتدأ والخبر يشعر بالحصر ومن لم يكن من وارثي الجنة كان معرضا للعقوبة الا ان يعفو الله عنه وإذا كانت رعاية العهد واجبة فرعايته هي الوفاء به ولما جمع الله بين العهد والأمانة جعل النبى ﷺ ضد ذلك صفة المنافق فى قوله إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر وعنه على كل خلق يطبع المؤمن ليس الخيانة والكذبوما زالوا يوصون بصدق الحديث وأداء الامانة وهذا عام وقال تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴿البقرة: ٢٦ - ٢٧﴾ فذمهم على نقض عهد الله وقطع ما أمر الله بصلته لأن الواجب إما بالشرع وإما بالشرط الذي عقده المرء باختياره^(١).

وأصل العقود أن العبد لا يلزمه شيء إلا بالتزامه أو بالزام الشارع له فما التزمه فهو ما عاهد عليه فلا ينقض العهد ولا يغدر وما أمره الشارع به فهو مما أوجب الله عليه ان يلتزمه وإن لم يلتزمه كما أوجب عليه ان يصل ما أمر الله به أن يوصل من الايمان بالكتب والرسل ومن صلة الأرحام ولهذا يذكر الله فى كتابه هذا وهذا كقوله ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴿الرعد: ٢٠ - ٢١﴾ فما أمر الله به أن يوصل فهو الزام من الله به وما عاهد عليه الانسان فقد التزمه فعليه أن يوفى بعهد الله ولا ينقض الميثاق إذا لم يكن ذلك مخالفا لكتاب الله^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ١٤١ - ١٤٣.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٣٤١.

أن ما وجب بالشرع إن نذره العبد أو عاهد الله عليه الخ تكون واجبة من وجهين

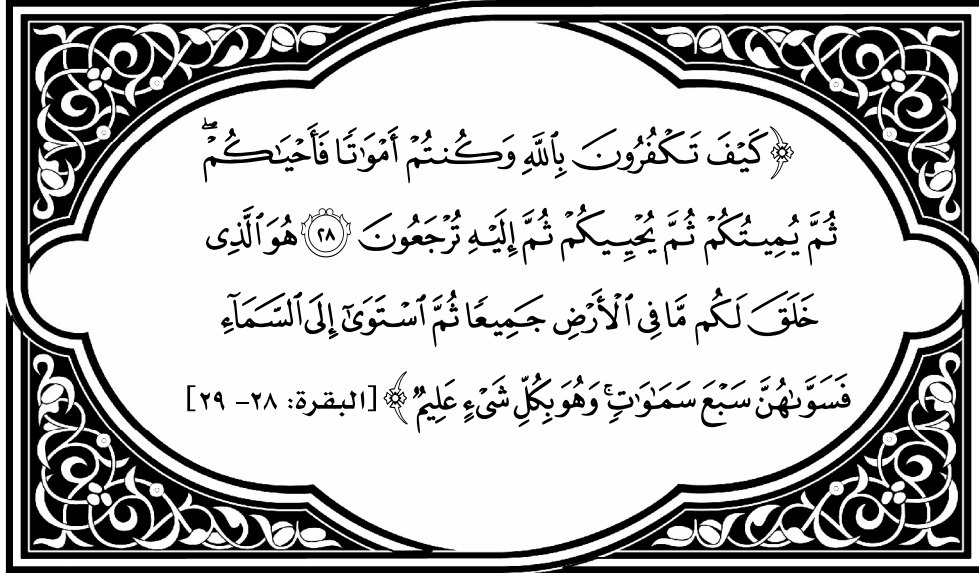
وقد كتبت في قاعدة العهود والعقود القاعدة في العهود الدينية في القواعد المطلقة والقاعدة في العقود الدنيوية في القواعد الفقهية وفي كتاب النذر أيضا أن ما وجب بالشرع إن نذره العبد أو عاهد الله عليه أو بايع عليه الرسول أو الامام أو تحالف عليه جماعة فإن هذه العهود والمواثيق تقتضي له وجوبا ثانيا غير الوجوب الثابت بمجرد الأمر الأول فتكون واجبة من وجهين بحيث يستحق تاركها من العقوبة ما يستحقه ناقض العهد والميثاق وما يستحقه عاصي الله ورسوله هذا هو التحقيق ومن قال من أصحاب أحمد انه إذا نذر واجبا فهو بعد النذر كما كان قبل النذر بخلاف نذر المستحب فليس كما قال بل النذر إذا كان يوجب فعل المستحب فإيجابه لفعل الواجب أولى وليس هذا من باب تحصيل الحاصل بل هما وجوبان من نوعين لكل نوع حكم غير حكم الآخر مثل الجدة إذا كانت أم أم وأم أب أبان فيها شيئين كل منهما تستحق به السدس وكذلك من قال من أصحاب أحمد ان الشروط التي هي من مقتضى العقد لا يصح اشتراطها أو قد تفسده حتى قال بعض أصحاب الشافعي إذا قال زوجتك على ما أمر الله به من امساك بمعروف أو تسريح باحسان كان النكاح فاسدا لأنه شرط فيه الطلاق فهذا كلام فاسد جدا فان العقود إنما وجبت موجباتها لايجاب المتعاقدين لها على أنفسهما ومطلق العقد له معنى مفهوم فاذا اطلق كانا قد أوجبا ما هو المفهوم منه فان موجب العقد هو واجب بالعقد كموجب النذر لم يوجبه الشارع ابتداء وإنما أوجب الوفاء بالعقود كما أوجب الوفاء بالنذر فاذا كان له موجب معلوم بلفظ مطلق أو يعرف المتعاقدان إيجابه بلفظ خاص كان هذا من باب عطف الخاص على العام فيكون قد أوجبه مرتين أو جعل له إيجابا خاصا يستغنى به عن الإيجاب العام وفي القرآن من هذا نظائر مثل قوله ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨] وقوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأحزاب: ٧] ومثل قوله ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله ﴿يَتَأْتِيهَا

الَّتِي قُلْ لَا زَوْجَكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الأحزاب: ٥٩] وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] وقوله ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٧] فإن الله أعلن عهد الله الذي امرهم به من بعد ما أخذ عليهم الميثاق بالوفاء به فاجتمع فيه الوجهان العهدي والميثاقي.

العهود والأرحام هما جماع الأسباب التي بين بني آدم

قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] قال طائفة من المفسرين من السلف ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ [النساء: ١] تتعاهدون به وتتعاقدون وهو كما قالوا لأن كل واحد من المتعاقدين عقد البيع أو النكاح أو الهدنة أو غير ذلك يسأل الآخر مطلوبه هذا يطلب تسليم المبيع وهذا تسليم الثمن وكل منهما قد أوجب على نفسه مطلوب الآخر فكل منهما طالب من الآخر موجب لمطلوب الآخر ثم قال ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] والعهود والأرحام هما جماع الأسباب التي بين بني آدم فإن الأسباب التي بينهم أما أن تكون بفعل الله أو بفعلهم فالأول الأرحام والثاني العهود ولهذا جمع الله بينهما في مواضع مثل قوله ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠] فالإل القربة والرحم والذمة العهد والميثاق وقال تعالى في أول البقرة ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧] وقال ﴿الَّذِينَ يُفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [٢٠] ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢٠ - ٢١] إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢٥] ^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص: ١٣.



فالحياة نعمة وإدراك اللذات نعمة وأما الإيمان فهو أعظم النعم وبه تتم
النعم

أصلى الإيمان هما الإيمان بالله وباليوم الآخر التوحيد والمعاد كما قرن بينهما فى
مواضع كثيرة كقوله ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] ^(١).

فإن العبد ليس بميت بل هو حى أحياء الله تعالى كما قال تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ
بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] والله لا يكلف الميت وإنما يكلف الحى ^(٢).
أنه سبحانه يذكر خلق الإنسان مجملًا ومفصلاً وتارة يذكر إحياءه كقوله تعالى
﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] وهو كقول الخليل عليه السلام ﴿رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾
[البقرة: ٢٥٨] فإن خلق الحياة ولوازمها وملزوماتها أعظم وأدل على القدرة والنعمة

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١١٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١١٦.

والحكمة^(١).

فمعلوم أن ما قبل الحياة أكمل ممن لا يقبلها فالجنين فى بطن أمه قبل أن ينفخ فيه الروح أكمل من الحجر وقد قال تعالى ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فالجنين يمكن أن يصير حيا فى العادة ناطقا نطقا يسمعه الإنسان السماع المعتاد فهو أكمل من الحجر والتراب^(٢).

وقد قال تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فالحياة نعمة وإدراك اللذات نعمة وأما الإيمان فهو أعظم النعم وبه تتم النعم فالإنسان بجبلته يطلب ما يوافقه ويتنعم به من الغذاء وغيره على هذا فطر فيعرف النعمة فيعرف المنعم فيشكره فلهذا كان الحمد هو الإبتداء فإن شعوره بنفسه وبما يحتاج إليه ويتنعم به قبل شعوره بكل شيء وهو من حين خرج من بطن أمه شعر باللبن الذي يحتاج إليه ويتنعم به وبما يخرج منه وهو الثدي فلهذا تعرف الله إليه بالنعم ليشكره وشكره ابتداء معرفته بالله فإذا عرف الله أحبه فعبدته وتنعم بعبادته وحده لا شريك له وعرف ما فى التآله له من اللذة العظيمة التي لا يعد لها لذة^(٣).

﴿رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾

عود الروح إلى بدن الميت فى القبر ليس مثل عودها اليه فى هذه الحياة الدنيا وإن كان ذاك قد يكون أكمل من بعض الوجوه كما أن النشأة الأخرى ليست مثل هذه النشأة وان كانت أكمل منها بل كل موطن فى هذه الدار وفى البرزخ والقيامة له حكم يخصه ولهذا أخبر النبى ﷺ أن الميت يوسع له فى قبره ويسئل ونحو ذلك وان كان التراب قد لا يتغير فالأرواح تعاد إلى بدن الميت وتفارق هوهل يسمى ذلك موتا فيه قولان قيل يسمى ذلك موتا وتأولوا على ذلك قوله تعالى ﴿رَبَّنَا أَمَتَنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] قيل

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٢٩٤.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢٦.

(٣) رسالة فى تحقيق الشكر ج: ١ ص: ١١٠.

إن الحياة الأولى فى هذه الدار والحياة الثانية فى القبر والموتة الثانية فى القبر والصحيح أن هذه الآية كقوله ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فالموتة الأولى قبل هذه الحياة والموتة الثانية بعد هذه الحياة وقوله تعالى ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] بعد الموت قال تعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥] وقال ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] فالروح تتصل بالبدن متى شاء الله تعالى وتفارقه متى شاء الله تعالى لا يتوقت ذلك بمرة ولا مرتين والنوم أخو الموت ولهذا كان النبى يقول إذا أوى إلى فراشه باسمك اللهم اموت وأحيا وكان إذا استيقظ يقول الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور فقد سمي النوم موتا والاستيقاظ حياة وقد قال تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢] فبين انه يتوفى الانفس على نوعين فيتوفاهما حين الموت ويتوفى الانفس التى لم تمت بالنوم ثم اذا ناموا فمن مات فى منامه أمسك نفسه ومن لم يميت ارسل نفسه ولهذا كان النبى ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه فإن أمسكت نفسى فارحمها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين^(١).

الرد على الجهمية الذين أنكروا حكمة الله ورحمته وقالوا ليس فى القرآن لام كي لا فى خلقه ولا فى أمره

فإن الناس فى باب خلق الرب وأمره ولم فعل ذلك على طرفين ووسط فالقدرة من المعتزلة وغيرهم قصدوا تعظيم الرب وتنزيهه عما ظنوه قبيحا من الأفعال وظلما فأنكروا عموم قدرته ومشيتته ولم يجعلوه خالقا لكل شيء ولا أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن بل قالوا يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء ثم إنهم وضعوا لربهم شريعة فيما يجب عليه ويحرم بالقياس على أنفسهم وتكلموا فى التعديل والتجوز بهذا القياس الفاسد الذى شبهوا فيه الخالق بالمخلوق فضلوا وأضلوا وقابلهم الجهمية الغلاة فى الجبر

(١) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢٧٥.

فأنكروا حكمة الله ورحمته وقالوا لم يخلق لحكمة ولم يأمر بحكمة وليس فى القرآن لام كي لا فى خلقه ولا فى أمر هو زعموا أن قوله ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] وقوله ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وأمثال ذلك إنما اللام فيه لام العاقبة كقوله ﴿فَالنَّفَطَةُ ۚ ۚ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [التقصص: ٨] وقول القائل لدوا للموت وابنوا للخراب ولم يعلموا أن لام العاقبة إنما تصح ممن يكون جاهلا بعاقبة فعله كفرعون الذي لم يكن يدري ما ينتهي إليه أمر موسى أو ممن يكون عاجزا عن رد عاقبة فعله كعجز بني آدم عن دفع الموت عن أنفسهم والخراب عن ديارهم فأما من هو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وهو يريد لكل ما خلق فيمتنع فى حقه لام العاقبة التى تتضمن نفى العلم أو نفى القدرة وأنكر هؤلاء محبة الله ورضاه لبعض الموجودات دون بعض وقالوا المحبة والرضا هو من معنى الإرادة والله يريد لكل ما خلقه فهو راض بذلك محب له وزعموا أن ما فى القرآن من نفى حبه ورضاه بالكفر والمعاصي كقوله ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [النمر: ٧] محمول على عباده الذين لم يقع ذلك منهم أو أنه لم يرده دينا يثيبهم عليه وزعموا أن الله لا يحب ولا يرضي ما أمر به من العبادات إلا إذا وقع فيريده كما يريد حينئذ ما وقع من الكفر والمعاصي إلى غير ذلك من قواهم المبسوطة فى غير هذا الموضع وكثير من المتأخرين يظن أن هذا قول أهل السنة وهذا مما لم يقله أحد من سلف الأمة وأئمتها بل جميع مثبتة القدر المتقدمين كانوا يفرقون بين المحبة والرضا وبين الإرادة ولكن أبو الحسن الأشعري اتبع جهما فى ذلك قال أبو المعالي الجوينى ومما اختلف أهل الحق فى إطلاقه وعدم إطلاقه المحبة والرضا فصار المتقدمون إلى أنه سبحانه لا يحب الكفر ولا يرضاه وكذلك كل معصية وقال شيخنا أبو الحسن المحبة هي الإرادة نفسها وكذلك الرضا والإصطفاء وهو سبحانه يريد الكفر ويرضاه كفرا معاقبا عليه وهو كما قال أبو

المعالى فإن المتقدمين من جميع أهل السنة على ما دل عليه الكتاب والسنة من أنه سبحانه لا يرضي ما نهى عنه ولا يحبه وعلى ذلك قدماء أصحاب الأئمة الأربعة أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي أحمد كأبي بكر عبد العزيز وغيره من قدمائهم ولكن من المتأخرين من سوى بين الجميع كما قاله أبو الحسن وهو فى الأصل قول لجهم فهو الذي قال فى القدر بالجبر وبما يخالف أهل السنة وانكر رحمة الله تعالى وكان يخرج إلى الجذمى فيقول أرحم الراحمين يفعل هذا فنفى أن يكون الله أرحم الراحمين وقد قال الصادق المصدوق لله أرحم بعباده من الوالدة بولده وهذه مسائل عظيمة ليس هذا موضع بسطها وإنما المقصود هنا التنبيه على الجمل فإن كثيرا من الناس يقرأ كتباً مصنفة فى أصول الدين وأصول الفقه بل فى تفسير القرآن والحديث ولا يجد فيها القول الموافق للكتاب والسنة الذي عليه سلف الأمة وأئمتها وهو الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول بل يجد أقوالاً كل منها فيه نوع من الفساد والتناقض فيحار ما الذي يؤمن به فى هذا الباب وما الذي جاء به الرسول وما هو الحق والصدق إذ لم يجد فى تلك الأقول ما يحصل به ذلك وإنما الهدى فيما جاء به الرسول الذي قال الله فيه ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ٥٣﴾ [التشورى: ٥٢-٥٣] (١).

أن القرآن لم يخبر بفناء العالم فى المستقبل قط كما لم يخبر بأن الله خلق السموات والأرض من غير شيء

ومن المعلوم أن القرآن لم يخبر بفناء العالم فى المستقبل قط كما لم يخبر بأن الله خلق السموات والأرض من غير شيء بل أخبر سبحانه وتعالى بخلق السموات والأرض كما أخبر بخلق الإنسان والجن وغير ذلك من المخلوقات وأخبر أنه خالق كل شيء وأخبر عن خلق السموات والأرض فقال ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] (٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ١٠٠-١٠٢.

(٢) الصفدية ج: ٢ ص: ٧٧.

فنفي الحكم بالاستحباب لانتفاء دليل معين من غير تأمل باقي الأدلة خطأ عظيم

فاعلم أن الأصل في جميع الأعيان الموجودة على اختلاف أصنافها وتباين أوصافها أن تكون حلالا مطلقا للأدميين وأن تكون طاهرة لا يحرم عليهم ملاستها ومباشرتها ومماسستها وهذه كلمة جامعة ومقالة عامة وقضية فاضلة عظيمة المنفعة واسعة البركة يفرع إليها حملة الشريعة فيما لا يحصى من الأعمال وحوادث الناس وقد دل عليها أدلة عشرة مما حضرني ذكره من الشريعة وهي كتاب الله وسنة رسوله واتباع سبيل المؤمنين المنظومة في قوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وقوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥] ثم مسالك القياس والاعتبار ومناهج الرأي والاستبصار الصنف الأول الكتاب وهو عدة آيات الآية الأولى قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] والخطاب لجميع الناس لافتتاح الكلام بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ووجه الدلالة أنه أخبر أنه خلق جميع ما في الأرض للناس مضافا إليهم باللام واللام حرف الإضافة وهي توجب اختصاص المضاف بالمضاف إليه واستحقاقه إياه من الوجه الذي يصلح له وهذا المعنى يعم موارد استعمالها كقولهم المال لزيد والسر للذابة وما أشبه ذلك فيجب إذا أن يكون الناس مملكين مملكين لجميع ما في الأرض فضلا من الله ونعمة وخص من ذلك بعض الأشياء وهي الخبائث لما فيها من الإفساد لهم في معاشهم أو معادهم فيبقى الباقي مباحا بموجب الآية الثانية قوله تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] دلت الآية من وجهين أحدهما أنه وبخهم وعنفهم على ترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه قبل أن يحله باسمه الخاص فلو لم تكن الأشياء مطلقة مباحة لم يلحقهم ذم ولا توبيخ إذ لو كان حكمها مجهولا أو كانت محظورة لم يكن ذلك الوجه الثاني أنه قال ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٩] والتفصيل التبيين فبين أنه بين المحرمات فما لم يبين تحريمه ليس بمحرم وما ليس بمحرم فهو حلال إذ ليس إلا حلال أو حرام الآية الثالثة

قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الباقية: ١٣] وإذا كان ما في الأرض مسخرا لنا جاز استمتاعنا به كما تقدم الآية الرابعة قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَّا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] الآية فما لم يجد تحريمه ليس بمحرم وما لم يحرم فهو حل ومثل هذه الآية قوله ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ [البقرة: ١٧٣] الآية لأن حرف إنما يوجب حصر الأول في الثاني فيجب انحصار المحرمات فيما ذكر وقد دل الكتاب على هذا الأصل المحيط في مواضع أخر الصنف الثاني السنة والذي حضرني منها حديثان الحديث الأول في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال قال رسول الله إن أعظم المسلمين جرما من يسأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسأله دل ذلك على أن الأشياء لا تحرم إلا بتحريم خاص لقوله لم يحرم ودل أن التحريم قد يكون لأجل المسألة فبين بذلك أنها بدون ذلك ليست محرمة وهو المقصود الثاني روى أبو داود في سننه عن سلمان الفارسي قال سئل رسول الله عن شيء من السمن والجن والفراء فقال الحلال ما أحل الله في كتابه والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه فمنه حددهما أنه أفتى بالإطلاق فيه الثاني قوله وما سكت عنه فهو مما عفا عنه نص في أن ما سكت عنه فلا إثم عليه فيه وتسميته هذا عفو كأنه والله أعلم لأن التحليل هو الإذن في تناول بخطاب خاص والتحريم المنع من تناول كذلك والسكوت عنه لم يؤذن بخطاب يخصه ولم يمنع منه فيرجع إلى الأصل وهو أن لا عقاب إلا بعد الإرسال وإذا لم يكن فيه عقاب لم يكن محرما وفي السنة دلائل كثيرة على هذا الأصل الصنف الثالث اتباع سبيل المؤمنين وشهادة شهداء الله في أرضه الذين هم عدول الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر المعصومين من اجتماعهم على ضلالة المفروض اتباعهم وذلك أنني لست أعلم خلاف أحد من العلماء السالفين في أن ما لم يحجى دليل بتحريمه فهو مطلق غير محجور وقد نص على ذلك كثير ممن تكلم في أصول الفقه وفروعه وأحسب بعضهم ذكر في ذلك الإجماع يقينا أو ظنا كاليقين فإن قيل كيف يكون في ذلك إجماع وقد علمت اختلاف الناس في الأعيان قبل مجيء الرسل وإنزال الكتب هل الأصل فيها الحظر أو الإباحة أو لا يدري ما الحكم فيها

أو أنه لا حكم لها أصلاً واستصحاب الحال دليل متبع وأنه قد ذهب بعض من صنف في أصول الفقه من أصحابنا وغيرهم على أن حكم الأعيان الثابت لها قبل الشرع مستصحب بعد الشرع وأن من قال بأن الأصل في الأعيان الحظر استصحب هذا الحكم حتى يقوم دليل الحل فأقول هذا قول متأخر لم يؤثر أصله عن أحد من السابقين ممن له قدم وذلك أنه قد ثبت أنها بعد مجيء الرسل على الإطلاق وقد زال حكم ذلك الأصل بالأدلة السمعية التي ذكرتها ولست أنكر أن بعض من لم يحط علماً بمدارك الأحكام ولم يؤت تمييزاً في مظان الاشتباه ربما سحب ذيل ما قبل الشرع على ما بعده إلا أن هذا غلط قبيح لونه له لتنبه مثل الغلط في الحساب لا يهتك حريم الإجماع ولا يثلم سنن الاتباع ولقد اختلف الناس في تلك المسألة هل هي جائزة أم ممتنعة لأن الأرض لم تخل من نبي مرسل إذ كان آدم نبياً مكلماً حسسب اختلافهم في جواز خلو الأقطار عن حكم مشروع وإن كان الصواب عندنا جوازه ومنهم من فرضها فيمن ولد بجزيرة إلى غير ذلك من الكلام الذي يبين لك أن لا عمل بها وأنها نظر محض ليس فيه عمل كالكلام في مبدأ اللغات وشبه ذلك على أن الحق الذي لا راد له أن قبل الشرع لا تحليل ولا تحريم فإذا لا تحريم يستصحب ويستدام فيبقى الآن كذلك والمقصود خلوها عن المآثم والعقوبات وأما مسلك الاعتبار بالأشياء والنظائر واجتهاد الرأي في الأصول الجوامع فمن وجوه كثيرة ننبه على بعضها أحدها أن الله سبحانه خلق هذه الأشياء وجعل فيها للإنسان متاعاً ومنفعة ومنها ما قد يضطر إليه وهو سبحانه جواد ماجد كريم رحيم غني صمد والعلم بذلك يدل على العلم بأنه لا يعاقبه ولا يعذبه على مجرد استمتاعه بهذه الأشياء وهو المطلوب وثانيها أنها منفعة خالية عن مضرة فكانت مباحة كسائر ما نص على تحليله وهذا الوصف قد دل على تعلق الحكم به النص وهو قوله ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فكل ما نفع فهو طيب وكل ما ضر فهو خبيث والمناسبة الواضحة لكل ذي لب أن النفع يناسب التحليل والضرر يناسب التحريم والدوران فإن التحريم يدور مع المضار وجوداً في الميتة والدم ولحم الخنزير وذوات الأنياب والمخالب والخمر وغيرها مما يضر بأنفس الناس وعدماً في الأنعام والألبان وغيرها وثالثها أن هذه

الأشياء إما أن يكون لها حكم أو لا يكونوا الأول صواب والثاني باطل بالاتفاق وإذا كان لها حكم فالوجوب والكراهة والاستحباب معلومة البطلان بالكلية لم يبق إلا الحل والحرمة باطلة لانتفاء دليلها نصا واستنباطا لم يبق إلا الحل وهو المطلوب^(١).

أن ما خلقه الله في سائر الأرض من القوت واللباس والمراكب والمساكن لم يكن كل نوع منه كان موجودا في الحجاز فلم يأكل النبي من كل نوع من أنواع الطعام القوت والفاكهة ولا لبس من كل نوع من أنواع اللباس ثم ان من كان من المسلمين بأرض أخرى كالشام ومصر والعراق واليمن وخراسان وأرمينية وأذربيجان والمغرب وغير ذلك عندهم أطعمة وثياب مجلوبة عندهم أو مجلوبة من مكان آخر فليس لهم أن يظنوا ترك الإنتفاع بذلك الطعام واللباس سنة لكون النبي لم يأكل مثله ولم يلبس مثله إذ عدم الفعل إنما هو عدم دليل واحد من الأدلة الشرعية وهو أضعف من القول باتفاق العلماء وسائر الأدلة من أقواله كأمره ونهيه وإذنه من قول الله تعالى هي أقوى وأكبر ولا يلزم من عدم دليل معين عدم سائر الأدلة الشرعية وكذلك إجماع الصحابة أيضا من أقوى الأدلة الشرعية فنفي الحكم بالاستحباب لانتفاء دليل معين من غير تأمل باقي الأدلة خطأ عظيم فان الله يقول ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] وقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجن: ١٣] وقال تعالى ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] ولم تكن البغال موجودة بأرض العرب ولم يركب النبي بغلة إلا البغلة التي أهداها له المقوقس من أرض مصر بعد صلح الحديبية وهذه الآية نزلت بمكة ومثلها في القرآن يمتن الله على عباده بنعمه التي لم تكن بأرض الحجاز كقوله تعالى ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ٢٤ ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ٢٥ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ٢٦ ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ٢٧ ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ ٢٨ ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ٢٩ ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ ٣٠ ﴿وَفَيْكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٤ - ٣١] ولم يكن بأرض الحجاز زيتون ولا نقل عن النبي أنه أكل زيتونا ولكن لعل الزيت كان يجلب إليهم وقد قال تعالى ﴿وَاللَّيْنِ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٥٣٥-٥٤١.

وَالزَّيْتُونَ ﴿التين: ١﴾ ولم يكن بأرضهم لا هذا ولا هذا ولا نقل عن النبي أنه أكل منهما وكذلك قوله ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وقد قال النبي كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة وقال تعالى ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥] وكذلك قوله ﴿وَحَدَائِقُ غُلَبًا﴾ [عبس: ٣٠] وكذلك قوله في البحر ﴿لَتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤] وقوله ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤] ولم يركب النبي البحر ولا أبوبكر ولا عمر وقد أخبر بمن يركب البحر من أمته غزاة في سبيل الله كأنهم ملوك على الأسرة لأم حرام بنت ملحان وقالت ادع الله أن يجعلني منهم فقال أنت منهم وكانت سنة رسول الله أنه يطعم ما يجده في أرضه ويلبس ما يجده ويركب ما يجده مما أباحه الله تعالى فمن استعمل ما يجده في أرضه فهو المتبع للسنة كما أنه حج البيت من مدينته فمن حج البيت من مدينة نفسه فهو المتبع للسنة وإن لم تكن هذه المدينة تلك وكان يجاهد من يليه من الكفار من المشركين وأهل الكتاب فمن جاهد من يليه من هؤلاء فقد اتبع السنة وإن كان نوع هؤلاء غير نوع أولئك إذ أولئك كان غالبهم عربا ولهم نوع من الشرك هم عليه فمن جاهد سائر المشركين تركهم وهندسهم وغيرهم فقد فعل ما أمر الله به وإن كانت أصنامهم ليست تلك الأصنام ومن جاهد اليهود والنصارى فقد اتبع السنة وإن كان هؤلاء اليهود والنصارى من نوع آخر غير النوع الذي جاهدهم النبي فانه جاهد يهود المدينة كقريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر وضرب الجزية على نصارى نجران وغزا نصارى الشام عربها ورومها عام تبوك ولم يكن فيها قتال وأرسل إليهم زيدا وجعفرًا وعبد الله بن رواحة قاتلوهم في غزوة مؤتة وقال أميركم زيد فان قتل فجعفر فان قتل فعبد الله بن رواحة وصالح أهل البحرين وكانوا مجوسا على الجزية وهم أهل هجر وفي الصحيح أنه قدم مال البحرين

فجعلله في المسجد وما ثاب حتى قسمه وهذا باب واسع قد بسطناه في غير هذا الموضع وميزنا بين السنة والبدعة وبيننا ان السنة هي ما قام الدليل الشرعي عليه بأنه طاعة لله ورسوله سواء فعله رسول الله أو فعل على زمانه أو لم يفعله ولم يفعل على زمانه لعدم المقتضى حينئذ لفعله أو وجود المانع منه فانه إذا ثبت أنه أمر به أو استحبه فهو سنة كما أمر باجلاء اليهود والنصارى من جزيرة العرب وكما جمع الصحابة القرآن في المصحف وكما دأبوا على قيام رمضان في المسجد جماعة^(١).

الأصل في جميع الأعيان الموجودة على اختلاف أصنافها وتباين أوصافها أن تكون حالاً

فاعلم أن الأصل في جميع الأعيان الموجودة على اختلاف أصنافها وتباين أوصافها أن تكون حالاً مطلقاً للأدمين وأن تكون طاهرة لا يحرم عليهم ملاستها ومباشرتها ومماسستها قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] والخطاب لجميع الناس لافتتاح الكلام بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ووجه الدلالة أنه أخبر أنه خلق جميع ما في الأرض للناس مضافاً إليهم باللام واللام حرف الإضافة وهي توجب اختصاص المضاف بالمضاف إليه واستحقاقه إياه من الوجه الذي يصلح له وهذا المعنى يعم موارد استعمالها كقولهم المال لزيد والسرّج للدابة وما أشبه ذلك فيجب إذا أن يكون الناس مملكين ممكنين لجميع ما في الأرض فضلاً من الله ونعمة وخص من ذلك بعض الأشياء وهي الخبائث لما فيها من الإفساد لهم في معاشهم أو معادهم فيبقى الباقي مباحاً بموجب الآية الآية^(٢).

قال الامام مالك الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة

قال عبد العزيز المكي صاحب الشافعي صاحب الحيدة المشهورة في كتاب الرد

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٣١٥-٣١٨.

(٢) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ١١٧.

على الزنادقة والجهمية وقوله ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وقد روى عن عمران بن حصين عن النبي أنه قال اقبلوا البشرى يا بنى تميم قالوا بشرتنا فاعطنا قال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن قالوا قبلنا فاخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان قال كان الله قبل كل شيء وكان عرشه على الماء وكتب فى اللوح ذكر كل شيء وروى عن أبى رزين العقيلي وكان يعجب النبي ﷺ مسألته انه قال يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض قال فى عماء فوقه هواء وتحت هواء^(١).

قال أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيره ثنا عصام بن الرواد ثنا آدم ثنا ابو جعفر عن الربيع عن أبى العالية ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] يقول ارتفع قال وروى عن الحسن يعنى البصرى والربيع بن أنس مثله كذلك وذكر البخارى فى صحيحه فى كتاب التوحيد قال قال أبو العالية ﴿أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] ارتفع فسوى خلقهن^(٢).

وأما الأفعال اللازمة كالإستواء والجيء فالناس متنازعون فى نفس إثباتها لأن هذه ليس فيها مفعول موجود يعلمونه حتى يستدلوا بثبوت المخلوق على الخلق وإنما عرفت بالخبر فالأصل فيها الخبر لا العقل ولهذا كان الذين ينفون الصفات الخبرية ينفونها ممن يقول الخلق غير المخلوق وممن يقول الخلق هو المخلوق ومن يثبت الصفات الخبرية من الطائفتين يثبتها والذين أثبتوا الصفات الخبرية لهم فى هذه قولان منهم من يجعلها من جنس الفعل المتعدى يجعلها أمورا حادثة فى غيرها وهذا قول الأشعري وأئمة أصحابه ومن وافقهم كالقاضى أبى يعلى وابن الزاغوني وابن عقيل فى كثير من أقواله فالأشعري يقول الإستواء فعل فعله فى العرش فصار به مستويا على العرش وكذلك يقول فى الإتيان والنزول ويقول هذه الأفعال ليست من خصائص الأجسام بل توصف بها الأجسام والأعراض فيقال جاءت الحمى وجاء البرد وجاء الحر ونحو ذلك وهذا أيضا

(١) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ١١٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥١٩.

قول القاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى وغيرهما وحملوا ما روى عن السلف كالأوزاعي وغيره أنهم قالوا في النزول يفعل الله فوق العرش بذاته كما حكاه القاضي عبد الوهاب عن القاضي أبي بكر وكما حكوه عن الأشعري وغيره وكما ذكر في غير موضع من كتبه ولكن عندهم هذا من الصفات الخبرية وهذا قول البيهقي وطائفة وهو أول قولي القاضي أبي يعلى وكل من قال إن الرب لا تقوم به الصفات الاختيارية فإنه ينفي أن يقوم به فعل شاءه سواء كان لازما أو متعديا لكن من أثبت من هؤلاء فعلا قديما كمن يقول بالتكوين وبهذا فإنه يقول ذلك القديم قام به بغير مشيئته كما يقولون في إرادته القديمة والقول الثاني أنها كما دلت عليه أفعال تقوم بذاته بمشيئته وإختياره كما قالوا مثل ذلك في الأفعال المتعدية وهذا قول أئمة السنة والحديث والفقهاء والتصوف وكثير من أصناف أهل الكلام كما تقدم وعلى هذا ينبنى نزاعهم في تفسير قوله ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣] ونحو ذلك فمن نفى هذه الأفعال يتأول إتيانه بإتيان أمره أو بأسه والإستواء على العرش بجعله القدرة والإستلاء أو بجعله علو القدر فإن الإستواء للناس فيه قولان هل هو من صفات الفعل أو الذات على قولين والقاتلون بأنه صفة ذات يتأولونه بأنه قدر على العرش وهو ما زال قادرا وما زال عالي القدر فلهذا ظهر ضعف هذا القول من وجوه منها قوله ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣] فأخبر أنه استوى بحرف ثم ومنها أنه عطف فعلا على فعل فقال ﴿خَلَقَ﴾ [يونس: ٣] ثم ﴿أَسْتَوَىٰ﴾ [يونس: ٣] ومنها أن ما ذكره لا فرق فيه بين العرش وغيره وإذا قيل إن العرش أعظم المخلوقات فهذا لا ينفي ثبوت ذلك لغيره كما في قوله ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] لما ذكر ربوبيته للعرش لعظمته والربوبية عامة جاز أن يقال رب السموات والأرض وما بينهما ورب العرش العظيم ويقال ﴿إِنَّمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿[الشعراء: ٤٧ - ٤٨] والإستواء مختص بالعرش باتفاق المسلمين مع أنه مستول

مقتدر على كل شيء من السماء والأرض وما بينهما فلو كان إستواؤه على العرش هو قدرته عليه جاز أن يقال على السماء والأرض وما بينهما وهذا مما احتج به طوائف منهم الأشعري قال فى إجماع المسلمين على أن الإستواء مختص بالعرش دليل على فساد هذا القول وأيضا فإنه ما زال مقتدرا عليه من حين خلقه ومنها كون لفظ الإستواء فى لغة العرب يقال على القدرة أو علو القدر ممنوع عندهم والإستعمال الموجود فى الكتاب والسنة وكلام العرب يمنع هذا كما قد بسط فى موضعه وتكلم على البيت الذي يحتجون به ثم إستوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق وأنه لو كان صحيحا لم يكن فيه حجة فإنهم لم يقولوا إستوى عمر على العراق لما فتحها ولا إستوى عثمان على خراسان ولا إستوى رسول الله ﷺ على اليمن وإنما قيل هذا البيت إن صح فى بشر بن مروان لما دخل العراق وإستوى على كرسي ملكها فليل هذا كما يقال جلس على سرير الملك أو تحت الملك ويقال قعد على الملك والمراد هذا وأيضا فالآيات الكثيرة والأحاديث الكثيرة وإجماع السلف يدل على أن الله فوق العرش كما قد بسط فى مواضع وأما الذين قالوا الإستواء صفة فعل فهؤلاء لهم قولان هنا على ما تقدم هل هو فعل بائن عنه لأن الفعل بمعنى المفعول أم فعل قائم به يحصل بمشيئته وقدرته الأول قول ابن كلاب ومن اتبعه كالأشعري وغيره وهو قول القاضي وابن عقيل وابن الزاغونى وغيرهم والثانى قول أئمة أهل الحديث والسنة وكثير من طوائف الكلام كما تقدم ولهذا صار للناس فيما ذكر الله فى القرآن من الإستواء والمحيى ونحو ذلك ستة أقوال طائفة يقولون تجرى على ظاهرها ويجعلون إتيانه من جنس إتيان المخلوق ونزوله من جنس نزولهم وهؤلاء المشبهة الممثلة ومن هؤلاء من يقول إذا نزل خلا منه العرش فلم يبق فوق العرش وطائفة يقولون بل النصوص على ظاهرها اللائق به كما فى سائر ما وصف به فى نفسه وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ويقولون نزل نزولا يليق بجلاله وكذلك يأتى إتيانا يليق بجلاله وهو عندهم ينزل ويأتى ولم يزل عاليا وهو فوق العرش كما قال حماد بن زيد هو فوق العرش يقرب من خلقه كيف شاء وقال إسحاق بن راهويه ينزل ولا يخلو منه العرش ونقل ذلك عن أحمد بن حنبل فى رسالته إلى مسدد وتفسير النزول بفعل يقوم بذاته هو قول علماء أهل الحديث وهو الذي

حكاه أبو عمر بن عبد البر عنهم وهو قول عامة القدماء من أصحاب أحمد وقد صرح به ابن حامد وغيره والأول نفي قيام الأمور الإختيارية هو قول التميمي موافقة منه لابن كلاب وهو قول القاضي أبي يعلى وأتباعه وطائفتان يقولان بل لا ينزل ولا يأتي كما تقدم ثم منهم من يتأول ذلك ومنهم من يفوض معنا هو طائفتان واقفتان منهم من يقول ما ندري ما أراد الله بهذا ومنهم من لا يزيد على تلاوة القرآن وعامة المنتسبين إلى السنة وأتباع السلف يبطلون تأويل من تأول ذلك بما ينفي أن يكون هو المستوى الآتي لكن كثير منهم يرد التأويل الباطل ويقول ما أعرف مراد الله بهذا ومنهم من يقول هذا مما نهى عن تفسيره أو مما يكتفى بتفسيره ومنهم من يقرره كما جاءت به الأحاديث الصحيحة والآثار الكثيرة عن السلف من الصحابة والتابعين قال أبو محمد البغوي الحسين بن مسعود الفراء الملقب بمحيي السنة في تفسيره ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] قال ابن عباس وأكثر مفسري السلف أي إرتفع إلى السماء وقال الفراء وابن كيسان وجماعة من النحويين أي أقبل على خلق السماء وقيل قصد وهذا هو الذي ذكره ابن الجوزي في تفسيره قال ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] أي عمد إلى خلقها وكذلك هو يرجح قول من يفسر الإتيان بإتيان أمره وقول من يتأول الإستواء وقد ذكر ذلك في كتب أخرى ووافق بعض أقوال ابن عقيل قال ابن عقيل له في هذا الباب أقوال مختلفة وتصانيف يختلف فيها رأيه وإجتهاد هو قال البغوي في تفسير قوله ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣] قال الكلبي ومقاتل إستقر وقال أبو عبيدة صعد وأولت المعتزلة الإستواء بالإستيلاء وأما أهل السنة فيقولون الإستواء على العرش صفة لله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم فيه إلى الله وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى فأطرق مالك رأسه مليا وعلاه الرخصاء ثم قال الإستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أراك إلا ضالا ثم أمر به فأخرج قال روى عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي

جاءت فى الصفات المتشابهة أمروها كما جاءت بلا كيف وقال فى قوله ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] الأولى فى هذه الآية وفيما شاكلها أن يؤمن الإنسان بظاهاها ويكل علمها إلى الله ويعتقد أن الله منزّه عن سمات الحدث على ذلك مضت أئمة السلف وعلماء السنة قال الكلبي هذا من المكتوم الذي لا يفسر قلتوقد حكى عنه أنه قال فى تفسير قوله ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى﴾ [استقر ففسر ذاك وجعل هذا من المكتوم الذي لا يفسر لأن ذاك فيه وصفه بأنه فوق العرش وهذا فيه إتيانه فى ظلل من الغمام قال البغوي وكان مكحول والزهري والأوزاعي ومالك وعبدالله بن المبارك وسفيان الثوري والليث بن سعد وأحمد وإسحاق يقولون فيه وفى أمثاله أمروها كما جاءت بلا كيف قال سفيان بن عيينة كلما وصف الله به نفسه فى كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره إلا الله ورسوله وهذه الآية أغمض من آية الإستواء ولهذا كان أبو الفرج يميل إلى تأويل هذا وينكر قول من تأول الإستواء بالإستيلاء قال فى تفسيره قال الخليل بن أحمد العرش السرير وكل سرير للملك يسمى عرشا وقلما يجمع العرش إلا فى الإضطراب قلت وقد روى ابن أبى حاتم عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس قال يسمى عرشا لارتفاعه قلت والإشتقاق يشهد لهذا كقوله ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقوله ﴿مَعْرُوشَتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١] وقول سعد وهذا كافر بالعرش ومقعد الملك يكون أعلى من غيره فهذا بالنسبة إلى غيره عال عليه وبالنسبة إلى ما فوقه هو دونه وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال إذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة وسقفه عرش الرحمن فدل على أن العرش أعلى المخلوقات كما بسط فى مواضع أخر قال أبو الفرج واعلم أن ذكر العرش مشهور عند العرب فى الجاهلية والإسلام قال أمية بن أبى الصلت مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا فى السماء أمسى كبيرا بالبناء الأعلى الذي سبق الناس وسوى فوق السماء سريرا شرحا لا يناله بصر العين ترى دونه الملائك صورا قلت يريد أنه ذكره من العرب من لم يكن مسلما أخذه عن أهل الكتاب فإن أمية ونحوه إنما أخذ هذا عن أهل الكتاب وإلا فالمشركون لم يكونوا يعرفون هذا قال أبو الفرج ابن الجوزي وقال كعب إن السموات فى العرش كقنديل

معلق بين السماء والأرض قال وإجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية وقد شذ قوم فقالوا العرش بمعنى الملك وهو عدول عن الحقيقة إلى التجوز مع مخالفة الأثر ألم يسمعو قولهُ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧] أفتراه كان الملك على الماء قال وبعضهم يقول إستوى بمعنى إستولى ويستدل بقول الشاعر حتى إستوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق وقال الشاعر أيضا قد قلما إستويا بفضلهما جميعا على عرش الملوك بغير زور قال وهو منكر عند اللغويين قال ابن الأعرابي إن العرب لا تعلم إستوى بمعنى إستولى ومن قال ذلك فقد أعظم قال وإنما يقال إستولى فلان على كذا إذا كان بعيدا عنه غير متمكن ثم تمكن منه والله سبحانه وتعالى لم يزل مستوليا على الأشياء والبيتان لا يعرف قائلهما كذا قال ابن فارس اللغوي ولوصحا لم يكن حجة فيهما لما بينا من إستيلاء من لم يكن مستوليا نعوذ بالله من تعطيل الملحة وتشبيه المجسمة قلت فقد تأول قوله ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] وأنكر تأويل ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وهو في لفظ الإتيان قد ذكر القولين فقال قوله ﴿أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ﴾ [البقرة: ٢١٠] كان جماعة من السلف يسكون عن مثل هذا وقد ذكر القاضي أبو يعلى عن أحمد أنه قال المراد به قدرته وأمره قال وقد بينه في قوله ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [الأنحل: ٣٣] قلت هذا الذي ذكره القاضي وغيره أن حنبلا نقله عن أحمد في كتاب المحنة أنه قال ذلك في المناظرة لهم يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله تجيء البقرة وآل عمران قالوا والجيء لا يكون إلا لمخلوق فعارضهم أحمد بقوله ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقال المراد بقوله تجيء البقرة وآل عمران ثوابهما كما في قوله ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] أمره وقدرته وقد اختلف أصحاب أحمد فيما نقله حنبل فإنه لا ريب أنه خلاف النصوص المتواترة عن أحمد في منعه من تأويل هذا وتأويل النزول والإستواء ونحو ذلك من الأفعال ولهم ثلاثة أقوال قيل هذا غلط من حنبل إنفرد به دون الذين ذكروا عنه المناظرة مثل صالح وعبدالله والمروذي وغيرهم فإنهم لم يذكروا هذا وحنبل ينفرد بروايات يغلطه فيها طائفة كالخلال وصاحبه قال أبو إسحاق ابن شاقلا هذا غلط

من حنبل لا شك فيه وكذلك نقل عن مالك رواية أنه تأول ينزل إلى السماء الدنيا أنه ينزل أمره لكن هذا من رواية حبيب كاتبه وهو كذاب بإتفاقهم وقد رويت من وجه آخر لكن الإسناد مجهول والقول الثاني قال طائفة من أصحاب أحمد هذا قاله إلزاما للخصم على مذهبه لأنهم فى يوم المحنة لما إحتجوا عليه بقوله تأتى البقرة وآل عمران أجابهم بأن معناه يأتى ثواب البقرة وآل عمران كقوله ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠] أى أمره وقدرته على تأويلهم لا أنه يقول بذلك فإن مذهبه ترك التأويل والقول الثالث أنهم جعلوا هذا رواية عن أحمد وقد يختلف كلام الأئمة فى مسائل مثل هذه لكن الصحيح المشهور عنه رد التأويل وقد ذكر الروايتين ابن الزاغونى وغيره وذكر أن ترك التأويل هي الرواية المشهورة المعمول عليها عند عامة المشايخ من أصحابنا ورواية التأويل فسر ذلك بالعمد والقصد لم يفسره بالأمر والقدرة كما فسروا ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] فعلى هذا فى تأويل ذلك إذا قيل به وجهان وابن الزاغونى والقاضي أبويعلى ونحوهما وإن كانوا يقولون بإمرار المجيء والإتيان على ظاهره فقولهم فى ذلك من جنس قول ابن كلاب والأشعرى فإنه أيضا يمنع تأويل النزول والإتيان والمجيء ويجعله من الصفات الخبرية ويقول إن هذه الأفعال لا تستلزم الأجسام بل يوصف بها غير الأجسام وكلام ابن الزاغونى فى هذا النوع وفي إستواء الرب على العرش هو موافق لقول أبى الحسن نفسه هذا قولهم فى الصفات الخبرية الواردة فى هذه الأفعال وأما علو الرب نفسه فوق العالم فعند ابن كلاب أنه معلوم بالعقل كقول أكثر المثبتة كما ذكر ذلك الخطابى وابن عبد البر وغيرهما وهو قول ابن الزاغونى وهو آخر قولى القاضي أبى يعلى وكان القاضي أولا يقول بقول الأشعرى أنه من الصفات الخبرية وهذا قول القاضي أبى بكر والبيهقى ونحوهما وأما أبوالمعالى الجوينى وأتباعه فهؤلاء خالفوا الأشعرى وقدماء أصحابه فى الصفات الخبرية فلم يثبتوها لكن منهم من نفاها فتأول الإستواء بالإستيلاء وهذا أول قولى أبى المعالى ومنهم من توقف فى إثباتها ونفيها كالرازي والآمدى وآخر قولى أبى المعالى المنع من تأويل الصفات الخبرية وذكر أن هذا إجماع السلف وأن التأويل لو كان مسوغا أو محتوما لكان إهتمامهم به أعظم من إهتمامهم بغيره فإستدل بإجماعهم

على أنه لا يجوز التأويل وجعل الوقف التام على قوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] ذكر ذلك في النظامية في الأركان الإسلامية وهذه طريقة عامة المنتسبين إلى السنة يرون التأويل مخالفا لطريقة السلف وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع وذكر لفظ التأويل وما فيه من الإجمال والكلام على قوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] وأن كلا القولين حق فمن قال لا يعلم تأويله إلا الله فأراد به ما يؤول إليه الكلام من الحقائق التي لا يعلمها إلا الله ومن قال إن الراسخين في العلم يعلمون التأويل فالمراد به تفسير القرآن الذي بينه الرسول والصحابة وإنما الخلاف في لفظ التأويل على المعنى المرجوح وأنه حمل اللفظ على الإحتمال المرجوح دون الراجح لدليل يقتزن به فهذا إصطلاح متأخر وهو التأويل الذي أنكره السلف والأئمة تأويلات أهل البدع وكذلك يقول أحمد في رده على الجهمية الذين تأولوا القرآن على غير تأويله وقد تكلم أحمد على متشابه القرآن وفسره كله ومنه تفسير متفق عليه عند السلف ومنه تفسير مختلف فيه وقد ذكر الجدل أبو عبدالله في تفسيره من جنس ما ذكره البغوي لا من جنس ما ذكره ابن الجوزي فقال أما الإتيان المنسوب إلى الله فلا يختلف قول أئمة السلف كمكحول والزهري والأوزاعي وابن المبارك وسفيان الثوري والليث بن سعد ومالك بن أنس والشافعي وأحمد وأتباعهم أنه يمر كما جاء وكذلك ما شاكل ذلك مما جاء في القرآن أووردت به السنة كأحاديث النزول ونحوها وهي طريقة السلامة ومنهج أهل السنة والجماعة يؤمنون بظاهرها ويكلون علمها إلى الله ويعتقدون أن الله منزّه عن سمات الحدث على ذلك مضت الأئمة خلفا بعد سلف كما قال تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّسُوحُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧] وقال ابن السائب في قوله ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ﴾ [البقرة: ٢١٠] هذا من المكتوم الذي لا يفسر وذكر ما يشبه كلام الخطابي في هذا فإن قيل كيف يقع الإيمان بما لا يحيط من يدعى الإيمان به علما بحقيقته فالجواب كما يصح الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والنار والجنة ومعلوم أنا لا نحيط علما بكل شيء من ذلك على جهة التفصيل وإنما كلفنا الإيمان بذلك في الجملة ألا ترى أننا لا نعرف عدة من الأنبياء وكثيرا من الملائكة ولا نحيط بصفاتهم ثم لا يقدر ذلك في

إيماننا بهم وقد قال النبي ﷺ في صفة الجنة يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قلت لا ريب أنه يجب الإيمان بكل ما أخبر به الرسول وتصديقه فيما أخبر به وإن كان الشخص لم يفقه بالعربية ما قال ولا فهم من الكلام شيئاً فضلاً عن العرب فلا يشترط في الإيمان المجمل العلم بمعنى كل ما أخبر به هذا لا ريب فيه فكل من اشتبه عليه آية من القرآن ولم يعرف معناها وجب عليه الإيمان بها وأن يكل علمها إلى الله فيقول الله أعلم وهذا متفق عليه بين السلف والخلف فما زال كثير من الصحابة يمر بآية ولفظ لا يفهمه فيؤمن به وإن لم يفهم معناه لكن هل يكون في القرآن ما لا يفهمه أحد من الناس بل ولا الرسول عند من يجعل التأويل هو معنى الآية ويقول إنه لا يعلمه إلا الله فيلزم أن يكون في القرآن كلام لا يفهمه لا الرسول ولا أحد من الأمة بل ولا جبريل هذا هو الذي يلزم على قول من يجعل معاني هذه الآيات لا يفهمه أحد من الناس وليس هذا بمنزلة ما ذكر في الملائكة والنبين والجنة فإننا قد فهمنا الكلام الذي خوطبنا به وأنه يدل على أن هناك نعيماً لا نعلمه وهذا خطاب مفهوم وفيه إخبارنا أن من المخلوقات ما لا نعلمه وهذا حق كقوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] وقوله لما سأله عن الروح ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فهذا فيه إخبارنا بأن الله مخلوقات لا نعلمها أونعلم جنسهم ولا نعلم قدرهم أونعلم بعض صفاتهم دون بعضوكل هذا حق لكن ليس فيه أن الخطاب المنزل الذي أمرنا بتدبره لا يفقه ولا يفهم معناه لا الرسول ولا المؤمنون فهذا هو المنكر الذي أنكره العلماء فإن الله قال ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣] وقال ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] وقال ﴿أَفَلَمْ يَذَكِّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] وقال ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦] و فرق بين ما لم يخبر به أو أخبرنا ببعض صفاته دون بعض فما لم يخبر به لا يضرنا أن لا نعلمه وبين ما أخبرنا به وهو الكلام العربي الذي جعل هدى وشفاء للناس وقال الحسن ما أنزل الله آية إلا وهو يجب أن يعلم فيما

أنزلت وما عني بها فكيف يكون في مثل هذا الكلام ما لا يفهمه أحد قط وفرق بين أن يقال الرب هو الذي يأتي إتيانا يليق بجلاله أو يقال ما ندري هل هو الذي يأتي أو أمره فكثير من لا يجزم بأحدهما بل يقول إسكت فإلस्कوت أسلم ولا ريب أنه من لم يعلم فإلस्कوت له أسلم كما قال النبي ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت لكن هو يقول إن الرسول وجميع الأمة كانوا كذلك لا يدرون هل المراد به هذا أو هذا ولا الرسول كان يعرف ذلك فقائل هذا مبطل متكلم بما لا علم له به وكان يسعه أن يسكت عن هذا لا يجزم بأن الرسول والأئمة كلهم جهال يجب عليهم السكوت كما يجب عليه ثم إن هذا خلاف الواقع فأحاديث النبي ﷺ وكلام السلف في معنى هذه الآية ونظائرها كثير مشهور لكن قال علي رضي الله عنه حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذب الله ورسوله وقال ابن مسعود ما من رجل يحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم وإذا قال بل كان منا لسلف من يجزم بأن المراد هو إتيانه نفسه فهذا جزم بأنهم عرفوا معناها وبطلان القول الآخر لم يكونوا ساكتين حيارى ولا ريب أن مقدوره ومأموره مما يأتي أيضا ولكن هو يأتي كما أخبر عن نفسه إتيانا يليق بجلاله فإذا قيل لا نعلم كيفية الإستواء كان هذا صحيحا وإذا كان الخطاب والكلام مما لا يفهم أحد معناه لا الرسول ولا جبريل ولا المؤمنون لم يكن مما يتدبر ويعقل بل مثل هذا عبث والله منزّه عن العبث ثم هذا يلزمهم في الأحاديث مثل قوله ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء أفكان الرسول يقول هذا الحديث ونحوه وهو لا يفقه ما يقول ولا يفهم له معنى سبحانه الله هذا بهتان عظيم وقدح في الرسول وتسليط للملحدين إذا قيل إن نفس الكلام الذي جاء به قد كان لا يفهم معناه قالوا فغيره من العلوم العقلية أولى أن لا يفهم معناه والكلام إنما هو في صفات الرب فإذا قيل إن ما أنزل عليه من صفات الرب لم يكن هو ولا غيره يفهمه وهو كلام أمي عربي ينزل عليه قيل فالمعاني المعقولة في الأمور الإلهية أولى أن لا يكون يفهمها وحينئذ فهذا الباب لم يكن موجودا في رسالته ولا يؤخذ من جهته لا من جهة السمع ولا من جهة العقل قالت الملاحدة فيؤخذ من طريق غيره فإذا قال لهم هؤلاء هذا غير ممكن لأحد منعوا ذلك وقالوا إنما في القرآن أن ذلك الخطاب لا يعلم معناه إلا الله لكن من أين لكم أن الأمور الإلهية لا تعلم بالأدلة العقلية التي يقصر

عنها البيان بمجرد الخطاب والخبر والملاحدة يقولون إن الرسل خاطبت بالتخييل وأهل الكلام يقولون بالتأويل وهؤلاء الظاهرية يقولون بالتجهيل وقد بسط الكلام على خطأ الطوائف الثلاث وبين أن الرسول قد أتى بغاية العلم والبيان الذي لا يمكن أحدا من البشر أن يأتي بأكمل مما جاء به ﷺ تسليما فأكمل ما جاء به القرآن والناس متفاوتون في فهم القرآن تفاوتاً عظيماً وقول ابن السائب إن هذا من المكتوم الذي لا يفسر يقتضي أن له تفسيراً يعلمه العلماء ويكتمونه وهذا على وجهين إما أن يريد أنه يكتم شيء مما بينه الرسول ﷺ عن جميع الناس فهذا من الكتمان المجرد الذي ذم الله عليه وهذه حال أهل الكتاب وعاب الذين يكتمون ما بينه للناس من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب وقال ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠] وهذه حال أهل الكتاب في كتمان ما في كتابهم من الألفاظ يتأولها بعضهم ويجعلها بعضهم متشابهة وهي دلائل على نبوة محمد ﷺ وغير ذلك فإن ألفاظ التوراة والإنجيل وسائر كتب الأنبياء وهي بضع وعشرون كتاباً عند أهل الكتاب لا يمكنهم جحد ألفاظها لكن يحرفونها بالتأويل الباطل ويكتمون معانيها الصحيحة عن عامتهم كما قال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ أَتَمُونَ لَا يَعْلَمُونَ أَلْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨] فمن جعل أهل القرآن كذلك وأمرهم أن يكونوا فيه أميين لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة فقد أمرهم بنظر ما ذم الله عليه أهل الكتاب وصبيغ بن عسل التميمي إنما ضربه عمر لأنه قصد باتباع المتشابهة إبتغاء الفتنة وإبتغاء تأويله وهؤلاء الذين عابهم الله في كتابه لأنهم جمعوا شيئين سوء القصد والجهل فهم لا يفهمون معناه ويريدون أن يضربوا كتاب الله بعضه ببعض ليقعوا بذلك الشبهة والشك وفي الصحيح عن عائشة أن النبي ﷺ قال إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين ساء بهم الله فأحذروهم فهذا فعل من يعارض النصوص بعضها ببعض ليقع الفتنة وهي الشك والريب في القلوب كما روى أنه خرج على القوم وهم يتجادلون في القدر هؤلاء يقولون ألم يقل الله كذا وهؤلاء يقولون ألم يقل الله كذا فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان ثم قال أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض أنظروا ما أمرتم به فافعلوه فكل من إتبع المتشابهة على هذا الوجه فهو مذموم وهو حال

من يريد أن يشكك الناس فيما علموه لكونه وإياهم لم يفهموا ما توهّموا أنه يعارضه هذا أصل الفتنة أن يترك المعلوم لغير معلوم كالسفسطة التي تورث شبهة يقدر بها فيما علم وتيقن فهذه حال من يفسد قلوب الناس وعقولهم بإفساد ما فيها من العلم والعمل أصل الهدى فإذا شككهم فيما علموه بقوا حيارى والرسول ﷺ قد أتى بالآيات البينات الدالة على صدقه والقرآن فيه الآيات المحكمات اللاتي هي أم الكتاب قد علم معناها وعلم أنها حق وبذلك يهتدي الخلق ويتفجعون فمن اتبع المتشابهة ابتغى الفتنة وابتغى تأويله والأول قصدهم فيه فاسد والثاني ليسوا من أهله بل يتكلمون في تأويله بما يفسد معناه إذ كانوا ليسوا من الراسخين في العلم وإنما الراسخ في العلم الذي رسخ في العلم بمعنى المحكم وصار ثابتاً فيه لا يشك ولا يرتاب فيه بما يعارضه من المتشابهة بل هو مؤمن به قد يعلمون تأويل المتشابهة وأما من لم يرسخ في ذلك بل إذا عارضه المتشابهة شك فيه فهذا يجوز أن يراد بالمتشابهة ما يناقض المحكم فلا يعلم معنى المتشابهة إذ لم يرسخ في العلم بالمحكم وهو يبتغي الفتنة في هذا وهذا فهذا يعاقب عقوبة تردعه كما فعل عمر بصبيغ وأما من قصده الهدى والحق فليس من هؤلاء وقد كان عمر يسأل ويسأل عن معاني الآيات الدقيقة وقد سأل أصحابه عن قوله ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] فذكروا ظاهر لفظها ولما فسرهما ابن عباس بأنها إعلام النبي ﷺ بقرب وفاته قال ما أعلم منها إلا ما تعلم وهذا باطن الآية الموافق لظاهرها فإنه لما أمر بالإستغفار عند ظهور الدين والإستغفار يؤمر به عند ختام الأعمال وبظهور الدين حصل مقصود الرسالة علموا أنه إعلام بقرب الأجل مع أمور آخر وفوق كل ذي علم عليم والإستدلال على الشيء بملزوماته والشيء قد يكون له لازم وللأزمة لازم وهلم جرا فمن الناس من يكون أفطن بمعرفة اللوازم من غيره يستدل بالملزوم على اللازم ومن الناس من لا يتصور اللازم ولو تصوره لم يعرف الملزوم بل يقول يجوز أن يلزم ويجوز أن لا يلزم ويحتمل ويحتمل وتردد الإحتتمال هو من عدم العلم وإلا فالواقع هو أحد أمرين فحيث كان إحتتمال بلا ترجيح كان لعدم العلم بالواقع وخفاء دليله وغيره قد يعلم ذلك ويعلم دليله ومن ظن أن ما لا يعلمه هو لا يعلمه غيره كان من جهله فلا ينفي عن الناس إلا ما علم إنتفاؤه عنهم وفوق كل ذي علم عليم أعلم منه حتى ينتهي الأمر إلى الله تعالى وهذا

قد بسط في مواضعهم أنهم يقولون المأثور عن السلف هو السكوت عن الخوض في تأويل ذلك والمصير إلى الإيمان بظاهره والوقوف عن تفسيره لأننا قد نهينا أن نقول في كتاب الله برأينا ولم ينهنا الله ورسوله على حقيقة معنى ذلك فيقال أما كون الرجل يسكت عما لا يعلم فهذا مما يؤمر به كل أحد لكن هذا الكلام يقتضى أنهم لم يعلموا معنى الآية وتفسيرها وتأويلها وإذا كان لم يتبين لهم فمضمونه عدم علمهم بذلك وهو كلام شاك لا يعلم ما أريد بالآية ثم إذا ذكر لهم بعض التأويلات كتأويل من يفسره بإتيان أمره وقدرته أبطلوا ذلك بأن هذا يسقط فائدة التخصيص وهذا نفي للتأويل وإبطال له فإذا قالوا مع ذلك ولا يعلم تأويله إلا الله أثبتوا تأويلا لا يعلمه إلا الله وهم ينفون جنس التأويل ونقول ما الحامل على هذا التأويل البعيد وقد أمكن بدونه أن نثبت إتيانا ومجيئا لا يعقل كما يليق به كما أثبتنا ذاتا لها حقيقة لا تعقل وصفات من سمع وبصر وغير ذلك لا تعقل ولأنه إذا جاز تأويل هذا وأن نقدر مضمرا محذوفا من قدرة أوعذاب ونحو ذلك فما منعكم من تأويل قوله ترون ربكم كذلك وهذا كلام في إبطال التأويل وحمل للفظ على ما دل عليه ظاهره على ما يليق بجلال الله فإذا قيل مع هذا إن له تأويلا لا يعلمه إلا الله وأريد بالتأويل هذا الجنس كان تناقضا كيف ينفي جنس التأويل ويثبت له تأويل لا يعلمه إلا الله فعلم أن التأويل الذي لا يعلمه إلا الله لا يناقض حمله على ما دل عليه اللفظ بل هو أمر آخر يحقق هذا ويوافقه لا يناقضه ويخالفه كما قال مالك الإستواء معلوم والكيف مجهول وإذا كان كذلك أمكن أن من العلماء من يعلم من معنى الآية ما يوافق القرآن لم يعلمه غيره ويكون ذلك من تفسيرها وهو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم كمن يعلم أن المراد بالآية مجيء الله قطعاً لا شك في ذلك لكثرة ما دل عنده على ذلك ويعلم مع ذلك أنه العلى الأعلى يأتي إتيانا تكون المخلوقات محيطة به وهو تحتها فإن هذا مناقض لكونه العلى الأعلى والجد الأعلى أبو عبد الله رحمه الله قد جرى في تفسيره على ما ذكر من الطريقة وهذه عاداته وعادات غيره^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ٣٩٣-٤٢٠.

قال النبي ﷺ كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض

قال تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢ - ٣] والتسوية جعل الشئين سواء كما قال ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٩] وقوله تعالى ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ﴾ [آل عمران: ٦٤] وسواء وسط لأنه معتدل بين الجوانب وذلك أنه لا بد في الخلق والأمر من العدل فلا بد من التسوية بين المتماثلين فإذا فضل أحدهما فسد المصنوع كما في مصنوعات العباد إذا بنوا بنيانا فلا بد من التسوية بين الحيطان إذ لو رفع حائط على حائط رفعا كثيرا فسد ولا بد من التسوية بين جذوع السقف فلو كان بعض الجذوع قصيرا عن الغاية وبعضها فوق الغاية فسد وكذلك إذا بنى صف فوق صف لا بد من التسوية بين الصفوف وكذلك الدرج المبنية وكذلك إذا صنع لسقى الماء جداول ومساكب فلا بد من العدل والتسوية فيها وكذلك إذا صنعت ملابس للآدميين فلا بد من أن تكون مقدرة على أبدانهم لا تزيد ولا تنقص وكذلك ما يصنع من الطعام لا بد أن تكون أخلاطه على وجه الاعتدال والنار التي تطبخه كذلك وكذلك السفن المصنوعة ولهذا قال الله لداود ﴿وَقَدَّرْ فِي السَّرِّ﴾ [سبا: ١١] أي لا تدق المسمار فيقلق ولا تغلظه فيفصم وإجعله بقدر فإذا كان هذا في مصنوعات العباد وهي جزء من مصنوعات الرب فكيف بمخلوقاته العظيمة التي لا صنع فيها للعباد كخلق الإنسان وسائر البهائم وخلق النبات وخلق السموات والأرض والملائكة فالفلك الذي خلقه وجعله مستديرا ما له من فروج كما قال تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [٢] ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣ - ٤] وقال تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾ [الذاريات: ٧] وقال ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّيْنَاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] فهو سبحانه سواها كما سوى الشمس والقمر وغير ذلك من المخلوقات فعدل بين أجزائها ولو كان أحد جانبي السماء داخلا أو خارجا لكان فيها فروج وهي الفتوق والشقوق ولم يكن سواها كمن بنى قبة ولم يسوها وكذلك لوجعل

أحد جانبيها أطول أو أنقص ونحو ذلك فالعدل والتسوية لازم لجميع المخلوقات والمصنوعات فمتى لم تصنع بالعدل والتسوية بين المتماثلين وقع فيها الفساد وهو سبحانه **﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾** [الأعلى: ٢] قال أبو العالية في قوله **﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾** [الأعلى: ٢] قال سوى خلقهن وهذا كما قال تعالى **﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾** [البقرة: ٢٩] ثم إذا خلق المخلوق فسوى فإن لم يهده إلى تمام الحكمة التي خلق لها فسد فلا بد أن يهدي بعد ذلك إلى ما خلق له الغاية لابد أن تكون معلومة للخالق فإن العلة الغائية هي أول في العلم والإرادة وهي آخر في الوجود والحصول ولهذا كان الخالق لابد أن يعلم ما خلق فإنه قد أراده وأراد الغاية التي خلقه لها والإرادة مستلزمة للعلم فيمتنع أن يريد الحي ما لا شعور له به والصانع إذا أراد أن يصنع شيئاً فقد علمه وأراده وقدر في نفسه ما يصنعه والغاية التي ينتهي إليها وما الذي يوصله إلى تلك الغاية والله سبحانه قدر وكتب مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم كما ثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء وفي البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض وفي رواية ثم خلق السموات والأرض فقد قدر سبحانه ما يريد أن يخلقه من هذا العالم حين كان عرشه على الماء إلى يوم القيامة كما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال أول ما خلق الله القلم فقال أكتب فقال ما أكتب فقال أكتب ما يكون إلى يوم القيامة وأحاديث تقديره سبحانه وكتابته لما يريد أن يخلقه كثيرة جداً^(١).

فهذه المعاني وما أشبهها من معاني ربوبيته وملكه وخلقته ورزقه وهدايته ونصره واحسانه وبره وتدبيره وصنعه ثم ما يتصل بذلك من أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه سميع بصير لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلظه المسائل ولا يتبرم بالحاح الملحين يبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء فهذا كله حق وهو محض توحيد الربوبية وهو مع هذا قد أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وأحسن كل

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٣٤-١٣٦.

شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين^(١).

لطائف لغوية

قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ فَمَا فَوْقَهَا﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿البقرة: ٢٦﴾ عامة الأسماء يتنوع مسمائها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿الفاتحة: ٦﴾ والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله ﴿هُدًى لِلنَّاصِينَ﴾ ﴿البقرة: ٢﴾ والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا﴾ ﴿الأعراف: ٤٣﴾ وانما هداهم بأن أهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله ﴿وَأَجْنِبْنَاهُمْ وَهْدِيَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿الأنعام: ٨٧﴾ وكما فى قوله ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْتَبَنَاهُ وَهْدَنَاهُ﴾ ﴿النحل: ١٢١﴾ ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ ﴿الشورى: ١٣﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ ﴿التوبة: ٣٣﴾ والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله ﴿إِنَّهُمْ أَفْوَءٌ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ ﴿١٦﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿[الصافات: ٦٩ - ٧١] وقوله ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ ﴿١٧﴾ رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعَفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ ﴿الأحزاب: ٦٧ - ٦٨﴾ وقوله ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ﴿طه: ١٢٣﴾ ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله ﴿مَا ضَلَّ

(۱) مجموع الفتاوى ج: ۲ ص: ۳۹۹.

صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴿١﴾ [النجم: ٢] وفى قوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] وقوله ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧] ^(١).

قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧] لفظ الأمر يراد به المصدر والمفعول فالمفعول مخلق كما قال ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١] وقال ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] فهنا المراد به المأمور به ليس المراد به أمره الذي هو كلامه وهذه الآية التى إحتج بها هؤلاء تضمنت الشرع وهو الأمر والقدر وقد ضل في هذا الموضع فريقان الجهمية الذين يقولون كلام الله مخلق ويحتجون بقوله ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] ويقولون ما كان مقدورا فهو مخلق وهؤلاء الحلولية الضالون الذين يجعلون فعل العباد قديما بأنه أمر الله وقدره وأمره وقدره غير مخلق ومثار الشبهة أن إسم القدر والأمر والشرع يراد به المصدر ويراد به المفعول ففي قوله ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] المراد به المأمور به المقدور وهذا مخلق وأما فى قوله ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا﴾ [الطلاق: ٥] فأمره كلامه إذا لم ينزل إلينا الأفعال التى أمرنا بها وإنما أنزل القرآن وهذا كقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] فهذا الأمر هو كلامه ^(٢).

اللام فى قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] وقوله عليه الصلاة والسلام أنت ومالك لأبيك وأمثال ذلك مما جاءت به اللام للاباحة ^(٣).
ذكر أن استواءه إلى السماء كان بعد أن خلق الأرض وخلق ما فيها تضمن معنى

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤١٣.

(٣) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ١٠٢.

الصعود لأن السماء فوق الارض فالاستواء اليها ارتفاع اليها^(١).

فإن لفظ كل شيء يعم في كل موضع بحسب ما سيقى له كما فى قوله ﴿يَكُلُّ شَيْءٌ عَالِمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] وقوله ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمر: ٦٢] و﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] و﴿فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْحَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]^(٢).

المضاف إلى الله سبحانه فى الكتاب والسنة كانت اضافة اسم إلى اسم أو نسبة فعل إلى اسم أو خبر باسم عن اسم واما الخبر الذى هو جملة اسمية فمثل قوله ﴿يَكُلُّ شَيْءٌ عَالِمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وذلك لان الكلام الذى توصف به الذوات اما جملة أو مفرد فالجملة اما اسمية كقوله ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] أو فعلية كقوله ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾ [المزمل: ٢٠] اما المفرد فلا بد فيه من اضافة الصفة لفظا أو معنى كقوله ﴿بَشَى مَنْ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] أو اضافة الموصوف كقوله ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ [الذاريات: ٥٨]^(٣).

﴿يَكُلُّ شَيْءٌ عَالِمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] عليم منزله عن الجهل^(٤).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٢٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٢٣٢.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ١٤٤.

(٤) الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي
الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ
الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى
الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّخِذُ أُنثِيَّتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا
يَتَّخِذُ آسَافُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا
تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا
فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ
عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا
يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٩]

المراد بخليفة

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَافَةَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خُلَافَةَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] وقال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقال ﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ يَٰلَاحِقَ﴾ [ص: ٢٦] أي خليفة عمن قبلك من الخلق ليس المراد أنه خليفة عن الله وأنه من الله كإنسان العين من العين كما يقول ذلك بعض الملحدين القائلين بالحلول والاتحاد كصاحب الفتوحات المكية وأنه الجامع لأسماء الله الحسنی وفسروا بذلك قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وأنه مثل الله الذي نفى عنه الشبه بقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] إلى أمثال هذه المقالات التي فيها من تحريف المنقول وفساد المعقول ما ليس هذا موضع بسطه والمقصود هنا أن الله لا يخلفه غيره فإن الخلافة إنما تكون عن غائب وهو سبحانه شهيد مدبر لخلقه لا يحتاج في تدبيرهم إلى غيره وهو سبحانه خالق الأسباب والمسببات جميعا بل هو سبحانه يخلف عبده المؤمن إذا غاب عن أهله ويروى أنه قيل لأبي بكر يا خليفة الله فقال بل أنا خليفة رسول الله وحسي ذاك^(١).

الخليفة هو الذي خلف غيره وإن كان لم يستخلفه ذلك الغير كما يقوله الجمهور لم يحتاج في هذا الاسم إلى الإستخلاف والاستعمال الموجود في الكتاب والسنة يدل على أن هذا الاسم يتناول كل من خلف غيره سواء استخلفه أو لم يستخلفه كقوله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خُلَافَةَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] وقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَافَةَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] وقوله ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] وفي القصة الأخرى ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤] وقال موسى

(١) منهاج السنة النبوية ج: ١ ص: ٥٠٩.

لَاخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفَنِي فِي قَوْمِي ﴿[الأعراف: ١٤٢]﴾ فهذا استخلاف وقال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] وقال ﴿إِنَّ فِي أَخْلَافِ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [يونس: ٦] أي هذا يخلف هذا وهذا يخلف هذا فهما يتعاقبان وقال موسى
﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾
[الأعراف: ١٢٩] وقال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]^(١).

قال للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقال ﴿يٰٓدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ
خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] فغالب هذه المواضع ليكون الثاني خليفة عن الأول وإن كان
الأول لم يستخلفه وسمي الخليفة خليفة لأنه يخلف من قبله والله تعالى جعله يخلفه كما
جعل الليل يخلف النهار والنهار يخلف الليل ليس المراد أنه خليفة عن الله كما ظنه بعض
الناس كما قد بسطناه في موضع آخر والناس يسمون ولاية أمور المسلمين الخلفاء وقال
النبي ﷺ عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي.

في الخلافة والسلطان وكيفية كونه ظل الله في الأرض

قوله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وفيها دليل على تفضيل الخليفة
من وجهين أولهما أن الخليفة يفضل على من هو خليفة عليه وقد كان في الأرض ملائكة
وهذا غايته أن يفضل على من في الأرض من الملائكة وثانيهما أن الملائكة طلبت من الله
تعالى أن يكون^(٢).

قال الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]
وقال الله تعالى ﴿يٰٓدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وقوله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يعم آدم وبنوه

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٥٢٥.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٣٦٧.

لكن الاسم متناول لآدم عينا كقوله ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وقوله ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤ - ١٥] وقوله ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [٧] ﴿ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧ - ٨] ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣] إلى أمثال ذلك ولهذا كان بين داود وآدم من المناسبة ما أحب به داود حين أراه ذريته وسأل عن عمره فقبل أربعون سنة فوهبه من عمره الذي هو ألف سنة ستين سنة والحديث صحيح رواه الترمذي وغيره وصححه ولهذا كلاهما ابتلى بما ابتلاه به من الخطيئة كما أن كلا منهما مناسبة للأخرى إذ جنس الشهوتين واحد ورفع درجته بالتوبة العظيمة التي نال بها من محبة الله له وفرحه به ما نال ويذكر عن كل منهما من البكاء والندم والحزن ما يناسب بعضه بعضا والخليفة هو من كان خلفا عن غيره فعيلة بمعنى فاعلة كان النبي ﷺ إذا سافر يقول اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل وقال ﷺ من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا وقال أوكلما خرجنا في الغزو خلف أحدهم وله نيب كنيب التيس يمنح احداهن اللبنة من اللبن لئن أظفرني الله بأحد منهم لأجعلنه نكالا وفي القرآن ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ [الفتح: ١١] قوله ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١] والمراد بالخليفة أنه خلف من كان قبله من الخلق والخلف فيه مناسبة كما كان أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ لأنه خلفه على أمته بعد موته وكما كان النبي ﷺ إذا سافر لحج أو عمرة أو غزوة يستخلف على المدينة من يكون خليفة له مدة معينة فيستخلف تارة ابن أم مكتوم وتارة غيره واستخلف على بن أبي طالب في غزوة تبوك وتسمى الأمكنة التي يستخلف فيها الامام مخاليف مثل مخاليف اليمن ومخاليف أرض الحجاز ومنه الحديث حيث خرج من مخلاف إلى مخلاف ومنه قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلَائِفَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلَائِفَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣] إلى قوله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٤] ومنه قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥] الآية وقد ظن بعض القائلين الغالطين كابن عربى أن الخليفة هو الخليفة عن الله مثل نائب الله وزعموا أن هذا بمعنى أن يكون الانسان مستخلفا وربما فسروا تعليم آدم الأسماء كلها التى جمع معانيها الانسان ويفسرون خلق آدم على صورته بهذا المعنى أيضا وقد أخذوا من الفلاسفة قولهم الانسان هو العالم الصغير وهذا قريب وضموا إليه أن الله هو العالم الكبير بناء على أصلهم الكفرى فى وحدة الوجود وأن الله هو عين وجود المخلوقات فالانسان من بين المظاهر هو الخليفة الجامع للأسماء والصفات ويتفرع على هذا ما يصيرون إليه من دعوى الربوبية والألوهية المخرجة لهم إلى الفرعونية والقرمطية والباطنية وربما جعلوا الرسالة مرتبة من المراتب وأنهم أعظم منها فيقرون بالربوبية الوجدانية والألوهية وبالرسالة ويصيررن فى الفرعونية هذا إيمانهم أو يخرجون فى أعمالهم أن يصيروا سدى لا أمر عليهم ولا نهى ولا إيجاب ولا تحريم والله لا يجوز له خليفة ولهذا لما قالوا لأبى بكر يا خليفة الله قال لست بخليفة الله لكنى خليفة رسول الله ﷺ حسبي ذلك بل هو سبحانه يكون خليفة لغيره قال النبى ﷺ اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل اللهم اصحبنا فى سفرنا واخلفنا فى أهلنا وذلك لأن الله حى شهيد مهيمن قيوم رقيب حفيظ غنى عن العالمين ليس له شريك ولا ظهير ولا يشفع أحد عنده الا بإذنه والخليفة أنما يكون عند عدم المستخلف بموت أو غيبة ويكون الحاجة المستخلف إلى الاستخلاف وسمى خليفة لأنه خلف عن الغزو وهو قائم خلفه وكل هذه المعانى منتفية فى حق الله تعالى وهو منزّه عنها فإنه حى قيوم شهيد لا يموت ولا يغيب وهو غنى يرزق ولا يرزق يرزق عباده وينصرهم ويهديهم ويعافيهم بما خلقه من الأسباب التى هي من خلقه والتى هي مفتقرة إليه كافتقار المسببات إلى أسبابها فالله هو الغنى الحميد له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضُ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿[الرحمن: ٢٩]﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ﴿[الزُحْرُف: ٨٤]﴾ ولا يجوز أن يكون أحد خلفا منه ولا يقوم مقامه لأنه لا سمي له ولا كفاء له فمن جعل له خليفة فهو مشرك به وأما الحديث النبوي السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل ضعيف وملهوف وهذا صحيح فإن الظل مفتقر إلى أو وهو رفيق له مطابق له نوعا من المطابقة والأوى إلى الظل المكتنف بالمظل صاحب الظل فالسلطان عبد الله مخلوق مفتقر إليه لا يستغنى عنه طرفة عين وفيه من القدرة والسلطان والحفظ والنصرة وغير ذلك من معانى السؤدد والصمودى التى بها قوام الخلق ما يشبه أن يكون ظل الله فى الأرض وهو أقوى الأسباب التى بها يصلح أمور خلقه وعباده فإذا صلح ذو السلطان صلحت أمور الناس وإذا فسد فسدت بحسب فسادة ولا تفسد من كل وجه بل لا بد من مصالح وإذ هو ظل الله لكن الظل تارة يكون كاملا مانعا من جميع الأذى وتارة لا يمنع الا بعض الأذى وأما إذا عدم الظل فسد الأمر كعدم سر الربوبية التى بها قيام الأمة الانسانية والله تعالى أعلم^(١).

فأصل الصلاح التوحيد والإيمان وأصل الفساد الشرك والكفر

قال تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] وكان شداد بن أوس يقول يا بقايا العرب يا بقايا العرب إنما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية قال أبوداود السجستاني صاحب السنن المشهورة الخفية حب الرياسة وذلك أن حب الرياسة هو أصل البغي والظلم كما أن الرياء هو من جنس الشرك أو مبدأ الشرك والشرك أعظم الفساد كما أن التوحيد أعظم الصلاح ولهذا قال تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [التقصص: ٤] إلى أن ختم السورة بقوله ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْأَخْرَجُ نَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [التقصص: ٨٣] وقال ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ٤٢-٤٦ والفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٥٥٢-٥٥٤ ومنهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٣٥٣.

فِي الْكِتَابِ لُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ [الإسراء: ٤] وَقَالَ ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾ [المائدة: ٣٢] وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿٣٠﴾ [البقرة: ٣٠] فَأَصْلُ الصَّلَاحِ التَّوْحِيدُ وَالْإِيمَانُ وَأَصْلُ الْفَسَادِ الشُّرْكُ وَالْكَفَرُ كَمَا قَالَ عَنْ الْمُنَافِقِيِّ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١ - ١٢] وَذَلِكَ أَنَّ صَلَاحَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ يَكُونَ بِحَيْثُ يَحْصُلُ لَهُ وَبِهِ الْمَقْصُودُ الَّذِي يَرَادُ مِنْهُ ^(١).

مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ لِيَكُونَ النَّاسُ عَلَى غَايَةِ مَا يُمْكِنُ مِنَ الصَّلَاحِ لَا لِرَفْعِ الْفَسَادِ بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنَّ هَذَا مَمْتَنَعٌ فِي الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِذْ لَا بَدَّ فِيهَا مِنْ فُسَادٍ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴿٣٠﴾ [البقرة: ٣٠] وَلِهَذَا لَمْ تَكُنْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا وَفِيهَا شَرٌّ وَفُسَادٌ وَأُمُثِلِ الْأُمَمَ قَبْلَنَا بَنُو إِسْرَائِيلَ وَكَانَ فِيهِمْ مِنَ الْفَسَادِ وَالشَّرِّ مَا قَدْ عَلِمَ بَعْضُهُ وَأَمْتَنَا خَيْرُ أُمَّةٍ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ وَخَيْرُهَا الْقُرُونُ الثَّلَاثَةُ وَأَفْضَلُهُمُ الصَّحَابَةُ وَفِي أَمْتَنَا شَرٌّ كَثِيرٌ لَكِنَّهُ أَقَلٌّ مِنْ شَرِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَشَرِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَقَلٌّ مِنْ شَرِّ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَمْ يَتَّبِعُوا نَبِيًّا كُفْرَعُونَ وَقَوْمُهُ وَكُلُّ خَيْرٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي أَمْتَنَا خَيْرٌ مِنْهُ وَكَذَلِكَ أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَآخِرُهَا فَكُلُّ خَيْرٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْمُتَقَدِّمِينَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَكُلُّ شَرٍّ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي الْمُتَأَخِّرِينَ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿فَاقْنُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ^(٢).

فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشُّرْكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ وَرَوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الرِّيَاءِ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

(١) الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤١٧.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ١٤٩ - ١٥٠.

[الكهف: ١١٠] وكان شداد بن أوس يقول يا بقايا العرب يا بقايا العرب إنما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية قال أبوداود السجستاني صاحب السنن المشهورة الخفية حب الرياسة وذلك أن حب الرياسة هو أصل البغى والظلم ما أن الرياء هو من جنس الشرك أو مبدأ الشرك والشرك أعظم الفساد كما أن التوحيد أعظم الصلاح ولهذا قال تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَنشَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] إلى أن ختم السورة بقوله ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] وقال ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] وقالت الملائكة ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فاصل الصلاح التوحيد والإيمان وأصل الفساد الشرك والكفر كما قال عن المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٢] وذلك أن صلاح كل شيء أن يكون بحيث يحصل له وبه المقصود الذي يراد منه ولهذا يقول الفقهاء العقد الصحيح ما ترتب عليه أثره وحصل به مقصوده والفساد ما لم يترتب عليه أثره ولم يحصل به مقصود والصحيح المقابل للفاسد اصطلاحهم هو الصالح وكان يكثر في كلام السلف هذا لا يصلح أو يصلح كما كثر في كلام المتأخرين يصلح ولا يصلح والله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته وبدنه تبع لقلبه كما قال النبي في الحديث الصحيح ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد ألا وهي القلب وصلاح القلب في أن يحصل له وبه المقصود الذي خلق له من معرفة الله ومحبه وتعظيمه وفساده في ضد ذلك فلا صلاح للقلوب بدون ذلك قط والقلب له قوتان العلم والقصد كما أن للبدن الحس والحركة الإرادية فكما أنه متى خرجت قوى الحس والحركة عن الحال الفطرى الطبيعى فسدت فإذا خرج القلب عن الحال الفطرية التى يولد عليها كل مولود وهى أن يكون مقرا لربه مريدا له فيكون هو

منتهى قصده وإرادته وذلك هي العبادة إذ العبادة كمال الحب بكمال الذل فمتى لم تكن حركة القلب ووجهه وإرادته لله تعالى كان فاسدا إما بأن يكون معرضا عن الله وعن ذكره غافلا عن ذلك مع تكذيب أوبدون تكذيب أوبان يكون له ذكر وشعور ولكن قصده وإرادته غيره لكون الذكر ضعيفا لم يجتذب القلب إلى إرادة الله ومحبه وعبادته وإلا فمتى قوى علم القلب وذكره أوجب قصده وعلمه قال تعالى ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [٢٩ - ٣٠] فأمّر نبيه بأن يعرض عمن كان معرضا عن ذكر الله ولم يكن له مراد إلا ما يكون في الدنيا وهذه حال من فسد قلبه ولم يذكر ربه ولم ينب إليه فيريد وجهه ويخلص له الدين ثم قال ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ [الأنجم: ٣٠] فأخبر أنهم لم يحصل لهم علم فوق ما يكون في الدنيا فهي أكبر همهم ومبلغ علمهم وأما المؤمن فأكبر همه هو الله وإليه إنتهى علمه وذكره وهذا الآن باب لواسع عظيم قد تكلمنا عليه في مواضعه وإذا كان التوحيد أصل صلاح الناس والإشراك أصل فسادهم والقسط مقرون بالتوحيد إذ التوحيد أصل العدل وإرادة العلو مقرونة بالفساد إذ هو أصل الظلم فهذا مع هذا وهذا مع هذا كالملز وزين في قرن فالتوحيد وما يتبعه من الحسنات هو صلاح وعدل ولهذا كان الرجل الصالح هو القائم بالواجبات وهو البر وهو العدل والذنوب التي فيها تفريط أو عدوان في حقوق الله تعالى وحقوق عباده هي فساد وظلم ولهذا سمى قطاع الطريق مفسدين وكانت عقوبتهم حقا لله تعالى لإجتماع الوصفين والذي يريد العلو على غيره من أبناء جنسه هو ظالم له باغ إذ ليس كونك عاليا عليه بأولى من كونه عاليا عليك وكلاهما من جنس واحد فالقسط والعدل أن يكونوا أخوة كما وصف الله المؤمنين بذلك^(١).

عن النبي ﷺ أنه قال ذروني ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم
أن الخلاف ما زال بين بني آدم من زمن نوح واختلاف الناس قبل المسلمين أعظم

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ١٦٣-١٦٥.

بكثير من اختلاف المسلمين وقد قال تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم اختلفوا بعد ذلك وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩] وقال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ خُلَافِينَ﴾ (١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿[هود: ١١٨ - ١١٩] وقالت الملائكة لما قال تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سُبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] وقد أخبر الله تعالى أن ابني آدم قتل أحدهما أخاه وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها فإنه أول من سن القتل وقال تعالى ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقد قال تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] فهذه نصوص القرآن تخبر بالاختلاف والتفرق الذي كان في الأمم قبلنا وقال ﷺ افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وقد أخبر الله من تكذيب قوم عاد وثمود وفرعون لأنبيائهم ما فيه عبرة وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم^(١).

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٣٠٩ - ٣١٠.

شرع من العقوبات فى الدنيا ما يمنع الفساد والعدوان وقتل النفس يحرم
إلا بنفس أو فساد

ان العقوبة فى الدنيا لا تدل على كبر الذنب وصغره فان الدنيا ليست دار الجزاء
وانما دار الجزاء هي الآخرة ولكن شرع من العقوبات فى الدنيا ما يمنع الفساد والعدوان
كما قال تعالى ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾
[المائدة: ٣٢] وقالت الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]
فهذان السببان اللذان ذكرتهما الملائكة هما اللذان كتب الله على بني اسرائيل القتل بهما
ولهذا يقر كفار أهل الذمة بالجزية مع أن ذنبهم فى ترك الايمان أعظم باتفاق المسلمين من
ذنب من نقتله من زان وقاتل^(١).

ان قتل النفس يحرم إلا بنفس أو فساد كما قال تعالى ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ
فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٢] وقالت الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ
الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]^(٢).

وهو سبحانه خلق الانسان وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة لا بد فيها
من الشر لحكمة بالغة

وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة فقد ثبت أنه رأس الشكر فهو أول الشكر
والحمد وإن كان على نعمة وعلى حكمة فالشكر بالأعمال هو على نعمته وهو عبادة له
لإلهيته التى تتضمن حكمته فقد صار مجموع الأمور داخلا فى الشكر ولهذا عظم القرآن
أمر الشكر ولم يعظم أمر الحمد مجردا إذ كان نوعا من الشكر وشرع الحمد الذى هو
الشكر مقولا أمام كل خطاب مع التوحيد ففي الفاتحة الشكر مع التوحيد والخطب
الشرعية لا بد فيها من الشكر والتوحيد والباقيات الصالحات نوعان فسبحان الله وبحمده
فيها الشكر والتنزيه والتعظيم ولا إله إلا الله والله أكبر فيها التوحيد والتكبير وقد قال

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٠١.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٥٩٦ والفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ١٩٦.

تعالى ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[غافر: ٦٥]

وهل الحمد على الأمور الاختيارية كما قيل في العزم أم عام فيه نظر ليس هذا موضعه وفي الصحيح أنه ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع يقول ربنا ولك الحمد ملء السماء وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد هذا لفظ الحديث وأحق أفعال التفضيل وقد غلط فيه طائفة فقالوا حق ما قال العبد وهذا ليس بسديد فإن العبد يقول الحق والباطل بل حق ما يقوله الرب كما قال فالحق والحق أقول ولكن أحق خبر مبتدأ محذوف أي الحمد أحق ما قال العبد ففيه أن الحمد أحق ما قاله العبد ولهذا وجب في كل صلاة وإذا قيل يخلق ما هو شر محض لم يكن هذا موجبا لمحبة العباد له وحدهم بل العكس ولهذا كثير من هؤلاء ينطقون بالذم والشتيم نظما ونثرا وكثير من شيوخهم وعلمائهم يذكر ذلك وإن لم يقله بلسانه فقلبه ممتلىء به لكن يرى أن ليس في ذكره منفعة أو يخاف من المسلمين وفي شعر طائفة من الشيوخ ذكر نحو هذا وقيمون حجج إبليس واتباعه على الله وهو خلاف ما وصف به نفسه في قوله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] و﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] فقوله أحق ما قال العبد يقتضي أن حمده أحق ما قاله العبد لأنه سبحانه لا يفعل إلا الخير وهو خلق الانسان وخلق نفسه متحركة بالطبع حركة لا بد فيها من الشر لحكمة بالغة ونعمة سابغة فإذا قيل فلم لا خلقها على غير هذا الوجه قيل كان يكون ذلك خلقا غير الإنسان وكانت الحكمة بخلقه لا تحصل وهذا سؤال الملائكة حيث قالوا ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] إلى قوله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] فعلم من الحكمة في خلق هذا ما لم يعلمه الملائكة فكيف يعلمه آحاد الناس ونفس الإنسان خلقت كما قال تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿[المعارج: ١٩ - ٢١] وقال ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] فقد خلق حلقة تستلزم وجود ما خلق منها لحكمة عظيمة ورحمة عميمة فهذا من جهة الغاية مع أن الشر لا يضاف إليه

سبحانه وأما الوجه الثاني من جهة السبب فإن هذا الشرك إنما وجد لعدم العلم والإرادة التي تصلح النفس فإنها خلقت بفطرتها تقتضى معرفة الله ومحبته وقد هديت إلى علوم وأعمال تعينها على ذلك وهذا كله من فضل الله وإحسانه لكن النفس المدنية لما حصل لها من زين لها السيئات من شياطين الإنس والجن مالت إلى ذلك وكان ذلك مركبا من عدم ما ينفع وهذا الأصل ووجود هذا العدم لا يضاف إلى الله تعالى وهؤلاء القول فيهم كالقول فيها خلقهم لحكمة فلما كان عدم ما تصلح به هو أحد السببين والشر المحض هو العدم المحض وهو ليس شيئا والله خالق كل شيء فكانت السيئات منها بإعتبار أنا مستلزمة للحركة الإرادية والعبد إذا اعترف أن الله خالق أفعاله فإن إعترفته إقرارا بخلق الله لكل شيء وبكلماته التامات وإعترافا بفقره إليه وأنه أن لم يهده فهو ضال فحضع لعزته وحكمته فهذا حال المؤمنين وإن اعترف إحتجاجا بالقدر فهذا الذنب أعظم من الأول وهذا من أتباع الشيطان^(١).

التسبيح قرين التحميد وسبحان الله وبحمده إثبات تنزيهه وتعظيمه وإلهيته

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه سئل أي الكلام أفضل قال ما اصطفى الله للملائكته سبحان الله وبحمده وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وفي القرآن ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨] وقالت الملائكة ﴿وَنَحْنُ سُبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠] وهاتان الكلمتان إحداهما مقرونة بالتحميد والأخرى بالتعظيم فإننا قد ذكرنا أن التسبيح فيه نفي السوء والنقائص المتضمن إثبات المحاسن والكمال والحمد إنما يكون على المحاسن وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والإكرام إذ ليس كل معظم محبوبا محمودا ولا كل محبوب محمودا معظما وقد تقدم أن

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢١٣-٢١٤ ومجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٣١٥.

العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد وتتضمن كمال الذل له المتضمن معنى التعظيم ففي العبادة حبه وحمده على المحاسن وفيها الذل الناشئ عن عظمته وكبريائه ففيها إجلاله وإكرامه وهو سبحانه المستحق للجلال والاكرام فهو مستحق غاية الإجلال وغاية الإكرام ومن الناس من يحسب أن الجلال هو الصفات السلبية والإكرام الصفات الثبوتية كما ذكر ذلك الرازي ونحوه والتحقيق أن كليهما صفات ثبوتية وإثبات الكمال يستلزم نفي النقائص لكن ذكر نوعي الثبوت وهو ما يستحق أن يحب وما يستحق أن يعظمك قوله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤] وقول سليمان عليه السلام ﴿إِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] وكذلك قوله ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١] فإن كثيرا من يكون له الملك والغنى لا يكون محمودا بل مذموما إذ الحمد يتضمن الإخبار عن المحمود بمحاسنه المحبوبة فيتضمن إخبار المحاسن المحبوبة محبة له وكثير ممن له نصيب من الحمد والمحبة يكون فيه عجز وضعف وذل ينافي العظمة والغنى والملك فالأول يهاب ويخاف ولا يحب وهذا يحب ويحمد ولا يهاب ولا يخاف والكمال اجتماع الوصفين كما ورد في الأثر أن المؤمن رزق حلاوة ومهابة وفي نعت النبي ﷺ كان من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه فقرن التسبيح بالتحميد وقرن التهليل بالتكبير كما في كلمات الأذان ثم أن كل واحد من النوعين يتضمن الآخر إذا افرد فإن التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم ويتضمن إثبات ما يحمد عليه وذلك يستلزم الإلهية فإن الإلهية تتضمن كونه محبوبا بل تتضمن أنه لا يستحق أن يحب كمال الحب إلا هو والحمد لله هو الإخبار عن المحمود بالصفات التي يستحق فالإلهية تتضمن كمال الحمد ولهذا كان الحمد مفتاح الخطاب وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد فهو أجذم وسبحان الله فيها إثبات عظمته كما قدمناه ولهذا قال ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] وقد قال النبي ﷺ اجعلوها في ركوعكم رواه أهل السنن وقال أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فقم أن يستجاب لكم رواه مسلم فجعل التعظيم في الركوع أخص منه بالسجود والتسبيح يتضمن التعظيم ففي قوله سبحان الله وبجمده إثبات تنزيهه وتعظيمه وإلهيته وحمده وأما قوله لا إله إلا الله والله أكبر ففي لا إله إلا الله إثبات محامده فإنها

كلها داخلة في إثبات إلهيته^(١).

ومعلوم أن الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن أربع سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وهي شطران فالتسبيح قرين التحميد ولهذا قال النبي كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحانه الله وبحمده سبحانه الله العظيم أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة وقال فيما رواه مسلم عن أبي ذر أفضل الكلام ما اصطفى الله للملائكته سبحانه الله وبحمده وفي القرآن ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠] ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣] فكان النبي يقول في ركوعه سبحانهك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن هكذا في الصحاح عن عائشة فجعل قوله سبحانهك اللهم وبحمدك تأويل ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: ٣] وقد قال تعالى ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [غافر: ٥٥] وقال ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨] والآثار في اقترانهما كثيرة^(٢).

فعبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلهيته سبحانه وتعالى

ولما كانت كل حركة وعمل في العالم فأصلها المحبة والإرادة وكل محبة وإرادة لا يكون أصلها محبة الله وإرادة وجهه فهي باطلة فاسدة كان كل عمل لا يراد به وجهه باطلا فأعمال الثقلين الجن والإنس منقسمة منهم من يعبد الله ومنهم من لا يعبد بل قد يجعل معه إله آخر وأما الملائكة فهم عابدون لله وجميع الحركات الخارجة عن مقدور بني آدم والجن والبهائم فهي من عمل الملائكة وتحريكها لما في السماء والأرض وما بينهما فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله متضمنة لمحبه وإرادته وقصده وجميع المخلوقات عابدة لخالقها إلا ما كان من مردة الثقلين وليست عبادتها إياه قبولها لتدبيره

(١) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣١٢ - ٣١٤ ومجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٢٥١ - ٢٥٣ ودقائق

التفسير ج: ٢ ص: ٣٦٥ ومجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٢٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٤ ص: ٢٣٢.

وتصريفه وخلقه فإن هذا عام لجميع المخلوقات حتى كفار بني آدم فلا يخرج أحد عن مشيئته وتدبيره وذلك بكلمات الله التي كان النبي يستعيز بها فيقول أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر وهذا من عموم ربوبيته وملكه وهذا الوجه هو الذي أدركه كثير من أهل النظر والكلام حتى فسروا ما في القرآن والحديث من عبادة الأشياء وسجودها وتسبيحها بذلك وهم غالطون في هذا التخصيص شرعا وعقلا أيضا فإن المعقول الذي لهم يعرفهم أن كل شيء وكل متحرك وأن كان له مبدأ فلا بد له من غاية ومنتهى كما يقولون لها علتان فاعلية وغائية والذي ذكروه إنما هو من جهة العلة الفاعلية وبعض المخلوقين كذلك يجعلونه من جهة العلة الغائية وهذا غلط فلا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علة فاعلية ولا غائية إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ولا يصدر شيء في الآثار إلا عن اثنين من المخلوقات كما قد بينا هذا في غير هذا الموضوع وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة إذ ليس في شيء من المخلوقات كمال مقصود حتى من الأحياء فالمخلوقات بأسرها يجتمع فيها هذان النقصان أحدهما أنه لا يصلح شيء منها أن تكون علة تامة لا فاعلية ولا غائية والثاني أن ما كان فيها علة فله علة سواء كان علة فاعلية أو غائية فالله سبحانه رب كل شيء ومليكه وهو رب العالمين لا رب لشيء من الأشياء إلا هو وهو إله كل شيء وهو في السماء إله وفي الأرض إله وهو الله في السموات وفي الأرض لو كان فيهما إلهة إلا الله لفسدتا وما من إله إلا الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا فعبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلهيته سبحانه وتعالى وهو الغاية المقصودة منها ولها وأما في الشرع فإن الله فصل بين هذا وبين هذا فقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُنِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨] فهذا السجود الذي فصل بين كثير من الناس الذي يفعلونه وكثير من الناس الذين لا يفعلونه طوعا وهم الذين حق عليهم العذاب ليس هو ما يشترك فيه جميع الناس من خلق الله وربوبيه الله تعالى إياهم وتدبيرهم وكذلك فصل بين الصنفين في

قوله تعالى ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] وكذلك في قوله ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥] وهو سبحانه ذكر في الآية الأخرى سجود المخلوقات إلا الكثير من الناس لأنه ذكر الطوع فقط كما ذكر في التي قبلها أديان الناس فقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّهُمْ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧] فتضمنت هذه الآية حال المخلوقات إلا الجن فإنهم لم يذكروا باللفظ الخاص لكنهم يندرجون في الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين فإنهم كما قالوا ﴿وَأَنَّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَارِقًا قَدَدًا﴾ [الجن: ١١] وقد ذكر طائفة من أهل العربية أنهم يدخلون في لفظ الناس أيضا وقال سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلَالَهُ عَنِ الْأَيْمَنِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [٤٨] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [٤٩] ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨ - ٥٠].

وفي الصحيحين حديث أبي ذر في سجود الشمس تحت العرش إذا غابت وقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَنَفَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١] وقال تعالى ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١] ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ١] قال تعالى ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] ^(١).

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٢٤-٢٦.

المؤقت بظرف معين لا يكون قديما أزليا وانما فيه توقيت بعض أقوال الرب
بوقت معين

أن الكلام معانيه وحروفه تنقسم إلى خبر وإنشاء والإنشاء منه الطلب والطلب
ينقسم إلى أمر ونهي وحقيقة الطلب غير حقيقة الخبر فكيف لا تكون هذه أقسام الكلام
وأنواعه بل هو موصوف بها كلها وأيضا فالله تعالى يخبر أنه لما أتى موسى الشجرة ناداه
فناداه في ذلك الوقت لم يناده في الأزل وكذلك قال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا
لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١] وقال ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ
تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقال ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]
إلى مواضع كثيرة من القرآن تبين أنه تكلم بالكلام المذكور في ذلك الوقت فكيف يكون
أزليا أبديا ما زال ولا يزال وكيف يكون لم يزل ولا يزال قائلا ﴿يَنفُخُ فِيهِمُ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾
[هود: ٤٨] ﴿يَعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]
﴿يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ١١] إلى قوله ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: ١٤] ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمِلُ﴾ (١) ﴿فَرَأَيْتَ إِلَّا
فَلِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٢] (١).

قال تعالى ﴿فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ﴾ (١) ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: ١١ - ١٤] وفي هذا دليل
على انه حينئذ نودي ولم يناد قبل ذلك ولما فيها من معنى الظرف كما في قوله ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا
قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] ومثل هذا قوله ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا
أَجَبْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [القصص: ٦٥] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾
[القصص: ٧٤] فانه وقت النداء بظرف محدود فدل على أن النداء يقع في ذلك الحين دون
غيره من الظروف وجعل الظرف للنداء لا يسمع النداء إلا فيه ومثل هذا قوله تعالى
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ٤١٨.

لِلْمَلَكَةِ أَسْجُدُوا لِآدَمَ ﴿البقرة: ٣٤﴾ وأمثال ذلك مما فيه توقيت بعض أقوال الرب بوقت معين^(١).

قالوا فالكلام القديم هو الحروف والأصوات ومنهم من قال الحروف دون الأصوات فهي قديمة أزلية بأعيانها لا نقول بوجود شيء بعد شيء وأنه ما زال يقول يا آدم يا نوح يا موسى من الأزل إلى الأبد ولا يزال يقول ذلك وقال هؤلاء باقتران الحروف بعضها ببعض في الأزل وأن الياء والسين موجودتان معا في الأزل والترتيب بينهما إنما هو ترتيب في ذاتهما أو في ظهورهما لا في وجودهما وهذا قول طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء حكاها الأشعري في المقالات عن طائفة قالته وقد وافقهم عليه طائفة من الفقهاء من أصحاب مالك وأحمد والشافعي وغيرهم فأنكر الجمهور هذا القول وقالوا هذا مخالف لصريح المعقول والمنقول فإن الله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وأن تخلص الفعل المضارع للاستقبال ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] أي واذكر إذ قال ربك للملائكة والمؤقت بظرف معين لا يكون قديما أزليا^(٢).

علم الله وقدرته وحكمته ورحمته فى غاية الكمال الذي لا يتصور زيادة عليها

والذي يجب على العبد أن يعلم أن علم الله وقدرته وحكمته ورحمته فى غاية الكمال الذي لا يتصور زيادة عليها بل كلما أمكن من الكمال الذي لا نقص فيه فهو واجب للرب تعالى وقد يعلم بعض العباد بعض حكمته وقد يخفى عليهم منها ما يخفى والناس يتفاضلون فى العلم بحكمته ورحمته وعدله وكلما ازداد العبد علما بحقائق الأمور ازداد علما بحكمة الله وعدله ورحمته وقدرته وعلم أن الله منعم عليه بالحسنات عملها وثوابها وأن ما يصيبه من عقوبات ذنوبه فبعدل الله تعالى وأن نفس صدور

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ١٣١.

(٢) الصفدية ج: ٢ ص: ٥٨.

الذنوب منه وإن كان من جملة مقدورات الرب فهو لنقص نفسه وعجزها وجهلها الذي هو من لوازمها وأن ما فى نفسه من الحسنات فهو من فعل الله وإحسانه وجوده وأن الرب مع أنه قد خلق النفس وسواها وألها فجورها وتقواها فإلهام الفجور والتقوى وقع بحكمة بالغة لو اجتمع الأولون والآخرون من عقلاء الآدميين على أن يروا حكمة أبلغ منها لم يروا حكمة أبلغ منها لكن تفصيل حكمة الرب مما يعجز كثير من الناس عن معرفتها ومنها ما يعجز عن معرفته جميع الخلق حتى الملائكة ولهذا قالت الملائكة لما قال الله تعالى لهم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّ جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوْۤا اَتَجْعَلُ فِیْهَا مَنْ یُّفْسِدُ فِیْهَا وَیَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] قال ﴿إِنِّ اَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ [البقرة: ٣٠] فتكفيهم المعرفة المجملة والإيمان العام والله سبحانه قد أمرهم أن يطلبوا منه جميع ما يحتاجون إليه من هدى ورشاد وصلاح فى المعاش والمعاد ومغفرة ورحمة وكان النبى ﷺ يقول فى الحديث الصحيح اللهم إني أسالك الهدى والتقى والعفة والغنى ويقول اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ويقول اللهم اصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التى فيها معاشي وأصلح لي آخرتى التى فيها معادي واجعل الحياة زيادة لي فى كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر وكل هذا فى الأحاديث التى فى الصحيحين صحيح مسلم أنه كان يقول إذا قام من الليل اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون إهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم وقد أمرنا الله تعالى أن نقول فى صلاتنا ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧] وهذا أفضل الأدعية وأوجبها على العباد ومن تحقيق بهذا الدعاء جعله الله من أهل الهدى والرشاد فإنه سميع الدعاء لا يخلف الميعاد والله أعلم^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٥١٤ - ٥١٥.

علم الله من لوازم نفسه

فإن الله قد أخبر عما يكون من أفعال العباد قبل أن تكون بل أعلم بذلك من شاء من ملائكته وغير ملائكته قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] فالملائكة حكموا بأن الآدميين يفسدون ويسفكون الدماء قبل أن يخلق الإنس ولا علم لهم إلا ما علمهم الله كما قالوا ﴿لَا عَلِمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] ثم قال ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] وتضمن هذا ما يكون فيما بعد من آدم وإبليس وذريتهما وما يترتب على ذلك ودلت هذه الآية على أنه يعلم أن آدم يخرج من الجنة فإنه لولا خروجه من الجنة لم يصير خليفة في الأرض فإنه أمره أن يسكن الجنة ولا يأكل من الشجرة بقوله ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقال تعالى ﴿فَقُلْنَا يَتَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [١١٧] إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ [طه: ١١٧ - ١١٩] نهاه أن يخرجها من الجنة وهى نهى عن طاعة إبليس التى هي سبب الخروج وقد علم قبل ذلك أنه يخرج من الجنة وأنه إنما يخرج منها بسبب طاعته إبليس وأكله من الشجرة لأنه قال قبل ذلك ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ولهذا قال من قال من السلف أنه قدر خروجه من الجنة قبل أن يأمره بدخولها بقوله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقال بعد هذا ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] وقال تعالى ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [٢٤] قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿[الأعراف: ٢٤ - ٢٥] وهذا خبر عما سيكون من عداوة بعضهم بعضا وغير ذلك وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ لَكَاظِمِينَ لَا يَأْمُرُونَ بِالْعَدْلِ وَلَا يُنْصَحُونَ لِدِينِهِمْ وَلَا لِدِينِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتٌ لَا يُلَوِّجُونَهَا وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٦] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ

الْأَلِيمِ ﴿يُونُس: ٩٦ - ٩٧﴾ وقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] وهذا خبر عن المستقبل وأنهم لا يؤمنون وقال تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] وقال ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] وهذا قسم منه على ذلك وهو الصادق البار في قسمه وصدقه مستلزم لعلمه بما أقسم عليه وهو دليل على أنه قادر على ذلك وقد يستدل به على أنه خالق أفعال العباد إذ لو كانت أفعالهم غير مقدورة له لم يمكنه أن يملأ جهنم بل كان ذلك إليهم إن شأوا عصوه فملأها وإن شأوا أطاعوه فلم يملأها لكن قد يقال أنه علم أنهم يعصونه فأقسم على جزائهم على ذلك وقد يجاب عن ذلك بأن علمه بالمستقبل قبل أن يكون مستلزم لخلق له فإنه سبحانه لا يستفيد العلم من غيره كالملائكة والبشر ولكن علمه من لوازم نفسه فلو كانت أفعاله خارجة عن مقدوره ومراده لم يجب أن يعلمها كما يعلم مخلوقاته وبسط هذا له موضع آخر^(١).

﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾

قال تعالى ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وهو سبحانه يعلم قبل أن يخلق الأشياء كل ما سيكون وهو يخلق بمشيئته فهو يعلمه ويريده وعلمه وإرادته قائم بنفسه وقد يتكلم به ويخبر به كما في قوله ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٧٢) ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] وهو سبحانه كتب ما يقدره فيما يكتبه فيه كما قال ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] قال ابن عباس إن الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه كن كتابا فكان كتابا ثم أنزل تصديق ذلك في قوله ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] وقال تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٩٢.

الْكُتُبِ ﴿٣٩﴾ [الرعد: ٣٩] وقال للملائكة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] فالملائكة قد علمت ما يفعل بنو آدم من الفساد وسفك الدماء فكيف لا يعلمه الله سواء علموه بإعلام الله فيكون هو أعلم بما علمهم إياه كما قاله أكثر المفسرين أو قالوه بالقياس على من كان قبلهم كما قاله طائفة منهم أو بغير ذلك والله أعلم بما سيكون من مخلوقاته الذين لا علم لهم إلا ما علمهم وما أوحاه إلى أنبيائه وغيرهم مما سيكون هو أعلم به منهم فإنهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وأيضا فإنه قال للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] قبل أن يأمرهم بالسجود لآدم وقبل أن يمتنع إبليس وقيل ان ينهي آدم عن أكله من الشجرة وقبل أن يأكل منها ويكون أكله سبب إهباطه إلى الأرض فقد علم الله سبحانه أنه سيستخلفه مع أمره له ولإبليس بما يعلم انهما يخالفانه فيه ويكون الخلاف سبب أمره لهما بالإهباط إلى الأرض والاستخلاف في الأرض وهذا يبين أنه علم ما سيكون منهما من مخالفة الأمر فإن إبليس إمتنع من السجود لآدم وأبغضه فصار عدوه فوسوس له حتى يأكل من الشجرة فيذنب آدم أيضا فإنه قد تلى أنه ليغوينهم أجمعين وقد سأل الانظار إلى يوم يبعثون فهو حريص على إغواء آدم وذريته بكل ما أمكنه لكن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه واجتبه ربه وهداه بتوبته فصار لبني آدم سبيل إلى نجاتهم وسعادتهم مما يوقعهم الشيطان فيه بالاغواء وهو التوبة قال تعالى ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣] وقد ر الله قد أحاط بهذا كله قبل أن يكون وإبليس أصر على الذنب واحتج بالقدر وسأل الانظار ليهلك غيره وآدم تاب واناب وقال هو وزوجته ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فتاب الله عليه فإجتهه وهداه وأنزله إلى الأرض ليعمل فيها بطاعته فيرفع الله بذلك درجته ويكون دخوله الجنة بعد هذا اكمل مما كان فمن أذنب من أولاد آدم فاقتدى بأبيه آدم في التوبة كان سعيدا وإذا

تاب وآمن وعمل صالحا بدل الله سيئاته حسنات وكان بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة كسائر أولياء الله المتقين ومن اتبع منهم إبليس فأصر على الذنب واحتج بالقدر وأراد أن يغوي غيره كان من الذين قال فيهم ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] والمقصود هنا ذكر القدر وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبي أنه قال قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض وفي الصحيحين عن النبي من غير وجه أنه أخبر أن الله قد علم أهل الجنة من أهل النار وما يعملهم العباد قبل أن يعمل وهو في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود أن الله يبعث ملكا بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح فيه فيكتب أجله وورقه وعمله وشقي أو سعيد^(١).

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾

لا يجوز لأحد أن يقف وما ليس له به علم ولا يقول على الله ما لا يعلم قال تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال تعالى ﴿الَّذِي يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ مِيثَقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩] وقد قالت الملائكة لما قال لهم ﴿أَنِيعُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١ - ٣٢] وقد قال موسى للحضر ﴿اتَّبِعْكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] وقال الحضر لموسى لما نقر العصفور في البحر ما نقص علمي وعلمك من

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٨٢-٣٨٤.

علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر^(١).

وقد استدلل بعضهم بأن الله لم ينف عن غيره علم شيء إلا كان منفردا به كقوله ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] وقوله ﴿لَا يَجْلِيهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [الدُّنَّ: ٣١] فيقال ليس الأمر كذلك بل هذا بحسب العلم المنفى فإن كان مما استأثر الله به قيل فيه ذلك وإن كان مما علمه بعض عباده ذكر ذلك كقوله ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [البجن: ٢٦] إلى قوله ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [البجن: ٢٧] وقوله ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣] وقوله ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] وقوله ﴿لَٰكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] إلى قوله ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦] وقوله ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢] وقال للملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] وقالت الملائكة ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] وفي كثير من كلام الصحابة الله ورسوله أعلم وفي الحديث المشهور أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك وقد قال تعالى ﴿فَإِن تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وأول النزاع النزاع في معاني القرآن فإن لم يكن الرسول عالما بمعانيه إمتنع الرد إليه وقد إتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن وتبينه وتدل عليه وتعبر عن مجمله وأنها تفسر مجمل القرآن من الأمر والخبر^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢٣٠.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٤٣٠-٤٣٢.

الالفاظ والاسماء يراد بها المعانى والمسميات

إذا قيل خلق الله السموات والأرض فالمراد خلق المسمى بهذه الالفاظ لم يقصد انه خلق لفظ السماء ولفظ الأرض والناس لا يفهمون من ذلك الا المعنى المراد به ولا يخطر بقلب أحد ارادة الالفاظ لما قد استقر في نفوسهم من أن هذه الالفاظ والاسماء يراد بها المعانى والمسميات فاذا تكلم بها فهذا هو المراد لكن لا يعلم أنه المراد ان لم ينطق بالالفاظ والاسماء المبينة للمراد الدالة عليه وهذا من البيان الذى أنعم الله به على بنى آدم فى قوله ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۚ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۖ ﴾ [الرحمن: ٣ - ٤] وقد ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] سبحانه وتعالى^(١).

أن الله ألهم النوع الانسانى أن يعبر عما يريده ويتصوره بلفظه المقصود هنا أنه لا يمكن أحدا أن ينقل عن العرب بل ولا عن أمة من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضعوا جميع هذه الأسماء الموجودة فى اللغة ثم استعملوها بعد الوضع وانما المعروف المنقول بالتواتر استعمال هذه الالفاظ فيما عنوه بها من المعانى فان ادعى مدع أنه يعلم وضعا يتقدم ذلك فهو مبطل فان هذا لم ينقله أحد من الناس ولا يقال نحن نعلم ذلك بالدليل فانه ان لم يكن اصطلاح متقدم لم يمكن الاستعمال قيل ليس الأمر كذلك بل نحن نجد أن الله يلهم الحيوان من الأصوات ما به يعرف بعضها مراد بعض وقد سمي ذلك منطقا وقولا فى قول سليمان ﴿ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ [النمل: ١٦] وفى قوله ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ١٨] وفى قوله ﴿ يَنْجِبَالُ أَوْيِ مَعَهُ، وَالطَّيْرِ ۖ ﴾ [سبا: ١٠] وكذلك الأدميون فالمولود اذا ظهر منه التمييز سمع أبويه أو من يربيه ينطق باللفظ ويشير إلى المعنى فصار يفهم أن ذلك اللفظ يستعمل فى ذلك المعنى أى أراد المتكلم به ذلك المعنى ثم هذا يسمع لفظا بعد لفظ حتى يعرف لغة القوم الذين نشأ بينهم من غير أن يكونوا قد اصطلحوا معه على وضع متقدم بل ولا أوقفوه على معانى الأسماء وان كان أحيانا قد يسأل عن مسمى بعض الأشياء

(١) مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٢٠٣.

فيوقف عليها كما يترجم للرجل اللغة التي لا يعرفها فيوقف على معاني ألفاظها وان
 باشر أهلها مدة علم ذلك بدون توقيف من أحده منعم قد يضع الناس الاسم لما يحدث
 مما لم يكن من قبلهم يعرفه فيسميه كما يولد لأحدهم ولد فيسميه اسما إما منقولا واما
 مرتجلا وقد يكون المسمى واحدا لم يصطلح مع غيره وقد يستوون فيما يسمونه وكذلك
 قد يحدث للرجل آلة من صناعة أو يصنف كتابا أو يبنى مدينة ونحو ذلك فيسمى ذلك
 باسم لأنه ليس من الأجناس المعروفة حتى يكون له اسم فى اللغة العامة وقد قال الله
 تعالى ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن: ١ - ٤]
 و﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصّلت: ٢١] وقال ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝﴾
 [الأعلى: ٢ - ٣] فهو سبحانه يلهم الانسان المنطق كما يلهم غيره وهو سبحانه اذا كان قد
 علم آدم الأسماء كلها وعرض المسميات على الملائكة كما أخبر بذلك فى كتابه فنحن
 نعلم أنه لم يعلم آدم جميع اللغات التى يتكلم بها جميع الناس إلى يوم القيامة وان تلك
 اللغات اتصلت إلى أولاده فلا يتكلمون الا بها فان دعوى هذا كذب ظاهر فان آدم عليه
 السلام انما ينقل عنه بنوه وقد اغرق الله عام الطوفان جميع ذريته الا من فى السفينة وأهل
 السفينة انقطعت ذريتهم الا أولاد نوح ولم يكونوا يتكلمون بجميع ما تكلمت به الأمم
 بعدهم فان اللغة الواحدة كالفارسية والعربية والرومية والتركية فيها من الاختلاف
 والأنواع ما لا يحصىه الا الله والعرب أنفسهم لكل قوم لغات لا يفهما غيرهم فكيف
 يتصور أن ينقل هذا جميعه عن أولئك الذين كانوا فى السفينة وأولئك جميعهم لم يكن لهم
 نسل وانما النسل لنوح وجميع الناس من أولاده وهم ثلاثة سام وحام وياث كما قال الله
 تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فلم يجعل باقيا الا ذريته وكما روى ذلك عن النبى أن
 أولاده ثلاثة رواه أحمد وغيره ومعلوم أن الثلاثة لا يمكن أن ينطقوا بهذا كله ويمتنع نقل
 ذلك عنهم فان الذين يعرفون هذه اللغة لا يعرفون هذه واذا كان الناقل ثلاثة فهم قد
 علموا أولادهم وأولادهم علموا أولادهم ولو كان كذلك لاتصلت ونحن نجد بنى الأب
 الواحد يتكلم كل قبيلة منهم بلغة لا تعرفها الأخرى والأب واحد لا يقال أنه علم أحد
 ابنه لغة وابنه الآخر لغة فان الأب قد لا يكون له الا ابنان واللغات فى أولاده أضعاف

ذلك والذي أجرى الله عليه عادة بنى آدم أنهم انما يعلمون أولادهم لغتهم التي يخاطبونهم بها أو يخاطبهم بها غيرهم فأما لغات لم يخلق الله من يتكلم بها فلا يعلمونها أولادهم وأيضا فانه يوجد بنو آدم يتكلمون بألفاظ ما سمعوها قط من غيرهم والعلماء من المفسرين وغيرهم لهم فى الأسماء التى علمها الله آدم قولان معروفان عن السلف أحدهما أنه انما علمه أسماء من يعقل واحتجوا بقوله ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١] قالوا وهذا الضمير لا يكون الا لمن يعقل وما لا يعقل يقال فيها عرضها ولهذا قال أبو العالية علمه أسماء الملائكة لأنه لم يكن حيثئذ من يعقل الا الملائكة ولا كان ابليس قد انفصل عن الملائكة ولا كان له ذرية وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم علمه أسماء ذريته وهذا يناسب الحديث الذى رواه الترمذى وصححه عن النبى أن آدم سأل ربه أن يريه صور الأنبياء من ذريته فرأهم فرئى فيهم من يبص فقال يا رب من هذا قال ابنك داود فيكون قد أراه صور ذريته أو بعضهم وأسماءهم وهذه أسماء أعلام لا أجناس والثانى ان الله علمه أسماء كل شىء وهذا هو قول الأكثرين كابن عباس وأصحابه قال ابن عباس علمه حتى الفسوة والفسية والقصة والقصة أراد الأسماء الاعراض والأعيان مكبرها ومصغرها والدليل على ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن النبى أنه قال فى حديث الشفاعة إن الناس يقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فىك من روحه وعلمك أسماء كل شىء وأيضا قوله الاسماء كلها لفظ عام مؤكد فلا يجوز تخصيصه بالدعوى وقوله ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١] لأنه اجتمع من يعقل ومن لا يعقل فغلب من يعقل كما قال ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥] قال عكرمة علمه أسماء الأجناس دون أنواعها كقولك انسان وجن وملك وطائر وقال مقاتل وابن السائب وابن قتيبة علمه أسماء ما خلق فى الأرض من الدواب والهوام والطير ومما يدل على أن هذه اللغات ليست متلقاة عن آدم ان أكثر اللغات ناقصة عن اللغة العربية ليس عندهم أسماء خاصة للأولاد والبيوت والأصوات وغير ذلك مما يضاف إلى الحيوان بل انما يستعملون فى ذلك الاضافة فلو كان آدم عليه السلام علمه الجميع لعلمها متناسبة وأيضا فكل أمة ليس لها كتاب ليس فى

لغتها أيام الأسبوع وانما يوجد فى لغتها اسم اليوم والشهر والسنة لأن ذلك عرف بالحس والعقل فوضعت له الأمم الأسماء لأن التعبير يتبع التصور وأما الأسبوع فلم يعرف الا بالسمع لم يعرف أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الا بأخبار الانبياء الذين شرع لهم أن يجتمعوا فى الأسبوع يوما يعبدون الله فيه ويحفظون به الأسبوع الأول الذى بدأ الله فيه خلق هذا العالم ففى لغة العرب والعبرانيين ومن تلقى عنهم أيام الأسبوع بخلاف الترك ونحوهم فانه ليس فى لغتهم أيام الأسبوع لأنهم لم يعرفوا ذلك فلم يعبروا عنه فعلم أن الله ألهم النوع الانسانى أن يعبر عما يريد به ويتصوره بلفظه وان أول من علم ذلك أبوههم آدم وهم علموا كما علم وان اختلفت اللغات وقد أوحى الله إلى موسى بالعبرانية وإلى محمد بالعربية والجميع كلام الله وقد بين الله بذلك ما أراد من خلقه وأمره وان كانت هذه اللغة ليست الأخرى مع أن العبرانية من أقرب اللغات إلى العربية حتى انها أقرب اليها من لغة بعض العجم إلى بعض^(١).

أن الله سبحانه علم آدم أسماء كل شئ

وقد تنازع الناس هل المراد بها أسماء من يعقل لقوله ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ [البقرة: ٣١] ثم أوأسماء كل شئ على قولين والأول اختيار ابن جرير الطبري وأبي بكر عبد العزيز صاحب الخلال وغيرهما والثاني أصح لأن فى الصحيحين فى حديث الشفاعة عن النبي ﷺ يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ ويبين ذلك أن الملائكة كانوا يتكلمون قبل أن يخبرهم آدم بالأسماء وقد خاطبوا الله وخاطبوا آدم قبل ذلك قال الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] قال وفى الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لما خلق الله آدم قال اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة فسلم عليهم واسمع ما يحيونك به فإنها تحيتك وتحية ذريتك من بعدك فذهب إليهم فقال السلام

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٩٢-٩٤.

عليكم فقالوا وعليك السلام ورحمة الله وبركاته فزادوه وأيضا فأدم عليه السلام تكلم قبل أن يعلمه الله أسماء كل شيء كما في الصحيحين أن الله لما خلق آدم عطس فقال الحمد لله رب العالمين فقال الله له يرحمك ربك وأيضا فمن المعلوم أن الملائكة كانوا يسبحون الله ويمجدونه قبل خلق آدم وقبل إخباره إياهم بالأسماء فكيف يظن ظان أن النطق كان مختصا بآدم لما علم الأسماء^(١).

معرفة حدود الاسماء واجبة

أن الله سبحانه علم آدم الاسماء كلها وقد ميز كل مسمى باسم يدل على ما يفصله من الجنس المشترك ويخصه بدون ما سواه ويبين به ما يرسم معناه في النفس ومعرفة حدود الاسماء واجبة لأنه بها تقوم مصلحة نبي آدم في النطق الذي جعله الله رحمة لهم لا سيما حدود ما أنزل الله في كتبه من الاسماء كالخمر والربا فهذه الحدود هي الفاصلة المميزة بين ما يدخل في المسمى ويتناوله ذلك الاسم وما دل عليه من الصفات وبين ما ليس كذلك ولهذا ذم الله من سمى الاشياء بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان فإنه اثبت للشيء صفة باطلة كالهية الأوثان فالاسماء النطقية سمعية واما نفس تصور المعاني ففطري يحصل بالحس الباطن والظاهر وبإدراك الحس وشهوده يبصر الانسان بباطنه وبظاهره وبسمعه يعلم اسماءها وبفؤاده بعقل الصفات المشتركة والمختصة والله اخرجنا من بطون امهاتنا لا نعلم شيئا وجعل لنا السمع والابصار والافئدة^(٢).

ان الله علم الانسان البيان كما قال تعالى ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن: ١ - ٤] وقال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وقال ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] والبيان بيان القلب واللسان كما أن العمى والبكم يكون في القلب واللسان كما قال تعالى ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٨] وقال ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وقال النبي هلا سألوا إذا لم

(١) الاستقامة ج: ١ ص: ١٩٩-٢٠١.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٥٩.

يعلموا إنما شفاء العي السؤال وفي الاثر العي عي القلب لا عي اللسان أو قال شر العي عي القلب وكان مسعود يقول إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطبائه وسيأتي عليكم زمان قليل فقهاؤه كثير خطبائه وتبين الأشياء للقلب ضد اشتباههم عليه كما قال الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهاة الحديث وقد قرئ قوله ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسَتِّيحَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] بالرفع والنصب أي ولتتبين أنت سبيلهم فالإنسان يستبين الأشياء وهم يقولون قد بان الشيء وبينته وتبين الشيء وتبينته واستبان الشيء واستتبته كل هذا يستعمل لازما ومتعديا ومنه قوله تعالى ﴿جَاءَكُمُ فَاسِقُ بَنِي فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] هو هنا معتد ومنه قوله ﴿بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾ [النساء: ١٩] أي متبينة فهذا هو لازم والبيان كالكلام يكون مصدر بان الشيء بيانا ويكون اسم مصدر لبين كالكلام والسلام لسلم وبين فيكون البيان بمعنى تبين الشيء ويكون بمعنى بينت الشيء أي أوضحته وهذا هو الغالب عليه ومنه قولها من البيان لسحرا والمقصود ببيان الكلام حصول البيان لقلب المستمع حتى يتبين له الشيء ويستبين كما قال تعالى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨] الآية ومع هذا فالذي لا يستبين له كما قال تعالى ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيْءَ آذَانِهِمْ وَقُرْءُوهُ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] وقال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] وقال ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمُبَيِّنِ﴾ [النور: ٥٤] وقال ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] وقال ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦] وقال ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [الأنعام: ٥٧] وقال ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [هود: ١٧] وقال ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة: ٩٩] وقال ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١] فأما الأشياء المعلومة التي ليس في زيادة وصفها إلا كثرة كلام وتفيهق وتشدق وتكبر والافصاح بذكر

الأشياء التي يستقبح ذكرها فهذا مما ينهى عنه كما جاء في الحديث أن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها وفي الحديث الحياء والعِي شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق ولهذا قال إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه هو في حديث سعد لما سمع ابنه أولما وجد ابنه يدعو وهو يقول اللهم أني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا وأعوذ بك من النار وسلاسها واغلاها وكذا وكذا قال يا بني إني سمعت رسول الله يقول سيكون قوم يعتدون في الدعاء فإياك أن تكون منهم إنك إن أعطيت الجنة أعطيتها وما فيها من الخير وإن أعذت من النار أعذت منها وما فيها من الشر^(١).

التسبيح يقتضي تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده

والأمر بتسبيحه يقتضي أيضا تنزيهه عن كل عيب وسوء وإثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضي التنزيه والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها فيقتضي ذلك تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده^(٢).

فنفي أن يعلم أحد شيئا من علمه إلا بمشيئته ليس إلا أنه منصرف بالتعليم أن غير الله لا يعلم ما في نفس الله من العلم ونفسه هي ذاته المقدسة إلا أن يعلمه الله بذلك كما قال المسيح عليه السلام ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَْلَمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] وقالت الملائكة ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]^(٣).

وكانت الملائكة وآدم معترفين بأن الله مباين لهم وهم مغايرون له ولهذا دعوه دعاء العبد ربه فآدم يقول ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] والملائكة تقول ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] وتقول ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٦٣-٦٥.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٢٦.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٩٩.

وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ وَفِيهِمْ عَذَابٌ جَحِيمٌ ﴿١﴾ [غافر: ٧].

قال تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] بين أنهم لا يعلمون من علمه إلا ما علمهم إياه كما قالت الملائكة ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] فكان فى هذا النفي إثبات أن عباده لا يعلمون إلا ما علمهم إياه فأثبت أنه الذي علمهم لا ينالون العلم إلا منه فإنه ﴿الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١ - ٢] و﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ② عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤ - ٥] (٢).

قال تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فنفى أن يعلم أحد شيئا من علمه إلا بمشيئته ليس إلا أنه منفرد بالتعليم فهو العالم بالمعلومات ولا يعلم أحد شيئا إلا بتعليمه كما قالت الملائكة ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] (٣).

آدم وغيره من الأنبياء والأولياء أفضل من جميع الملائكة

اسجد له جميع الملائكة كما نطق بذلك القرآن فى قوله تعالى ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣] فهذه ثلاث صيغ مقررّة للعموم وللإستغراق فإن قوله ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ [ص: ٧٣] يقتضى جميع الملائكة فإن اسم الجمع المعروف بالالف واللام يقتضى العموم كقول هرب الملائكة والروح فهو رب جميع الملائكة الثانى ﴿كُلُّهُمْ﴾ [ص: ٧٣] وهذا من ابلغ العموم الثالث قوله ﴿أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣] وهذا تأكيد للعموم ولم يكن فى المأمورين بالسجود أحد من الشياطين لكن أبوهم إبليس هو كان مأمورا فامتنع وعصى وجعله بعض الناس من الملائكة لدخوله فى الأمر بالسجود وبعضهم من الجن

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٣٢٨.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ١١٤.

(٣) الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٢١٠.

لأن له قبيلة وذرية ولكونه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور والتحقيق أنه كان منهم باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله ولم يخرج من السجود لآدم أحد من الملائكة لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا غيرهما وهذا ما استدل به أهل السنة على أن آدم وغيره من الأنبياء والأولياء به أهل السنة على أن آدم وغيره من الأنبياء والأولياء أفضل من جميع الملائكة لأن الله أمر الملائكة بالسجود له إكراما له ولهذا قال إبليس ﴿أَرَأَيْتَ يٰنَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢] فدل على أن آدم كرم على من سجد له^(١).
فإن الإسم المجموع المعرف بالألف واللام يوجب إستيعاب الجنس قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] فسجود الملائكة يقتضى جميع الملائكة هذا مقتضى اللسان الذى نزل به القرآن فالعدول عن موجب القول العام إلى الخصوص لا بد له من دليل يصلح له وهو معدوم.

إن أكبر الكبائر الكفر والكبر

جاء فى حديث إن أكبر الكبائر الكفر والكبر وهذا صحيح فإن هذين الذنبن أساس كل ذنب فى الإنس والجن فإن إبليس هو الذى فعل ذلك أولا وهو أصل ذلك قال الله تعالى ﴿إِلَّا إِلَيْسَ ابْنِ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وقال ﴿إِلَّا إِلَيْسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٤] وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ لا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ولا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر فجعل الكبر يضاد الإيمان وكذلك الشرك فى مثل قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] وقال ابن مسعود قال رسول الله ﷺ من مات وهو لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قال وأنا أقول من مات وهو يشرك بالله شيئا دخل النار ثم من الناس من يجمع بينهما ومنهم من ينفرد له أحدهما والمؤمن الصالح عافاه الله منهما فإن الإنسان إما أن يخضع لله وحده أو يخضع لغيره مع خضوعه له أولا يخضع لا لله ولا لغيره فالأول هو المؤمن والثانى هو المشرك والثالث هو المتكبر الكافر وقد لا يكون كافرا فى بعض المواضع

(١) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٣٤٥-٣٤٧ ومجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٣٦٣.

والنصارى آفتهم الشرك واليهود آفتهم الكبر كما قال تعالى عن النصارى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]
وقال عن اليهود ﴿ سَاصِرِفٌ عَن ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]
ولهذا عوقبت اليهود بضرب الذلة والمسكنة عليهم والنصارى بالضلال والبدع والجهالة^(١).

الكفر يحبط العمل

إن إبليس كفر كما أخبر الله تعالى بقوله ﴿ إِلَّا إِلَيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ص: ٧٤]
فلو قدر أنه كان له عمل صالح حبط بكفره كذلك غيره إذا كفر حبط عمله فأين تشبيه المؤمنين بهذا^(٢).

الممتنع عن التزام مباني الاسلام الخمس استكبارا أو حسدا للرسول أو عصبية لدينه أو بغضا لما جاء به الرسول فهذا أيضا كافر بالاتفاق
فمن لا يجحد وجوب مباني الاسلام الخمس المأمور بها لكنه ممتنع من التزام فعلها كبرا أو حسدا أو بغضا لله ورسوله فيقول اعلم أن الله أوجبها على المسلمين والرسول صادق في تبليغ القرآن ولكنه ممتنع عن التزام الفعل استكبارا أو حسدا للرسول أو عصبية لدينه أو بغضا لما جاء به الرسول فهذا أيضا كافر بالاتفاق فان إبليس لما ترك السجود المأمور به لم يكن جاحدا للإيجاب فان الله تعالى باشره بالخطاب وانما ﴿ إِنِّي وَاسْتَكَبَّرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤] وكذلك ابوطالب كان مصدقا للرسول فيما بلغه لكنه ترك اتباعه حمية لدينه وخوفا من عار الانقياد واستكبارا عن ان تعلقوا أسسته رأسه فهذا ينبغي ان يتفطن له^(٣).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٨ ص: ٣٣٠-٣٣١.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٥١٢.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٩٧.

﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَكُ تَغْفِيرٌ لَنَا وَرَحْمَةٌ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣) قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿[الأعراف: ٢٣ - ٢٤] فَقَوْلُهُ هُنَا قَوْلُهُ ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤] يَبِينُ أَنَّهُمْ هَبَطُوا إِلَى الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِهَا وَ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا قَبْلَ ذَلِكَ فِيهِ بِمَكَانٍ فِيهِ يَحْيَوْنَ وَفِيهِ يَمُوتُونَ وَمِنْهُ يُخْرَجُونَ وَأَمَّا صَارُوا إِلَيْهِ لَمَّا أَهْبَطُوا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنُّصُوصِ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَكَذَلِكَ كَلَامُ السَّلَفِ وَالْأُئِمَّةِ وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَاسْجُدْ لَكَ مَلَائِكَتُهُ فَلَمَّا ذَا أَخْرَجْتَنَا وَذَرَيْتَكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَقَالَ لَهُ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَكَلَامُهُ فَهَلْ تَجِدُ فِي التَّوْرَةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى قَالَ نَعَمْ قَالَ فَلَمَّا ذَا تَلَوْنِي عَلَى أَمْرِ قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَى قَبْلِ أَنْ أُخْلَقَ فَقَالَ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى وَمُوسَى أَمَّا لَمْ آدَمُ لَمَّا حَصَلَ لَهُ وَذَرَيْتُهُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْجَنَّةِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالنَّكَدِ فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ بَسْتَانًا فِي الْأَرْضِ لَكَانَ غَيْرُهُ مِنْ بَسَاتِينَ الْأَرْضِ يَعْوِضُ عَنْهُ وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ احْتَجَّ بِالْقَدْرِ لِأَنَّ الْعَبْدَ مَأْمُورٌ عَلَى أَنْ يَصْبِرَ عَلَى مَا قَدَرَهُ اللَّهُ مِنَ الْمَصَائِبِ وَيَتُوبَ إِلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرَ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَائِبِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

أَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لَخَفَاءِ الْعِلْمِ النَّافِعِ أَوْ بَعْضُهُ وَلَا شَتْبَاهَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ تَقَعُ الْفِتْنُ

أَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لَخَفَاءِ الْعِلْمِ النَّافِعِ أَوْ بَعْضُهُ بَلْ يَكُونُ سَبَبًا لِنَسْيَانِ مَا عِلْمٌ وَلَا شَتْبَاهَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ تَقَعُ الْفِتْنُ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ كَانَ أَسْكَنَ آدَمَ وَزَوْجَهُ الْجَنَّةَ وَقَالَ لهُمَا ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴿[البقرة: ٣٥ - ٣٦] فَكُلَّ عِدَاوَةٍ كَانَتْ فِي ذَرِيَّتِهِمَا وَبَلَاءٍ وَمَكْرُوهٍ وَتَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ وَفِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٣٤٧-٣٤٩ والاستقامة ج: ٢ ص: ١٦٩.

سببها الذنوب ومعصية الرب تعالى فالإنسان إذا كان مقيما على طاعة الله باطنا وظاهرا كان فى نعيم الإيمان والعلم وارد عليه من جهاته وهو فى جنة الدنيا كما فى الحديث إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قيل وما رياض الجنة قال مجالس الذكر وقال ما بين بيتى ومنبري روضة من رياض الجنة فإنه كان يكون هنا فى رياض العلم والإيمان وكلما كان قلبه فى محبة الله وذكره وطاعته كان معلقا بالحل الأعلى فلا يزال فى علوما دام كذلك فإذا أذنب هبط قلبه إلى أسفل فلا يزال فى هبوط مادام كذلك ووقعت بينه وبين أمثاله عداوة فإن أراد الله به خيرا ثاب وعمل فى حال هبوط قلبه إلى أن يستقيم فيصعد قلبه قال تعالى ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقُلُوبُ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] فتقوى القلوب هي التى تنال الله كما قال ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] فأما الأمور المنفصلة عنا من اللحوم والدماء فإنها لا تنال اللهو الباطنية المنكرون لخلق العالم فى ستة أيام ومعاد الأبدان الذين يجعلون للقرآن تأويلا يوافق قولهم عندهم ما ثم جنة الا لذة ما تتصف بها النفس من العلم والأخلاق الحميدة وما ثم نار إلا ألم تتصف به النفس من الجهل والاخلاق الذميمة السيئة فنار النفوس ألهما القائم بها كحسراتها لفوات العلم أو لفوات الدنيا المحبوبة لها وحجبها إنما ذنوبها وهذا الكلام مما يذكره أبوحامد فيالمظنون به على غير أهله لكن قد يقول هذا ليس هو عذاب القبر المذكور فى الأجسام بل ذاك أمر آخر ما بينه أهل السنة ولا نعيم عندهم إلا ما يقوم بالنفس من هذا ولهذا ليس عندهم نعيم منفصل عن النفس ولا عذاب وهذا القول من أفسد الأقوال شرعا وعقلا فإن الناس فى الدنيا يثابون ويعاقبون بامور منفصلة عنهم فكيف فى دار الجزاء ولكن الذى أثبتوه من هذا وهذا منه ما هوحق ولكن الباطل جحدهم ما جحدوه مما أخبر الله به ورسوله فهؤلاء عندهم أن آدم لم يكن إلا فى جنة العلم وهبوطه انخفاض درجته فى العلم وهذا كذب ولكن ما أثبتوه من الحق حق وقصة آدم تدل عليه بطريق الاعتبار الذى تسميه الصوفية الاشارة لا أنه هوالمراد بالآية لكن قد دل عليه آيات أخر تدل على أن من كذب بالحق عوقب بإن يطبع على قلبه فلا يفهم العلم أولا يفهم المراد منه وأنه يسلط عليه عدوه ويجد ذلا كما قال تعالى عن اليهود

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ اللَّذَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١] إلى قوله ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] ولا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات واللذة التي تبقى بعد الموت وتنفع في الآخرة هي لذة العلم بالله والعمل له وهو الإيمان به وهم يجعلون ذلك الوجود المطلق وأيضا فنفس العلم به إن لم يكن معه حب له وعبادة له بل كان مع حب لغيره كائنا من كان فإن عذاب هذا قد يكون من أعظم العذاب في الدنيا والآخرة وهم لا يجعلون كمال اللذة الا في نفس العلم وأيضا فافتصارهم على اللذة العقلية خطأ والنصارى زادوا عليهم السمع والشم فقالوا يتمتعون بالأرواح المتعشقة والنعيمات المطربة ولم يثبتوا هم ولا اليهود الأكل والشرب ولا النكاح وهي لذة اللمس والمسلمون أثبتوا جميع أنواع اللذات سمعا وبصرا وشما وذوقا ولمسا للروح والبدن جميعا وكان هذا هو الكمال لا ما يثبته أهل الكتاب ومن هو شر منهم من الفلاسفة الباطنية وأعظم لذات الآخرة لذة النظر إلى الله سبحانه كما في الحديث الصحيح فما أعطاهم شيئا أحب اليهم من النظر اليه وهو ثمرة معرفته وعبادته في الدنيا فأطيب ما فى الدنيا معرفته وأطيب ما في الآخرة النظر اليه سبحانه ولهذا كان التجلي يوم الجمعة في الآخرة على مقدار صلاة الجمعة في الدنيا^(١).

ابتلى الله الأنبياء بالذنوب رفعا لدرجاتهم بالتوبة

أن جنس فعل المأمور به أعظم من جنس ترك المنهى عنه وان جنس ترك المأمور به أعظم من جنس فعل المنهى عنه وان مثوبة بني آدم على أداء الواجبات أعظم من مثوبتهم على ترك المحرمات وان عقوبتهم على ترك الواجبات أعظم من عقوبتهم على فعل المحرمات أول ذنب عصى الله به كان من أبى الجن وابى الانس وابوي الثقليين المأمورين وكان ذنب أبى الجن أكبر وأسبق وهو ترك المأمور به وهو السجود إباء واستكبارا وذنب أبى الانس كان ذنبا صغيرا ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] وهو إنما فعل المنهى عنه وهو الأكل من الشجرة وإن كان كثير من الناس المتكلمين فى العلم يزعم أن هذا ليس بذنب وان آدم تأول حيث نهى عن الجنس بقوله ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٦٠-١٦٣.

[البقرة: ٣٥] فظن أنه الشخص فاخطأ أو نسى والمخطيء والناسي ليسا مذنبين وهذا القول يقوله طوائف من أهل البدع والكلام والشيعة وكثير من المعتزلة وبعض الأشعرية وغيرهم ممن يوجب عصمة الأنبياء من الصغائر وهؤلاء فروا من شيء ووقعوا فيما هو اعظم منه فى تحريف كلام الله عن مواضعه وأما السلف قاطبة من القرون الثلاثة الذين هم خير قرون الأمة وأهل الحديث والتفسير وأهل كتب قصص الأنبياء والمبتدأ وجمهور الفقهاء والصوفية وكثير من أهل الكلام كجمهور الأشعرية وغيرهم وعموم المؤمنين فعلى ما دل عليه الكتاب والسنة مثل قوله تعالى ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١] وقوله ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] بعد أن قال لهما ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢] وقوله تعالى ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّجِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] مع أنه عوقب باخراجه من الجنة وهذه نصوص لا ترد إلا بنوع من تحريف الكلم عن مواضعه والمخطيء والناسي إذا كانا مكلفين فى تلك الشريعة فلا فرق وإن لم يكونا مكلفين امتنعت العقوبة ووصف العصيان والاختبار بظلم النفس وطلب المغفرة والرحمة وقوله تعالى ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢] وإنما ابتلى الله الأنبياء بالذنوب رفعا لدرجاتهم بالتوبة وتبليغا لهم إلى محبته وفرحه بهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ويفرح بتوبة التائب اشد فرح فالمقصود كمال الغاية لا نقص البداية فإن العبد تكون له الدرجة لا ينالها إلا بما قدره الله له من العمل أو البلاء وليس المقصود هنا هذه المسألة وإنما الغرض أن ينظر تفاوت ما بين الذنبيين اللذين احدهما ترك المأمور به فانه كبير وكفر ولم يتب منه والآخر صغير تيب منه^(١).

والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان وبوساوس الكفر

كثيرا ما تعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق ثم يتوب الله عليه وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ويدفعه الله عنه والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان وبوساوس

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٨٨-٩٠.

الكفر التي يضيق بها صدره كما قالت الصحابة يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لئن نخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به فقال ذاك صريح الايمان وفي رواية ما يتعاضم ان يتكلم به قال الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة أى حصول هذا الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له ودفعه عن القلب هو من صريح الايمان كالمجاهد الذى جاءه العدو فدافعه حتى غلبه فهذا أعظم الجهاد والصريح الخالص كاللبن الصريح وانما صار صريحا لما كرهوا تلك الوسواس الشيطانية ودفعوها فخلص الايمان فصار صريحا ولا بد لعامة الخلق من هذه الوسواس فمن الناس من يجيئها فصير كافرا أو منافقا ومنهم من قد غمر قلبه الشهوات والذنوب فلا يحس بها الا اذا طلب الدين فإما أن يصير مؤمنا واما أن يصير منافقا ولهذا يعرض للناس من الوسواس فى الصلاة ما لا يعرض لهم اذا لم يصلوا لأن الشيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الانابة إلى ربه والتقرب اليه والاتصال به فلهذا يعرض للمصلين ما لا يعرض لغيرهم ويعرض لخاصة أهل العلم والدين أكثر مما يعرض للعامة ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوسواس والشبهات ما ليس عند غيرهم لانه لم يسلك شرع الله ومنهاجه بل هو مقبل على هواه فى غفلة عن ذكر ربه وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة فانه عدوهم يطلب صدهم عن الله قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء وقال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وقال تعالى ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨] وقال تعالى ﴿هُدًى لِّلنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ٢] وقال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن فأمر الله القارئ اذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه قال تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ [النحل: ٩٨ - ١٠٠] فان المستعيذ بالله

مستجير به لاجيء اليه مستغيث به من الشيطان فالعائد بغيره مستجير به فاذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان ويحييه منه ولذلك قال الله تعالى ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿[فُصِّلَتْ: ٣٤ - ٣٦] وفي الصحيحين عن النبي أنه قال اني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فأمر سبحانه بالاستعاذة عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة العبد للحسنات وعندما يأمره الشيطان بالسيئات ولهذا قال النبي ﷺ لا يزال الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله وليتته فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه في شر أو يمنعه من خير كما يفعل العدو مع عدوه وكلما كان الإنسان أعظم رغبة في العلم والعبادة واقدر على ذلك من غيره بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ورغبته وإرادته في ذلك أتم كان ما يحصل له أن سلمه الله من الشيطان أعظم وكان ما يفتتن به إن تمكن منه الشيطان أعظم ولهذا قال الشعبي كل أمة علماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم وأهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل وذلك ان كل أمة غير المسلمين فهم ضالون وانما يضلهم علماؤهم فعلماءهم شرارهم والمسلمون على هدى وانما يتبين الهدى بعلمائهم فعلماءهم خيارهم وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة وأئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب ولهذا أمر النبي ﷺ بقتل الخوارج ونهى عن قتال الولاة الظلمة وأولئك لهم نهمة في العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوسوس التي تضلهم وهم يظنونها هدى فيطيعونها ما لا يعرض لغيرهم ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى وينابيع العلم كما قال ابن مسعود لأصحابه كونوا ينابيع العلم مصابيح الحكمة سرج الليل جدد القلوب احلاس البيوت خلقان الثياب تعرفون في أهل السماء وتحفون على أهل الأرض^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٨٨-٩٠.

في الصحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن قالوا وإياك يا رسول الله قال وإياي ولكن ربي أعاني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير وفي الصحيح عن عائشة قالت يا رسول الله أو معي شيطان قال نعم قالت ومع كل إنسان قال نعم ومعك يا رسول الله قال نعم ولكن ربي أعاني عليه حتى أسلم والمراد في أصح القولين استسلم وانقاد لي ومن قال حتى أسلم أنا فقد حرف معناه ومن قال الشيطان صار مؤمنا فقد حرف لفظه وقد قال موسى لما قتل القبطي ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [النقص: ١٥] وقال فتى موسى ﴿وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣] وذكر الله في قصة آدم وحواء ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦] وقوله ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠] ^(١).

﴿فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]

الأعمال هي سبب في الثواب والعقاب

الأعمال هي سبب في الثواب والعقاب فلو قال قائل إن الله أخرج آدم من الجنة بلا ذنب وأنه قدر ذلك أو قال إنه غفر لآدم بلا توبة وأنه علم ذلك كان هذا كذبا وبهتاناً بخلاف ما إذا قال ﴿فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١] فإنه يكون صادقا في ذلك والله سبحانه علم ما يكون من آدم قبل أن يكون وهو عالم به بعد أن كانو كذلك كل ما أخبر به من قصص الأنبياء فإنه علم أنه أهلك نوح وعاد وثمود وفرعون ولوط ومدين وغيرهم بذنوبهم وأنه نجي الأنبياء ومن إتبعهم بإيمانهم وتقواهم كما قال ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ اتَّخَذْنَا لِكُلِّ قَوْمٍ نَبِيًّا لِيَتَذَكَّرُوا وَلَئِنْ نَذَرْنَا لَكُمْ عَذَابًا لَلْغَاثِ لَنَنَسُوهُنَّ حَتَّىٰ يَأْتِيَ الْبَاقِيَ لَا يُدْرِكُهُنَّ أَصْحَابُ الْغَاثِ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي سَكَاةٍ﴾ [الأنبياء: ٢٢١]

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٨ ص: ٢٧١-٢٧٢.

[الأعراف: ١٦٥] ^(١).

جميع الذنوب تدخل فى ظلم العبد نفسه

جميع الذنوب تدخل فى ظلم العبد نفسه هو أول من اعترف بهذا أبوالبشر لما تلقى من ربه الكلمات فقال ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فكان فى هذه الكلمات إقراره بذنبه وطلبه ربه على وجه الافتقار والمغفرة والرحمة فالمغفرة إزالة السيئات والرحمة إنزال الخيرات فهذا ظلم لنفسه ليس فيه ظلم لغيره وقال موسى عليه السلام لما ذكر الذي هو من عدوه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ^(١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [القصص: ١٥ - ١٦] فاعترف بظلمه نفسه فيما كان من جنابة على غيره لم يؤمر بها وقال يونس عليه السلام ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وفى الصحيح الدعاء الذي علمه النبي ﷺ أبا بكر أن يدعو به فى صلاته اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمي إنك أنت الغفور الرحيم فهذا الدعاء مطابق لدعاء آدم فى الاعتراف بظلم النفس ومسألة المغفرة والرحمة وكان النبي ﷺ إذا استوى على الدابة فحمد وسبح وكبر قال لا إله إلا أنت سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي ثم يضحك وهو محفوظ من حديث على بن أبى طالب ^(٢).

إن الذنوب مطلقا من جميع المؤمنين هي سبب العذاب

فإن الذنوب مطلقا من جميع المؤمنين هي سبب العذاب لكن العقوبة بها فى الآخرة فى جهنم تندفع بنحو عشرة أسباب السبب الأول التوبة فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والتوبة مقبولة من جميع الذنوب الكفر والفسوق والعصيان قال الله تعالى ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وقال تعالى ﴿فَإِنْ تَابُوا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٢٧٨.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٢٧٧-٢٧٨.

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴿التوبة: ١١﴾ وقال تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿المائدة: ٧٣ - ٧٤﴾ وقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ

جَهَنَّمٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْخَرِيقُ ﴿البروج: ١٠﴾ قال الحسن البصري انظروا إلى هذا الكرم والجود فتنا

أولياءه وعذبوهم بالنار ثم هو يدعوهم إلى التوبة والتوبة عامة لكل عبد مؤمن كما قال

تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا

الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٦﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿الأحزاب: ٧٢ - ٧٣﴾ وقد أخبر الله

في كتابه عن توبة أنبيائه ودعائهم بالتوبة كقوله ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿البقرة: ٣٧﴾ وقول إبراهيم وإسماعيل ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ ﴿البقرة: ١٢٧ - ١٢٨﴾ وقال موسى ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

وَكَتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴿الأعراف: ١٥٥ - ١٥٦﴾ وقوله

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَر لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿القصص: ١٦﴾ وقوله

﴿سُبْحَنَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الأعراف: ١٤٣﴾ وكذلك ما ذكره في قصة

داود وسليمان وغيرهما وأما المأثور عن النبي ﷺ من ذلك فكثير مشهور وأصحابه كانوا

أفضل قرون الأمة فهم أعرف القرون بالله وأشدهم له خشية وكانوا أقوم الناس بالتوبة

في حياته وبعد مماته فمن ذكر ما عيب عليهم ولم يذكر توبتهم التي بها رفع الله درجاتهم

كان ظالماً لهم كما جرى من بعضهم يوم الحديبية وقد تابوا منه مع أنه كان قصدهم الخير

وكذلك قصة حاطب بن أبي بلتعة تاب منها بل زانهم كان يتوب توبة لو تابها صاحب

مكس لغفر له كما تاب ماعز بن مالك وأتى إلى النبي ﷺ حتى طهره بإقامة الحد عليه وكذلك الغامدية بعده وكذلك كانوا زمن عمر وغيره إذا شرب أحدهم الخمر أتى إلى أميره فقال طهرني وأقم على الحد فهذا فعل من يأتي الكبيرة منهم حين يعلمها حراما فكيف إذا أتى أحدهم الصغيرة أو ذنبا تأول فيه ثم تبين له خطؤه^(١).

أن الله سبحانه يرفع عبده بالتوبة

أن التوبة مشروعة لكل عبد للأنبياء ولمن دونهم وأن الله سبحانه يرفع عبده بالتوبة وإذا ابتلاه بما يتوب منه فالمقصود كمال النهاية لا نقص البداية فإنه تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين وهو يبذل بالتوبة السيئات حسنات والذنوب مع التوبة يوجب لصاحبه من العبودية والخشوع والتواضع والدعاء وغير ذلك ما لم يكن يحصل قبل ذلك ولهذا قال طائفة من السلف إن العبد ليفعل الذنب فيدخل به الجنة ويفعل الحسنة فيدخل بها النار يفعل الذنب فلا يزال نصب عينيه إذا ذكره تاب إلى الله ودعا وخشع له فيدخل به الجنة ويفعل الحسنة فيعجب بها فيدخل النار وفي الأثر لو لم تذبوا لحفت عليكم ما هو أعظم من الذنب وهو العجب وفي أثر آخر لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنوب أكرم الخلق عليه وفي أثر آخر يقول الله تعالى أهل ذكرى أهل مجالستي وأهل شكري أهل زيادتي وأهل طاعتي أهل كرامتي وأهل معصيتي لا اقنطهم من رحمتي إن تابوا فأنا حبيبهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب والتائب حبيب الله سواء كان شابا أو شيخا^(٢).

خير الخاطئين التوابون

فإن كل بني آدم خطاء وخير الخاطئين التوابون وقد قال تعالى ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) لِعَذَّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿[الأحزاب: ٧٢ - ٧٣] فغاية المؤمنين الأنبياء

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٢٠٦-٢٠٨.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٦ ص: ٢٠٩ - ٢١٠.

فمن دونهم هي التوبة قال الله تعالى ﴿فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] وقال نوح ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] وقال إبراهيم وإسماعيل ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقال موسى ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ودعاء نبينا بمثل ذلك كثير معروف^(١).

والقسم الممدوح هم الذين يدعونه ويتوبون اليه ويشبتون على عبادته والتوبة اليه في حال السراء فيعبدونه ويطيعونه في السراء والضراء وهم أهل الصبر والشكر كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام، فقال تعالى ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُخَضَّبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَجِئْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨] وقال تعالى ﴿فَلَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]^(٢).

أن الانبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله ودل القرآن على توبة الانبياء من ذنوبهم واستغفارهم

قد اتفق المسلمون على أن الانبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله فلا يجوز أن يقرهم على الخطأ في شيء مما يبلغونه عنه وبهذا يحصل المقصود من البعثة وأما وجوب كونه قبل أن يبعث نبيا لا يخطئ أولا يذنب فليس في النبوة يستلزم هذا وقول القائل لو لم يكن كذلك لم تحصل ثقة فيما يبلغونه عن الله كذب صريح فإن من آمن وتاب حتى ظهر فضله وصلاحه ونبأه الله بعد ذلك كما نبأ إخوة يوسف ونبأ لوطا وشعيبا وغيرهما وأيده الله تعالى بما يدل على نبوته فإنه يوثق فيما يبلغه كما يوثق بمن لم يفعل ذلك وقد تكون

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٥٢٠.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٣٧٥ والحسنة والسيئة ج: ١ ص: ١٢٢.

الثقة به أعظم إذا كان بعد الإيمان والتوبة قد صار أفضل من غيره والله تعالى قد أخبر أنه يبدل السيئات بالحسنات للتائب كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح ومعلوم أن الصحابة رضي الله عنهم من عهد الرسول ﷺ وقبل أن يصدر منهم ما يدعونه من الأحداث كانوا من خيار الخلق وكانوا أفضل من أولادهم الذين ولدوا بعد الإسلام ثم يقال وأيضا فجمهور المسلمين على أن النبي لا بد أن يكون من أهل البر والتقوى متصفا بصفات الكمال ووجوب بعض الذنوب أحيانا مع التوبة الماحية الرافعة لدرجته إلى أفضل مما كان عليه لا ينافي ذلك وأيضا فوجوب كون النبي لا يتوب إلى الله فينال محبة الله وفرحه بتوبته وترتفع درجته بذلك ويكون بعد التوبة التي يحبه الله منه خيرا مما كان قبلها فهذا مع ما فيه من التكذيب للكتاب والسنة غض من مناصب الأنبياء وسلبهم هذه الدرجة ومنع إحسان الله إليهم وتفضله عليهم بالرحمة والمغفرة ومن اعتقد أن كل من لم يكفر ولم يذنب أفضل من كل من آمن بعد كفره وتاب بعد ذنبه فهو مخالف ما علم بالإضطرار من دين الإسلام فإنه من المعلوم أن الصحابة الذين آمنوا برسول الله ﷺ بعد كفرهم وهداهم الله به بعد ضلالهم وتابوا إلى الله بعد ذنوبهم أفضل من أولادهم الذين ولدوا على الإسلام وهل يشبه بني الأنصار بالأنصار أو بنى المهاجرين بالمهاجرين إلا من لا علم له وأين المنتقل بنفسه من السيئات إلى الحسنات بنظره واستدلاله وصبره واجتهاده ومفارقته عاداته ومعاداته لأوليائه وموالاته لأعدائه إلى آخر لم يحصل له مثل هذه الحال وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية وقد قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ٦٨﴾ يَضَعُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ٧٠ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿[الفرقان: ٦٨ - ٧٠] وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجا منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا

وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يارب قد عملت أشياء لا أراها ههنا فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه فأين من يبدل الله سيئاته حسنات إلى من لم تحصل له تلك الحسنات ولا ريب أن السيئات لا يؤمر بها وليس للعبد أن يفعلها ليقصد بذلك التوبة منها فإن هذا مثل من يريد أن يحرك العدو عليه ليغلبهم بالجهاد أو يثير الأسد عليه ليقتله ولعل العدو يغلبه والأسد يفترسه بل مثل من يريد أن يأكل السم ثم يشرب الترياق وهذا جهل بل إذا قدر من ابتلى بالعدو فغلبه كان أفضل ممن لم يكن كذلك وكذلك من صادفه الأسد وكذلك من اتفق أن شرب السم فسقى ترياقا فاروقا يمنع نفوذ سائر السموم فيه كان بدنه أصح من بدن من لم يشرب ذلك الترياق والذنوب إنما تضر أصحابها إذا لم يتوبوا منها والجمهور الذين يقولون بجواز الصغائر عليهم يقولون إنهم معصومون من الإقرار عليها وحينئذ فما وصفوهم إلا بما فيه كمالهم فإن الأعمال بالخواتيم مع أن القرآن والحديث وإجماع السلف معهم في تقرير هذا الأصل فالمنكرون لذلك يقولون في تحريف القرآن ما هو من جنس قول أهل البهتان ويحرفون الكلم عن مواضعه كقولهم في قوله تعالى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] أي ذنب آدم وما تأخر من ذنب أمته فإن هذا ونحوه من تحريف الكلم عن مواضعه أما أولا فلأن آدم تاب وغفر له ذنبه قبل أن يولد نوح وإبراهيم فكيف يقول له إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر الله لك ذنب آدموأما ثانيا فلأن الله يقول ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] فكيف يضاف ذنب أحد إلى غير هو أما ثالثا فلأن في حديث الشفاعة الذي في الصحاح أنهم يأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته اشفع لنا إلى ربك فيذكر خطيئته ويأتون نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى فيقول لهم اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكان سبب قبول شفاعته كما عبوديته وكمال مغفرة الله له فلو كانت هذه لأدم لكان يشفع لأهل الموقف وأما رابعا فلأن هذه الآية لما نزلت قال أصحابه رضي الله عنهم يا رسول الله هذا لك فما لنا فأنزل الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ

لِيَزِدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ﴿٤﴾ [الفتح: ٤] فلو كان ما تأخر ذنوبهم لقال هذه الآية لكم وأما خامسا فكيف يقول عاقل إن الله غفر ذنوب أمته كلها وقد علم أن منهم من يدخل النار وإن خرج منها بالشفاعة فهذا وأمثاله من خيار تأويلات المانعين لما دل عليه القرآن من توبة الأنبياء من ذنوبهم واستغفارهم وزعمهم أنه لم يكن هناك ما يوجب توبة ولا استغفار ولا تفضل الله عليه بمحبته وفرحه بتوبتهم ومغفرته ورحمته لهم فكيف بسائر تأويلاتهم التي فيها من تحريف القرآن وقول الباطل على الله ما ليس هذا موضع بسطه وأما قوله إن هذا ينفي الوثوق ويوجب التنفير فليس هذا بصحيح فيما قبل النبوة ولا فيما يقع خطأ ولكن غايته أن يقال هذا موجود فيما تعمد من الذنب فيقال بل إذا اعترف الرجل الجليل القدر بما هو عليه من الحاجة إلى توبته واسغفاره ومغفرة الله له ورحمته دل ذلك على صدقه وتواضعه وعبوديته لله وبعده عن الكبر والكذب بخلاف من يقول ما بي حاجة إلى شيء من هذا ولا يصدر مني ما يحوجني إلى مغفرة الله لي وتوبته على ويصر على كل ما يقوله ويفعله بناء على أنه لا يصدر منه ما يرجع عنه فإن مثل هذا إذا عرف من رجل نسبه الناس إلى الكذب والكفر والجهل وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لن يدخل أحد منكن الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل فكان هذا من أعظم مما دحه وكذلك قوله ﷺ لا تطروني ما أظرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله وكل من سمع هذا عظمه بمثل هذا الكلام وفي الصحيحين عنه أنه كان يقول اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطيئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير وهذا كما أنه لما قال النبي ﷺ لا تتخذوا قبوري عيدا وصلوا على حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني رواه أبوداود وغيره وقال اللهم لا تجعل قبوري وثنا يعبد رواه مالك وغيره كان هذا التواضع مما زاده الله به رفعة وكذلك لما سجد له بعض أصحابه فنهاه عن ذلك وقال إنه لا يصلح السجود إلا لله وكذلك لما كان بعض الناس يقول ما شاء الله وشاء محمد قال أجعلتني ندا لله قل ما شاء الله ثم شاء محمد وقوله في دعائه أنا البائس الفقير المستغيث المستجير

الوجل المشفق المعترف المقر بذنبه أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهاً المذنب
الذليل وأدعوك دعاء الخائف من خضعت له رقبته وذل جسده ورغم أنفه لك ونحو هذه
الأحوال التي رفع الله بها درجاته بما اعترف به من فقر العبودية وكمال الربوبية والغنى
عن الحاجة من خصائص الربوبية فأما العبد فكماله في حاجته إلى ربه وعبوديته وفقره
وفاقته فكلما كانت عبوديته أكمل كان أفضل وصدور ما يحوجه إلى التوبة والإستغفار مما
يزيده عبودية وفقراً وتواضعاً ومن المعلوم أن ذنوبهم ليست كذنوب غيرهم بل كما يقال
حسنت الأبرار سيئات المقربين لكن كل يخاطب على قدر مرتبته وقد قال ﷺ كل بنى آدم
خطاء وخير الخطائين التوابون وما ذكره من عدم الوثوق والتنفير قد يحصل مع الإصرار
والإكثار ونحو ذلك وأما اللطم الذي يقترب به التوبة والإستغفار أو ما يقع بنوع من التأويل
وما كان قبل النبوة فإنه مما يعظم به الإنسان عند أولى الأبصار وهذا عمر بن الخطاب
رضي الله عنه قد علم تعظيم رعيته له وطاعتهم مع كونه دائماً كان يعترف بما يرجع عنه
من خطأ وكان إذا اعترف بذلك وعاد إلى الصواب زاد في أعينهم وازدادوا له محبة
وتعظيماً ومن أعظم ما نقمه الخوارج على علي أنه لم يتب من تحكيم الحكيمين وهم وإن
كانوا جهالاً في ذلك فهو يدل على أن التوبة لم تكن تنفرهم وإنما نفرهم الأصرار على ما
ظنوه هم ذنباً والخوارج من أشد الناس تعظيماً للذنوب ونفورا عن أهلها حتى أنهم
يكفرون بالذنب ولا يحتملون لمقدمهم ذنباً ومع هذا فكل مقدم لهم تاب عظموه وأطاعوه
ومن لم يتب عادوه فيما يظنونه ذنباً وإن لم يكن ذنباً فعلم أن التوبة والإستغفار لا توجب
تنفيراً ولا تزيل وثوقاً بخلاف دعوى البراءة مما يتاب منه ويستغفر ودعوى السلامة مما
يحوج الرجوع إلى الله واللجأ إليه فإنه هو الذي ينفر القلوب ويزيل الثقة فإن هذا لم يعلم
أنه صدر إلا عن كذاب أو جاهل وأما الأول فإنه يصدر عن الصادقين العالمين ومما يبين
ذلك أنه لم يعلم أحد طعن في نبوة أحد من الأنبياء ولا قدح في الثقة به بما دلت عليه
النصوص التي تيب منها ولا احتاج المسلمون إلى تأويل النصوص بما هو من جنس
التحريف لها كما يفعله من يفعل ذلك والتوراة فيها قطعة من هذا وما أعلم أن بني
إسرائيل قدحوا في نبي من الأنبياء بتوبته في أمر من الأمور وإنما كانوا يقدحون فيهم
بالإفتراء عليهم كما كانوا يؤذن موسى عليه السلام وإلا فموسى قد قتل القبطي قبل

النبوة وتاب من سؤال الرؤية وغير ذلك بعد النبوة وما أعلم أحدا من بنى إسرائيل قدح فيه بمثل هذا وما جرى في سورة النجم من قوله تلك الغرائق العلى وإن شفاعتها لترتجى على المشهور عند السلف والخلف من أن ذلك جرى على لسانه ثم نسخه الله وأبطله هو من أعظم المفتريات على قول هؤلاء ولهذا كان كثير من الناس يكذب هذا وإن كان مجوزا عليهم غيره إما قبل وإما بعدها لظنه أن في ذلك خطأ في التبليغ وهو معصوم في التبليغ بالإتفاق والعصمة المتفق عليها أنه لا يقر على خطأ في التبليغ بالإجماع ومن هذا فلم يعلم أحد من المشركين نفر برجوعه عن هذا وقوله إن هذا مما ألقاه الشيطان ولكن روى أنهم نفروا لما رجع إلى ذم آلهتهم بعد ظنهم أنه مدحها فكان رجوعهم لدوامه على ذمها لا لأنه قال شيئا ثم قال إن الشيطان ألقاه وإذا كان هذا لم ينفر فغيره أولى أن لا ينفر وأيضا فقد ثبت أن النسخ نفر طائفة كما قال ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] وقوله ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٢] فالتبديل الذي صرحوا بأنه منفر ونفروا به عنه لم يكن مما يجب نفيه عنه فكيف بالرجوع إلى الحق الذي لم يعلم أنهم نفروا منه وهو أقل تنفيرا لأن النسخ فيه رجوع عن الحق إلى حق وهذا رجوع إلى حق من غير حق ومعلوم أن الإنسان يحمد على ترك الباطل إلى الحق ما لا يحمد على ترك ما لم يزل يقول إنه حق وإذا كان جائزا فهذا أولى وإذا كان في ذلك مصلحة ففي هذا أيضا مصالح عظيمة ولولا أن فيها وفي العلم بها مصالح لعباده لم يقصها في غير موضع من كتابه وهو سبحانه وله الحمد لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنبا إلا ذكر معه توبته لينزهه عن النقص والعيب ويبين أنه ارتفعت منزلته وعظمت درجته وعظمت حسناته وقربه إليه بما أنعم الله عليه من التوبة والإستغفار والأعمال الصالحة التي فعلها بعد ذلك وليكون ذلك أسوة لمن يتبع الأنبياء ويقتدي بهم إلى يوم القيامة ولهذا لما لم يذكر عن يوسف توبة في قصة امرأة العزيز دل على أن يوسف لم يذنب أصلا في تلك القصة كما يذكر من يذكر أشياء نزهه الله منها

بقول تعالى ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]

وقد قال تعالى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهٖ﴾ [يوسف: ٢٤] والهم كما قال الإمام أحمد رضي الله عنه همان هم خطرات وهم إصرار وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال إن الله تعالى يقول إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة كاملة فإن عملها فاكتبوها عشرا إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن تركها فاكتبوها له حسنة فإنما تركها من جرايف يوسف عليه الصلاة والسلام لما هم ترك همه لله فكتب الله به حسنة كاملة ولم يكتب عليه سيئة قط بخلاف امرأة العزيز فإنها همت وقالت وفعلت فرأودته بفعلها وكذبت عليه عند سيدها واستعانت بالنسوة وحبسته لما اعتصم وامتنع عن الموافقة على الذنب ولهذا قالت ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتِي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣] وهذا من قولها كما دل عليه القرآن ليس من كلام يوسف عليه السلام بل لما قالت هذا كان يوسف غائبا في السجن لم يحضر عند الملك بل لما برأته هي والنسوة استدعاه الملك بعد هذا وقال ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهٖءَ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أُمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] وأما من ذكر الله تعالى وتبارك عنه ذنبا كآدم عليه السلام فإنه لما قال ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (١١١) ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿طه: ١٢١ - ١٢٢﴾ وقال ﴿فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهٖ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] وقال تعالى عن داود عليه السلام ﴿وَلَمَّا دَاوُدُ أُنْمِئَ فَنَنَّهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿ص: ٢٤ - ٢٥﴾ وقال لموسى عليه السلام والصلاة ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿النمل: ١٠ - ١١﴾ ومن احتج على امتناع ذلك بأن الإقتداء بهم مشروع والإقتداء بالذنب لا يجوز قيل له إنما يقتدى بهم فيما أقروا عليه لا فيما نهوا عنه كما أنه إنما يقتدى بهم فيما أقروا عليه ولم ينسخ ولم ينسه فيما نسخ وحينئذ فيكون التأسى بهم مشروعا مأمورا به لا يمنع وقوع ما ينهون عنه ولا يقرون عليه لا من هذا ولا من هذا وإن كان اتباعهم في المنسوخ لا يجوز بالإتفاق ومما يبين أن النسخ أشد تنفيرا أن الإنسان إذا رجع عن شيء

إلى آخر وقال الأول الذي كنت عليه حق أمرني الله به ورجوعي عنه حق أمرني الله به كان هذا أقرب إلى النفور عنه من أن يقول رجعت عما لم يأمرني الله به فإن الناس كلهم يحمدون من قال هذا وأما من قال أمري بهذا حق ونهيي عنه حق فهذا مما نفر عنه كثير من السفهاء وأنكره من أنكره من اليهود وغيرهم^(١).

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ومن اتبعهم على ما أخبر الله به في كتابه وما ثبت عن رسوله من توبة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب التي تابوا منها وهذه التوبة رفع الله بها درجاتهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وعصمتهم هي من أن يقرؤا على الذنوب والخطأ فإن من سوى الأنبياء يجوز عليهم الذنب الخطأ من غير توبة والأنبياء عليهم السلام يستدركهم الله فيتوب عليهم ويبين لهم كما قال تعالى ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]^(٢).

أن آدم قد تاب الله عليه قبل أن ينزل إلى الأرض

• أن آدم قد تاب الله عليه قبل أن ينزل إلى الأرض قال تعالى ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (١٣) ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿طه: ١٢١ - ١٢٢﴾ وقال ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] ذكر أنه قال ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]^(٣).

وآدم عليه السلام وإن كان أكل من الشجرة فقد تاب الله عليه واجتنباه وهداه^(٤).

الرد على تفسير الرافضي^(٥) لقوله تعالى ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ٣٩٧-٤١٣.

(٢) رسالة في التوبة ج: ١ ص: ٢٦٩.

(٣) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٣٦١ ومجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣١٩.

(٤) الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٤١٥.

(٥) صاحب كتاب منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (من الشيعة).

قال الرافضي المنهج الثاني في الأدلة المأخوذة من القرآن والبراهين الدالة على إمامة علي من الكتاب العزيز قوله تعالى ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] روى الفقيه ابن المغازلي الشافعي بإسناده عن ابن عباس قال سئل النبي ﷺ عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه قال سأله بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين أن يتوب عليه فتاب عليه وهذه فضيلة لم يلحقه أحد من الصحابة فيها فيكون هو الإمام لمساواته النبي ﷺ في التوسل به إلى الله تعالى والجواب من وجوه أحدها المطالبة بصحة هذا النقل فقد عرف أن مجرد رواية ابن المغازلي لا يسوغ الاحتجاج بها باتفاق أهل العلم الثاني أن هذا الحديث كذب موضوع باتفاق أهل العلم وذكره أبو الفرج بن الجوزي في الموضوعات عن طريق الدار قطني فإن له كتباً في الأفراد والغرائب قال الدار قطني تفرد به عمرو بن ثابت عن أبيه عن أبي المقدم لم يروه عنه غير حسن الأشقر قال يحيى بن معين عمرو بن ثابت ليس ثقة ولا مأمونا وقال ابن حبان يروي الموضوعات عن الأثبات الثالث إن الكلمات التي تلقاها آدم قد جاءت مفسرة في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وقد روي عن السلف هذا وما يشبهه وليس في شيء من النقل الثابت عنهم ما ذكره من القسم الرابع انه معلوم بالاضطرار أن من هو دون آدم من الكفار والفساق إذا تاب أحدهم إلى الله تاب الله عليه وأن لم يقسم عليه بأحد فكيف يحتاج آدم في توبته إلى ما لا يحتاج إليه أحد من المذنبين لا مؤمن ولا كافر وطائفة قد رويوا انه توسل بالنبي ﷺ حتى قبل توبته وهذا كذب وروي عن مالك في ذلك حكاية في خطابه للمنصور وهو كذب على مالك وإن كان ذكرها القاضي عياض في الشفا الخامس أن النبي ﷺ لم يأمر أحدا بالتوبة بمثل هذا الدعاء بل ولا أمر أحدا بمثل هذا الدعاء في توبة ولا غيرها بل ولا شرع لامته أن يقسموا على الله بمخلوق ولو كان هذا الدعاء مشروعاً لشرعه لامته السادس أن الأقسام على الله بالملائكة والأنبياء أمر لم يرد به كتاب ولا سنة بل قد نص غير واحد من أهل العلم كأبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما على انه لا يجوز أن يقسم على الله بمخلوق وقد بسطنا الكلام على ذلك السابع أن هذا لو كان مشروعاً فآدم نبي كريم كيف يقسم على

الله بمن هو اكرم عليه منه ولا ريب أن نبينا ﷺ أفضل من آدم لكن آدم أفضل من علي وفاطمة وحسن وحسين الثامن أن يقال هذه ليست من خصائص الأئمة لأنها قد ثبتت لفاطمة وخصائص الأئمة لا تثبت للنساء وما لم يكن من خصائصهم لم يستلزم الإمامة فان دليل الإمامة لا بد أن يكون ملزوما لها يلزم من وجوده استحقاقها فلو كان هذا دليلا على الإمامة لكان من يتصف به يستحقها والمرأة لا تكون إماما بالنص والإجماع^(١).

ولم يعذر الله أحدا قط بالقدر (فمن تاب اشبه اباه آدم ومن اصر واحتج بالقدر اشبه ابليس)

لم يعذر الله أحدا قط بالقدر ولو عذر به لكان أنبياؤه وأولياؤه أحق بذلك وآدم إنما حج موسى لأنه لأمه على المصيبة التي أصابت الذرية فقال له لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة وما أصاب العبد من المصائب فعليه أن يسلم فيها لله ويعلم أنها مقدورة عليه كما قال تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١] قال علقمة وقد روى عن ابن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها مقدورة عليه كما ويسلم فالعبد مأمور بالتقوى والصبر فالتقوى فعل ما أمر به ومن الصبر على ما أصابه وهذا هو صاحب العاقبة المحمودة كما قال يوسف عليه السلام ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَتَى وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠]، قال تعالى ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقال ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقال ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥] لابد لكل عبد من أن يقع منه ما يحتاج معه إلى التوبة والإستغفار وابتلى بما يحتاج معه إلى الصبر فلهذا يؤمر بالصبر والإستغفار كما قيل لأفضل الخلق ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [غافر: ٥٥] وقد بسط الكلام في غير هذا الموضوع على مناظرة آدم

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ١٣٠.

وموسى فإن كثيرا من الناس حملوها على محامل مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الأمة ومنهم من كذب بالحديث لعدم فهمه له والحديث حق يوجب أن الإنسان إذا جرت عليه مصيبة بفعل غيره مثل أبيه أو غير أبيه لا سيما إذا كان أبوه قد تاب منها فلم يبق عليه من جهة الله تبعة كما جرى لآدم صلوات الله عليه قال تعالى ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (البقرة: ١٢١ - ١٢٢) وقال ﴿فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ٣٧) وكان آدم وموسى أعلم بالله من أن يحتج أحدهما لذنبه بالقدر ويوافقه الآخر ولو كان كذلك لم يحتج آدم إلى توبة ولا أهبط من الجنة وموسى هو القائل ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ (النقص: ١٦) وهو القائل ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٥١) وهو القائل ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٥٥) وهو القائل لقومه ﴿فَتَوْبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٤) فلو كان المذنب يعذر بالقدر لم يحتج إلى هذا بل كان الاحتجاج بالقدر لما حصل من موسى ملام على ما قدر عليه من المصيبة التي كتبها الله وقدرها ومن الإيمان بالقدر أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه فالمؤمن يصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب والمعائب والجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه وسيئاته ولا يعذر بالقدر من أساء إليه ولا يذكر القدر عند ما يسره الله له من الخير فعكس القضية بل كان الواجب عليه إذا عمل حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسرها وتفضل بها فلا يعجب بها ولا يضيفها إلى نفسه كأنه الخالق لها وإذا عمل سيئة استغفر وتاب منها وإذا أصابته مصيبة سماوية أو بفعل العباد يعلم أنها كانت مقدرة مقضية عليه^(١).

الناس مأمورون عند المصائب التي تصيبهم بأفعال الناس أو بغير أفعالهم بالتسليم للقدر وشهود الربوبية كما قال تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٩٦-٩٨.

قَلْبُهُ، وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿[التغابن: ١١]﴾ قال ابن مسعود أو غيره هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان فأمره بالحرص على ما ينفعه وهو طاعة الله ورسوله فليس للعباد أنفع من طاعة الله ورسوله وأمره إذا أصابته مصيبة مقدرة أن لا ينظر إلى القدر ولا يتحسر بتقدير لا يفيد ويقول قدر الله وما شاء فعل ولا يقول لو أني فعلت لكان كذا فيقدر ما لم يقع يتمنى أن لو كان وقع فإن ذلك إنما يورث حسر وحزنا لا يفيد والتسليم للقدر هو الذي ينفعه كما قال بعضهم الأمر أمران أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه وما زال أئمة الهدى من الشيوخ وغيرهم يوصون الإنسان بأن يفعل المأمور ويترك المحذور ويصبر على المقدور وإن كانت تلك المصيبة بسبب فعل آدمي فلو أن رجلا أنفق ماله في المعاصي حتى مات ولم يخلف لولده مالا أو ظلم الناس بظلم صاروا لأجله يبغضون أولاده ويحرمونهم ما يعطونه لأمثالهم لكان هذا مصيبة في حق الأولاد حصلت بسبب فعل الأب فإذا قال أحدهم لأبيه أنت فعلت بنا هذا قيل للإبن هذا كان مقدورا عليكم وأنتم مأمورون بالصبر على ما يصيبكم والأب عاص لله فيما فعله من الظلم والتبذير ملوم على ذلك لا يرتفع عنه ذم الله وعقابه بالقدر السابق فإن كان الأب قد تاب توبة نصوحا وتاب الله عليه وغفر له لم يجز ذمه ولا لومه بحال لا من جهة حق الله فإن الله قد غفر له ولا من جهة المصيبة التي حصلت لغيره بفعله إذ لم يكن هو ظالما لأولئك فإن تلك كانت مقدرة عليهم وهذا مثال قصة آدم فإن آدم لم يظلم أولاده بل إنما ولدوا بعد هبوطه من الجنة وإنما هبط آدم وحواء ولم يكن معهما ولد حتى يقال أن ذنبهما تعدى إلى ولدهما ثم بعد هبوطهما إلى الأرض جاءت الأولاد فلم يكن آدم قد ظلم أولاده ظلما يستحقون به ملامه وكونهم صاروا في الدنيا دون الجنة أمر كان مقدرا عليهم لا يستحقون به لوم آدم وذنب آدم كان قد تاب منه قال الله تعالى ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٣١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿طه: ١٢١ - ١٢٢﴾ وقال ﴿فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٢﴾﴾

[البقرة: ٣٧] فلم يبق مستحقاً لدم ولا عقاب وموسى كان أعلم من أن يلومه لحق الله على ذنب قد علم أنه تاب منه فموسى أيضاً قد تاب من ذنب عمله وقد قال موسى ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وآدم أعلم من أن يحتج بالقدر على أن المذنب لا ملام عليه فكيف وقد علم أن إبليس لعنه الله بسبب ذنبه وهو أيضاً كان مقدراً عليه وآدم قد تاب من الذنب وإستغفر فلو كان الإحتجاج بالقدر نافعا له عند ربه لإحتج ولم يتب ويستغفر^(١). وقد روى في الإسرائيليات أنه إحتج به وهذا مما لا يصدق به لو كان محتماً فكيف إذا خالف أصول الإسلام بل أصول الشرع والعقل نعم إن كان ذكر القدر مع التوبة فهذا ممكن لكن ليس فيما أخبر الله به عن آدم شيء من هذا ولا يجوز الإحتجاج في الدين بالإسرائيليات إلا ما ثبت نقله بكتاب الله أو سنة رسوله فإن النبي ﷺ قد قال إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وأيضاً فلو كان الإحتجاج بالقدر نافعا له فلماذا أخرج من الجنة وأهبط إلى الأرض فإن قيل وهو قد تاب فلماذا بعد التوبة أهبط إلى الأرض قيل التوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعملها فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته قال الله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٢١ عمران: ٨٩] في التائب من الردة وقال في كاتم العلم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠] وقال ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقال في القذف ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٥] وقال ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [٧٠] وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧٠ - ٧١] وقال ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢] ولما تاب كعب بن مالك وصاحبه أمر رسول الله ﷺ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣١٩-٣٢٣.

المسلمين بهجرهم حتى نساءهم ثمانين ليلة وقال النبي ﷺ في الغامدية لما رجمها لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله وقد أخبر الله عن توبته على بنى إسرائيل حيث قال لهم موسى ﴿يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وإذا كان الله تعالى قد يبتلى العبد من الحسنات والسيئات والسراء والضراء بما يحصل معه شكره وصبره أم كفره وجزعه وطاعته أم معصيته فالتائب أحق بالإبتلاء فأدم أهبط إلى الأرض إبتلاء له ووفقه الله في هبوطه لطاعته فكان حاله بعد الهبوط خيرا من حاله قبل الهبوط^(١).

خير الخلق الذين يصبرون على المصائب ويستغفرون

خير الخلق الذين يصبرون على المصائب ويستغفرون من المعائب كما قال تعالى ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] وقال تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [٢٢] لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣] وقال تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقد ذكر الله تعالى عن ادم عليه السلام انه لما فعل من فعل قال ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وعن ابليس انه قال ﴿يَا آغْوِينِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] فمن تاب اشبه اباه آدم ومن اصر واحتج بالقدر اشبه ابليس والحديث الذي في الصحيحين في احتجاج ادم وموسى عليهما السلام لما قال له

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣١٩-٣٢٣.

موسى انت ادم ابوالبشر خلقتك الله بيده ونفخ فيك من روحه وعلمك اسماء كل شىء
لماذا اخرجتنا ونفسك من الجنة فقال له ادم انت موسى الذى اصطفاك الله برسالته
وبكلامه وخط لك التوراة بيده فبكم وجدت مكتوبا على قبل ان اخلق ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ
فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] قال بكذا وكذا سنة قال فحجج ادم موسى وهذا الحديث فى الصحيحين
من حديث ابى هريرة وقد روى باسناد جيد من حديث عمر رضى الله عنه فآدم عليه
السلام انما حج موسى لان موسى لاه على ما فعل لاجل ما حصل لهم من المصيبة
بسبب اكله من الشجرة لم يكن لومه له لاجل حق الله فى الذنب فان ادم كان قد تاب
من الذنب كما قال تعالى ﴿فَلَقَّيْنِ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]
وقال تعالى ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢] وموسى ومن هودون موسى عليه
السلام يعلم انه بعد التوبة والمغفرة لا يبقى ملام على الذنب وآدم اعلم بالله من ان يحتج
بالقدر على الذنب وموسى عليه السلام اعلم بالله تعالى من ان يقبل هذه الحجة فان هذه
لو كانت حجة على الذنب لكانت حجة لابليس عدو آدم وحجة لفرعون عدو موسى
وحجة لكل كافر وفاجر وبطل امر الله ونهيه بل انما كان القدر حجة لآدم على موسى
لانه لام غيره لاجل المصيبة التى حصلت له بفعل ذلك وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه
وقد قال تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]
وقال انس خدمت النبي عشر سنين فما قال لى اف قط ولا قال لشىء فعلته لم فعلته ولا
لشىء لم افعله لم لا فعلته وكان بعض اهله اذا عاتبنى على شىء يقول دعوه فلو قضى
شىء لكان^(١).

فإن آدم اعترف بانه هو الفاعل للخطيئة وانه هو الظالم لنفسه وتاب من ذلك ولم
يقبل إن الله ظلمنى ولا أن الله أمرنى فى الباطن بالأكل قال تعالى ﴿فَلَقَّيْنِ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ
كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] وقال تعالى ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ١٠٧-١٠٩.

لَنَا وَتَرْحَمَنَا لِنَكُونَ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴿٢٣﴾ [الأعراف: ٢٣] وإبليس أصر واحتج بالقدر فقال ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] ^(١).

والناس الذين ضلوا فى القدر على ثلاثة أصناف

فإن القدر يجب الإيمان به ولا يجوز الاحتجاج به على مخالفة أمر الله ونهيه ووعدته ووعيده والناس الذين ضلوا فى القدر على ثلاثة أصناف قوم آمنوا بالأمر والنهى والوعد والوعيد وكذبوا بالقدر وزعموا أن من الحوادث ما لا يخلقه الله كالمعتزلة ونحوهم وقوم آمنوا بالقضاء والقدر ووافقوا أهل السنة والجماعة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه خالق كل شئ وربّه ومليكه لكن عارضوا هذا بالأمر والنهى وسموا هذا حقيقة وجعلوا ذلك معارضا للشرعية وفيهم من يقول إن مشاهدة القدر تنفى الملام والعقاب وإن العارف يستوى عنده هذا وهذا وهم فى ذلك متناقضون مخالفون للشرع والعقل والذوق والوجد فإنهم لا يسوون بين من أحسن إليهم وبين من ظلمهم ولا يسوون بين العالم والجاهل والقادر والعاجز ولا بين الطيب والخبيث ولا بين العادل والظالم بل يفرقون بينهما ويفرقون أيضا بموجب أهوائهم وأغراضهم لا بموجب الأمر والنهى ولا يقفون لا مع القدر ولا مع الأمر بل كما قال بعض العلماء أنت عند الطاعة قدرى وعند المعصية جبرى أى مذهب يوافق هواك تمذهبت بهولا يوجد أحد يحتج بالقدر فى ترك الواجب وفعل المحرم إلا وهو متناقض لا يجعله حجة فى مخالفة هواه بل يعادى من آذاه وإن كان محقا ويجب من وافقه على غرضه وإن كان عدوا لله فيكون حبه وبغضه وموالاته ومعاداته بحسب هواه وغرضه وذوق نفسه ووجدته لا بحسب أمر الله ونهيه ومحبه وبغضه وولايته وعداوته إذ لا يمكنه أن يجعل القدر حجة لكل أحد فإن هذا مستلزم للفساد الذى لا صلاح معه والشر الذى لا خير فيه إذ لو جاز أن يحتج كل أحد بالقدر لما عوقب معتد ولا اقتص من ظالم باغ ولا أخذ لمظلوم حقه من ظالمه ولفعل كل أحد ما يشتهيه من غير معارض يعارضه فيه وهذا فيه من الفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد فمن المعلوم بالضرورة أن الأفعال تنقسم إلى ما ينفع العباد وإلى ما يضرهم والله قد

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٣٢٨.

بعث رسوله ﷺ يأمر المؤمنين بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث فمن لم يتبع شرع الله ودينه تبع ضده من الأهواء والبدع وكان احتجاجه بالقدر من الجدل بالباطل ليدحض به الحق لا من باب الاعتماد عليه ولزمه أن يجعل كل من جرت عليه المقادير من أهل المعاذير وإن قال أنا أعذر بالقدر من شهوده وعلم أن الله خالق فعله ومحركه لا من غاب عن هذا الشهود أو كان من أهل الجحود قيل له فيقال لك وشهود هذا وجحود هذا من القدر فالقدر متناول لشهود هذا وجحود هذا فإن كان هذا موجبا للفرق مع شمول القدر لهما فقد جعلت بعض الناس محمودا وبعضهم مذموما مع شمول القدر لهما وهذا رجوع إلى الفرق واعتصام بالأمر والنهي وحيث أن فقد نقضت أصلك وتناقضت فيه وهذا لازم لكل من دخل معك فيه ثم مع فساد هذا الأصل وتناقضه فهو قول باطل وبدعة مضلة فمن جعل الإيمان بالقدر وشهوده عذرا في ترك الواجبات وفعل المحظورات بل الإيمان بالقدر حسنة من الحسنات وهذه لا تنهض بدفع جميع السيئات فلو أشرك مشرك بالله وكذب رسوله ناظرا إلى أن ذلك مقدر عليه لم يكن ذلك غافرا لتكذيبه ولا مانعا من تعذيبه فإن الله لا يغفر أن يشرك به سواء كان المشرك مقرا بالقدر وناظرا إليه أو مكذبا به أو غافلا عنه فقد قال إبليس ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ بِالْإِيمَانِ الَّتِي آتَيْتَنِي بِهَا لَوْلَاكَ لَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] فاصر واحتج بالقدر فكان ذلك زيادة في كفره وسببا لمزيد عذابه وأما آدم عليه السلام فإنه قال ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَإِنِّي خَشِيتُكَ فِي الْمَقَامِ الْمُبِينِ﴾ [البقرة: ٣٧] فمن استغفر وتاب كان آدميا سعيدا ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسيا شقيا وقد قال تعالى لإبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] وهذا الموضع ضل فيه كثير من الخائضين في الحقائق فانهم يسلكون أنواعا من الحقائق التي يجدونها ويدوقونها ويحتجون بالقدر فيما خالفوا فيه الأمر فيضاهون المشركين الذين كانوا يتدعون دينا لم يشرعه الله ويحتجون بالقدر على مخالفة

أمر الله^(١).

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[البقرة: ٣٨ - ٣٩]

فان الرسل جميعهم أمروا بالتوحيد

فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه وما أعد له لأوليائه من كرامته وما وعد به أعداءه من عذابه ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته العلى التى تعجز العقول عن معرفتها وأمثلة ذلك إلا بالرسول الذين أرسلهم الله إلى عباده فالمؤمنون بالرسول المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زلفى ويرفع درجاتهم ويكرمهم فى الدنيا والآخرة وأما المخالفون للرسول فإنهم ملعونون وهم عن ربهم ضالون محجوبون ونقال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة^(٢).

كل أمة مشركة أصل شركها عدم كتاب منزل من السماء وكل أمة مخرصة أصل اخلاصها كتاب منزل من السماء فان بنى آدم محتاجون إلى شرع يكمل فطرهم فافتتح الله الجنس بنبوآء آدم كما قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وهلم جرا فمن خرج عن النبوات وقع فى الشرك وغيره وهذا عام فى كل كافر غير كتابى فانه مشرك وشركه لعدم إيمانه بالرسول الذين قال الله فيهم ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ولم يكن الشرك أصلا فى الآدميين بل كان آدم ومن كان على دينه من بنى على التوحيد لله لا اتباعهم النبوة قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩] قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام فبتركهم اتباع شريعة الانبياء وقعوا فى الشرك لا بوقوعهم فى الشرك

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٣٠٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٢٢.

خرجوا عن شريعة الاسلام فان آدم أمرهم بما أمره الله به حيث قال له ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة: ٣٨ - ٣٩﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿طه: ١٢٣ - ١٢٦﴾ فهذا الكلام الذي خاطب الله به آدم وغيره لما اهبطهم قد تضمن أنه أوجب عليهم اتباع هداه المنزل وهو الوحي الوارد على أنبيائه وتضمن ان من اعرض عنه وان لم يكذب به فانه يكون يوم القيامة في العذاب المهين وان معيشته تكون ضنكا في هذه الحياة وفي البرزخ والآخرة وهو المضمونة النكدة المحشوة بأنواع الهموم والغموم والاحزان كما أن الحياة الطيبة هي لمن آمن وعمل صالحا فمن تمسك به فانه لا يشرك بربه فان الرسل جميعهم أمروا بالتوحيد وأمروا به قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥) فبين انه لا بد ان يوحى بالتوحيد إلى كل رسول وقال تعالى ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (الزخرف: ٤٥) فبين انه لم يشرع الشرك قط فهذان النصان قد دلا على أنه امر بالتوحيد لكل رسول ولم يأمر بالاشراك قط وقد أمر آدم وبنية من حين اهبط باتباع هداه الذي يوحىه إلى الأنبياء فثبت ان علة الشرك كان من ترك اتباع الانبياء والمرسلين فيما أمروا به من التوحيد والدين لا أن الشرك كان علة للكفر بالرسل فان الاشراك والكفر بالرسل متلازمان في الواقع فهذا في الكفار بالنبوات المشركين^(١).

بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين مبشرين بنعمة الله التامة في جنته لمن أطاعهم فاتبع الذكر الذي أنزل عليهم واستعمل القسط الذي بعثوا به ومنذرين بتعظيمهم عقاب الله لمن أعرض عن ذلك وعصاهم فكان من الظالمين قال تعالى ﴿قَالَ أَهَاطَا مِنْهَا جَمِيعًا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٠٦-١٠٧.

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤] وقال تعالى ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩] ^(١).

قال تعالى ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] اخلاص الدين لله وهو عبادته وحده لا شريك له وهو حقيقة قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] فالأول وهو إسلام الوجه هو النية وهذا الثاني وهو الاحسان هو العمل وهذا الذي ذكره في هاتين الآيتين هو الايمان العام والاسلام العام الذي أوجبه الله على جميع عباده من الأولين والآخرين وهو دين الله العام الذي لا يقبل من احد سواه وبه بعث جميع الرسل كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ^(٢).

النعيم التام هو في الدين الحق

أصل جامع في الاعتصام بكتاب الله ووجوب اتباعه وبيان الاهتداء به في كل ما يحتاج إليه الناس من دينهم وأن النجاة والسعادة في اتباعه والشقاء في مخالفته وما دل عليه من اتباع السنة والجماعة قال الله تعالى ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦] قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٦٤.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٤٧٠.

وفى السورة الأخرى ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١﴾ [البقرة: ٣٨ - ٣٩].

أن الأعمال التي يعملها جميع بني آدم إما أن يتخذونها ديناً أولاً يتخذونها ديناً والذين يتخذونها ديناً إما أن يكون الدين بها دين حق أو دين باطل فنقول النعيم التام هو في الدين الحق فأهل الدين الحق هم الذين لهم النعيم الكامل كما أخبر الله بذلك في كتابه في غير موضع كقوله ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿١﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧] وقوله عن المتقين المهتدين ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] وقوله تعالى ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدِ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَىٰكَ ءَايَتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿١٢٦﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦] وقوله تعالى ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] وقوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤] ووعد أهل الإيمان والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة ووعد الكفار بالعذاب التام في الدار الآخرة أعظم من أن يذكر هنا وهذا مما لم يَنَازَع فيه أحد من أهل الإسلام (٢).

أن التوحيد والإيمان بالرسول متلازمان وكذلك الإيمان باليوم الآخر هو والإيمان بالرسول متلازمان فالثلاثة متلازمة ولهذا يجمع بينها في مثل قوله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠] ولهذا أخبر أن الذين لا يؤمنون بالآخرة مشركون فقال تعالى ﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شَمَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [النزوم: ٤٥] وأخبر عن جميع الأشقياء أن الرسل انذرتهم باليوم الآخر

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٧٧.

(٢) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ١٣٧.

كما قال تعالى ﴿كَلَّمَآ أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ (٩) ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٠) ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملک: ٨ - ١١] فأخبر ان الرسل أنذرتهم وانهم كذبوا بالرسالة وقال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الزمر: ٧١] فأخبر عن اهل النار انهم قد جاءتهم الرسالة وانذروا باليوم الآخر وقال تعالى ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَّكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢٨) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُؤَيِّ بِعَصَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٢٩) ﴿يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ نَفْسَهُمُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٢٨ - ١٣٠] فأخبر عن جميع الجن والانس ان الرسل بلغتهم رسالة الله وهى آياته وأنهم اندروهم اليوم الآخر وكذلك قال ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٣١) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٣٢) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥] فأخبر انهم كفروا بآياته وهى رسالته وبلقائه وهو اليوم الآخر وقد اخبر ايضا فى غير موضع بأن الرسالة عمت بنى آدم وان الرسل جاءوا مبشرين ومنذرين كما قال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وقال تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَاللَّتِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى قوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يُمْسِكُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨ - ٤٩] فأخبر ان من آمن بالرسول واصلح من الأولين والآخرين فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقال تعالى ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا

مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ [البقرة: ٣٨]
 ومثل ذلك قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
 الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]
 فذكر ان المؤمنين بالله وباليوم الآخر من هؤلاء هم اهل النجاة والسعادة وذكر في تلك
 الآية الايمان بالرسول وفي هذه الايمان باليوم الآخر لأنهما متلازمان وكذلك الايمان
 بالرسول كلهم متلازم فمن آمن بواحد منهم فقد آمن بهم كلهم ومن كفر بواحد منهم
 فقد كفر بهم كلهم كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٥٠] إلى
 قوله ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١] الآية والتي بعدها فأخبر ان المؤمنين بجميع
 الرسل هم اهل السعادة وان المفرقين بينهم بالايمان ببعضهم دون بعض هم الكافرون
 حقا وقال تعالى ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلَزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا
 ﴿١٣﴾ أَقْرَأْ كُتِبَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَن أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
 عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَلَا نُزِرْ وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٥] فهذه
 الأصول الثلاثة توحيد الله والايمان برسله وباليوم الآخر هي امور متلازمة والحاصل ان
 توحيد الله والايمان برسله واليوم الآخر هي امور متلازمة مع العمل الصالح فأهل هذا
 الايمان والعمل الصالح هم اهل السعادة من الأولين والآخرين والخارجون عن هذا
 الايمان مشركون اشقياء فكل من كذب الرسل فلن يكون الا مشركا وكل مشرك مكذب
 للرسول وكل مشرك وكافر بالرسول فهو كافر باليوم الآخر وكل من كفر باليوم الآخر فهو
 كافر بالرسول وهو مشرك^(١).

محركات القلوب

ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عز وجل فتعصم به فتقل
 آفاتها أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته فنقول إعلم أن محركات القلوب إلى الله عز

(١) مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٣٠-٣٣.

وجل ثلاثة المحبة والخوف والرجاء وأقواها المحبة وهى مقصودة تراد لذاتها لأنها تراد فى الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول فى الآخرة قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] وقال الله تعالى ﴿فَمَنْ تَبَعَ هَذَا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق الفالحة تلقى العبد فى السير إلى محبوه وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب والرجاء يقوده فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكل أحد يجب أن يكون عبدا لله لا لغيره فإن قيل فالعبد فى بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعته على طلب محبوه فأى شىء يحرك القلوب قلنا يحركها شيان أحدهما كثرة الذكر للمحسوب لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢] الآية والثانى مطالعة آلائه ونعمائه قال الله تعالى ﴿فَاذْكُرُواْ ءَالَآءَ اللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقال تعالى ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ﴾ [النحل: ٥٣] وقال تعالى ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَّرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠] وقال تعالى ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللّٰهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثا وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو وما ورد فى الرجاء والكلام فى التوحيد واسع وإنما الغرض مبلغ التنبيه على تضمينه الاستغناء بأدنى إشارة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم^(١).

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ﴾

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٩٥-٩٦.

يَسْتَهْزِئُونَ ﴿[غافر: ٨٣] والكفار بالرسل من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب وقوم إبراهيم وموسى ومشركى العرب والهند والروم والبربر والترك واليونان والكشديين وسائر الأمم المتقدمين والمستأخرين يتبعون ظنونهم واهواءهم ويعرضون عن ذكر الله الذى آتاهم من عنده كما قال لهم لما اهبط آدم من الجنة ﴿فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[البقرة: ٣٨ - ٣٩] وفى موضع آخر ﴿فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشَقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿[طه: ١٢٣ - ١٢٤] الآية وفى أخرى ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ﴿[الأعراف: ٣٥] ثم إنهم مع أنهم ما نزل الله بما هم عليه من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الانفس يزعمون أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي والأمثال المضروبة ويسمون أنفسهم الحكماء والفلاسفة ويدعون الجدل والكلام والقوة والسلطان والمال ويصفون إتباع المرسلين بأنهم سفهاء وراذل وضلال ويسخرون منهم قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿[غافر: ٨٣] ^(١).

فإن انتفاء الخوف علة تقتضى انتفاء ما يخافه

فإن انتفاء الخوف علة تقتضى انتفاء ما يخافه ولهذا قال ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿[البقرة: ٦٢] لم يقل لا يخافون فهم لا خوف عليهم وإن كانوا يخافون الله ونفى عنهم أن يحزنوا لأن الحزن إنما يكون على ماض فهم لا يحزنون بحال لا فى القبر ولا فى عرصات القيامة بخلاف الخوف فإنه قد يحصل لهم قبل دخول الجنة ولا خوف عليهم فى الباطن كما قال تعالى ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلَىَٰ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ١٠.

ءَامِنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٢﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣] ^(١).

الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه

واما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه في مواضع وان تعلق بامر

الدين كقوله تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]

وقوله ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] وقوله ﴿إِذْ

يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] وقوله ﴿وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ﴾

[يونس: ٦٥] وقوله ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]

وامثال ذلك كثير وذلك لانه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه وما لا فائدة

فيه لا يأمر الله به نعم لا يَأْثِمُ صاحبه اذا لم يقترب بحزنه محرم كما يحزن على المصائب كما

قال النبي ان الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا على حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا

أويرحم وأشار بيده إلى لسانه وقال تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضي

الرب ومنه قوله تعالى ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يُوسُفَ وَأَيُّضْتُ عَلَيْهٗ مِنْ الْحُزَنِ فَهُوَ

كَبِيرٌ﴾ [يوسف: ٨٤] وقد تبين بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محمودا

من تلك الجهة لا من جهة الحزن كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين

عموما فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك ولكن الحزن

على ذلك اذا افضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة نهى

عنه والا كان حسب صاحبه رفع الاثم عنه من جهة الحزن وما ان افضى إلى ضعف

القلب واشتغاله به عن فعل ما امر الله ورسوله به كان مذموما عليه من تلك الجهة وان

كان محمودا من جهة اخرى واما المحبة لله والتوكل عليه والاخلاص له ونحو ذلك فهذه

كلها خير محض وهى حسنة محبوبة فى حق كل احد من النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين ومن قال ان هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط فى ذلك ان

اراد خروج الخاصة عنها فان هذه لا يخرج عنها مؤمن قط وانما يخرج عنها كافر أو منافق

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٧١.

وقد تكلم بعضهم فى ذلك بكلام بينا غلطه فيه وانه تقصير فى تحقيق هذه المقامات بكلام مبسوط وليس هذا موضعه^(١).

لطائف لغوية

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] عليم منزه عن الجهل حكيم منزه عن السفه^(٢).

ولفظ الإنباء يتضمن معنى الإعلام والإخبار لكنه فى عامة موارد استعماله أخص من مطلق الأخبار فهو يستعمل فى الإخبار بالأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة المشتركة كما قال ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١] إلى قوله ﴿قَالَ يَكَادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]^(٣).

قال تعالى ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله ﴿هُدًى يَشْفِقِينَ﴾ [البقرة: ٢] والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله ﴿وَأَجْنَبْتُمْ هُدًى لَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] وكما فى قوله ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَبَنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٦-١٧.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ٤٠٧.

(٣) النبوات ج: ١ ص: ٢٣٦.

مَنْ يُنِيبْ ﴿١٣﴾ [الشورى: ١٣] وكذلك قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ
الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣] والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان
كالايان المطلق يدخل فيه هذا وهذا^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٦.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي
 أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا
 لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ
 فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنْهُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ
 ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ
 الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا
 لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَاوُا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ
 إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي
 فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٠ - ٤٧]

ليس في القرآن آية واحدة تدل على اختصاص رسالته بالعرب
 وليس في القرآن آية واحدة تدل على اختصاص رسالته بالعرب وإنما فيه إثبات
 رسالته إليهم كما أن فيه إثبات رسالته إلى قريش وليس هذا مناقضا لهذا وفيه إثبات

رسالته إلى أهل الكتاب كما فيه أثبات رسالته إلى بني إسرائيل كقوله ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (٤٠) ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ (٤١) ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ﴾ (٤٢) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣) ﴿وَأَتَاكُمْ مِنَ النَّاسِ بِالْبَرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤٤) ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥) ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبِّهِمْ وَاتَّبَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ (٤٦) ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٠ - ٤٧] وليس هذا التخصص لليهود منافيا لذلك التعميم وفي رسالته خطاب لليهود تارة وللنصارى تارة وليس خطابه لإحدى الطائفتين ودعوته لها مناقضا لخطابه للأخرى ودعوته لها وفي كتابه خطاب للذين آمنوا من أمته في دعوته لهم إلى شرائع دينه وليس في ذلك مناقضة بأن يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم^(١).

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]

المسلمون عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا
وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال المسلمون عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا وكل ما كان من الشروط التي بين القبائل والملوك والشيوخ والأحلاف وغير ذلك فإنها على هذا الحكم باتفاق علماء المسلمين ما كان من الأمر المشروط الذي قد أمر الله به ورسوله فإنه يؤمر به كما أمر الله به ورسوله وإن كان مما نهى الله عنه ورسوله فإنه ينهى عنه كما نهى الله عنه ورسوله وليس لبنى آدم أن يتعاهدوا ولا يتعاقدوا ولا يتخالفوا ولا يتشارطوا على خلاف ما أمر الله به ورسوله بل على كل منهم أن يوفوا بالعقود والعهود التي عهدها الله إلى بني آدم كما قال الله تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ

(١) الجواب الصحيح ج: ١ ص: ٣٧٥.

يَعْبُدُكُمْ ﴿البقرة: ٤٠﴾ وكذلك ما يعقده المرء على نفس كعقد النذر أو يعقده الاثنان كعقد البيع والاجارة والهبة وغيرهما أو ما يكون تارة من واحد وتارة من اثنين كعقد الوقف والوصية فانه في جميع هذه العقود متى اشترط العاقد شيئاً مما نهى الله عنه ورسوله كان شرطه باطلاً وفي الصحيح عن عائشة رضى الله عنها عن النبي أنه قال من نذر ان يطيع الله فليطعه ومن نذر ان يعصى الله فلا يعصه والعقود المخالفة لما أمر الله به ورسوله هي من جنس دين الجاهلية وهي شعبة من دين المشركين وأهل الكتاب الذين عقدوا عقوداً امرؤا فيها بما نهى الله عنه ورسوله ونهوا فيها عما أمر الله به ورسوله فهذا أصل عظيم يجب على كل مسلم ان يتجنبه^(١).

فلا يزول فقر العبد وفاقته إلا بالتوحيد

فلا يزول فقر العبد وفاقته إلا بالتوحيد فإنه لا بد له منه وإذا لم يحصل له لم يزل فقيراً محتاجاً معذباً في طلب ما لم يحصل له والله تعالى ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] وإذا حصل مع التوحيد الاستغفار حصل له غناه وسعاده وزال عنه ما يعذبه ولا حول ولا قوة إلا بالله العبد مفتقر دائماً إلى التوكل على الله والاستعانة به كما هو مفتقر إلى عبادته فلا بد أن يشهد دائماً فقره إلى الله وحاجته في أن يكون معبوداً له وأن يكون معيناً له فلا حول ولا قوة إلا بالله ولا ملجأ من الله إلا إليه قال تعالى ﴿إِنَّمَاذِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فدلّت الآية على أن الشيطان يجعل أوليائه مخوفين ويجعل ناساً خائفين منهم ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ولا يخاف الناس كما قال ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْنَّاسَ وَأَخْشَوْا﴾ [المائدة: ٤٤] فخوف الله أمر به وخوف أولياء الشيطان نهى عنه قال تعالى ﴿لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته وقال ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۖ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]

(١) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٩٠.

وقال ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] وبعض الناس يقول يارب إنى أخافك وأخاف من لا يخافك فهذا كلام ساقط لا يجوز بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحدا فإن من لا يخاف الله أذل من أن يخاف فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان فالخوف منه قد نهى الله عنه وإذا قيل قد يؤذيني قيل إنما يؤذيك بتسليط الله له وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه فالأمر لله وإنما يسلط على العبد بذنوبه وأنت إذا خفت الله فاتقيته وتوكلت عليه كفك شر كل شر ولم يسلطه عليك فإنه قال ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرت له لم يسلط عليك كما قال ﴿وَمَا كَانَتِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] وفي الآثار يقول الله أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيها بيدي فمن أطاعني جعلت قلوب الملوك عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ولكن توبوا إلى وأطيعوا أعطفهم عليكم.

تحقيق التوحيد

وجعل الخشية والتقوى لله وحده كما قال ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] ^(١). وأما ما في القرآن من ذكر عبادته وحده ودعائه وحده والإستعانة به وحده والخوف منه وحده فكثير كقوله ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وقوله ﴿فَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١] و﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١] ^(٢).

ومن تحقيق التوحيد ان يعلم أن الله تعالى أثبت له حقا لا يشركه فيه مخلوق كالعبادة والتوكل والخوف والخشية والتقوى وقال في الخوف والخشية والتقوى ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] و﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١] ومن هذا الباب أن النبي كان يقول في خطبته من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولن يضر

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٦٨.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٢ ص: ٤٤٧.

الله شيئاً وقالوا لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد ففي الطاعة قرن اسم الرسول باسمه بحرف الواو وفي المشيئة أمر أن يجعل ذلك بحرف ثم وذلك لأن طاعة الرسول طاعة لله فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله وطاعة الله طاعة الرسول بخلاف المشيئة فليست مشيئة أحد من العباد مشيئة لله ولا مشيئة الله مستلزمة لمشيئة العباد بل ما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس وما شاء الناس لم يكن إن لم يشأ الله^(١). والله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم وللأنبياء حق وللمؤمنين حق ولبعضهم على بعض حق فحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشركوا به كما تقدم في حديث معاذ ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ويتوكلوا عليه ويرغبوا إليه ولا يجعلوا لله ندا لا في محبته ولا خشيته ولا دعائه ولا الإستعانة به كما في الصحيحين أنه قال من مات وهو يدعو ندا من دون الله دخل النار وسئل أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك وقيل له ما شاء الله وشئت فقال أجعلتنى لله ندا بل ما شاء الله وحده وقال تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وقال الله ﴿وَإِنِّي فَأَتُقُون﴾ [البقرة: ٤١]^(٢).

قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا مكروه له فبين أن الرب سبحانه يفعل ما يشاء لا يكرهه أحد على ما اختاره كما قد يكره الشافع المشفوع إليه وكما يكره السائل المسؤول إذا ألح عليه وآذاه بالمسألة فالرغبة يجب أن تكون إليه كما قال تعالى ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ والرهبة تكون من الله كما قال تعالى ﴿وَإِنِّي فَأَتُقُون﴾ [البقرة: ٤١]^(٣).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ١٠٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٠٥.

(٣) زيارة القبور ج: ١ ص: ٢٠.

فكمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله

فكمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم ان المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه أو ان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل الخلق واصلهم وقال تعالى ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ - ٢٠] وقال تعالى ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢] إلى قوله ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣] وهذا ونحوه مما فيه وصف اكابر المخلوقات بالعبادة واذم من خرج عن ذلك متعدد فى القرآن وقد اخبر انه ارسل جميع الرسل بذلك فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَآجَتَنِبُوا أَلطَّغُوتُ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى لبنى اسرائيل ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ ارْضَى وَسِعَةً فَاِئْتَنِ فَاَعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] ﴿وَإِنِّى فَاَنقُوتُ﴾ [البقرة: ٤١]^(١).

لو صححت لم تخف احدا

وقد جعل الله تعالى كتابه شفاء لما فى الصدور وقال النبى ﷺ إنما شفاء العى السؤال وكان يقول فى دعائه اللهم إنى اعوذ بك من منكرات الاخلاق والأهواء والأدواء ولن يخاف الرجل غير الله الا لمرض فى قلبه كما ذكروا ان رجلا شكأ إلى احمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال لو صححت لم تخف احدا اى خوفك من اجل زوال الصحة من قلبك ولهذا أوجب الله على عباده ان لا يخافوا حزب الشيطان بل لا يخافون غيره تعالى فقال ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] اى يخوفكم أوليائه وقال لعموم بنى اسرائيل تنبيها لنا ﴿وَإِنِّى فَاَنقُوتُ﴾ [البقرة: ٤١] وقال ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْنَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ١٧٦-١٧٧.

عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴿البقرة: ١٥٠﴾ وقال تعالى ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [المائدة: ٣] وقال ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨] وقال ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وقال ﴿أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا نَكَتُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣] ^(١).

من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس
ان كل شىء فى موضعه حسن وحيث أمر الله ورسوله بالاغلاظ على المتكلم
لبغيه وعدوانه على الكتاب والسنة فنحن مأمورون بمقابلته لم نكن مأمورين أن نخاطبه
بالتى هى أحسن ومن المعلوم أن الله تعالى يقول ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] فمن كان مؤمنا فإنه الأعلى بنص القرآن وقال ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] وقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿[المجادلة: ٢١ - ٢٠] والله محقق وعده لمن هو كذلك كائنا من كانوا مما يجب أن يعلم أنه لا يسوغ فى العقل ولا الدين طلب رضى المخلوقين لوجهين أحدهما أن هذا غير ممكن كما قال الشافعى رضى الله عنه الناس غاية لا تدرك فعليك بالامر الذى يصلحك فالزمه ودع ما سواه ولا تعانه والثانى أنا مأمورون بأن نتحرى رضى الله ورسوله كما قال تعالى ﴿يُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢] وعلينا أن نخاف الله فلا نخاف أحدا إلا الله كما قال تعالى ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقال ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنَ﴾

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٤٤٩-٤٥٠.

[المائدة: ٤٤] وقال ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١] فعلينا أن نخاف الله ونتقيه في الناس فلا نظلمهم بقلوبنا ولا جوارحنا ونؤدى اليهم حقوقهم بقلوبنا وجوارحنا ولا نخافهم في الله فنترك ما أمر الله به ورسوله خيفة منهم ومن لزم هذه الطريقة كانت العاقبة له كما كتبت عائشة إلى معاوية أما بعد فإنه من التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس وعاد حامده من الناس ذاما ومن التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس فالؤمن لا تكون فكرته وقصده إلا رضى ربه وإجتنب سخطه والعاقبة له ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١).

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ [٤١] وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٤١ - ٤٢].

أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصرى ما يقوله فى قصائده فى مدح الرسول من الإستغاثة به مثل قوله بك أستغيث

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٢٣٣.

وأستعين وأستنجد ونحو ذلك وكذلك ما يفعله كثير من الناس من استنجد الصالحين والمتشبهين بهم والاستعانة بهم أحياء وأمواتا فإنني أنكرت ذلك في مجالس عامة وخاصة وبينت للناس التوحيد ونفع الله بذلك ما شاء الله من الخاصة والعامة وهو دين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١] ^(١).

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فمِنْ أصول الإسلام أن تميز ما بعث الله به محمداً من الكتاب والحكمة ولا تخلطه بغيره ولا تلبس الحق بالباطل كفعل أهل الكتاب فإن الله سبحانه أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام ديناً وقد قال ﷺ تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه خط لنا رسول الله خطأ وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال هذا سبيل الله وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ قوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وجماع ذلك بحفظ أصليين أحدهما تحقيق ما جاء به الرسول فلا يخلط بما ليس منه من المنقولات الضعيفة والتفسيرات الباطلة بل يعطى حقه من معرفة نقله ودلالته والثاني أن لا يعارض ذلك بالشبهات لا رأياً ولا رواية قال الله تعالى فيما يأمر به بنى إسرائيل وهولنا ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَيَّتْنَا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٧٢.

وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٤١﴾ [البقرة: ٤١ - ٤٢] فلا يكتف الحق الذي جاء به الرسول ولا يلبس بغيره من البطل ولا يعارض بغيره قال الله تعالى ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] وقال تعالى ﴿وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] وهؤلاء الأقسام الثلاثة هم أعداء الرسل فإن أحدهم إذا أتى بما يخالفه إما أن يقول إن الله أنزله علي فيكون قد افتري على الله أو يقول أوحى إليه ولم يسم من أوحاه أو يقول أنا انشأته وأنا أنزل مثل ما أنزل الله فأما أن يضيفه إلى الله أو إلى نفسه أولا يضيفه إلى أحد وهذه الأقسام هم من شياطين الإنس والجن الذين ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] قال الله تعالى ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٠ - ٣١] والله أعلم والحمد لله ^(١).

البدعة تشتمل على حق وباطل

أن يقال الذين يعارضون الكتاب والسنة بما يسمونه عقليات من الكلاميات والفلسفيات ونحو ذلك إنما يبنون أمرهم في ذلك على أقوال مشتبهة مجملة تحتل معاني متعددة ويكون ما فيها من الإشتباه لفظاً ومعنى يوجب تناولها لحق وباطل فيما فيها من الحق يقبل ما فيها من الباطل لأجل الإشتباه والإلتباس ثم يعارضون بما فيها من الباطل نصوص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وهذا منشأ ضلال من ضل من الأمم قبلنا وهو منشأ البدع فإن البدعة لو كانت باطلا محضاً لظهرت وبانت وما قبلت ولو كانت حقاً محضاً لا شوب فيه لكانت موافقة للسنة فإن السنة لا تناقض حقاً محضاً لا باطل فيه ولكن البدعة تشتمل على حق وباطل وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع ولهذا قال تعالى فيما يخاطب به أهل الكتاب على لسان محمد ﷺ ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ١٥٢.

نَعِمَتِ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِثْمِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَنْقُوزِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ ۖ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ [البقرة: ٤١ - ٤٢] فنهاهم عن لبس الحق بالباطل وكتمانه ولبسه به خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر ومنه التلبس وهو التدليس وهو الغش لأن المغشوش من النحاس تلبسه فضة تخالطه وتغويه كذلك إذا لبس الحق بالباطل يكون قد أظهر الباطل في صورة الحق فالظاهر حق والباطن باطل ثم قال تعالى ﴿وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢] وهنا قولان قيل إنه نهاهم عن مجموع الفعلين وإن الواو والجمع التي يسميها نحاة الكوفة وأوالصرف كما في قولهم لا تأكل السمك وتشرب اللبن كما قال تعالى ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] على قراءة النصب وكما في قوله تعالى ﴿أَوْ يُوقِنَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ [آل عمران: ٣٤] ويجادلون في آيئنا ما لهم من محيص ﴿[الشورى: ٣٤ - ٣٥] على قراءة النصب وعلى هذا فيكون الفعل الثاني في قوله ﴿وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ﴾ [البقرة: ٤٢] منصوبا والأول مجزوم أو قيل بل الواو هي الواو العاطفة المشتركة بين المعطوف والمعطوف عليه فيكون قد نهى عن الفعلين من غير اشتراط اجتماعهما كما إذا قيل لا تكفر وتسرق وتزن وهذا هو الصواب كما في قوله تعالى ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَنْ تَلَسُّوهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١] ولو ذمهم على الاجتماع لقال وتكتموا الحق بلا نون وتلك الآية نظير هذه ومثل هذا الكلام إذا أريد به النهي عن كل من الفعلين فإنه قد يعاد فيه حرف النفي كما تقول لا تكفر ولا تسرق ولا تزن ومنه قوله تعالى ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَتْ تِجَارَةً عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] ^(١).

(١) درء التعارض ج: ١ ص: ٢٠٨-٢١٠.

جاء فى الحديث ما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها وعطف الشيء على الشيء فى القرآن وسائر الكلام يقتضى مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فى الحكم الذى ذكر لهما والمغايرة على مراتب أعلاها أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر ولا جزأه ولا يعرف لزومه له كقوله ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان: ٥٩] ونحو ذلك وقوله ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨] وقوله ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [٣] من قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣ - ٤] وهذا هو الغالب ويليه أن يكون بينهما لزوم كقوله ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٤٢] وقوله ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدًى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] وقوله ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] فان من كفر بالله فقد كفر بهذا كله فالمعطوف لازم للمعطوف عليه وفى الآية التى قبلها المعطوف عليه لازم فانه من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى فقد اتبع غير سبيل المؤمنين وفى الثانى نزاع وقوله ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٤٢] هما متلازمان فان من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوسا به خفى من الحق بقدر ما ظهر من الباطل فصار ملبوسا ومن كتم الحق احتاج ان يقيم موضعه باطلا فيلبس الحق بالباطل ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله فلا بد أن يظهر باطلا وهكذا أهل البدع لا تجد أحدا ترك بعض السنة التى يجب التصديق بها والعمل الا وقع فى بدعة ولا تجد صاحب بدعة الا ترك شيئا من السنة كما جاء فى الحديثما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها رواه الامام أحمد^(١).

ومنه قوله تعالى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقد دخل النهى فى الأمر ومنه قوله ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣] وقوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فان نهيه داخل فى ذلك وقد

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧٣.

تنازع الفقهاء فى قول الرجل لامرأته اذا عصيت أمرى فأنت طالق اذا نهاها فعصته هل يكون ذلك داخلا فى أمره على قولين قيل لا يدخل لأن حقيقة النهى غير حقيقة الأمر وقيل يدخل لأن ذلك يفهم منه فى العرف معصية الأمر والنهى وهذا هو الصواب لأن ما ذكر فى العرف هو حقيقة فى اللغة والشرع فان الأمر المطلق من كل متكلم اذا قيل اطع أمر فلان أو فلان يطيع امر فلان أو لا يعصى امره فانه يدخل فيه النهى لأن الناهى أمر بترك المنهى عنه فلهذا قال سبحانه ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢] ولم يقل لا تكتُموا الحق فلم ينفه عن كل منهما لتلازمهما وليست هذه واو الجمع التى يسميها الكوفيون واو الصرف كما قد يظنه بعضهم فانه كان يكون المعنى لا تجمعوا بينهما فيكون أحدهما وحده غير منهى عنه وأيضا فتلك انما تجيء اذا ظهر الفرق كقوله ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقوله ﴿أَوْ يُؤَيِّقَ بِنَا كَسَبُوا وَيَعْفَ عَنْ كَثِيرٍ﴾ [٣٤] ﴿وَيَعْلَمِ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَخِيصٍ﴾ [النشورى: ٣٤ - ٣٥] ومن عطف الملزوم قوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فانهم اذا أطاعوا الرسول فقد أطاعوا الله كما قال تعالى ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] واذا أطاع الله من بلغته رسالة محمد فانه لا بد أن يطيع الرسول فانه لا طاعة لله الا بطاعته^(١).

والبدع التى يعارض بها الكتاب والسنة لا بد أن تشمل على لبس حق بباطل وكتمان حق

وأما إذا لم يعد حرف النفي فيكون لارتباط أحد الفعلين بالآخر مثل أن يكون أحدهما مستلزما للآخر كما قيل لا تكفر بالله وتكذب أنبياءه ونحو ذلك وما يكون اقترانهما ممكنا لا محذور فيه لكن النهى عن الجميع فهو قليل فى الكلام ولذلك قل ما يكون فيه الفعل الثانى منصوبا والغالب على الكلام جزم الفعلين وهذا مما يبين أن الراجح فى قوله وتلبسوا أن تكون الواو واو العطف والفعل مجزوما ولم يعد حرف النفي

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٧٦-١٧٧.

لأن أحد الفعلين مرتبط بالآخر مستلزم له فالنهى عن الملزوم وإن كان يتضمن النهى عن اللازم فقد يظن أنه ليس مقصودا للناهي وإنما هو واقع بطريق اللزوم العقلي فقوله تعالى ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢] نهى عنهما والثاني لازم للأول مقصود بالنهى فمن لبس الحق بالباطل كتم الحق وهو معاقب على لبسه الحق بالباطل وعلى كتمان الحق فلا يقال النهى عن جمعهما فقط لأنه لو كان هذا صحيحا لم يكن مجرد كتمان الحق موجبا للذم ولا مجرد لبس الحق بالباطل موجبا للذم وليس الأمر كذلك فإن كتمان أهل الكتاب ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بنى للناس يستحقون به العقاب باتفاق المسلمين وكذلك لبسهم الحق الذي أنزله الله بالباطل يستحقون به العقاب باتفاق المسلمين وكذلك لبسهم الحق الذي أنزله الله بالباطل الذي ابتدعوه وجمع بينهما بدون إعادة حرف النفي لأن اللبس مستلزم للكتمان ولم يقتصر على الملزوم لأن اللازم مقصود بالنهى فهذا يبين لك بعض ما في القرآن من الحكم والأسرار وإنما كان اللبس مستلزما للكتمان لأن من لبس الحق بالباطل كما فعله أهل الكتاب حيث ابتدعوا ديناً لم يشرعه الله فأمرؤ بما لم يأمر به ونهوا عما لم ينه عنه وأخبروا بخلاف ما أخبر به فلا بد له أن يكتم من الحق المنزل ما يناقض بدعته إذ الحق المنزل الذي فيه خبر بخلاف ما أخبر به إن لم يكتمه لم يتم مقصوده وكذلك الذي فيه إباحة لما نهى عنه أو إسقاط لما أمر به والحق المنزل إما أمر ونهى وإباحة وإما خبر فالبدع الخبرية كالبدع المتعلقة بأسماء الله تعالى وصفاته والنبين واليوم الآخر لا بد أن يخبروا فيها بخلاف ما أخبر الله به والبدع الأمرية كمعصية الرسول المبعوث إليهم ونحو ذلك لا بد أن يأمرؤ فيها بخلاف ما أمر الله به والكتب المتقدمة تخبر عن الرسول النبي الأمي وتأمرو باتباعه والمقصود هنا الاعتبار فإن بني إسرائيل قد ذهبوا أو كفروا وإنما ذكرت قصصهم عبرة لنا وكان بعض السلف يقول إن بني إسرائيل ذهبوا وإنما يعنى أنتم ومن الأمثال السائرة إياك أعني واسمعي يا جارة فكان فيما خاطب الله به بني إسرائيل عبرة لنا أن لا نلبس الحق بالباطل ونكتم الحق والبدع التي يعارض بها الكتاب والسنة التي يسميها أهلها كلاميات وعقليات وفلسفيات أو ذوقيات ووجديات وحقائق وغير ذلك لا بد أن تشمل على لبس حق بباطل وكتمان حق وهذا أمر موجود يعرفه من تأمله فلا

تجد قط مبتدعا إلا وهو يجب كتمان النصوص التي تخالفه ويبغضها ويبغض إظهارها وروايتها والتحدث بها ويبغض من يفعل ذلك كما قال بعض السلف ما ابتدع أحد بدعة إلا نزعته حلاوة الحديث من قلبه ثم إن قوله الذي يعارض به النصوص لا بد له أن يلبس فيه حقا باطل بسبب ما يقوله من الألفاظ الجملة المتشابهة^(١).

أهل البدع أهل الشبهات

فالباطل المحض لا يشتبه على أحد ولهذا سمي أهل البدع أهل الشبهات وقيل فيهم إنهم يلبسون الحق بالباطل وهكذا أهل الكتاب معهم حق وباطل ولهذا قال تعالى لهم ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنْهُوَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢] وقال ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] وقال عنهم ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠] وقال عنهم وقال عنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] وذلك لأنهم ابتدعوا بدعا خلطوها بما جاءت به الرسل وفرقوا دينهم وكانوا شيعا فصار في كل فريق منهم حق وباطل وهم يكذبون بالحق الذي مع الفريق الآخر ويصدقون بالباطل الذي معهم وهذا حال أهل البدع كلهم فإن معهم حقا وباطلا فهم فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل فريق يكذب بما مع الآخر من الحق ويصدق بما معه من الباطل كالخوارج والشيعة فهؤلاء يكذبون بما ثبت من فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويصدقون بما روي في فضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويصدقون بما ابتدعوه من تكفيره وتكفير من يتولاه ويحبه وهؤلاء يصدقون بما روي في فضائل علي بن أبي طالب ويكذبون بما روي في فضائل أبي بكر وعمر ويصدقون بما ابتدعوه من التكفير والطعن في أبي بكر وعمر وعثمان ودين الإسلام وسط بين الأطراف المتجاذبة^(٢).

(١) درء التعارض ج: ١ ص: ٢١٨-٢٢١.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ١٦٧-١٦٨.

فهؤلاء أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مفارقة الكتاب وتصديق ما ذكره أنك لا تجد طائفة منهم توافق الكتاب والسنة فيما جعلوه أصول دينهم بل لكل طائفة أصول دين لهم فهي أصول دينهم الذي هم عليه ليس هي أصول الدين الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه وما هم عليه من الدين ليس كله موافقا للرسول ولا كله مخالفا له بل بعضه موافق وبعضه مخالف بمنزلة أهل الكتاب الذين لبسوا الحق بالباطل كما قال تعالى ﴿يَبْتَغِي الشِّرْكَاءُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ الْأَقْبَابِ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرْتَابُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠-١٧١] .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] ولفظ الباطل يراد به المعدوم ويراد به ما لا ينفع كقول النبي كل هو يلهو به الرجل فهو باطل الا رمية بقوسه وتاديبه فرسه وملاعبته لزوجته فانهم من الحق وقوله عن عمر رضى الله عنه ان هذا الرجل لا يحب الباطل ومنه قول القاسم بن محمد لما سئل عن الغناء قال اذا ميز الله يوم القيامة الحق من الباطل فى ايهما يجعل الغناء قال السائل من الباطل قال فماذا بعد الحق الا الضلال ومنه قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] فإن الآلهة موجودة ولكن عبادتها ودعاؤها باطل لا ينفع والمقصود منها لا يحصل فهو باطل واعتقاد الوهيتها باطل اى غير مطابق واتصافها بالالهية فى أنفسها باطل لا بمعنى أنه معدوم ومنه قوله تعالى ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] وقوله ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] فان الكذب باطل لأنه غير

(١) النبوات ج: ١ ص: ١٣٨ .

مطابق وكل فعل ما لا ينفع باطل لأنه ليس له غاية موجودة محمودة^(١).

الصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال

فالصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(١٧) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(١٨) ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(١٩) [الحجر: ٩٧-٩٩] تعم جميع الطاعات وقد خصت الصلاة بذلك الأمر والاصطبار عليها وكذلك قوله ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٢٠) [البقرة: ٤٥] فان الصبر وإن كان هو الحبس عن المكروهات فإن فيه فعل جميع العبادات وكذلك قوله تعالى ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(٢١) [طه: ١٤] فان عبادة الله تعم جميع الأعمال الصالحة ثم خص الصلاة بالذكر وقوله لبني إسرائيل ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾^(٢٢) [البقرة: ٤٠] ينتظم جميع الفرائض ثم قال ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(٢٣) [البقرة: ٤٣]^(٢).
أن كل عبادة من العبادات فإن الصلاة مقرونة بها فإن العبادة تعم جميع الطاعات وقد خصت الصلاة بذلك الأمر والاصطبار عليها فإذا ذكرت الزكاة قيل ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٢٤) [البقرة: ٤٣] وإذا ذكرت المناسك قيل ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾^(٢٥) [الكوثر: ٢] ﴿قُلْ إِنِّي صَلَّاتِي وَمُحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢٦) [الأنعام: ١٦٢] وإن ذكر الصوم قيل ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٢٧) [البقرة: ٤٥] فان الصبر المعدود في الثاني هو الصوم قال ﷺ صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر.

وأمر الصلاة أعظم من ان يحاط به

ان الصلاة هي أعرف المعروف من الأعمال وهي عمود الاسلام وأعظم شرائعة وهي قرينة الشهادتين وانما فرضها الله ليلة المعراج وخاطب بها الرسول بلا واسطة لم يبعث بها رسولا من الملائكة وهي آخر ما وصى به النبي أمته وهي المخصوصة بالذكر

(١) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥١٧.

(٢) شرح العمدة ج: ٤ ص: ٨٨-٨٩.

فى كتاب الله تخصيصا بعد تعميم كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] وقوله ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وهى المقرونة بالصبر وبالزكاة وبالنسك وبالجهد فى مواضع من كتاب الله كقوله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] وقوله ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وقوله ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢] وقوله ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] إلى وقوله ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] وأمرها أعظم من ان يحاط به فاعتناء ولاية الامر بها يجب أن يكون فوق اعتنائهم بجميع الاعمال ولهذا كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكتب إلى عماله ان أهم أمركم عندى الصلاة من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها أشد إضاعة رواه مالك وغيره^(١).

تعظيمه تعالى للصلاة فى كتابه فوق جميع العبادات

وعمد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندى الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهى أول ما أوجه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهى آخر ما وصى به النبي ﷺ أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهى أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهب الدين كله وهى

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٧٠.

عمود الدين فمتى ذهبت سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة كقوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] وبالصبر تارة وبالنسك تارة^(١).

قرن مع الصلاة الزكاة

جعل الله الاسلام مبينا على أركان خمسة ومن أكدها الصلاة وهي خمسة فروض وقرن معها الزكاة فمن أكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة ففي الصلاة عبادته وفي الزكاة الاحسان إلى خلقه فكرر فرض الصلاة في القرآن في غير آيه ولم يذكرها إلا قرن معها الزكاة من ذلك قوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وقال ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِوُنْكُمْ فِي الْإِيمَانِ﴾ [التوبة: ١١] وقال ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رواه مسلم من حديث عمر أنجبريل سأل النبي عن الاسلام فقال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وعنه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا من دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ولما بعث معاذ إلى اليمن قال له إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوك لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم واتفق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب فصلوجاء ذكر الصلاة في القرآن مجملا فبينه الرسول وان

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٤٢٨.

بيانه أيضا من الوحي لأنه سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة قال حسان بن عطية كان جبريل ينزل على النبي بالسنة يعلمه إياها كما يعلمه القرآن فقد سمي الله الزكاة صدقة وزكاة ولفظ الزكاة في اللغة يدل على النمو والزرع يقال فيه زكا إذا نما ولا ينمو إلا إذا خلس من الدغل فلهذا كانت هذه اللفظة في الشريعة تدل على الطهارة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] نفس المتصدق تزكو وماله يزكو ويظهر ويزيد في المعنى^(١).

إقامة الصلاة

في بيان ما أمر الله به ورسوله من إقامة الصلاة وإتمامها والطمأنينة فيها قال الله تعالى في غير موضع من كتابه ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] وقال تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وقد أخرج البخارى ومسلم فى الصحيحين وأخرج أصحاب السنن أبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه وأصحاب المسانيد كمسند أحمد وغير ذلك من اصول الإسلام عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله دخل المسجد فدخل رجل ثم جاء فسلم على النبى فرد رسول الله عليه السلام وقال إرجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان يصلي ثم سلم عليه فقال رسول الله وعليك السلام ثم قال إرجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرجل والذى بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمنى قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم إركع حتى تطمئن راکعاً ثم إرفع حتى تعتدل قائماً ثم إسجد حتى تطمئن ساجداً ثم إجلس حتى تطمئن جالساً ثم إفعل ذلك فى صلاتك كلها وفى رواية للبخارى إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم إستقبل القبلة فكبر وإقرأ بما تيسر من القرآن ثم إركع حتى تطمئن راکعاً ثم إرفع رأسك حتى تعتدل قائماً ثم إسجد حتى تطمئن ساجداً ثم إرفع حتى تستوى حتى تستوى وتطمئن جالساً ثم إسجد حتى تطمئن ساجداً ثم إرفع حتى تستوى قائماً ثم إفعل ذلك

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٥ ص: ٦-٨.

فى صلاتك كلها وفى رواية له ثم إركع حتى تطمئن راکعاً ثم إرفع حتى تستوى قائماً وباقیه مثله وفى رواية وإذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك وما انتقصت من هذا فإنما إنتقصته من صلاتك وعن رفاعه بن رافع رضى الله عنه أن رجلاً دخل المسجد فذكر الحديث وقال فيه فقال النبى ﷺ إنه لا تتم صلاة لأحد من الناس حتى يتوضأ فيضع الوضوء مواضعه ثم يكبر ويحمد الله عز وجل ويثنى عليه ويقرأ بما شاء من القرآن ثم يقول الله أكبر ثم يركع حتى يطمئن راکعاً ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوى قائماً ثم يسجد حتى يطمئن ساجداً ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوى قاعداً ثم يقول الله أكبر ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله ثم يرفع رأسه فيكبر فإذا فعل ذلك فقد تمت صلاته وفى رواية إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله عز وجل فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله ويحمده ثم يقرأ من القرآن ما أذن له وتيسر وذكر نحو اللفظ الأول وقال ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه وربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله وتسترخى ثم يكبر فيستوى قاعداً على مقعدته ويقيم صلبه فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال لا تتم صلاة لأحدكم حتى يفعل ذلك رواه أهل السنن أبوداود والنسائي وابن ماجه والترمذى وقال حديث حسن والروايتان لفظ أبى داود وفى رواية ثالثة له قال إذا قمت فتوجهت إلى القبلة فكبر ثم إقرأ بأم القرآن وبما شاء الله أن تقرأ فإذا ركعت فضع راحتك على ركبتيك وإمدد ظهرك وقال إذا سجدت فمكن لسجودك فإذا رفعت فإقعد على فخذك اليسرى وفى رواية أخرى قال إذا أنت قمت فى صلاتك فكبر الله عز وجل ثم إقرأ ما تيسر عليك من القرآن وقال فيه فإذا جلست فى وسط الصلاة فإطمئن وإفترش فخذك اليسرى ثم تسجد ثم غذا قمت فمثل ذلك حتى تفرغ من صلاتك وفى رواية أخرى قال فتوضأ كما أمر الله ثم تشهد فأتم ثم كبر فإن كان معك قرآن فإقرأ به وإلا فإحمد الله عز وجل وكبره وهله وقال فى هو إن إنتقصت منه شيئاً إنتقصت من صلاتك فالنبى أمر ذلك المسىء فى صلاته بأن يعيد الصلاة وأمر الله ورسوله إذا أطلق كان مقتضاه الوجوب وأمره إذا قام إلى الصلاة بالطمأنينة كما أمره بالركوع والسجود وأمره المطلق على الإيجاب وأيضاً قال له فإنك لم تصلفن فى أن يكون عمله الأول صلاة

والعمل لا يكون منفيا إلا إذا إنتفى شيء من واجباته فأما إذا فعل كما أوجبه الله عز وجل فإنه لا يصح نفيه لإنتفاء شيء من المستحبات التي ليست بواجبة وأما ما يقوله بعض الناس إن هذا نفي للكمال كقوله لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد فيقال له نعم هو لنفي الكمال لكن لنفي كمال الواجبات أولنفي كمال المستحبات فأما الأول فحق وأما الثاني فباطل لا يوجد مثل ذلك في كلام الله عز وجل ولا في كلام رسوله قط وليس بحق فإن الشيء إذا كملت واجباته فكيف يصح نفي هو أيضا فلو جاز لجاز نفي صلاة عامة الأولين والآخرين لأن كمال المستحبات من أندرا لامور وعلى هذا فما جاء من نفي الأعمال في الكتاب والسنة فإنما هو لإنتفاء بعض واجباته كقوله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] وقوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧] وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥] الآية وقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢] الآية ونظائر ذلك كثيرة ومن ذلك قوله لا إيمان لمن لا أمانه له ولا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ولا صلاة إلا بوضوء^(١).

أن الصلاة مقدرة محددة موقوتة

أن الله سبحانه وتعالى أمر في كتابه بإقامة الصلاة واذم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال تعالى في غير موضع ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وإقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان كما سيأتى في حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال أقيموا الركوع والسجود فإنى أراكم من بعدى ظهري وفي رواية أتموا الركوع والسجود فإن الله تعالى قال ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] والموقوت قد فسر السلف بالمفروض وفسروه بماله وقت المفروض هو المقدر

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٥٢٧-٥٣١ والقواعد النورانية ج: ١ ص: ٢٥-٢٦.

المحدد فإن التوقيت والتقدير والتحديد والفرض ألفاظ متقاربة وذلك وجب أن الصلاة مقدرة محددة موقوتة وذلك فى زمانها وأفعالها وكما أن زمانها محدود فأفعالها أولى أن تكون محدودة موقوتة وهو يتناول تقدير عددها بأن جعله خمسا وجعل بعضها أربعا فى الحضر وإثنين فى السفر وبعضها ثلاثا وبعضها إثنين فى الحضر والسفر وتقدير عملها أيضا ولذا يجوز عند العذر الجمع المتضمن لنوع من التقديم والتأخير فى الزمان كما يجوز أيضا القصر من عددها ومن صفتها بحسب ما جاءت به الشريعة وذلك أيضا مقدر عند العذر كما هو مقدر عند غير العذر ولهذا فليس للجامع بين الصلاتين أن يؤخر صلاة النهار إلى الليل أو صلاة الليل إلى النهار وصلاتى النهار الظهر والعصر وصلاتى الليل المغرب والعشاء وكذلك اصحاب الأعذار الذين ينقصون من عددها وصفتها وهو موقون محدود ولا بد أن تكون الأفعال محدودة الإبتداء والإنتهاء فالقيام محدود بالإنتصاب بحيث لو خرج عن حد المنتصب إلى حد المنحنى الراكع بإختياره لم يكن قد أتى بحمد القيام ومن المعلوم أن ذكر القيام الذى هو القراءة أفضل من ذكر الركوع والسجود ولكن نفس عمل الركوع والسجود أفضل من عمل القيام ولهذا كان عبادة بنفسه ولم يصح فى شرعنا إلا لله بوجه من الوجوه وغير ذلك من الأدلة المذكورة فى غير هذا الموضع وإذا كان كذلك فمن المعلوم أن هذه الأفعال مقدرة محدودة بقدر التمكن منها فالساجد عليه أن يصل إلى الأرض وهو غاية التمكن ليس له غاية دون ذلك إلا لعذر وهو من حين إنحنائه أخذ فى السجود سواء سجد من قيام أو من قعود فينبغى أن يكون إبتداء السجود مقدرا بذلك بحيث يسجد من قيام أو قعود لا يكون سجوده من إنحناء فإن ذلك يمنع كونه مقدرا محدودا بحسب الإمكان ومتى وجب ذلك وجب الاعتدال فى الركوع وبين السجدين وأيضا ففى ذلك إتمام الركوع والسجود وأيضا فأفعال الصلاة إذا كانت مقدرة وجب أن يكون لها قدر وذلك هو الطمأنينة فإن من نقر نقر الغراب لم يكن لفعله قدر أصلا فإن قدر الشيء ومقداره فيه زيادة على أصل وجوده ولهذا يقال للشيء الدائم ليس له قدر فإن القدر لا يكون لأدنى حركة بل لحركة ذات إمتداد وأيضا فإن الله عز وجل أمرنا بإقامتها والإقامة أن تجعل قائمة والشيء القائم هو المستقيم المعتدل فلا بد أن تكون أفعال الصلاة مستقرة معتدلة وذلك إنما يكون بثبوت أبعاضها وإستقرارها وهذا يتضمن

الطمأنينة فإن من نقر نقر الغراب لم يقم السجود ولا يتم سجوده إذا لم يثبت ولم يستقر وكذلك الراكع يبين ذلك ما جاء في الصحيحين عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنهما قال قال رسول الله سوا صفوفكم فإن تسوية الصف من تمام الصلاة وأخرجاه من حديث عبدالعزيز بن صهيب عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله أتموا الصفوف فإنى أراكم من خلف ظهري وفي لفظ أقيموا الصفوف وروى البخارى من حديث حميد عن أنس قال أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله ﷺ فقال أقيموا صفوفكم وتراصوا فإنى أراكم من وراء ظهري وكان أحدنا يلصق منكبه بمنكب صاحبه وبدنه ببدنه فإذا كان تقويم الصف وتعديله من تمامها وإقامتها بحيث لو خرجوا عن الإستواء والإعتدال بالكلية حتى يكون رأس هذا عند النصف الأسفل من هذا لم يكونوا مصطفين ولكانوا يؤمرون بالإعادة وهم بذلك أولى من الذى صلى خلف الصف وحده فأمره النبى أن يعيد صلاته فكيف بتقويم أفعالها وتعديلها بحيث لا يقيم صلبه فى الركوع والسجود ويدل على ذلك وهو دليل مستقل فى المسألة ما أخرجاه فى الصحيحين عن شعبة عن قتادة عن أنس رضى الله عنه عن النبى قال أقيموا الركوع والسجود فوالله إنى لأراكم من بعدى وفى رواية من بعد ظهري إذا ركعتم وسجدتم وفى رواية للبخارى عن همام عن قتادة عن أنس رضى الله عنه أنه سمع النبى يقول أتموا الركوع والسجود فوالذى نفسى بيده انى لأراكم من بعد ظهري إذا ما ركعتم وإذا ما سجدتم ورواه مسلم من حديث هشام الدستوائى وابن أبى عروبة عن قتادة عن أنس رضى الله عنه أن نبى الله قال أتموا الركوع والسجود ولفظ ابن أبى عروبة أقيموا الركوع والسجود فإنى أراكم وذكره فهذا يبين أن إقامة الركوع والسجود توجب إتمامها كما فى اللفظ الآخر وأيضا فأمره لهم بإقامة الركوع والسجود يتضمن السكون فيهما إذ من المعلوم أنهم كانوا يأتون بالإحناء فى الجملة بل الأمر بالإقامة يقتضى أيضا الإعتدال فيهما وإتمام طرفيهما وفى هذا رد على من زعم أنه لا يجب الرفع فيهما وذلك أن هذا أمر للمؤمنين خلفه ومن المعلوم أنه لم يكن يمكنهم الإنصراف قبله وأيضا فقوله تعالى ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] أمر بالقنوت فى القيام لله والقنوت

دوام الطاعة لله عز وجل سواء كان في حال الإنتصاب أوفى حال السجود^(١).

حكم إقامة الصلوات الخمس في المساجد

أن أئمة المسلمين متفقون على أن إقامة الصلوات الخمس في المساجد هي من أعظم العبادات وأجل القربات ومن فضل تركها عليها إشارا للخلوة والانفراد على الصلوات الخمس في الجماعات أو جعل الدعاء والصلاة في المشاهد أفضل من ذلك في المساجد فقد انخلع من ربة الدين واتبع غير سبيل المؤمنين ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] لكن تنازع العلماء بعد ذلك في كونها واجبة على الأعيان أو على الكفاية أو سنة مؤكدة على ثلاثة أقوال فقليل هي سنة مؤكدة فقط وهذا هو المعروف عن أصحاب أبي حنيفة وأكثر أصحاب مالك وكثير من أصحاب الشافعي ويذكر رواية عن أحمد وقيل هي واجبة على الكفاية وهذا هو المرجح في مذهب الشافعي لكن تنازع العلماء بعد ذلك في كونها واجبة على الأعيان أو على الكفاية أو سنة مؤكدة على ثلاثة أقوال فقليل هي سنة مؤكدة فقط وهذا هو المعروف عن أصحاب أبي حنيفة وأكثر أصحاب مالك وكثير من أصحاب الشافعي ويذكر رواية عن أحمد وقيل هي واجبة على الكفاية وهذا هو المرجح في مذهب الشافعي وقول بعض أصحاب مالك وقول في مذهب أحمد وقيل هي واجبة على الأعيان وهذا هو المنصوص عن أحمد وغيره من أئمة السلف وفقهاء الحديث وغيرهم وهؤلاء تنازعوا فيما إذا صلى منفردا لغير عذر هل تصح صلاته على قولين أحدهما لا تصح وهو قول طائفة من قدماء أصحاب أحمد ذكره القاضي أبو يعلى فيشرح المذهب عنهم وبعض متأخريهم كابن عقيل وهو قول طائفة من السلف واختاره ابن حزم وغيره والثاني تصح مع إثمه بالترك وهذا هو المأثور عن أحمد وقول أكثر أصحابه والذين نفوا الوجوب احتجوا بتفضيل النبي ﷺ صلاة الجماعة على صلاة الرجل وحده قالوا ولو كانت واجبة لم تصح صلاة المنفرد ولم يكن هناك تفضيل وحملوا ما جاء من هم النبي ﷺ بالتحريق على من ترك الجمعة أو على المنافقين الذين كانوا يتخلفون عن

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٥٤١-٥٤٦.

الجماعة مع النفاق وأن تحريقهم كان لأجل النفاق لا لأجل ترك الجماعة مع الصلاة في البيوت وأما الموجبون فاحتجوا بالكتاب والسنة والآثار أما الكتاب بقوله تعالى ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْفُتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] الآية وفيها دليلان أحدهما أنه أمرهم بصلاة الجماعة معه في صلاة الخوف وذلك دليل على وجوبها حال الخوف وهو يدل بطريق الأولى على وجوبها حال الأمن الثاني أنه سن صلاة الخوف جماعة وسوغ فيها ما لا يجوز لغير عذر كاستدبار القبلة والعمل الكثير فإنه لا يجوز لغير عذر بالاتفاق وكذلك مفارقة الإمام قبل السلام عند الجمهور وكذلك التخلف عن متابعة الإمام كما يتأخر الصف المؤخر بعد ركوعه مع الإمام إذا كان العدو أمامهم قالوا وهذه الأمور تبطل الصلاة لو فعلت لغير عذر فلو لم تكن الجماعة واجبة بل مستحبة لكان قد التزم فعل محذور مبطل للصلاة وتركت المتابعة الواجبة في الصلاة لأجل فعل مستحب مع أنه قد كان من الممكن أن يصلوا وحدانا صلاة تامة فعلم أنها واجبة وأيضا فقول تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] إما أن يراد به المقارنة بالفعل وهي الصلاة جماعة وإما أن يراد به ما يراد بقوله ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] فإن أريد الثاني لم يكن فرق بين قوله صلوا مع المصلين وصوموا مع الصائمين واركعوا مع الراكعين والسياق يدل على اختصاص الركوع بذلك فإن قيل فالصلاة كلها تفعل مع الجماعة فيلخص الركوع بالذكر لأنه تدرك به الصلاة فمن أدرك الركعة فقد أدرك السجدة فأمر بما يدرك به الركعة كما قال لمريم ﴿يَمْزِيغُ آفَاتِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] فإنه لو قيل اقنئي مع القانتين لدل على وجوب إدراك القيام ولو قيل اسجدي لم يدل على وجوب إدراك الركوع بخلاف قوله ﴿وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] فإنه يدل على الأمر بإدراك الركوع وما بعده دون ما قبله وهو المطلوب وأما السنة فالأحاديث المستفيضة في الباب مثل حديث أبي هريرة المتفق عليه ﷺ أنه قال لقد هممت أن أمر

بالصلاة فتقام ثم أمر رجلا فيصلي بالناس ثم انطلق إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار فهم بتحريق من لم يشهد الصلاة وفي لفظ قال أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء والفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حوبا ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام الحديث وفي المسند وغيره لولا ما في البيوت من النساء والذرية لأمرت أن تقام الصلاة الحديث فبين أنه هم بتحريق البيوت على من لم يشهد الصلاة وبين أنه إنما منعه من ذلك من فيها من النساء والذرية فإنهم لا يجب عليهم شهود الصلاة وفي تحريق البيوت قتل من لا يجوز قتله وكان ذلك بمنزلة إقامة الحد على الحبلى وقد قال سبحانه وتعالى ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّارْتَعَلُوهُمْ لَآتَوْهُمْ فَطَّعْنَهُمْ مِنْهُم مَّعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِّيَدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] ومن حمل ذلك على ترك شهود الجمعة فسياق الحديث يبين ضعف قوله حيث ذكر صلاة العشاء والفجر ثم أتبع ذلك بهمه بتحريق من لم يشهد الصلاة وأما من حمل العقوبة على النفاق لا على ترك الصلاة فقوله ضعيف لأوجها أحدها أن النبي ﷺ ما كان يقيل المنافقين إلا على الأمور الباطنة وإنما يعاقبهم على ما يظهر منهم من ترك واجب أو فعل محرم فلولا أن في ذلك ترك واجب لما حرقهم الثاني أنه رتب العقوبة على ترك شهود الصلاة فيجب ربط الحكم بالسبب الذي ذكره الثالث أنه سيأتي إن شاء الله حديث ابن أم مكتوم حيث استأذنه أن يصلي في بيته فلم يأذن له وابن أم مكتوم رجل مؤمن من خيار المؤمنين أثنى عليه القرآن وكان النبي ﷺ يستخلفه على المدينة وكان يؤذن للنبي ﷺ الرابع أن ذلك حجة على وجوبها أيضا كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود أنه قال من سره أن يلقي الله غدا مسلما فليصل هذه الصلوات الخمس في المساجد التي ينادى بهن من سنن الهدى وإنكم لو صليتم في بيوتكم كما صلى هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف فقد أخبر عبد الله بن مسعود أنه لم يكن يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق وهذا دليل على استقرار وجوبها عند المؤمنين ولم يعلموا ذلك إلا من جهة النبي

ﷺ إذ لو كانت عندهم مستحبة كقيام الليل والتطوعات التي مع الفرائض وصلاة الضحى ونحو ذلك كان منهم من يفعلها ومنهم من لا يفعلها مع إيمانه كما قال له الأعرابي والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص منه فقال أفلح أن صدق ومعلوم أن كل أمر كان لا يتخلف عنه إلا منافق كان واجبا على الأعيان كخروجهم إلى غزوة تبوك فإن النبي ﷺ أمر به المسلمين جميعا لم يأذن لأحد في التخلف إلا من ذكر أن له عذرا فأذن له لأجل عذره ثم لما رجع كشف الله أسرار المنافقين وهتك أستارهم وبين أنهم تخلفوا لغير عذرو الذين تخلفوا لغير عذر بالإيمان عوقبوا بالهجر حتى هجران نسائهم لهم حتى تاب الله عليهم فإن قيل فأنتم اليوم تحكمون بنفاق من تخلف عنها وتجاوزون تحريق البيوت عليه إذا لم يكن فيها ذرية قليل لهمن الأفعال ما يكون واجبا ولكن تأويل المتأول يسقط الحد عنه وقد صار اليوم كثير ممن هو مؤمن لا يراها واجبة عليه فيتركها متأولا وفي زمن النبي ﷺ لم يكن لأحد تأويل لأن النبي ﷺ قد باشرهم بالإيجاب وأيضا كما ثبت في الصحيح والسنن أن أعمى استأذن النبي ﷺ أن يصلي في بيته فأذن له فلما ولى دعاه فقال هل تسمع النداء قال نعم قال فأجب فأمره بالإجابة إذا سمع النداء وفي لفظ في السنن أن ابن أم مكتوم قال يا رسول الله إني رجل شاسع الدار وإن المدينة كثيرة الهوام ولي قائد لا يلائمني فهل تجد لي رخصة أن أصلي في بيتي فقال هل تسمع النداء قال نعم قال لا أجد لك رخصة وهذا نص في الإيجاب للجماعة مع كون الرجل مؤمنا وأما احتجاجهم بتفضيل صلاة الرجل في الجماعة على صلاته وحده فعنه جوابان مبنيان على صحة صلاة المنفرد لغير عذر فمن صحح صلاته قال الجماعة واجبة وليست شرطا في الصحة كالوقت فإنه لو أخر العصر إلى وقت الاصفرار كان آثما مع كون الصلاة صحيحة بل وكذلك لو أخرها إلى أن يبقى مقدار ركعة كما ثبت في الصحيح من أدرك ركعة من العصر فقد أدرك العصر قالوا لتفضيل لا يدل على أن المفضل جازئ فقد قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩] فجعل السعي إلى الجمعة خيرا من البيع والسعي واجب والبيع حرام وقال تعالى ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ وَحَافِظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] ومن قال لا تصح صلاة المنفرد إلا لعذر احتج بأدلة الوجوب قالوما ثبت

وجوبه في الصلاة كان شرطا في الصحة كسائر الواجبات وأما الوقت فإنه لا يمكن تلافيه فإذا فات لم يكن فعل الصلاة فيه فتظير ذلك فوت الجمعة وفوت الجماعة التي لا يمكن استدارتها فإذا فوت الجمعة الواجبة كان آثما وعليه الظهر إذ لا يمكن سوى ذلك وكذلك من فوت الجماعة الواجبة التي يجب عليه شهودها وليس هناك جماعة أخرى فإنه يصلي منفردا لغير عذر ثم أقيمت الجماعة فهذا عندهم عليه أن يشهد الجماعة كمن صلى الظهر قبل الجمعة عليه أن يشهد الجمعة واستدلوا على ذلك بحديث أبي هريرة الذي في السنن عن النبي ﷺ من سمع النداء ثم لم يجب من غير عذر فلا صلاة له ويؤيد ذلك قوله لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد فإن هذا معروف من كلام علي وعائشة وأبي هريرة وابن عمر وقد رواه الدارقطني مرفوعا إلى النبي ﷺ وقوى ذلك بعض الحفاظ قالوا ولا يعرف في كلام الله ورسوله حرف النفي دخل على فعل شرعي إلا لترك واجب فيه كقوله لا صلاة إلا بأمر القرآن ولا إيمان لمن لا أمانة له ونحو ذلك وأجاب هؤلاء عن حديث التفضيل بأن قالوا هو محمول على المعذور كالمريض ونحوه فإن هذا بمنزلة قوله ﷺ صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم وصلاة القائم على النصف من صلاة القاعد وأن تفضيله صلاة الرجل في جماعة على صلاته وحده كتفضيله صلاة القائم على صلاة القاعد ومعلوم أن القيام واجب في صلاة الفرض دون النفل كما أن الجماعة واجبة في صلاة الفرض دون النفل وتام الكلام في ذلك أن العلماء تنازعوا في هذا الحديث وهو هل المراد بهما المعذور أو غيره على قول ينف قالت طائفة المراد بهما غير المعذور قالوا لأن المعذور أجره تام بدليل ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم قالوا فإذا كان المريض والمسافر يكتب لهما ما كانا يعملان في الصحة والإقامة فكيف تكون صلاة المعذور قاعدا أو منفردا دون صلاته في الجماعة قاعدا وحمل هؤلاء تفضيل صلاة القائم على النفل دون الفرض لأن القيام في الفرض واجب ومن قال هذا القول لزمه أن يجوز تطوع الصحيح مضطجعا لأنه قد ثبت أنه قال لمن صلى قاعدا فله نصف أجر القائم وقد طرد هذا الدليل طائفة من متأخري أصحاب الشافعي وأحمد وجوزوا أن يتطوع الرجل مضطجعا لغير عذر لأجل هذا الحديث ولتعذر حمله

على المريض كما تقدم ولكن أكثر العلماء أنكروا ذلك وعدوه بدعة وحدثا في الإسلام وقالوا لا يعرف أن أحدا قط صلى في الإسلام على جنبه وهو صحيح ولو كان هذا مشروعا لفعله المسلمون على عهد نبيهم ﷺ أو بعده ولفعله النبي ﷺ ولو مرة لتبين الجواز فقد كان يتطوع قاعدا ويصلي على راحلته قبل أي وجه توجهت ويوتر عليها غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة فلو كان هذا سائغا لفعله ولو مرة أو لفعله أصحابه وهؤلاء الذين أنكروا هذا مع ظهور حجتهم قد تناقض من لم يوجب الجماعة منهم حيث حملوا قوله تفضل صلاة الجماعة على صلاة الرجل وحده بخمس وعشرين درجة على أنه أراد غير المعذور فيقال لهم لم كان التفضيل هنا في حق غير المعذور والتفضيل هناك في حق المعذور وهل هذا إلا تناقض وأما من أوجب الجماعة وحمل التفضيل على المعذور فطرد دليله وحينئذ فلا يكون في الحديث حجة على صحة صلاة المنفرد لغير عذر وأما ما احتج به منازعهم من قوله إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم فجوابهم عنه أن هذا الحديث دليل على أنه يكتب له مثل الثواب الذي كان يكتب له في حال الصحة والإقامة لأجل نيته له وعجزه عنه بالعذر وهذه قاعدة الشريعة أن من كان عازما على الفعل عازما جازما وفعل ما يقدر عليه منه كان بمنزلة الفاعل فهذا الذي كان له عمل في صحته وإقامته عزمه أن يفعله وقد فعل في المرض والسفر ما أمكنه فكان بمنزلة الفاعل كما جاء في السنن فيمن تطهر في بيته ثم ذهب إلى المسجد يدرك الجماعة فوجدها قد فاتت أنه يكتب له أجر صلاة الجماعة وكما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم قالوا وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر وقد قال تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥] الآية فهذا ومثله يبين أن المعذور يكتب له مثل ثواب الصحيح إذا كانت نيته أن يفعل وقد عمل ما يقدر عليه وذلك لا يقتضي أن يكون نفس عمله مثل عمل الصحيح فليس في الحديث أن صلاة المريض نفسها في الأجر مثل صلاة الصحيح ولا أن صلاة المنفرد المعذور في نفسها مثل صلاة الرجل في الجماعة وإنما فيه أن يكتب له من العمل ما كان يعمل وهو

صحيح مقيم كما يكتب له أجر صلاة الجماعة إذا فاتته مع قصده لها وأيضاً فليس كل معذور يكتب له مثل عمل الصحيح وإنما يكتب له إذا كان يقصد عمل الصحيح ولكن عجز عنه فالحديث يدل على أنه من عادته الصلاة في جماعة والصلاة قائماً ثم ترك ذلك لمرضه فإنه يكتب له ما كان يعملوه وصحيح مقيم وكذلك من تطوع على الرحلة في السفر وقد كان يتطوع في الحضر قائماً يكتب له ما كان يعمل في الإقامة فأما من لم تكن عادته الصلاة في جماعة ولا الصلاة قائماً إذا مرض فصلى وحده أو صلى قاعداً فهذا لا يكتب له مثل صلاة المقيم الصحيح ومن حمل الحديث على غير المعذور يلزمه أن يجعل صلاة هذا قاعداً مثل صلاة القائم وصلاته منفرداً مثل الصلاة في جماعة وهذا قول باطل لم يدل عليه نص ولا قياس ولا قاله أحدواً أيضاً فيقال تفضيل النبي ﷺ لصلاة الجماعة على صلاة المنفرد ولصلاة القائم على القاعد والقاعد على المضطجع إنما دل على فضل هذه الصلاة على هذه الصلاة حيث يكون كل من الصلاتين صحيحة أما كون هذه الصلاة المفضولة تصح حيث تصح تلك أو لا تصح فالحديث لم يدل عليه بنفي ولا إثبات ولا سيق الحديث لأجل بيان صحة الصلاة وفاسدها بل وجوب القيام والعودة وسقوط ذلك وجوب الجماعة وسقوطها يتلقى من أدلة آخر وكذلك أيضاً كون هذا المعذور يكتب له تمام عمله أو لا يكتب له لم يتعرض له هذا الحديث بل يتلقى من أحاديث آخر وقد بينت سائر النصوص أن تكميل الثواب هو لمن كان يعمل العمل الفاضل وهو صحيح مقيم لا لكل أحد وتثبت نصوص آخر وجوب القيام في الفرض كقوله ﷺ لعمران بن حصين صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنبين جواز التطوع قاعداً لما رأهم وهم يصلون قعوداً فأقرهم على ذلك وكان يصلي قاعداً مع كونه كان يتطوع على الرحلة في السفر كذلك تثبت نصوص آخر وجوب الجماعة فيعطى كل حديث حقه فليس بينها تعارض ولا تناف وإنما يظن التعارض التنافي من حملها ما لا تدل عليه ولم يعطها حقها بسوء نظره وتأويله والله أعلم^(١).

(١) الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ١١٤-١٢٢ ومجموع الفتاوى ج: ٢٣ ص: ٢٢٧-٢٢٨ ومجموع

الفتاوى ج: ٢٣ ص: ٢٣٩

خص الركوع بالذكر

فقوله تعالى ﴿وَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] إما أن يراد به المقارنة بالفعل وهي الصلاة جماعة وإما أن يراد به ما يراد بقوله ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] فإن أريد الثاني لم يكن فرق بين قوله صلوا مع المصلين وصوموا مع الصائمين واركعوا مع الراكعين والسياق يدل على اختصاص الركوع بذلك فإن قيل فالصلاة كلها تفعل في الجماعة قيل خص الركوع بالذكر لأنه تدرك به الصلاة فمن أدرك الركعة فقد أدرك السجدة فأمر بما يدرك به الركعة كما قال لمريم ﴿أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] فإنه لو قילافتي مع القانتين لدل على وجوب إدراك القيام ولو قيل اسجدي لم يدل على وجوب إدراك الركوع بخلاف قوله ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] فإنه يدل على الأمر بإدراك الركوع وما بعده دون ما قبله وهو المطلوب^(١).

الرد على تفسير الرافضي^(٢) لقوله تعالى ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] قال الرافضي المنهج الثاني في الأدلة المأخوذة من القرآن والبراهين الدالة على إمامة علي من الكتاب العزيز قوله تعالى ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] من طريق أبي نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في رسول الله ﷺ وعلي خاصة وهما أول من صلى وركع وهذا يدل على فضيلته فيدل على إمامته الجواب من وجوه أحدها أنا لا نسلم صحة هذا ولم يذكر دليلا على صحته الثاني أن هذا كذب موضوع باتفاق أهل العلم الحديث الثالث أن هذه الآية في سورة البقرة وهي مدنية باتفاق المسلمين وهي في سياق مخاطبة لبني إسرائيل وسواء كان الخطاب لهم أو لهم وللمؤمنين فهو خطاب انزل بعد الهجرة وبعد أن كثر المصلون والراكعون ولم تنزل في أول الإسلام

(١) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٤٤٠ ومنهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٣٠.

(٢) صاحب كتاب منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (من الشيعة).

حتى يقال أنها مختصة بأول من صلى وركع الرابع أن قوله ﴿مَعَ الرَّكْعَيْنِ﴾ [البقرة: ٤٣] صيغة جمع ولو أريد النبي ﷺ وعليه لقليل مع الراكعين بالثنوية وصيغة الجمع لا يراد بها اثنان فقط باتفاق الناس بل أما الثلاثة فصاعدا وأما الاثنان فصاعدا أما إرادة اثنين فقط فخلافا للإجماع الخامس انه قال لمريم ﴿أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّكْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ٤٣] ومريم كانت قبل الإسلام فعلم انه كان راعون قبل الإسلام فليس فيهم علي فكيف لا يكون راعون في أول الإسلام ليس فيهم علي وصيغة الاثنين واحدة السادس أن الآية مطلقة لا تخص شخصا بعينه بل أمر الرجل المؤمن أن يصلي مع المصلين وقيل المراد به الصلاة في الجماعة لان الركعة لا تدرك إلا بادرارك الركوع السابع انه لو كان المراد الركوع معهما لا نقطع حكمهما بموتهما فلا يكون أحد مأمورا أن يركع مع الراكعين الثامن أن قول القائل علي أول من صلى مع النبي ﷺ ممنوع بل اكثر الناس على خلاف ذلك وان أبا بكر صلى قبله التاسع انه لو كان أمرا بالركوع معه لم يدل ذلك على ان من ركع معه يكون هو الإمام فان عليا لم يكن إماما مع النبي ﷺ وكان يركع معه^(١).

إن الشارع لم ينقل الأسماء ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة وبسبب الكلام في مسألة الايمان تنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسمائها في اللغة أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الاسماء وهكذا قالوا في إسم الصلاة والزكاة والصيام والحج إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي لكن زاد في أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة إلى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة إلى اللغة مجاز وبالنسبة إلى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها مثل الزكاة هي اسم لما تزكو به النفس وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها والإحسان إلى الناس من أعظم ما تزكو به النفس كما قال تعالى

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ٢٧١-٢٧٣.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به قال تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] وأصل زكاتها بالتوحيد وإخلاص الدين لله قال تعالى ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴿[فُصِّلَتْ: ٦-٧] وهى عند المفسرين التوحيد وقد بين النبي مقدار الواجب وسماها الزكاة المفروضة فصار لفظ الزكاة اذا عرف باللام ينصرف اليها لأجل العهد وهو إنما قال ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بعد أن عرفهم الصلاة المأمور بها فكان التعريف منصرفا إلى الصلاة التى يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال فى لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوى أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوى والشرعى ونحو ذلك فأقوالهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّيَ﴾ [العلق: ٩-١٠] وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبوجهل أو غيره قد نهى النبي عن الصلاة وقال لئن رأيته يصلى لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبه فإذا قيل ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّيَ﴾ [العلق: ٩-١٠] فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال فى اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يؤم النبي ﷺ والمسلمون يأتون بالنبي فإذا قيل لهم ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفى النهار فكانت أيضا معروفة فلم يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا إجمال فى ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاءا وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد^(١).

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٩٩-٣٠٠.

فمن عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود

وقد روى الترمذى وغيره عن عدى بن حاتم عن النبى ﷺ أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون قال الترمذى حديث صحيح وقال سفيان بن عيينة كانوا يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى وكان غير واحد من السلف يقول احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون فمن عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال الله فيهم ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] ومن عبد الله بغير علم بل بالغلو والشرك أشبه النصارى الذين قال الله فيهم ﴿قُلْ يَتَاهَلْ الْكِتَابُ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] فالأول من الغاوين والثانى من الضالين فإن الغى اتباع الهوى والضلال عدم الهدى^(١).

ولفظ العقل فى القرآن يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة فى الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذى ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل فى القرآن يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة^(٢).

فالعقل العلم الذى يعمل به والعمل بالعلم

ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذى يسمى عرضا قائما بالعاقل وعلى هذا دل القرآن فى قوله تعالى لعلمكم تعقلون وقوله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] وقوله ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨] ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلا وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذى لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذى يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٩٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣١١.

السَّعِيرِ ﴿[الملك: ١٠] وقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوما يميز بها الانسان بين ما ينفعه وما يضره فالجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام ويميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الانسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن في العين قوة بها يبصر وفي اللسان قوة بها يذوق وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء^(١).

مدح الله وأثنى على من كان له عقل

قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [طه: ٥٤] أى العقول وقال تعالى ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الزمر: ٥] أى لذي عقل وقال تعالى ﴿وَأَتَقُونِ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقال ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] وقال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۚ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٨٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٣٧.

بالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية
وأعظم عون لولي الأمر خاصة ولغيره عامة ثلاثة أمور أحدها الإخلاص لله
والتوكل عليه بالدعاء وغيره وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن الثاني
الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة الثالث الصبر على أذى الخلق وغيره من
النائب ولهذا جمع الله بين الصلاة والصبر وأما قرانه بين الصلاة والزكاة في القرآن فكثير
جدا قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] فبالقيام
بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية إذا عرف الإنسان ما يدخل في هذه
الأسماء الجامعة يدخل في الصلاة من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين
له والتوكل عليه وفي الزكاة بالإحسان إلى الخلق بالمال والنفع من نصر المظلوم وإغاثة
الملهوف وقضاء حاجة المحتاج ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال كل معروف صدقة
فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة ففي الصحيحين عن عدي بن
حاتم رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه
حاجب ولا ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئاً قدمه وينظر أشأم منه فلا يرى إلا
شيئاً قدمه فينظر أمامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولوبشق تمرة
فليفعل فإن لم يجد فبكلمة طيبة وفي السنن عن النبي ﷺ قال لا تحقرن من المعروف شيئاً
ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي وفي
السنن عن النبي ﷺ إن أثقل ما يوضع في الميزان الخلق الحسن وروي عنه ﷺ أنه قال لأمر
سلمة يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة وفي الصبر احتمال الأذى وكظم
الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر كما قال تعالى ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَّا
الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمَهُ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوسُ كَكُفُورٍ﴾ ٩ ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَّا نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ
مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ ١٠ ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ٩-١١] وقال لنبيه ﷺ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكِبَاطِ وَالْغَيْظِ
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ [١٣٣-١٣٤: عمران] وقال تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِ
الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا
يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦] وقال تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَاجْزِهِ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ [الشورى: ٤٠] قال الحسن البصري رحمه الله عليه إذا
كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش ألا ليقم من وجب أجره على الله فلا يقوم
إلا من عفا وأصلح^(١).

فالصبر على أداء الواجبات واجب ولهذا قرنه بالصلاة

قال الله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] قال علي بن أبي طالب
الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا انقطع الرأس بار الجسد ألا لا إيمان لمن لا
صبر له فالصبر على أداء الواجبات واجب ولهذا قرنه بالصلاة في أكثر من خمسين موضعاً
فمن كان لا يصلي من جميع الناس رجالهم ونسائهم فإنه يؤمر فإن امتنع عوقب بإجماع
المسلمين ثم أكثرهم يوجبون قتل تارك الصلاة وهل يقتل كافراً مرتداً أو فاسقاً على
قولين في مذهب أحمد وغيره والمنقول عن أكثر السلف يقتضي كفره وهذا مع الإقرار
بالوجوب فأما مع جحود الوجوب فهو كافر بالإتفاق ومن ذلك تعاهد مساجد المسلمين
وأئمتهم وأمرهم بأن يصلوا بهم صلاة النبي ﷺ حيث قال صلوا كما رأيتموني أصلي
رواه البخاري وصلى مرة بأصحابه على طرف المنبر وقال إنما فعلت هذا لتأتموا بي
ولتعلموا صلاتي فعلى إمام الصلاة أن يصلي بالناس صلاة كاملة لا يقتصر على ما يجوز
للمنفرد الإقتصار عليه إلا لعذر^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣٦١-٣٦٤ والسياسة الشرعية ج: ١ ص: ١١٢.

(٢) رسالة في قوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة ج: ١ ص: ٨١-٨٢.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]

فقد قال الله تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]
وهذا يقتضى ذم غير الخاشعين كقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]
وقوله تعالى ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣] فقد دل كتاب الله عز وجل على من كبر عليه ما يحبه الله وأنه مذموم بذلك فى الدين مسخوط منه ذلك والذم أو السخط لا يكون إلا لترك واجب أو فعل محرم وإذا كان غير الخاشعين مذمومين دل ذلك على وجوب الخشوع فمن المعلوم أن الخشوع المذكور فى قوله تعالى ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] لابد أن يتضمن الخشوع فى الصلاة فإنه لو كان المراد الخشوع خارج الصلاة لفسد المعنى إذ لو قيل إن الصلاة لكبيرة إلا على من خشع خارجها ولم يخشع فيها كان يقتضى أنها لا تكبر على من لم يخشع فيها وتكبر على من خشع فيها وقد إنتفى مدلول الآية فثبت أن الخشوع واجب فى الصلاة ويدل على وجوب الخشوع فيها ايضا قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ٢ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ ٣ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ ٤ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ٥ ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ٦ ﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ٧ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ ٨ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ٩ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ١٠ ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١١] أخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء هم الذين يرثون فردوس الجنة وذلك يقتضى أنه لا يرثها غيرهم وقد دل هذا على وجوب هذه الخصال إذ لو كان فيها ما هو مستحب لكانت جنة الفردوس تورث بدونها لأن الجنة تنال بفعل الواجبات دون المستحبات ولهذا لم يذكر فى هذه الخصال إلا ما هو واجب وإذا كان الخشوع فى الصلاة واجبا فالخشوع يتضمن السكينة والتواضع جميعا ومنه حديث عمر رضى الله عنه حيث رأى رجلا يعبث فى صلاته فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه أى لسكنت وخضعت وقال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَىٰ

الْأَرْضَ خَشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴿٣٩﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٩] فأخبر أنها بعد الخشوع تهتز والإهتزاز حركة وتربو والربو الإرتفاع فعلم أن الخشوع فيه سكون وإنخفاض ولهذا كان النبي يقول في حال ركوعه اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعى وبصرى ونحى وعقلى وعصبى رواه مسلم في صحيحه فوصف نفسه بالخشوع في حال الركوع لأن الراكع ساكن متواضع وبذلك فسرت الآية ففي التفسير المشهور الذى يقال له تفسير الوالى عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما وقد رواه المصنفون فى التفسير كأبى بكر بن المنذر ومحمد بن جرير الطبرى وغيرهما من حديث أبى صالح عبدالله بن صالح عن معاوية بن أبى صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله تعالى ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خِشْعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] يقول خائفون ساكنون وروو فى التفاسير المسندة كتفسير ابن المنذر وغيره من حديث سفيان الثورى عن منصور عن مجاهد ﴿خِشْعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] قال السكون فيها قال وكذلك قال الزهرى ومن حديث هشام عن مغيرة عن إبراهيم النخعى قال الخشوع فى القلب وقال ساكنون قال الضحاك الخشوع الرهبة لله وروى عن الحسن خائفون وروى ابن المنذر من حديث أبى عبد الرحمن المقبرى حدثنا المسعودى حدثنا أبوسنان أنه قال فى هذه الآية ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خِشْعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] قال الخشوع فى القلب وأن يلين كنفه للمرء المسلم وأن لا تلتفت فى صلاتك وفى تفسير ابن المنذر أيضا ما فى تفسير إسحق بن راهوية عن روح حدثنا سعيد عن قتادة ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خِشْعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] قال الخشوع فى القلب والخوف وغض البصر فى الصلاة وعن أبى عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه مختار القرآن ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خِشْعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] أى لا تطمح أبصارهم ولا يلتفتون^(١).

وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة الا فى محبة الله

فان اللذة والفرحة والسرور وطيب الوقت والنعيم الذى لا يمكن التعبير عنه انما هو فى معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده والايان به وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٥٥٣-٥٥٦.

القرآنية كما قال بعض الشيوخ لقد كنت فى حال اقول فيها ان كان أهل الجنة فى هذه الحال انهم لفى عيش طيب وقال آخر لتمر على القلب أو قاب يرقص فيها طربا وليس فى الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة الا نعيم الايمان والمعرفة ولهذا كان النبى ﷺ يقول أرحنا بالصلاة يا بلال ولا يقول أرحنا منها كما يقوله من تثقل عليه الصلاة كما قال تعالى ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] والخشوع الخضوع لله تعالى والسكون والطمأنينة اليه بالقلب والجوارح وكان النبى يقول حبيب إلى من دنياكم النساء والطيبم يقول وجعلت قرة عينى فى الصلاة ولم يقل حبيب إلى من دنياكم ثلاثكما يرفعه بعض الناس بل هكذا رواه الامام أحمد والنسائى ان المحب اليه من الدنيا النساء والطيب وأما قرة العين تحصل بمحصول المطلوب وذلك فى الصلاة والقلوب فيها وسواس النفس والشيطان بأمر بالشهوات والشبهات ما يفسده عليه طيب عيشها فمن كان محبا لغير الله فهو معذب فى الدنيا والآخرة ان نال مراده عذب به وان لم ينله فهو فى العذاب والحسرة والحزن وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة الا فى محبة الله والتقرب اليه بما يحبه ولا تمكن محبته الا بالاعراض عن كل محبوب سواه وهذا حقيقة لا إله إلا الله وهى ملة ابراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين^(١).

فإن اللذة الحاصلة بذكر الله والصلاة باقية دافعة للهموم والاحزان ومن الناس من يقصد المنفعة للبدن ولكن يحصل له من المضرة بالأفعال والأقوال التي تتولد عن السكر ويمنع عن المنفعة من ذكر الله والصلاة وغيرهما ما هو اعظم اثما من منفعتها فإن اللذة الحاصلة بذكر الله والصلاة باقية دافعة للهموم والاحزان ليس دفعه اياه وقت الصلاة فقط كما قال تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] ففي هذه اللذة والمنفعة العظيمة الشريفة الدافعة للمضار ما يغني عن تلك القاصرة المانعة مما هو اكمل منها والجالبة لمضرة تربى عليها.

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٣١-٣٢.

قرة عينه وراحة قلبه فى الصلاة فهو منقوص الايمان

قد ثبت عن النبى بأن العبد اقرب ما يكون من ربه وهو ساجد وقد قال النبى استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء الا مؤمن وفى الصحيح عن ابن مسعود عن النبى انه سئل أى الأعمال أفضل قال الصلاة على مواقيتها وفى الحديث عن النبى أنه قال أول ما يحاسب عليه العبد من عمله صلاته وآخر شيء وصى به النبى امته الصلاة وكان يقول جعلت قرة عينى فى الصلاة وكان يقول ارحنا يا بلال بالصلاة ولم يقل ارحنا منها فمن لم يجد قرة عينه وراحة قلبه فى الصلاة فهو منقوص الايمان قال الله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وقال النبى ﷺ راس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله^(١).

الاشفاع التى فى القرآن إما عملان وإما وصفان فى عمل

قد ذكر الله سبحانه فى البقرة والنساء الأقسام الأربعة فى العطاء إما أن لا يعطى فهو البخيل المذموم فى النساء أو يعطى مع الكراهة والمن والأذى فلا يكون بثبوت وهو المذموم فى البقرة أو مع الرياء فهو المذموم فى السورتين فبقي القسم الرابع ابتغاء رضوان الله وتثبيتاً من أنفسهم ونظيره الصلاة أما أن لا يصلي أو يصلي رياء أو كسلان أو يصلي مخلصاً والأقسام الثلاثة الأول مذمومة وكذلك الزكاة ونظير ذلك الهجرة والجهاد فإن الناس فيهما أربعة أقسام وكذلك ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥] فى الثبات والذكر وكذلك ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [التبلى: ١٧] فى الصبر والمرحمة أربعة أقسام وكذلك ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] فهم فى الصبر والصلاة فعامة هذه الاشفاع التى فى القرآن إما عملان وإما وصفان فى عمل انقسم الناس فيها قسمة رباعية ثم ان كانا عمليين منفصلين كالصلاة والصبر والصلاة والزكاة ونحو ذلك نفع احدهما ولو ترك الآخر وان كانا شرطيين فى عمل كالاخلاص

(١) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٥٤٠.

والثبوت لم ينفع احدهما فإن المن والأذى محبط كما أن الرياء محبط كما دل عليه القرآن ومن هذا تقوى الله وحسن الخلق ف﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] والبر والتقوى والحق والصبر وأفضل الإيمان السماحة والصبر بخلاف الاشفاق في الذم كالافك والاثم والاختيال والفخر والشح والجبن والاثم والعدوان فإن الذم ينال احدهما مفردا ومقرونا لأن الخير من باب المطلوب وجوده لمنفعته فقد لا تحصل المنفعة الا بتمامة الشر يطلب عدمه لمضرته وبعض المضار يضر في الجملة غالبا^(١).

الامور التي يكون فيها الصبر واجب

وينبغي ان الانسان إذا ابتلى فعليه ان يصبر ويثبت ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات ولا بد في جميع ذلك من الصبر ولهذا كان الصبر واجبا باتفاق المسلمين على اداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن ان يجزع فيها والصبر عن اتباع اهواء النفوس فيما نهى الله عنه وقد ذكر الله الصبر في كتابه في اكثر من تسعين موضعا وقرنه بالصلاة في قوله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]^(٢).

قرن الصبر بالأعمال الصالحة

وفي الصحيح عن النبي أنه كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وإذا كان خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب وهو به أحق ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق والكامل هو من كان لله أطوع وعلى ما يصيبه أصبر فكلما كان إتبع لما يأمر الله به

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٩٨.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٣٩ وأمراض القلوب ج: ١ ص: ٥٤.

ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبرا على ما قدره وقضاه كان أكمل وأفضل وكل من نقص عن هذين كان فيه من من النقص بحسب ذلك وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعا في غير موضع من كتابه وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العافية وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة وخصوصا فقال تعالى ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩] وفي إتباع ما أوحى إليه التقوى كلها تصديقا لخبر الله وطاعة لأمره وقال تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر^(١).

لا إيمان لمن لا صبر له

قال الله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] قال علي بن أبي طالب الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإن انقطع الرأس بار الجسد ألا لا إيمان لمن لا صبر له فالصبر على أداء الواجبات ولهذا قرنه بالصلاة في أكثر من خمسين موضعا فمن كان لا يصلي من جميع الناس رجالهم ونسائهم فإنه يؤمر فإن امتنع عوقب بإجماع المسلمين^(٢).

أهم أمر الدين الصلاة والجهاد

أن أهم أمر الدين الصلاة والجهاد ولهذا كانت أكثر الأحاديث عن النبي في الصلاة والجهاد وكان إذا عاد مريضا يقول اللهم اشف عبدك يشهد لك صلاة وينكأ لك عدوا ولما بعث النبي معاذ إلى اليمن قال يا معاذ إن أهم أموركم عندى الصلاة وكذلك كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكتب إلى عماله ان أهم أموركم عندى الصلاة فمن

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٧٧ والزهد والورع والعبادة ج: ١ ص: ١٠٩ ومجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٣٥.

(٢) دقائق التفسير ج: ١ ص: ٢١١.

حافظ عليها وحفظها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وذلك لأن النبي قال الصلاة عماد الدين فاذا اقام المتولى عماد الدين فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وهى التى تعين الناس على ما سواها من الطاعات كما قال الله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وقال سبحانه وتعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقال لني ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَابَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢] وقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] ^(١).

﴿الَّذِينَ يُظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]

فسر طائفة من أهل السنة اللقاء فى كتاب الله بالرؤية منهم ابو عبدالله بن بطة الامام قالوا فى قول الله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ [الكهف: ١٠٥] وفى قوله ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥] وفى قول الله ﴿وَأِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ يُظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ - ٤٦] وفى قوله ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وفى قوله ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣١] ان اللقاء يدل على الرؤية والمعانية وعلى هذا المعنى فقد استدل المثبتون بقوله سبحانه وتعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنسُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمَلَأَ فِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] ومن أهل السنة من قال اللقاء اذا قرن بالتحية فهو من الرؤية وقال ابن بطة سمعت أبا عمر الزاهد اللغوى يقول سمعت أبا العباس أحمد بن يحيى بلغنا يقول فى قوله ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ﴿٢٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٣ - ٤٤] أجمع أهل اللغة أن اللقاء ههنا لا يكون الا معانية ونظرة بالأبصار وأما الفريق الأول فقال بعضهم ليس الدليل

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٢٦١-٢٦٢ والسياسة الشرعية ج: ١ ص: ٢٢.

من القرآن على رؤية المؤمنين ربهم قوله ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وإنما الدليل آيات أخر مثل قوله ﴿وَجِئْتُمْ بِظُفُرٍ نَّاصِرَةٍ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] وقوله ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وقوله ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٣] (١).

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾

الحسنات تعلق بعلمين احدهما ما تتضمنه من جلب المصلحة والمنفعة والثانية ما تتضمنه من دفع المفسدة والمضرة وكذلك السيئات تعلق بعلمين إحداها ما تتضمنه من دفع المفسدة والمضرة والثانية ما تتضمنه من الصد عن المنفعة والمصلحة مثال ذلك قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] فبين الوجهين جميعاً فقوله ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [الأنعام: ١٥٢] بيان لما تتضمنه من دفع المفسد والمضار فإن النفس إذا قام بها ذكر الله ودعاؤه لا سيما على وجه الخصوص أكسبها ذلك صبغة صالحة تنهاها عن الفحشاء والمنكر كما يحسه الإنسان من نفسه ولهذا قال تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣] فإن القلب يحصل له من الفرح والسرور وقرّة العين ما يغنيه عن اللذات المكروهة ويحصل له من الخشية والتعظيم لله والمهابة وكل واحد من رجائه وخشيته ومحبته ناهٍ عنها (٢).

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧]

﴿فَاذْكُرُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عز وجل فتعتصم به فتقل آفاتها أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته فنقول إعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة المحبة والخوف والرجاء وأقواها المحبة وهي مقصودة تراد لذاتها لأنها تراد في

(١) مجموع الفتاوى ج: ٦ ص: ٤٨٨ - ٤٨٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٩٢.

الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحزاب: ١٣] والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبته وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب والرجاء يقوده فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له فإنه لا تحصل له العبودية بدونه وكل أحد يجب أن يكون عبدا لله لا لغيره فإن قيل فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبته فأى شيء يحرك القلوب قلنا يحركها شيئا أحدهما كثرة الذكر للمحبوب لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ﴾ [٤١] وَسَيِّئُوا بِكُفْرٍ وَأَصِيلًا ﴿[الأحزاب: ٤١ - ٤٢] الآية والثاني مطالعة آلائه ونعمائه قال الله تعالى ﴿فَاذْكُرُواْ ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقال تعالى ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ۖ﴾ [النحل: ٥٣] وقال تعالى ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] وقال تعالى ﴿وَلِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [النحل: ١٨] فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثا وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو وما ورد في الرجاء والكلام في التوحيد واسع وإنما الغرض مبلغ التنبيه على تضمنه الاستغناء بأدنى إشارة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم^(١).

ذكر النعم من الذكر الذي أمروا به

وقوله ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١] ثم قال ﴿فَاذْكُرُونِي﴾

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٩٥.

أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿البقرة: ١٥٢﴾ والمقصود أنه أمر بذكر النعم وشكرها وقال ﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧] فى غير موضع وقال للمؤمنين ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦] فذكر النعم من الذكر الذي أمروا به ^(١).

الشفاعة نوعان

فالشفاعة نوعان أحدهما الشفاعة التى نفاها الله تعالى كالتى أثبتها المشركون ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة وضلالهم وهى شرك والثانى أن يشفع الشفيع بإذن الله وهذه التى أثبتها الله تعالى لعباده الصالحين ولهذا كان سيد الشفعاء إذا طلب منه الخلق الشفاعة يوم القيامة يأتى ويسجد قال فأحمد ربى بمحامد يفتحها على لا أحسنها الآن فيقال أى محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع إذا أذن له فى الشفاعة شفع لمن أراد الله أن يشفع فيه ^(٢).

قد ينتفع بالنفوس والأموال فى الدنيا فنفى الله هذه الأقسام الثلاثة وفى الدنيا يشفع الشافع عند غيره وينتفع بشفاعته وإن لم يكن أذن له فى الشفاعة ويكون خليله فيعينه ويفتدى نفسه من الشر فقد ينتفع بالنفوس والأموال فى الدنيا والنفوس ينتفع بها تارة بالإستقلال وتارة بالإعانة وهى الشفاعة والأموال بالفداء فنفى الله هذه الأقسام الثلاثة قال تعالى ﴿لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] ^(٣).

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]

فإنه قد ثبت فى الحديث الصحيح أن النبى قال يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئا يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا يا عباس عم رسول الله

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٩٤.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٣٢.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٢٠.

لا أغنى عنك من الله شيئا سلوني ما شئتم من مالى وثبت عنه فى الصحيح أنه قال لا ألفين أحدكم يجيئ يوم القيامة وعلى رقبتة بغير له رغاء فيقول يارسول الله أغنى فأقول لا أغنى عنك من الله شيئا قد بلغتك الحديث بتمامه وذكر مثل ذلك فى غير ذلك من الأقوال فالرسول الله يقول مثل هذا لاهل بيته وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه من المهاجرين والانصار يقول إنه ليس يغنى عنهم من الله شيئا وقد قال تعالى ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] وقال ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨] وأمثال ذلك من نصوص القرآن والسنة وقد علم أنه ليس للأنبياء وغيرهم يوم القيامة الا الشفاعة وقد ثبت فى الصحيح أن الناس يأتون آدم ليشفع فيقول نفسى نفسى وكذلك يقول نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وهؤلاء هم أولوا العزم من الرسل وهم أفضل الخلق ويقول لهم عيسى اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فإذا رأيت ربى خررت له ساجدا فيقول أى محمد ارفع رأسك وقل يسمع واسئل تعط واشفع تشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة وذكر مثل ذلك فى المرة الثانية فهذا خير الخلق وأكرمهم على الله اذا رأى ربه لا يشفع حتى يسجد له ويحمده ثم يأذن له فى الشفاعة فيحد له حدا يدخلهم الجنة وهذا تصديق قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ [الْبَاقِرَةُ: ٢٥٥] إلى غير ذلك من الآيات وقد جاء فى الحديث الصحيح أنه تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون لكن بإذنه فى أمور محدودة ليس الامر إلى اختيار الشافع فهذا فيمن علم أنه يشفع فلو قال قائل ان محمدا يخلص كل مريديه من النار لكان كاذبا بل فى أمته خلق يدخلون النار ثم يشفع فيهم وأما الشيوخ فليس لهم شفاعه كشافعته والرجل الصالح قد يشفعه الله فيمن يشاء ولا شفاعه إلا فى أهل الإيمان^(١).

أن لله الشفاعه جميعا فعلم أن الشفاعه منتزعه عن غيره إذ لا يشفع أحد الا بإذنه وتلك فهى له

فالشفاعة المنفية فى القرآن كقوله تعالى ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ١٠٥-١٠٦.

[البقرة: ٤٨] وأمثال ذلك واحتج بكثير من الخوارج والمعتزلة على منع الشفاعة لأهل الكبائر إذ منعوا أن يشفع لمن يستحق العذاب أو أن يخرج من النار من يدخلها ولم ينفوا الشفاعة لأهل الثواب في زيادة الثواب ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة إثبات الشفاعة لأهل الكبائر والقول بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان وأيضا فالأحاديث المستفيضة عن النبي في الشفاعة فيها استشفاع أهل الموقف ليقضى بينهم وفيهم المؤمن والكافر وهذا فيه شفاعة للكفار وأيضا ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه يحوطك ويغضب لك قال نعم هو في ضحضاح من نار ولو لا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار وعن عبد الله بن الحارث قال سعت العباس يقول قلت يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك قال نعم وجدته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أن رسول الله ذكر عنده عمه أبوطالب فقال لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبه يغلى منه دماغه فهذا نص صحيح صريح لشفاعته في بعض الكفار أن يخفف عنه العذاب بل في أن يجعل أهون أهل النار عذابا وهذا السؤال الثانى يضعف جواب من تناول نفى الشفاعة على الشفاعة للكفار وإن الظالمين هم الكافرون فيقال الشفاعة المنفية هي الشفاعة المعروفة عند الناس عند الإطلاق وهي أن يشفع الشفيع إلى غيره ابتداء فيقبل شفاعته فأما إذا أذن له في أن يشفع فشفع لم يكن مستقلا بالشفاعة بل يكون مطيعا له أى تابعا له في الشفاعة وتكون شفاعته مقبولة ويكون الأمر كله للأمر المسؤل وقد ثبت بنص القرآن في غير آية أن أحدا لا يشفع عنده إلا بإذنه كما قال تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] وقال ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وأمثال ذلك والذي يبين أن هذه هي الشفاعة المنفية أنه قال ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنعام: ٥١] وقال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ [السجدة: ٤]

فأخبر أنه ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع وأما نفى الشفاعة بدون إذنه فإن الشفاعة إذا كانت بإذنه لم تكن من دونه كما أن الولاية التي بإذنه ليست من دونه كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦] وأيضا فقد قال ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [النمر: ٤٣ - ٤٤] فذم الذين اتخذوا من دون الله شفعا وأخبر أن الله الشفاعة جميعا فعلم أن الشفاعة منتفية عن غيره إذ لا يشفع أحد الا بإذنه وتلك فهي هو قد قال ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنبِئُوكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] يوضح ذلك أنه نفى يؤمئذ الخلة بقوله ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ومعلوم أنه إنما نفى الخلة المعروفة ونفعها المعروف كما ينفع الصديق الصديق في الدنيا كما قال ﴿وَمَا آدْرَبُكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا آدْرَبُكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٧ - ١٩] وقال ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥ - ١٦] لم ينف أن يكون في الآخرة خلة نافعة بإذنه فإنه قد قال ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦١﴾ الْآخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٢﴾ يَتَعَبَّدُونَ لِّمَا أَنتَ بِمَلَكٍ يَوْمَئِذٍ﴾ [الزخرف: ٦١ - ٦٢] والآيات وقد قال النبي يقول الله تعالى حق محبتي للمتحابين في ويقول الله تعالى أين المتحابون بجلالي اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي فتعين أن الأمر كله عائد إلى تحقيق التوحيد وأنه لا ينفع أحد ولا يضر الا بإذن الله وأنه لا يجوز أن يعبد أحد غير الله ولا يستعان به من دون الله وأنه يوم القيامة يظهر

جميع الخلق أن الأمر كله لله ويتبرأ كل مدع من دعواه الباطلة فلا يبقى من يدعى لنفسه معه شركا في ربوبيته أو الهيته ولا من يدعى ذلك لغيره بخلاف الدنيا فإنه وإن لم يكن رب ولا اله الا هو فقد اتخذ غيره ربا والها وادعى مدعون وفي الدنيا يشفع الشافع عند غيره ويتنفع بشفاعته وإن لم يكن أذن له في الشفاعة ويكون خليله فيعينه ويفتدى نفسه من الشر فقد يتنفع بالنفوس والأموال في الدنيا والنفوس يتنفع بها تارة بالإستقلال وتارة بالإعانة وهي الشفاعة والأموال بالفداء فنفي الله هذه الأقسام الثلاثة قال تعالى ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] وقال ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] كما قال ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٌّ عَنْ وَلَدِهِ شَيْئًا﴾ [نجم: ٣٣] فهذا هذا والله أعلم وعاد ما نفاه الله من الشفاعة إلى تحقيق أصلى الإيمان وهي الإيمان بالله وباليوم الآخر التوحيد والمعاد كما قرن بينهما في مواضع كثيرة كقوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ﴾ [البقرة: ٨] وقوله ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] وقوله ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [نجم: ٢٨] وقوله ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] وأمثال ذلك^(١).

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]

الرد على المنكرين لشفاعة الرسول ﷺ لأهل الذنوب من أمته
وأما شفاعة الرسول ﷺ ودعاؤه للمؤمنين فهي نافعة في الدنيا والدين باتفاق المسلمين وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة في زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين وقد قيل إن بعض أهل البدعة ينكرها وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية وقال هؤلاء من

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١١٦-١٢٠.

يدخل النار لا يخرج منها لا بشفاعه ولا غيرها وعند هؤلاء ما ثم إلا من يدخل الجنة فلا يدخل النار ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة ولا يجتمع عندهم فى الشخص الواحد ثواب وعقاب وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأئمة كالأربعة وغيرهم فيقولون بما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبى أن الله يخرج من النار قوما بعد أن يعذبهم الله ما شاء أن يعذبهم يخرجهم بشفاعة محمد ﷺ ويخرج آخرين بشفاعة غيره ويخرج قوما بلا شفاعه واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] وبقوله ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُكَ شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] وبقوله ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وبقوله ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] وبقوله ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وجواب أهل السنة أن هذا يراد به شيئا نأخذهما أنها لا تنفع المشركين كما قال تعالى فى نعتهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ٤٢ ﴿قَالُوا لَرَنُكَ مِنْ الْمَصْلِينَ﴾ ٤٣ وَلَرَنُكَ نُطْعِمُ الْمَسْكِينِ ٤٤ وَكُنَّا نَحْوُكَ مَعَ الْخَافِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ٤٦ حَتَّى أَتَيْنَا أَلْيَقِينَ ٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٨] فهؤلاء نفى عنهم نفع شفاعه الشافعين لأنهم كانوا كفارا والثانى أنه يراد بذلك نفى الشفاعه التى يشتهها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع اليه شفاعه شافع لحاجته اليه رغبة ورهبة وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون هؤلاء خواص الله فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة فأنكر الله هذه الشفاعه فقال تعالى ﴿مَنْ ذَا

الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿البقرة: ٢٥٥﴾ وقال ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿النجم: ٢٦﴾ وقال عن الملائكة ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْقُونَهُ بِالْأَنْهَارِ وَهُمْ بِأَمْرٍ هُمْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿الأنبياء: ٢٦ - ٢٨﴾ وقال ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٣﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴿سبا: ٢٢ - ٢٣﴾ وقال تعالى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿يونس: ١٨﴾ وقال تعالى ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿الأنعام: ٥١﴾ وقال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿السجدة: ٤﴾ وقال تعالى ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿الزخرف: ٨٦﴾ وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وِرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿الأنعام: ٩٤﴾ وقال تعالى ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿الزمر: ٤٣ - ٤٥﴾ وقال تعالى ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿طه: ١٠٨ - ١٠٩﴾ وقال صاحب يس ﴿وَمَا لِيَ لَا

أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَاتِخُذْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ [يس: ٢٢ - ٢٥] فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله وصوروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها قال الله تعالى عن قوم نوح ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴿٢٤﴾ [نوح: ٢٣ - ٢٤] قال بن عباس وغيره هؤلاء قوم صالحون كانوا في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم وهذا مشهور في كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخارى وغيره وهذه أبطلها النبي وحسم مادتها وسد ذريعتها حتى لعن من إتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها وإن كان المصلى فيها لا يستشفع بهم ونهى عن الصلاة إلى القبور وأرسل على بن أبى طالب فأمره أن لا يدع قبرا مشرفا الا سواه ولا تماثالا إلا طمسه ومحاه ولعن المصورين وعن أبى الهياج الأسدى قال لى على بن أبى طالب لأبعثك على ما بعثنى رسول الله ألا تدع تماثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته وفى لفظ ولا صورة إلا طمستها أخرجه مسلم^(١).

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]

إذا كان الشيء يعدل غيره فعدل الشيء بالفتح هو مساويه وإن كان من غير جنسه كما قال تعالى ﴿أَوْ عَدَلْ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥] والصيام ليس من جنس الطعام والجزاء ولكنه يعادله فى القدر وكذلك قوله ﷺ لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا وقوله تعالى ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] أي فدية والفدية ما يعدل بالمفدى وإن كان من غير جنسه ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] أي يجعلون له عدلا أي ندا فى

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ١٤٩-١٥٢.

الإلهية وإن كانوا يعلمون أنه ليس من جنس الرب سبحانه^(١).

لطائف لغوية

اللام تدخل على ما يتعدى بنفسه اذا ضعف عمله اما بتأخيرهِ أو بكونه اسم فاعل أو مصدرا أو باجتماعهما فيقال فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه ثم اذا ذكر باسم الفاعل قيل هو عابد لربه متق لربه خائف لربه وكذلك تقول فلان يرهّب الله ثم تقول هو راهب لربه واذا ذكرت الفعل واخرته تقويه باللام كقوله ﴿وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقد قال ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠] فعدها بنفسه وهناك ذكر اللام فان هنا قوله ﴿وَإِنِّي﴾ [البقرة: ٤٠] أتم من قوله لي وقوله هنا لك ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٤] أتم من قوله ربهم فان الضمير المنفصل المنصوب أكمل من ضمير الجر بالياء وهناك اسم ظاهر فتقويته باللام أولى وأتم من تجريده^(٢).

قوله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١] ذمهم على الوصفين وكل منهما مقتضى للذم وهما متلازمان ولهذا نهى عنهما جميعا في قوله ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢] فانه من لبس الحق بالباطل فغطاه به فغلط به لزم أن يكتفم الحق الذي تبين أنه باطل إذ لو بينه زال الباطل الذي لبس به الحق^(٣).

قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] فإن الصلاة أيضا تعم الصلاة المفروضة والتطوع وقد يدخل فيها كل ذكر الله إما لفظا وإما معنى قال ابن مسعود رضي الله عنه ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق وقال معاذ بن جبل مدارسة العلم التسبيح فإن الزكاة وإن كانت قد صارت حقيقة شرعية في

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ١٣٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٩١.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ١٩٢.

الزكاة المفروضة فإنها اسم لكل نفع للخلق من نفع بدني أو مالي^(١).

أنا وجدنا المأمورات المعطوف بعضها على بعض ما كان منها مرتبطا ببعضه ببعض
وجب فيه الترتيب كقوله ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧] وقوله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ
شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] وما لم يكن مرتبطا لم يجب فيه الترتيب كقوله ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] و﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ
وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١]^(٢).

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]
عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ البر اذا أطلق تناول جميع ما
أمر الله به كما في قوله ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) ﴿وَالْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الأنفطار: ١٣ - ١٤] وقوله
﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مِنْ أَتَقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقوله ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ
وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] فالبر اذا أطلق كان
مسماها مسمى التقوى والتقوى اذا أطلقت كان مسماها مسمى البر ثم قد يجمع بينهما
كما في قوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]^(٣).

وهذه الأسماء التي تختلف دلالتها بالاطلاق والتقييد والتجريد والاقتران تارة
يكونان اذا أفرد أحدهما أعم من الآخر كاسم الايمان والمعروف مع العمل ومع الصدق
والمنكر مع الفحشاء ومع البغى ونحو ذلك وتارة يكونان متساويين في العموم

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٣٦.

(٢) شرح العمد ج: ١ ص: ٣١٣.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٥.

والخصوص كلفظ الايمان والبر والتقوى ولفظ الفقير والمسكين فأیها أطلق تناول ما يتناوله الآخر^(١).

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] وقد ويراد بالعالمين أهل زمن واحد كما في قوله ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٣٦٧.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ
 الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ
 مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ
 وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ
 أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ
 ٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٢﴾ وَإِذْ قَالَ
 ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ
 مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنِّي كُنْتُ ظَلَمْتُكُمْ أَنفُسَكُمْ بَاتِّخَاذِكُمْ
 الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ
 بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ
 يَمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ
 وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِّن بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ ﴿[البقرة: ٤٩ - ٥٦]

العذاب قد يكون عذاب سماوي وقد يكون بفعل العباد

العذاب قد يكون عذاب سماوي وقد يكون بفعل العباد وذلك أن الجميع قد

سماه الله عذابا كما قال تعالى في النوع الثاني ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] وقال تعالى ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِكُّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] وكذلك ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَحْنُنْ تَرَبَّصْ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] إذ التقدير بعذاب من عنده أو بعذاب بأيدينا كما قال تعالى ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِكُّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤] وعلى هذا فيكون العذاب بفعل العباد وقد يقال التقدير ﴿وَتَحْنُنْ تَرَبَّصْ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢] أو يصيبكم بأيدينا لكن الأول هو الأوجه لأن الإصابة بأيدي المؤمنين لا تدل على أنها إصابة بسوء إذ قد يقال أصابه بخير وأصابه بشر قال تعالى ﴿وَإِن يُرِيدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]^(١).

أن آيات الانبياء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠] أن آيات الانبياء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم ليست مما تكون لغيرهم فيعلمون أن الله لم يخلق مثلها لغير الانبياء وسواء في آياتهم التي كانت في حياة قومهم وآياتهم التي فرق الله بها بين أتباعهم وبين مكذبيهم بنجاة هؤلاء وهلاك هؤلاء ليست من جنس ما يوجد في العادات المختلفة لغيرهم وذلك مثلقوم فرعون وموسى جمعان عظيمان ينفرد لهم البحر كل فرق كالطود العظيم فيسلك هؤلاء ويخرجون سالمين فاذا سلك الآخرون انطبق عليهم الماء فهذا لم يوجد نظيره في العالم فهذه آيات تعرف العقلاء عموما أنها ليست من جنس ما يموت به بنو آدم وقد يحصل لبعض الناس طاعون ولبعضهم جذب ونحو ذلك وهذا مما اعتاده الناس وهو من آيات الله من وجه آخر بل كل حادث من آيات الله تعالى

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٤٥.

ولكن هذه الآيات ليستمن جنس ما اعتيد^(١).

فموسى فلق الله له البحر حتى عبر فيه بنو إسرائيل وغرق فيه فرعون وجنوده وهذا أمر باهر فيه من عظمة هذه الآية ومن إهلاك الله لعدو موسى ما لم يكن مثله للمسيح^(٢).

ظلم النفس

ظلم النفس فانه اذا أطلق تناول جميع الذنوب فانها ظلم العبد نفسه قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِلَهُكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]^(٣).

﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إننى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا ولمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده

(١) النبوات ج: ١ ص: ١١٨.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ١٩.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٢.

قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى وقال ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] ^(١).

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ [البقرة: ١٦٠] التائب أحق بالإبتلاء فالتوبة قد يكون من تمامها عمل صالح يعمله فيبتلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته قال الله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩] في التائب من الردة وقال في كاتم العلم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠] وقال ﴿وَلِذَآئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقال في القذف ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٥] وقال ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ^(٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿[الفرقان: ٧٠-٧١] وقال ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢] ولما تاب كعب بن مالك وصاحبه أمر رسول الله ﷺ المسلمين بهجرهم. حتى نسائهم ثمانين ليلة وقال النبي ﷺ في الغامدية لما رجعها لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله وقد أخبر الله عن توبته على بنى إسرائيل حيث قال لهم موسى ﴿يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وإذا كان الله تعالى قد يبتلى العبد من الحسنات والسيئات والسراء والضراء بما يحصل معه شكره وصبره أم كفره وجزعه وطاعته أم معصيته فالتائب أحق بالإبتلاء فأدم أهبط إلى الأرض إبتلاء له ووقفه الله في هبوطه

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٧٢.

لطااعته فكان حاله بعد الهبوط خيرا من حاله قبل الهبوط^(١).

أنا نبي الرحمة وأنا نبي الملممة

وقد قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال كان رسول الله يسمي لنا نفسه أسماء فقال أنا محمد وأنا أحمد والمقفي والحاشر ونبي الملممة ونبي الرحمة وفي حديث آخر أنا نبي الرحمة وأنا نبي الملممة وذلك أنه بعث بالملممة وهي المقتلة لمن عصاه وبالتوبة لمن أطاعه وبالرحمة لمن صدقه واتبعه وهو رحمة للعالمين وكان من قبله من الأنبياء لا يؤمر بقتال وكان الواحد من أمهم إذا أصاب بعض الذنوب يحتاج مع التوبة إلى عقوبات شديدة كما قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَلْقَوْنِي بِذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ بَلَّيْتُ أَنْفُسَكُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتَّخَذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وقد روى عن أبي العالية وغيره أن أحدهم كان إذا أصاب ذنبا أصبحت الخطيئة والكفارة مكتوبة على بابه فأنزل الله في حق هذه الأمة ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا يَأْتِيهِمْ أَجْرٌ عَلَيْهِمْ وَمَنْ يَصِرْ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٣٥] أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦]^(٢).

فالقؤمن يستغفر من الذنوب والمعائب والجاهل الظالم يحتج بالقدر

ولم يعذر الله أحدا قط بالقدر ولو عذر به لكان أنبياءه وأولياؤه أحق بذلك وآدم إنما حج موسى لأنه لاهمه على المصيبة التي أصابت الذرية فقال له لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة وما أصاب العبد من المصائب فعليه أن يسلم فيها لله ويعلم أنها مقدورة عليه كما قال تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] قال علقمة وقد روى عن ابن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى

(١) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٥ ص: ٤١١.

ويسلم فالعبد مأمور بالتقوى والصبر فالتقوى فعل ما أمر به ومن الصبر على ما أصابه وهذا هو صاحب العاقبة المحمودة كما قال يوسف عليه السلام ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] وقال تعالى ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقال ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقال ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] لا بد لكل عبد من أن يقع منه ما يحتاج معه إلى التوبة والإستغفار ويتلى بما يحتاج معه إلى الصبر فلهذا يؤمر بالصبر والإستغفار كما قيل لأفضل الخلق ﴿فَاصْبِرْ إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥] وقد بسط الكلام في غير هذا الموضع على مناظرة آدم وموسى فإن كثيرا من الناس حملوها على محامل مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الأمة ومنهم من كذب بالحديث لعدم فهمه له والحديث حق يوجب أن الإنسان إذا جرت عليه مصيبة بفعل غيره مثل أبيه أو غير أبيه لا سيما إذا كان أبوه قد تاب منها فلم يبق عليه من جهة الله تبعة كما جرى لآدم صلوات الله عليه قال تعالى ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (١٢١) ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿طه: ١٢١-١٢٢﴾ وقال ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧] وكان آدم وموسى أعلم بالله من أن يحتج أحدهما لذنبه بالقدر ويوافقه الآخر ولو كان كذلك لم يحتج آدم إلى توبة ولا أهبط من الجنة وموسى هو القائل ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] وهو القائل ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي الَّذِينَ اتَّبَعْتُ أَتَتْهُمُ الرِّجْمَاتُ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١] وهو القائل ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وهو القائل لقومه ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] فلو كان المذنب يعذر بالقدر لم يحتج إلى هذا بل كان الإحتجاج بالقدر لما حصل من موسى ملام على ما قدر عليه من المصيبة التي كتبها الله وقدرها ومن الإيمان بالقدر أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه

فالمؤمن يصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب والمعائب والجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه وسيئاته ولا يعذر بالقدر من أساء إليه ولا يذكر القدر عند ما ييسره الله له من الخير فعكس القضية بل كان الواجب عليه إذا عمل حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسرها وتفضل بها فلا يعجب بها ولا يضيفها إلى نفسه كأنه الخالق لها وإذا عمل سيئة استغفر وتاب منها وإذا أصابته مصيبة سماوية أوفعل العباد يعلم أنها كانت مقدرة مقضية عليه^(١).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۖ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦]

فمن الخوارق الخارجة عن قوى النفوس إحياء الموتى

لما سأل قوم موسى أن يروا الله جهرة أخذتهم الصاعقة^(٢).

فمن الخوارق الخارجة عن قوى النفوس إحياء الموتى من الآدميين والبهائم وقد ذكر الله ذلك في غير موضع من كتابه فذكره في خمسة مواضع في سورة البقرة وقال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۖ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦] وهذه الأمور التي قصها الله من أحياء الآدميين من بعد موتهم مرة بعد مرة ومن إحياء الحمار ومن إبقاء الطعام والشراب مائة عام لم يتغير ومن إبقاء النيام ثلاثمائة وتسع سنين ومن تمزيق الطيور الأربعة وجعلهن أربعة أجزاء على الجبال ثم أتيانهن سعيًا لما دعاهن إبراهيم الخليل عليه السلام فيها أنواع من الاعتبار منها تثبيت المعجزات للأنبياء وأنها خارجة عن قوى النفس فإن الفلاسفة وسائر العقلاء متفقون على أن قوى النفوس لا تفعل مثل هذا بل ولا شيء من القوى المعروفة في العالم العلوي والسفلي الثاني أن في ذلك إثبات أن الله فاعل مختار

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٩٦-٩٩.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٤٣٧.

يفعل بمشيئته وقدرته يحدث ما يشاء بحسب مشيئته وحكمته^(١).

طريقة القرآن في بيان امكان المعاد

العلم بإمكان الشيء في الخارج فهذا يعلم بأن يعلم وجوده أو وجود نظيره أو وجود ما هو أقرب إلى الامتناع منه فإذا كان حمل البعير للقنطار ممكنا كان حمله لتسعين رطلا أولى بالإمكان وبهذه الطريقة يبين الله في القرآن إمكان ما يريد بيان إمكانه كإحياء الموتى والمعاد فإنه يبين ذلك تارة ببيان وقوعه كما أخبر أن قوم موسى قالوا ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسِيٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ﴾^(٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[البقرة: ٥٥-٥٦] وكما أخبر عن المقتول الذي ضربوه بالبقرة فأحياه الله^(٢).

وإذا قال القائل فأنا افرض الانسان مجردا عن الوجودين الخارجي والذهني قيل له هذا الفرض في الذهن ايضا كما تفرض سائر الممتنعات في الذهن مثل ان يفرض موجودا لا واجبا ولا ممكنا ولا قائما بنفسه ولا بغيره ولا مبائنا لغيره ولا مجانبا له وهذا كله مفروض في الذهن وليس كل ما فرضه الذهن امكن وجوده في الخارج وليس كل ما حكم به الانسان على ما يقدره ويفرضه في ذهنه يكون حكما صحيحا على ما يوجد في الخارج ولا كل ما امكن تصور الذهن له يكون وجوده في الخارج بل الذهن يتصور اشياء ويقدرها مع علمه بامتناعها ومع علمه بامكانها في الخارج ومع عدم علمه بالامتناع الخارجي والامكان الخارجي وهذا الذي يسمى الامكان الذهني فان الامكان يستعمل على وجهين امكان ذهني وامكان خارجي فالامكان الذهني ان يعرض الشيء على الذهن فلا يعلم امتناعه بل يقول يمكن هذا لا لعلمه بامكانه بل لعدم علمه بامتناعه مع ان ذاك الشيء قد يكون ممتنعا في الخارج واما الامكان الخارجي فأن يعلم امكان الشيء في الخارج وهذا يكون بأن يعلم وجوده في الخارج أو وجود نظيره أو وجود ما هو أبعد عن الوجود منه فإذا كان الأبعد عن قبول الوجود موجودا ممكن الوجود فالأقرب إلى

(١) الصفدية ج: ١ ص: ١٨٤.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٤٠٥.

الوجود منه أولى وهذه طريقة القران في بيان امكان المعاد يبين ذلك بهذه الطريق فتارة يخبر عمن اماتهم ثم احياهم كما اخبر عن قوم موسى بقوله ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ ٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[البقرة: ٥٥-٥٦] وكما اخبر عن المضروب بالبقرة بقوله ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] وكما اخبر عن ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وكما اخبر عن ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَيْتَ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتَ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظَرُ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظَرُ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظَرُ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وعن ابراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمَّا تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَاخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وكما اخبر عن المسيح عليه السلام انه كان يحيى الموتى باذن الله وكما اخبر عن اصحاب الكهف انهم لبثوا نياما في كهفهم ثلث مائة سنين وازدادوا تسعا ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] وقال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٦] وقد ذكر غير واحد من العلماء ان الناس كانوا قد تنازعوا في زمانهم هل يبعث الله الارواح فقط أو يبعث الارواح والاجساد فأعثر الله هؤلاء على اهل الكهف وعلموا انهم بقوا نياما لا يأكلون ولا يشربون ثلثمائة سنة شمسية وهي ثلثمائة وتسع هلالية فأعلمهم الله بذلك امكان اعادة

الابدان فهذه احدى الطرق التي يبين الله بها امكان المعاد^(١).

وتارة يستدل على ذلك بالنشأة الأولى فان الاعادة اهون من الابتداء كما فى قوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تَرَابٍ﴾ [الحج: ٥] الآية وقوله ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُوُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وتارة يستدل على ذلك بمخلق السموات والارض فإن خلقهما اعظم من اعادة الانسان كما فى قوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىٰ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وتارة يستدل على امكانه بمخلق النبات كما فى قوله ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا﴾ [الأعراف: ٥٧] إلى قوله ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٧] فقد تبين ان ما عند أئمة النظار اهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية على المطالب الالهية فقد جاء القرآن الكريم بما فيها من الحق وما هو ابلغ واكمل منها على احس وجه مع تنزهه عن الاغاليط الكثيرة الموجودة عند هؤلاء فان خطأهم فيها كثيرا جدا ولعل ضلالهم اكثر من هداهم وجهلهم أكثر من علمهم ولهذا قال ابو عبد الله الرازي فى آخر عمره فى كتابه اقسام الذات لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت اقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ فى الاثبات ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوٰى﴾ [طه: ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] واقرأ فى النفى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى^(٢).

فالذي جاءت به السنة مطابق لما فى القرآن فى المستقبل أخبر تعالى بالقيامة والحسنات والجنة والنار ولم يخبر بأن العالم يعدم ويفنى بحيث لا يبقى شيء بل أخبر

(١) الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٣١٨-٣٢٠.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٢٤.

باستحالة العالم وأنها تستحيل أنواعا من الإستحالة لتعدد الأوقات وكذلك أخبر بإحياء الموتى وقيامهم من قبورهم في غير موضع وقرر سبحانه معاد الأبدان بأنواع من التقرير فتارة يخبر بوقوع إحياء الموتى كما أخبر بذلك في سورة البقرة في عدة مواضع في قوله ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ ٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦] وذكر إحياء المسيح الموتى وذكر قصة أصحاب الكهف ونومهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين والنوم أخو الموت فهذه سبع مواضع ومنها إحياء الحيوان البهيم وإبقاء الطعام والشراب مائة سنة لم يتغير وذكر سبحانه إمكان ذلك بخلق الحيوان وهو الخلق الأول وبخلق النبات وهو نظيره وبخلق السموات والأرض وأن القادر على خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم فالأول بيان للوقوع وهذا بيان للإمكان^(١).

فالله قد أخبر أنه أحيا من الموتى على يد موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل أعظم ممن أحياهم على يد المسيح^(٢).

(١) الصفدية ج: ٢ ص: ٢٢٦.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ١٩.

﴿وَضَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوىٰ
 كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ
 يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ
 شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ
 خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ
 السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
 فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ
 عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُتُوبًا وَاشْرَبُوا مِّن رِّزْقِ
 اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَن
 نَّصِيرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ
 مِن بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ
 أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا
 مَصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ
 وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبَغَضَ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
 كَافِرُونَ يَا أَيَّتُهَا اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا
 عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

آيات موسى

فجعل الله الانبياء والمرسلين من اهل بيت ابراهيم عليه السلام وجعل لكل منهم خصائص ورفع بعضهم فوق بعض درجات وآتى كلا منهم من الآيات ما آمن على مثله البشر فجعل لموسى العصا حية حتى ابتلعت ما صنعت السحرة الفلاسفة من الحبال والعصى وكانت شيئا كثيرا وفلق له البحر حتى صار يابسا والماء واقفا حاجزا بين اثني عشر طريقا على عدد الاسباط وارسل معه القمل والضفادع والدم وظلل عليه وعلى قومه الغمام الأبيض يسير معهم وانزل عليهم صبيحة كل يوم المن والسلوى واذا عطشوا ضرب موسى بعصاه الحجر ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ اُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠] ^(١).

فموسى كان الله يطعمهم على يده المن والسلوى مع كثرة بني إسرائيل ويفجر لهم بضربه للحجر كل يوم اثني عشر عينا يكفيهم وهذا أعظم من إنزال المسيح عليه السلام للمائدة ومن قلب الماء خرا ونحو ذلك مما يحكى عنه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ^(٢).

كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل

أن الرضى الذي هو من طريق الله لا يتضمن ترك واجب ولا ترك مستحب فالدعاء الذي هو واجب أو مستحب لا يكون تركه من الرضى كما أن ترك سائر الواجبات لا يكون من الرضى المشروع ولا فعل المحرمات من المشروع فقد تبين غلط هؤلاء (بعض الصوفية) من جهة ظنهم أن الرضى مشروع بكل مقدور ومن جهة أنهم لم يميزوا بين الدعاء المشروع إيجابا واستحبابا والدعاء غير المشروع وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن طلب الجنة من الله والاستعاذة به من النار هو من أعظم الأدعية المشروعة لجميع المرسلين والنبیین والصديقين والشهداء والصالحين وأن ذلك لا يخرج عن كونه واجبا أو مستحبا وطريق أولياء الله التي يسلكونها لا تخرج عن فعل واجبات

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٨ ص: ٦٠٥.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ١٩.

ومستحبات إذ ما سوى ذلك محرم أو مكروه أو مباح لا منفعة فيه في الدين ثم إنه لما وقع هؤلاء في هذا الغلط أنهم وجدوا كثيرا من الناس لا يسألون الله جلب المنافع ودفع المضار حتى طلب الجنة والاستعاذة من النار من جهة كون ذلك عبادة وطاعة وخيرا بل من جهة كون النفس تطلب ذلك فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده وأن لا يكون لأحدهم إرادة أصلا بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر كائنا من كان وهذا هو الذي أدخل كثيرا منهم في الرهبانية والخروج عن الشريعة حتى تركوا من الأكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون إليه وما لا تتم مصلحة دينهم إلا به فإنهم رأوا العامة تعد هذه الأمور بحكم الطبع والهوى والعادة ومعلوم أن الأفعال التي على هذا الوجه لا تكون عبادة ولا طاعة ولا قربة فرأى أولئك الطريق إلى الله ترك هذه العبادات والأفعال الطبيعية فلازموا من الجوع والسهر والخلوة والصمت وغير ذلك مما فيه ترك الحظوظ واحتمال المشاق ما أوقعهم في ترك واجبات ومستحبات وفعل مكروهات ومحرمات وكلا الأمرين غير محمود ولا مأمور به ولا طريق إلى الله وطريق المفرطين الذين فعلوا هذه الأفعال المحتاج إليها على غير وجه العبادة والتقرب إلى الله وطريق المعتدين الذين تركوا هذه الأفعال بل المشروع أن تفعل بنية التقرب إلى الله وأن يشكر الله قال الله تعالى ﴿كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال تعالى ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ [البقرة: ٥٧] فأمر بالأكل والشرب فمن أكل ولم يشكر كان مذموما ومن لم يأكل ولم يشكر كان مذموما وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها وقال النبي ﷺ لسعد إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها في في امرأتك وفي الصحيح أيضا أنه قال نفقة المؤمن على أهله يحسبها صدقة فكذلك الأدعية هنا من الناس من يسأل الله جلب المنفعة له ودفع المضرة عنه طبعاً وعادة لا شرعاً وعبادة فليس من المشروع أن أدع الدعاء مطلقاً لتقصير هذا وتفريطه بل أفعله أنا شرعاً وعبادة ثم أعلم أن الذي يفعله شرعاً وعبادة إنما يسعى في مصلحة نفسه وطلب حظوظه الحمودة فهو يطلب مصلحة دنياه وآخرته بخلاف الذي يفعله طبعاً فإنه إنما

يطلب مصلحة دنياه فقط كما قال تعالى ﴿فَمِنَ النَّكَاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢] وحينئذ فطالب الجنة والمستعيز من النار إنما يطلب حسنة الآخرة فهو محمود ومما يبين الأمر في ذلك أن يرد قول هؤلاء أن العبد لا يفعل مأمورا ولا يترك محظورا فلا يصلي ولا يصوم ولا يتصدق ولا يحج ولا يجاهد ولا يفعل شيئا من القربات فإن ذلك إنما فائدته حصول الثواب ودفع العقاب فإذا كان هو لا يطلب حصول الثواب الذي هو الجنة ولا دفع العقاب الذي هو النار فلا يفعل مأمورا ولا يترك محظورا ويقول أنا راض بكل ما يفعله بي وإن كفرت وفسقت وعصيت بل يقول أنا أكفر وأفسق وأعصي حتى يعاقبني وأرضى بعقابه فأنا لدرجة الرضا بقضائه وهذا قول من هو أجهل الخلق وأحقهم وأضلهم وأكفرهم أما جهله وحمقه فلأن الرضى بذلك ممتنع متعذر لأن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين وأما كفره فلأنه مستلزم لتعطيل دين الله الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه ولا ريب أن ملاحظة القضاء والقدر وقعت كثيرا من أهل الإرادة من المتصوفة في أن تركوا من المأمور وفعلوا من المحظور ما صاروا به إما ناقصين محرومين وإما عاصين فاسقين وإما كافرين وقد رأيت من ذلك ألوانا ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور وهؤلاء المعتزلة ونحوهم من القدرية طرفا نقيض هؤلاء يلاحظون القدر ويعرضون عن الأمر وأولئك يلاحظون الأمر ويعرضون عن القدر والطائفتان تظن أن ملاحظة الأمر والقدر متعذر كما أن طائفة تجعل ذلك مخالفا للحكمة والعدل وهذه الأصناف الثلاثة القدرية المجوسية والقدرية المشركية والقدرية الإبلسية وقد بسطنا الكلام عليهم في غير هذا الموضع وأصل ما يتلى به السالكون أهل الإرادة والعامة في هذا الزمان هي القدرية المشركية فيشهدون القدر ويعرضون عن الأمر كما قال فيهم بعض العلماء أنت عند الطاعة قدرتي وعند المعصية جبري أي مذهب وافق هواك تمذهب به وإنما المشروع العكس وهو أن يكون عند الطاعة يستعين الله عليها قبل الفعل ويشكره عليها بعد الفعل ويجتهد أن لا يعصي فإذا أذنب وعصى بادر إلى التوبة والاستغفار كما في حديث سيد الاستغفار أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي وكما في الحديث الصحيح

الإلهي يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ومن هذا الباب دخل قوم من أهل الإرادة في ترك الدعاء وآخرون جعلوا التوكل والمحبة من مقامات العامة وأمثال هذه الأغاليط التي تكلمنا عليها في غير هذا الموضع وبيننا الفرق بين الصواب والخطأ في ذلك ولهذا يوجه في كلام هؤلاء المشايخ الوصية باتباع العلم والشرعة حتى قال سهل بن عبد الله التستريكل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل وقال الجنيد بن محمد علمنا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصح أن يتكلم في علمنا والله أعلم^(١).

ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب

والتحقيق أن ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب وفي الصحيحين أن أبا بكر قال يا رسول الله علمني دعاء أدعوه في صلاتي فقال قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم وفي صحيح مسلم وغيره أن النبي كان يقول في استفتاحه اللهم أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت وقد قال أبو البشر وزوجته ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وقال موسى ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] وقال ذو النون يونس ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقالت بلقيس ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] وقد قال عن أهل القرى المعذنين ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]^(٢).

(١) الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٢٥٨-٢٦٠.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ٦٩٣.

لطائف لغوية

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩] وفرعون اسم لمن يملك مصر من القبط وهو اسم جنس كقيصر وكسري والنجاشي ونحو ذلك^(١).

آل فلان إذا أطلق في الكتاب والسنة دخل فيه فلان كما في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] وقوله ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] وقوله ﴿أَدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] وقوله ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ إِبْلِيسَ﴾ [الصافات: ١٣٠] ومنه قوله ﷺ اللهم صل على آل أبي أوفى وكذلك لفظ أهل البيت كقوله تعالى ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْهِمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] فإن إبراهيم داخل فيهم وكذلك قوله من سره ان يكتال بالميال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل الله صل على محمد النبي الحديث وسبب ذلك أن لفظ الآل أصله أول تحركت الواو وافتتح ما قبلها فقلبت ألفا فقل آل ومثله باب وناب وفي الأفعال قال وعاد ونحو ذلك ومن قال أصله أهل فقلبت الهاء الفا فقد غلط فإنه قال مالا دليل عليه وإدعى القلب الشاذ بغير حجة مع مخالفته للأصل وأيضا فإن لفظ الأهل يضيفونه إلى الجماد وإلى غير المعظم كما يقولون أهل البيت وأهل المدينة وأهل الفقير وأهل المسكين وإما الآل فإنما يضاف إلى معظم من شأنه أن يؤول غيره أو يسوسه فيكون مآله إليه ومنه الإيالة وهي السياسة فال شخص هم من يؤوله ويؤول إليه ويرجع إليه ونفسه هي أول وأولى من يسوسه ويؤول إليه فلهذا كان لفظ آل فلان متناولا له ولا يقال هو مختص به بل يتناوله ويتناول من يؤوله^(٢).

قال تعالى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٤٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٢ ص: ٤٦٣.

وهذه الجملة الثانية بدل من الأولى فإن الإبدال يقع في الجمل كما يقع في المفردات فهذا الذبح والاستحياء هوسوم العذاب^(١).

والكلام في مثل هذا الجنس الذي يوالي بعضهم بعضا ويتبع بعضهم بعضا كاليهود الذين هم على دين سلفهم الذين فعلوا ذلك ولهذا يذمهم بصيغة الخطاب كقوله ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠] إلى قوله ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥] فالخطاب لجنس بني إسرائيل وإن كان الذين عاينوا ذلك ماتوا^(٢).

قال تعالى ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(٣) من قبل هُدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿[١٧] عمران: ٣-٤﴾ وذكر انه أنزل الكتاب والفرقان كما قال ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ [البقرة: ٥٣] ولفظ ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ يتناول ما يفرق بين الحق والباطل مثل الآيات التي بعث بها الأنبياء كالحية واليد البيضاء وإنفلاق البحر والقرآن فرقان بين هذا الوجه من جهة أنه آية عظيمة لنبوة محمد وعلم عظيم وهو أيضا فرقان باعتبار أنه فرق بينه بين الحق والباطل كما قال ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] ولهذا فسر جماعة الفرقان هنا به ولفظ الفرقان أيضا يتناول نصر الله لأنبيائه وعباده المؤمنين وإهلاك أعدائهم فإنه فرق به بين أوليائه وأعدائه وهو أيضا من الأعلام قال تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] والآيات التي يجعلها الله دلالة على صدق الأنبياء هي مما ينزله كما قال ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ ءَايَةً﴾ [الأنعام: ٣٧] وقال ﴿إِنْ شَأْ نُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةٌ فَظُلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] وقال تعالى ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(٤)

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥٩.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٣٨٥.

[البقرة: ٥٩] ^(١).

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣] وذكر كتاب موسى بهذه الإضافة لا بلفظ التوراة في غير موضع ^(٢).

قوله ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] نزلت في قصة عائشة رضي الله عنها في الإفك فإن الواحد من المؤمنين من أنفس المؤمنين والمؤمنات وكذلك قوله تعالى ﴿فَتَوْبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] أي يقتل بعضكم بعضا ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] أي لا يخرج بعضكم بعضا فالمراد بالأنفس الإخوان إما في النسب وإما في الدين ^(٣).

والأنفس يعبر عنها بالنوع الواحد كقوله ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] وقال ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] أي يقتل بعضكم بعضا ^(٤).
وقال تعالى ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] أي كخيفة بعضكم بعضا وقوله تعالى ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] وقوله ﴿فَتَوْبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وقوله ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] ^(٥).

الأخوة والخلوة الإيمانية التي قال فيها النبي مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٢٧٨.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ٢٤٤.

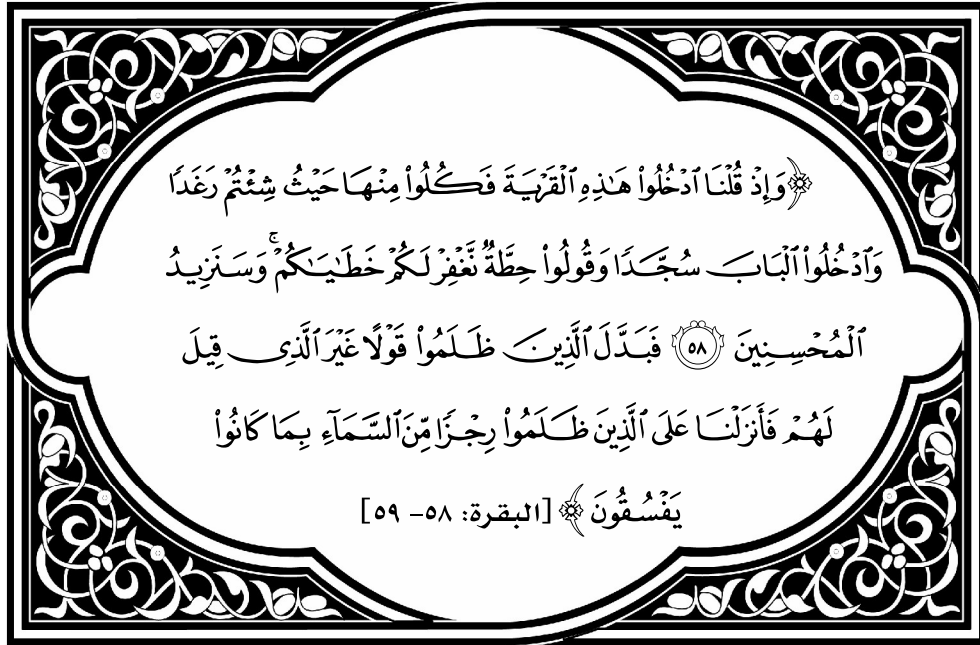
(٣) منهاج السنة النبوية ج: ٤ ص: ٣٤ ومجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٠٢ ومنهاج السنة النبوية ج: ٧ ص: ١٢٤.

(٤) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٤١٩.

(٥) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٤٥٨.

والسهر أخرجاه في الصحيحين فجعل المؤمن مع المؤمن بمنزلة العضوم مع العضو اللذين
تجمعهما نفس واحدة ولهذا سمى الله الأخ المؤمن نفساً لأخيه في غير موضع من الكتاب
والسنة قال تعالى ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٣٨٨.



عن النبي ﷺ أنه قال لهم ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم ويقولون حبة في شعرة

قال ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨] قال ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨] فبين أنهم يأكلون رغدا فيتهنون لا يخافون الخروج وبسط الكلام في البقرة وذكر الدخول لأنه قبل السكنى ولهذا قال ﴿رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨] وقال ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ [البقرة: ٥٨] وقال ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩] وقدم السجود لأنه أهم وقد اختلفوا في هذا السجود فقليل هو الركوع كما روى ابن أبي حاتم من وجهين ثابتين عن سفيان الثوري عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨] قال ركعا من باب صغير فدخلوا من قبل أستاههم وقالوا حنطة وقيل بل هو السجود بالأرض ثم قيل ما رواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس قال سجدا قال كان سجود أحدهم على خده وروى عن وهب بن منبه قال إذا دخلتموه فاسجدوا شكرا لله فكان

صاحب هذا القول جعل السجود بعد الدخول ومن قال بهذا أوقال بأنهم أمروا بالركوع فهو يقول دخولهم وهم سجد بالأرض فيه صعوبة وقد يؤدي أحدهم ولكن هو ممكن فإن الإنسان يمكنه حال السجود أن يزحف إذا كانت الأرض لا تؤذيه وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال لهم ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم ويقولون حبة في شعرة فهذا هو الثابت عن النبي ﷺ وقد قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما في ذلك أقوالا تخالف هذا فقال خصيف عن عكرمة عن ابن عباس فدخلوا على شق وروى السدي عن أبي سعد الأزدي عن أبي الكنود عن ابن مسعود فدخلوا مقنعي رؤوسهم قال ابن أبي حاتم اختلف التابعون فروى عن مجاهد نحو قول عكرمة عن ابن عباس وروى عن السدي نحو ما روى عن ابن مسعود وعن مقاتل أنهم دخلوا منكفيين وأما القول فقد ثبت عن النبي ﷺ أنهم قالوا حبة في شعرة وإذا ثقت الحبة وأدخلت فيها الشعرة فإنه يقال حبة في شعرة ويقال شعرة في حبة وهذا معنى ما رواه السدي عن مرة عن ابن مسعود أنه قال إنهم قالوا هطى سميثا أزيه مزبا وهي بالعربية حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء فذلك قوله تعالى ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩] وكذلك رواه السدي عن أبي سعد الأزدي عن أبي الكنود عن ابن مسعود وهذا موافق لما ثبت عن النبي ﷺ لكن النبي ﷺ إنما تكلم بالعربية وهذا اللفظ أخذه ابن مسعود عن أهل الكتاب وهذا أصح من قول ابن عباس أنهم قالوا حنطة مع أن هذا مروى عن غير واحد قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والضحاك والحسن والربيع ويحيى بن رافع نحو ذلك لكن قد يقال الحبة هي الحنطة وهم لم يقولوا بالعربية بل بلسانهم وهم إذا قالوا بلسانهم ما معناه حبة حنطة جاز أن يقال حنطة وحديث ابن مسعود وقد ذكر أنهم قالوا حبة حنطة فلا يكون في القول خلاف وأبو الفرج ذكر خمسة أقوال وهي ترجع إلى هذا ذكر الحديث المرفوع والثاني حنطة والثالث أنهم قالوا حبة حنطة حمراء فيها شعرة سوداء قاله ابن مسعود والرابع كذلك إلا أنهم قالوا مثقوبة قاله السدي عن أشياخه قلت كلاهما رواه السدي عن ابن مسعود وهما قول واحد قال والخامس أنهم قالوا استقلابا قاله أبو صالح

قلت هذا الذي ذكره ابن مسعود بلسانهم سمقائا وقد فسر به بذلك قال الأقوال كلها واحدة بخلاف صفة الدخول فإن الثابت عن النبي ﷺ أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم وفي لفظ على أوراكهم والمعنى واحد وما نقل خلاف هذا وإنما أخذ عن أهل الكتاب وقد كان يؤخذ عنهم الحق والباطل وقول ابن مسعود مقنعي رؤوسهم لا يناقض الزحف على أستاههم وابن عباس قال يزحفون على أستاههم كالمرفوع وقال قيل ادخلوا ركعا فلوجزمننا أن هذا مأخوذ عن النبي ﷺ لجزمننا بأن الله أمرهم بالركوع لكن ظاهر القرآن هو السجود والسجود المطلق هو السجود المعروف وكون الباب جعل صغيرا إنما يكون لمن يكره على الدخول منه ليحتاج أن ينحني وهؤلاء قصدت طاعتهم فأمرُوا بالخضوع لله والإستغفار فدخولهم سجدا هو خضوع لله وقولهم حطه أي احطط عنا خطايانا هو استغفارهم^(١).

السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله

والسجود هو الخضوع قال تعالى ﴿وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجَّدَا﴾ [الأعراف: ١٦٦] قال أهل اللغة السجود في اللغة هو الخضوع وقال غير واحد من المفسرين أمرُوا أن يدخلوا ركعا منحنين فإن الدخول مع وضع الجبهة على الأرض لا يمكن وقد قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] وقال تعالى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] ومعلوم أن سجود كل شيء بحسبه ليس سجود هذه المخلوقات وضع جباهها على الأرض وقد قال النبي ﷺ في حديث أبي ذر لما غربت الشمس إنها تذهب فتسجد تحت العرش رواه البخاري ومسلم فعلم أن السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله وأعز ما في الإنسان وجهه فوضعه على الأرض لله غاية خضوعه ببدنه وهو غاية ما يقدر عليه من ذلك ولهذا قال النبي ﷺ أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وقال تعالى ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩] فصار من جنس أذكار الصلاة التي تشرع خارج الصلاة

(١) رسالة في قنوت الأشياء ج: ١ ص: ٢٩-٣٢.

كالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل وقراءة القرآن وكل ذلك يستحب له الطهارة ويجوز للمحدث فعل ذلك بخلاف ما لا يفعل إلا في الصلاة كالركوع فإن هذا لا يكون إلا جزءاً من الصلاة وأفضل أفعال الصلاة السجود وأفضل أقوالها القراءة وكلاهما مشروع في غير الصلاة فیسرت العبادة لله لكن الصلاة أفضل الأعمال فاشترط لها أفضل الأحوال واشترط للفرض ما لم يشترط للنفل من القيام والاستقبال مع القدرة^(١).

أن الله يحب الايمان والعمل الصالح

فإن مذهب السلف والأئمة أن الله يخلق لحكمة ويأمر لحكمة ومذهب السلف والأئمة أن الله يحب الايمان والعمل الصالح ويرضى ذلك ولا يحب الكفر والفسوق والعصيان وإن كان قد شاء وجود ذلك وقد بسط هذا في موضع آخر وقد قال تعالى ﴿وَإِذْ خُلُواْ إِلَى الْبَابِ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] فإن نفس السجود خضوع لله ولو فعله الانسان لله مع عدم علمه أنه أمر به انتفع كالسحرة الذين سجدوا قبل الامر بالسجود وكذلك قول العبد حط عنا خطايانا دعاء الله وخضوع وقد قال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]^(٢).

﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]

إن الله سبحانه وتعالى لا يحدث شيئاً إلا بإحداث أسباب ودفع موانع فإن الله سبحانه وتعالى لا يحدث شيئاً إلا بإحداث أسباب ودفع موانع مثال ذلك غرق قوم نوح لم يكن ماء وجد بلا سبب بل أنزل الله ماء السماء وأنبع ماء الأرض كما قال تعالى ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ۖ﴾ ٩ ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾

(١) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٧٣ ومجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٢٨٤.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٤٧.

﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وُدُسِرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدْرِكٍ ﴿١٥﴾ [القمر: ٩-١٥] ووكل ما وجد في العالم من خوارق العادات آيات الأنبياء وغيرها لم يأت منها شيء إلا بأسباب تقدمته كآيات موسى من مثل مصير العصي حية كانت بعد أن ألقاها إما عند أمر الله بذلك لما ناداه من الشجرة ورأى النار الخارقة للعادة وإما عند مطالبة فرعون له بالآية وإما عند معارضة السحرة لتبتلع حبالهم وعصيهم وكذلك سائر آياته حتى إغراق فرعون كان بعد مسير الجيش وضربه البحر بالعصا وكذلك تفجر الماء من الحجر كان بعد أن ضرب الحجر بعصاه واستسقاء قومه إياه وهم في برية لا ماء عندهم وكذلك آيات نبينا ﷺ مثل تكثير الماء كان بوضع يده فيه حتى نبع الماء من بين الأصابع أي تفجر الماء من بين الأصابع لم يخرج من نفس الأصابع وكذلك البئر كان ماؤها يكثر إما بإلقائه سهما من كنانته فيها وإما بصبه الماء الذي بصق فيه فيها وكذلك المسيح كان يأخذ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله إلى أمثال ذلك^(١).

من آيات موسى

فموسى كان الله يطعمهم على يده المن والسلوى مع كثرة بني إسرائيل ويفجر لهم بضربه للحجر كل يوم اثني عشر عينا يكفيهم وهذا أعظم من إنزال المسيح عليه السلام للمائدة ومن قلب الماء خمرًا ونحو ذلك مما يحكى عنه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين^(٢).

الفساد نوعان

ان الفساد نوعان فساد الدنيا من الدماء والاموال والفروج وفساد الدين وقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠] مفسدين حال والفساد ضد الصلاح فكما ان كل قول أو عمل يحبه الله فهو من الصلاح فكل قول أو عمل يبغضه الله فهو

(١) الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٤٠٤.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ١٩.

من الفساد قال سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] يعني الكفر والمعصية بعد الايمان والطاعة^(١).

لطائف لغوية

قال تعالى ﴿وَادْخُلُوا أَبْابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً﴾ [البقرة: ٥٨] وإنما قيل ادخلوه ركعا^(٢).

والركوع هو سجود خفيف كما قال تعالى ﴿وَادْخُلُوا أَبْابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨] قالوا ركعا^(٣).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا أَبْابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨] لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب وأمثال هذه الأمور التي فيها الحال والمحال كلاهما داخل في الاسم ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان وتارة على المحل وهو المكان وكذلك في النهر يقال حفرت النهر وهو المحل وجرى النهر وهو الماء ووضعت الميزاب وهو المحل وجرى الميزاب وهو الماء وكذلك القرية قال تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ [النحل: ١١٢] وقوله ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿٤﴾ ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤-٥] وقال في آية أخرى ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧] فجعل القرى هم السكان وقال ﴿وَكَلَّيْنِ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] وهم السكان وكذلك قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩] وقال تعالى ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾

(١) الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٧٣٤.

(٢) رسالة في قنوت الأشياء ج: ١ ص: ٢٨.

(٣) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٧٣ ومجموع الفتاوى ج: ٢١ ص: ٢٨٩.

[البقرة: ٢٥٩] فهذا المكان لا السكان لكن لابد أن يلحظ أنه كان مسكونا فلا يسمى قرية الا اذا كان قد عمر للسكنى مأخوذ من القرى وهو الجمع ومنه قولهم قرية الماء في الحوض اذا جمعت فيه ونظير ذلك لفظ الانسان يتناول الجسد والروح ثم الاحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما فكذلك القرية اذا عذب أهلها خربت واذا خربت كان عذابا لأهلها فما يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما فقوله ﴿وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] مثل قوله ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ [النحل: ١١٢] فاللفظ هنا يراد به السكان من غير اضممار ولا حذف^(١).

قال تعالى ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨] وأما الإحسان فقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قد قيل أن الإحسان هو الإخلاص والتحقيق أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] وقال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] فذكر إحسان الدين أولا ثم ذكر الإحسان ثانيا^(٢).

والإحسان ضد الإساءة وهو فعل الحسن سواء كان لازما لصاحبه أو متعديا إلى الغير^(٣).

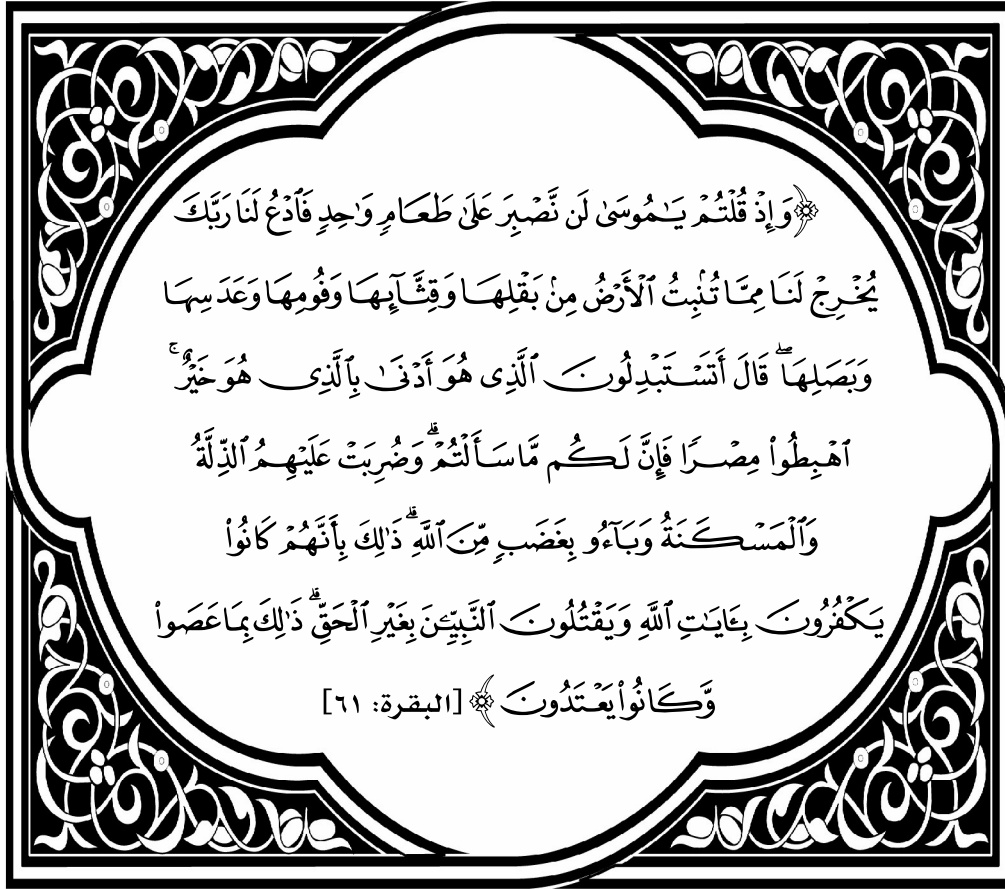
والإبدال من الشيء يقتضي ترك المبدل منه إذ لا يجمع بين البدل والمبدل منهك قوله تعالى ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩]^(٤).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٦٣.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦٢٢.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ٣٠ ص: ٣٧٠.

(٤) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ١٨٥.



أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه

واليهود مقصرون عن الحق والنصارى غالون فيه فأما وسم اليهود بالغضب والنصارى بالضلال فله أسباب ظاهرة وباطنة ليس هذا موضعها وجماع ذلك أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه قولاً أو عملاً أولاً قولاً ولا عملاً وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله ويقولون على الله ما لا يعلمون ولهذا كان السلف كسفيان بن عيينة وغيره يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى^(١).

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٥.

التقصير والاعتداء هو الذي استحق به أهل الكتاب العقوبة فاتخاذ ما ليس بمشروع ديناً أو تحريم ما لم يحرم دين الجاهلية والنصارى الذي عابه الله عليهم كما قال تعالى ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقال تعالى فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً وقال في حق النصارى ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩] ومثال ذلك أن يحصل من بعضهم تقصير في الأمور أو اعتداء في المنهي إما من جنس الشبهات وإما من جنس الشهوات فيقابل ذلك بعضهم بالاعتداء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو بالتقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتقصير والاعتداء إما في المأمور به والمنهي عنه شرعاً وإما في نفس أمر الناس ونهيهم هو الذي استحق به أهل الكتاب العقوبة حيث قال ﴿وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] فجعل ذلك بالمعصية والاعتداء والمعصية مخالفة الأمر وهو التقصير والاعتداء مجاوزة الحد وكذلك يضمن كل مؤمن على مال إذا قصر وفرط في ما أمر به وهو المعصية إذا اعتدى بخيانة أو غيرها ولهذا قال ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] فالإثم هو المعصية والله أعلم وقال النبي إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحرم محارم فلا تنتهكوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها فالمعصية تضييع الفرائض وانتهاك المحارم وهو مخالفة الأمر والنهي والاعتداء مجاوزة حدود المباحات وقال تعالى ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فالمعصية مخالفة أمره ونهيه والاعتداء مجاوزة ما أحله إلى ما حرمه وكذلك قوله والله أعلم ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧] فالذنوب المعصية والإسراف

الاعتداء ومجاوزة الحد واعلم أن مجاوزة الحد هي نوع من مخالفة النهي لأن اعتداء الحد محرم منهي عنه فيدخل في قسم المنهي عنه لكن المنهي عنه قسمان منهي عنه مطلقا كالكفر فهذا فعله إثم ومنهي عنه وقسم أبيح منه أنواع ومقادير وحرمة الزيادة على تلك الأنواع والمقادير فهذا فعله عدوان وكذلك قد يحصل العدوان في المأمور به كما يحصل في المباح فإن الزيادة على المأمور به قد يكون عدوانا وقد يكون مباحا مطلقا وقد يكون مباحا إلى غاية فالزيادة عليها عدوان ولهذا التقسيم قيل في الشريعة هي الأمر والنهي والحلال والحرام والفراض والحدود والسنن والأحكام فالفرائض هي المقادير في المأمور به والحدود النهايات لما يجوز من المباح المأمور به وغير المأمور به^(١).

عقوبة من كذب بالحق

أن من كذب بالحق عوقب بأن يطبع على قلبه فلا يفهم العلم أولا يفهم المراد منه وأنه يسلط عليه عدوه ويجد ذلا كما قال تعالى عن اليهود ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١] إلى قوله ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]^(٢).

وكل من اذى أو قتل نبيا فهذا حاله

وقد جعل الله عامة ما اصاب بني اسرائيل من الذلة والمسكنة والغضب حتى سفك منهم من الدماء ما شاء الله ونهبت الاموال وزال الملك عنهم وسييت الذرية وصاروا تحت ايدي غيرهم إلى يوم القيامة انما هو بأنهم كانوا يكفرون بايات الله ويقتلون النبيين بغير الحق وكل من قتل نبيا فهذا حاله^(٣).

ومن سنة الله ان من لم يمكن المؤمنين ان يعذبوه من الذين يؤذون الله ورسوله فان الله سبحانه ينتقم منه لرسوله ويكفيه اياه كما قدمنا بعض ذلك في قصة الكتاب المفتري وكما قال سبحانه ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٩٤ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥] والقصة في اهلاك الله واحدا واحدا من هؤلاء المستهزين معروفة قد

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٦١-٣٦٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ١٦٤.

(٣) الصارم المسلول ج: ٣ ص: ٨٥٩.

ذكرها اهل السير والتفسير وهم على ما قيل نفر من رؤوس قريش منهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والاسودان بن المطلب وابن عبد يغوث والحارث بن قيس وقد كتب النبي إلى كسرى وقيصر وكلاهما لم يسلم لكن قيصر اكرم كتاب رسول الله واكرم رسوله فثبت ملكه فيقال ان الملك باق في ذريته إلى اليوم وكسرى مزق كتاب رسول الله واستهزا برسول الله فقتله الله بعد قليل ومزق ملكه كل ممزق ولم يبق للاكاسرة ملك وهذا والله اعلم بتحقيق قوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [التکوثر: ٣] فكل من شنأه أو ابغضه وعاداه فان الله تعالى يقطع دابره ويمحق عينه واثره وقد قيل انها نزلت في العاص بن وائل أو في عقبة بن ابي معيط أو في كعب بن الاشرف وقد رايت صنيع الله بهمومن الكلام السائر لحوم العلماء مسمومة فكيف بلحوم الانبياء عليهم السلام وفي الصحيح عن النبي قال يقول الله تعالى من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة فكيف بمن عادى الانبياء ومن حارب الله حارب واذا استقرت قصص الانبياء المذكورة في القرآن تجد امهم انما اهلكوا حين اذوا الانبياء وقابلوهم بقبائح القول أو العمل وهكذا بنو اسرائيل انما ضربت عليهم الذلة وباؤوا بغضب من الله ولم يكن لهم نصير لقتلهم الانبياء بغير حق مضموما إلى كفرهم كما ذكر الله ذلك في كتابه ولعلك لا تجد احدا اذى نبيا من الانبياء ثم لم يتب الا ولا بد ان يصيبه الله بقارعة وقد ذكرنا ما جربه المسلمون من تعجيل الانتقام من الكفار اذا تعرضوا لسب رسول الله وبلغنا مثل ذلك في وقائع متعددة وهذا باب واسع لا يحاط به ولم نقصد قصده هنا وانما قصدنا بيان الحكم الشرعي وكان سبحانه يحميه ويصرف عنه اذى الناس وشتهم بكل طريق حتى في اللفظ ففي الصحيحين عن ابي هريرة قال قال رسول الله الا ترون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وانا محمد فنزه الله اسمه ونعته عن الاذى وصرف ذلك إلى من هو مذمم وان كان المؤذي انما قصد عينه^(١).

(١) الصارم المسلول ج: ٢ ص: ٣١٦-٣١٨.

وجماع دين الإسلام أن يعبد الله وحده لا شريك له ويعبد بما شرعه سبحانه وتعالى

وأما أكل الخبز والعدس المصنوع عند قبر الخليل عليه السلام فهذا لم يستحبه أحد من العلماء لا المتقدمين ولا المتأخرين ولا كان هذا مصنوعاً لا في زمن الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا بعد ذلك إلى خمسمائة سنة من البعثة حتى أخذ النصارى تلك البلاد ولم تكن القبة التي على قبره مفتوحة بل كانت مسدودة ولا كان السلف من الصحابة والتابعين يسافرون إلى قبره ولا قبر غيره لكن لما أخذ النصارى تلك البلاد فسووا حجراته واتخذوها كنيسة فلما أخذ المسلمون البلاد بعد ذلك اتخذ ذلك من اتخذ مسجداً وذلك بدعة منهى عنها لما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال لعن الله اليهود والنصارى أخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا وفي الصحيح عنه أنه قال قبل موته بخمس إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك ثم وقف بعض الناس وقفا للعدس والخبز وليس هذا وقفا من الخليل ولا من أحد من بني إسرائيل ولا من النبي ﷺ ولا من خلفائه بل قد روي عن النبي ﷺ أنه أطلق تلك القرية للداريين ولم يأمرهم أن يطعموا عند مشهد الخليل عليه السلام لا خبزاً ولا عدساً ولا غير ذلك فمن اعتقد أن الأكل من هذا الخبز والعدس مستحب شرعه النبي ﷺ فهو مبتدع ضال بل من اعتقد أن العدس مطلقاً فيه فضيلة فهو جاهل والحديث الذي يروى كلوا العدس فإنه يرق قدس القلب وقد قدس فيه سبعون نبياً حديث مكذوب مختلق باتفاق أهل العلم ولكن العدس هو مما اشتهاه اليهود وقال الله تعالى لهم ﴿أَسْتَبْدِلُوبَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١] ومن الناس من يتقرب إلى الجن بالعدس فيطبخون عدساً ويضعونه في المراحيض أو يرسلونه ويطلبون من الشياطين بعض ما يطلب منهم كما يفعلون مثل ذلك في الحمام وغير ذلك وهذا من الإيمان بالجبوت والطاغوت وجماع دين الإسلام أن يعبد الله وحده لا شريك له ويعبد بما شرعه سبحانه وتعالى على لسان نبيه محمد ﷺ من الواجبات والمستحبات والمندوبات فمن تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة فهو ضال والله أعلم^(١).

(١) الفتاوى الكبرى ج: ٢ ص: ٢٢٠.

اليهود من حين ضربت عليهم الذلة لم يكونوا بمجردهم ينتصرون وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم

قال تعالى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثْقِفُوا إِلَّا إِلَهُ جَبَلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحُبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ^{٥٤} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ^{٥٥} ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ^{٥٦}﴾ [آل عمران: ١١٢] فاليهود من حين ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بجبل من الله وحبل من الناس لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح عليه السلام فكذبوه قال تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^{٥٧}﴾ [آل عمران: ٥٥] وقال تعالى ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِّنَ اللَّهِ^{٥٨} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ^{٥٩} ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ^{٦٠}﴾ [البقرة: ٦١] وكانوا قد قتلوا يحيى بن زكريا وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام^(١).

اليهود مغضوب عليهم

قال تعالى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ^{٦١} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ^{٦٢}﴾ [الفاتحة: ٦-٧] وقد صح عن النبي أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وكتاب الله يدل على ذلك في مواضع مثل قوله تعالى ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِّنَ اللَّهِ^{٦٣}﴾ [البقرة: ٦١] ﴿مَا كَانَ لِشَرِّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيَ يُبَاهِئَكُمْ تَعْلَمُونَ أَلَا يَتَذَكَّرُ أَلَمْ يَكُن لَّهُ آيَاتٌ مِّن قَبْلُ^{٦٤}﴾ [البقرة: ٦١] ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا^{٦٥} أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ^{٦٦}﴾ [البقرة: ٦٥]

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٣٠٢.

مُسْلِمُونَ ﴿آل عمران: ٧٩-٨٠﴾^(١).

قال عدي بن حاتم رضي الله عنه أتيت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد فقال القوم هذا عدي بن حاتم وجئت بغير أمان ولا كتاب فلما دفعت إليه أخذ بيدي وقد قال قبل ذلك إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي قال فقام بي فلقيته امرأة وصبي معها فقالا إن لنا إليك حاجة فقام معهما حتى قضى حاجتهما ثم أخذ بيدي حتى أتى بي داره فألقت له الوليدة وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما يفرك أيفرك أن تقول لا إله إلا الله فهل تعلم من إله سوى الله قال قلت لا ثم تكلم ساعة ثم قال إنما يفرك أن تقول الله أكبر أو تعلم شيئا أكبر من الله قال قلت لا قال فإن اليهود مغضوب عليه والنصارى ضلال قال فقلت فإنني حنيف مسلم قال فرأيت وجهه ينبسط فرحا وذكر حديثا طويلا رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن غريب وقد دل كتاب الله على معنى هذا الحديث فقد ذكر سبحانه في البقرة ﴿وَبَاءُ وَيَغْضَبُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] وهذا بيان أن اليهود مغضوب عليهم^(٢).

يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل

فان الله تعالى سمى نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات سمى نفسه حيا عليما حكيما قديرا سميعا بصيرا غفورا رحيفا إلى سائر أسمائه الحسنى قال الله تعالى ﴿وَبَاءُ وَيَغْضَبُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] وامثال ذلك فالقول في بعض هذه الصفات كالقول في بعض ومذهب سلف الأمة وأئمتها ان يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل فلا يجوز نفى صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٦٤.

(٢) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٤.

ولا فى أفعاله وقال نعيم بن حماد الخزاعى من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها ومذهب السلف بين مذهبين وهدى بين ضلالتين اثبات الصفات ونفى مماثلة المخلوقات فقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] رد على أهل التشبيه والتمثيل وقوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] رد على أهل النفى والتعطيل فالممثل اعشى والمعطل أعمى الممثل يعبد صنما والمعطل يعبد عدما وقد اتفق جميع أهل الإثبات على أن الله حى حقيقة عليم حقيقة قدير حقيقة سميع حقيقة بصير حقيقة مريد حقيقة متكلم حقيقة حتى المعتزلة النفاة للصفات قالوا أن الله متكلم حقيقة كما قالوا مع سائر المسلمين أن الله عليم حقيقة قدير حقيقة بل ذهب طائفة منهم كأبى العباس الناشئ إلى أن هذه الأسماء حقيقة لله مجاز للخلق وأما جمهور المعتزلة مع المتكلمة الصفاتية من الأشعرية الكلابية والكرامية والسالمية واتباع الأئمة الأربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وأهل الحديث والصوفية فانهم يقولون أن هذه الأسماء حقيقة للخالق سبحانه وتعالى وأن كانت تطلق على خلقه حقيقة أيضا ويقولون أن له علما حقيقة وقدرة حقيقة وسمعا حقيقة وبصرا حقيقة^(١).

لطائف لغوية

الاطلاق والتقيد في الأسماء^(٢).

قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] وكذلك لفظ المعصية والفسوق والكفر فاذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيها الكفر والفسوق كقوله ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

(١) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ١٩٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٥٩.

الصفات فى المعارف للتوضيح لا للتخصيص وفى النكرات للتخصيص^(١)

وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] وهو لا يدعو الا إلى ذلك والتقيد هنا لا مفهوم له فانه لا يقع دعاء لغير ذلك وهذا كقوله تعالى ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الِغْيَاءِ إِنِ ارَدْتُمْ تَحْصَنًا﴾ [النور: ٣٣] فانهم اذا لم يردن تحصنا امتنع الاكراه ولكن فى هذا بيان الوصف المناسب للحكم ومنه قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] وقوله ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١] فالتقيد فى جميع هذا للبيان والايضاح لا لإخراج فى وصف آخر ولهذا يقول من يقول من النحاة الصفات فى المعارف للتوضيح لا للتخصيص وفى النكرات للتخصيص يعنى فى المعارف التى لا تحتاج إلى تخصيص كقوله ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ﴿ [الأعلى: ١-٢] وقوله ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَإِلَّا يَجِدِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ [الفاتحة: ٢-٣] والصفات فى النكرات اذا تميزت تكون للتوضيح أيضا.

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٦١.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّةَ
مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]

قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ
الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي
هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا ۖ ثُمَّ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ
مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] وضرب الذلة عليهم أينما ثقفوا ومباؤهم بغضب الله وما ذكر
معه من قتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتداؤهم كان اليهود متصفين به قبل مبعث
محمد ثم قال بعد ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّةَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]
فتناولت هذه الآية من كان من أهل هذه الملل الأربع متمسكا بها قبل النسخ بغير
تبديل^(١).

أن الله لا يقبل من أحد دينا سوى الحنيفية

وأما الكتب السماوية المتواترة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فناطقة بأن الله
لا يقبل من أحد دينا سوى الحنيفية وهي الإسلام العام عبادة الله وحده لا شريك له

(١) الجواب الصحيح ج: ٢ ص: ٢١٢.

والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيحِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] وبذلك أخبرنا عن الأنبياء المتقدمين وأممهم قال
نوح ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾
[يونس: ٧٢] وقال في آل إبراهيم ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ
اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ
مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢] وقال ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُومٌ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ
مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] وقال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ
أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤] وقالت بلقيس ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] وقال في الحواريين ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي
وَيَرْسُلُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] وقد قال مطلقا ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا
إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ
اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٨-١٩] وقال ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ
فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] (١).

والإيمان بالرسول يجب أن يكون جامعا عاما مؤتلفا

والإيمان بالرسول يجب أن يكون جامعا عاما مؤتلفا لا تفريق فيه ولا تبعض ولا

(١) الفتاوى الكبرى ج: ١ ص: ٤٠٠ ومجموع الفتاوى ج: ٣٥ ص: ١٨٨-١٨٩ ومجموع الفتاوى
ج: ١٩ ص: ١١٢.

اختلاف بأن يؤمن بجميع الرسل وبجميع ما أنزل اليهم فمن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض أو آمن ببعض ما أنزل الله وكفر ببعض فهو كافر وهذا حال من بدل وكفر من اليهود والنصارى والصابئين فان هؤلاء في أصلهم قد يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحا فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] ونحوه في المائدة ومنهم من فرق فأمن ببعض وكفر ببعض كما قال تعالى عن اليهود ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ [البقرة: ٩١] الآيات وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [١٥٠] ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١] الآيات^(١).

وجعل الأمة الإسلامية خير أمة

فإن الله بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا وأنزل عليه الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه وأكمل له ولأئمة الدين وأتم عليهم النعمة وجعلهم خير أمة أخرجت للناس فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله وجعلهم أمة وسطا أي عدلا خيارا ولذلك جعلهم شهداء على الناس هداهم لما بعث به رسله جميعهم من الدين الذي شرعه لجميع خلقه ثم خصهم بعد ذلك بما ميزهم به وفضلهم من الشرعة والمنهاج الذي جعله لهم ومثل الإيمان باليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب كما أخبر عن إيمان من تقدم من مؤمني الأمم به حيث قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ١٢.

وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ [البقرة: ٦٢] ^(١).

الحكمة معرفة الدين والعمل به

ومذاهب الناس في العبادات وهؤلاء غاية ما عندهم في العبادات والأخلاق والحكمة العملية أنهم رأوا النفس فيها شهوة وغضب من حيث القوة العملية ولها نظر من جهة القوة العلمية فقالوا كمال الشهوة في العفة وكمال الغضب في الحلم والشجاعة وكمال القوة النظرية في العلم والتوسط في جميع ذلك بين الإفراط والتفريط هو العدل وما ذكروه من العمل متعلق بالندب لم يثبتوا خاصية النفس التي هي محبة الله وتوحيده بل ولا عرفوا ذلك كما لم يكن عندهم من العلم بالله إلا قليل مع كثير من الباطل كما بسط الكلام عنهم في موضعه ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقد قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا ولفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن أحب شيئا ولم يذل له لم يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣ ص: ٣٦٥.

عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوه فهو مشرك الشريك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا فما ذكره المتفلسفة من الحكمة العملية ليس فيها من الأعمال ما تسعد به النفوس وتنجو من العذاب كما أن ما ذكروه من الحكمة النظرية ليس فيها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فليس عندهم من العلم ما تهتدي به النفوس ولا من الأخلاق ما هو دين حق ولهذا لم يكونوا داخلين في أهل السعادة في الآخرة المذكورين في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَصْرِيَّةَ وَاللَّحْدِيَّةَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] وهذه الفضائل الأربع التي ذكرها المتفلسفة لا بد منها في كمال النفس وصلاحها وتركيتها والمتفلسفة لم يحدوا ما يحتاج إليه بحد يبين مقدار ما تحصل به النجاة والسعادة ولكن الأنبياء بينوا ذلك وقد قال سبحانه ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] فهذه الأنواع الأربعة هي التي حرمها تحريما مطلقا لم يبح منها شيئا لأحد من الخلق ولا في حال من الاحوال بخلاف الدم والميتة ولحم الخنزير وغير ذلك فإنه يحرم في حال ويباح في حال وأما الأربعة فهي محرمة مطلقا فالفواحش متعلقة بالشهوة والبغي بغير الحق يتعلق بالغضب والشرك بالله فساد أصل العدل فإن الشرك ظلم عظيم والقول على الله بلا علم فساد في العلم فقد حرم سبحانه هذه الأربعة وهي فساد الشهوة والغضب وفساد العدل والعلم وقوله ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣] يتضمن تحريم أصل الظلم في حق الله وذلك يستلزم إيجاب العدل في حق الله تعالى وهو عبادته وحده لا شريك له فإن لنفس لها القوتان العلمية والعملية وعمل الإنسان عمل اختياري والعمل الاختياري إنما يكون بإرادة العبد وكل إنسان له إرادة وعمل بإرادته فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة ولهذا قال النبي ﷺ أصدق الأسماء الحارث وهمام والإرادة لا بد لها من مراد وكل مراد

فأما أن يراد لنفسه وأما أن يراد لغيره والمراد لغيره لا بد أن ينتهي إلى مراد لنفسه فالقوة العملية تستلزم أن يكون للإنسان مراد وذلك المراد لنفسه هو علة فاعلة للعلة الفاعلة ولهذا قيل العامة تقول قيمة كل امرئ ما يحسنه والعارفون يقولون قيمة كل امرئ ما يطلب وفي بعض الكتب المتقدمة إني لا أنظر إلى كلام الحكيم وإنما أنظر إلى همته وهؤلاء المتفلسفة لم يذكروا هذا في كمال النفس وإنما جعلوا كمالها العملي في تعديل الشهوة والغضب بالعفة والحلم وهذا غايته ترك الإسراف في الشهوة والغضب والشهوة هي جلب ما ينفع البدن ويبقي النوع والغضب دفع ما يضر البدن ولم يتعرضوا لمراد الروح الذي يحبه لذاته مع أنهم إنما تكلموا فيما يعود إلى البدن وجعلوا ذلك إصلاحا للبدن الذي هو آلة للنفس وجعلوا كمال النفس في مجرد العلم وقد بسطنا غلطهم في هذا الأصل من وجوه في غير هذا الموضع وبيننا أن النفس لها كمال في العمل والإرادة كما أن لها كمالا في العلم، وأن العلم المجرد ليس كمالا لها ولا صلاحا ولو كان كمالا لم يكن ما عندهم من العلم ما هو كمال النفس وبيننا غلط الجهمية الذين قالوا الإيمان هو مجرد العلم وأن الصواب قول السلف والأئمة إن الإيمان قول وعمل أصله قول القلب وعمل القلب المتضمن علم القلب وإرادته وإذا كان لا بد للنفس من مراد محبوب لذاته لا تصلح إلا به ولا تكمل إلا به وذلك هو إلهها فليس لها إله يكون به صلاحا إلا الله ولهذا قال الله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]

وليس ذلك للإنسان فقط بل للملائكة الجن فإنهم كلهم أحياء عقلاء ناطقون لهم علم وعمل اختياري ولا صلاح لهم إلا بمرادهم المحبوب لذاته وهو معبودهم ولا يجوز أن يكون معبودا محبوبا لنفسه إلا الله فلو كان في السموات والأرض إله إلا الله لفسدتا فلماذا كان دين جميع الرسل عبادة الله وحده لا شريك له وهؤلاء المتفلسفة لا يعرفون ذلك فليس عندهم من صلاح النفس وكمالها في العلم والعمل ما تنجوبه من الشقاء فضلا عما تسعد به^(١).

فان مراد الله ورسوله بالعلم الذي يمدحه ليس هو العلم النظري الذي هو عند

(١) الجواب الصحيح ج: ٦ ص: ٣٢-٣٧.

فلاسفة اليونان بل الحكمة اسم يجمع العلم والعمل به في كل امة قال ابن قتيبة وغيره الحكمة عند العرب العلم والعمل به وسئل مالك عن الحكمة فقال هو معرفة الدين والعمل به وكل امة لها حكمة بحسب علمها ودينها فالهند لهم حكمة مع انهم مشركون كفار والعرب قبل الاسلام كانت لهم حكمة وكان فيهم حكماء العرب مع كونهم مشركين يعبدون الأوثان فكذلك اليونان لهم حكمة كحكمتهم وحكماء كل طائفة هم افضل تلك الطائفة علما وعملا لكن لا يلزم من ذلك ان يكونوا ممدوحين عند الله وعند رسوله فان الممدوح عند الله وعند رسوله لا يكون قط الا من المؤمنين المسلمين الذين امنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وعبدوا الله وحده لم يشركوا به شيئا ولم يكذبوا نبيا من انبيائه ولا كتابا من كتبه عن اهل دين كنت معهم فذكر من صلاتهم وعبادتهم فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقَاتِ مِّنْ ءَٰمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [البقرة: ٦٢] وكذلك ذكر السدي عن اشياخه في تفسيره المعروف قال نزلت هذه الاية في اصحاب سلمان الفارسي بينا هو يحدث النبي ﷺ اذ ذكر اصحابه فأخبره فقال كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك ويشهدون انك ستبعث نبيا فأنزل الله هذه الاية ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقَاتِ مِّنْ ءَٰمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [البقرة: ٦٢] فقال كان ايمان اليهود انه من تمسك بالتوراة وبسنة موسى حتى جاء عيسى فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة واخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكا وايمان النصارى ان من تمسك بالانجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنا مقبولا منه حتى جاء محمد ﷺ فمن لم يتبع محمدا ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والانجيل كان هالكا قال ابن ابي حاتم وروي عن سعيد بن جبير نحو هذا و﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٦٢] أولا المراد بهم امة محمد واما ما يذكره طائفة من المفسرين في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٦٢] ان فيهم اقوالا احدها انهم هم الذين آمنوا بعيسى قبل ان يبعث محمد قاله ابن عباس والثاني انهم الذين آمنوا بموسى وعملوا بشريعته إلى ان جاء عيسى فآمنوا به وعملوا بشريعته لما أن جاء محمد وقالوا هذا قول السدي عن

اشياخه والثالث انهم طلاب الدين كحبيب النجار وقس بن ساعدة وسلمان الفارسي وابي ذر وبجيرا الراهب آمنوا بالنبي قبل مبعثه فمنهم من ادركه وتابعه ومنهم من لم يدركه والخامس انهم المنافقون والسادس انهم الذين آمنوا بالانبياء الماضين والكتب المتقدمة فلا يؤمنوا بك ولا بكتابك فهذه الاقوال ذكرها الثعلبي وامثاله ولم يسموا قائلها وذكرها ابوالفرج ابن لجوزي الا السادس وسمي قائل الأولين وذكر انهم المنافقون عن الثوري وهذه الاقوال كلها مبتدعة لم يقل الصحابة والتابعون لهم باحسان شيئا منها وما نقل عن السدي غلط عليه وقد ذكرنا لفظه الموجود في تفسيره المنقول بالاسناد الثابت في تفسير الذين يذكرون الاسانيد كتفسير عبد الرحمن بن ابي حاتم وتفسير ابي بكر بن المنذر وتفسير محمد بن جرير الطبري وامثال هذه التفاسير وما نقل عن ابن عباس لا يثبت وهي أقوال باطلة فان من كان متمسكا بشريعة عيسى قبل ان يبعث محمد ﷺ من غير تبديل فهم النصارى الذين اثنى الله عليهم وكذلك من تمسك بشريعة موسى قبل النسخ والتبديل فهم اليهود الذين اثنى الله عليهم وطلاب الدين كحبيب النجار كان على دين المسيح وكذلك بجيرا الراهب وغيره وكل من تقدم من الانبياء وامتهم يؤمنون بمحمد فليس هذا من خصائص هذا النفر القليل قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]

وعن علي بن ابي طالب انه قال لم يبعث الله نبيا ادم ومن بعده الا اخذ عليه العهد في محمد وامره واخذ العهد على قومه ليؤمنن به ولئن بعث وهم احياء لينصرنه وكذلك عن ابن عباس انه قال ما بعث الله نبيا الا اخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به وامره ان ياخذ الميثاق على أمته ان بعث محمد وهم احياء ليؤمنن به ولينصرنه وقال بعض العلماء اخذ الميثاق على النبيين وامتهم فاجتزا بذكر الانبياء عن ذكر الامم لان في اخذ الميثاق على المتبوع دلالة على اخذه على التابع وحقيقة الامر ان الميثاق اذا اخذ على الانبياء دخل فيه غيرهم لكونه تابعا لهم ولانه اذا وجب على الانبياء الايمان به ونصره فوجوب ذلك على من اتبعهم أولى واحرى ولهذا ذكر عن الانبياء فقط وقد قيل ان المراد

باخذ الميثاق على الأنبياء هو اخذه على قومهم فإنهم هم الذين يدركون النبي الآتي
 وقالوا هي في قراءة ابن مسعود وابي بن كعب وإذ اخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب
 وزعم بعضهم ان هذه القراءة هي الصواب والأولى غلط من الكتاب وهذا قول باطل
 ولولا انه ذكر لما حكيتة فإن ما بين لוחي المصحف متواتر والقرآن صريح في ان الله اخذ
 الميثاق على النبيين فلا يلتفت إلى من قال إنما اخذ على امهممكن الأنبياء امروا ان
 يلتزموا هذا الميثاق مع علم الله وعلم من اعلمه منهم انهم لا يدركونه كما نؤمن نحن بما
 تقدمنا من الأنبياء والكتب وإن لم ندركهم وأمر الجميع بتقدير إدراكه ان يؤمنوا به
 وينصروه كما ان النبي ﷺ اخبرنا بنزول عيسى ابن مريم من السماء على المنارة البيضاء
 شرقي دمشق واخبر انه يقتل المسيح الدجال فنحن مأمورون بالايان بالمسيح ابن مريم
 وطاعته إن ادركناه وإن كان لا يأمرنا إلا بشريعة محمد ومأمورون بتكذيب المسيح الدجال
 واكثر المسلمين لا يدركون ذلك بل انما يدركه بعضهم قال طأوس اخذ الله ميثاق النبيين
 بعضهم على بعض ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه فقال هذه
 الاية لاهل الكتاب اخذ الله ميثاقهم ان يؤمنوا بمحمد ويصدقوه يعني بذلك ان من ادرك
 نبوة محمد منهم يعني هم الذين ادركهم العمل بالاية والا فذكر ان الميثاق اخذ على
 النبيين بعضهم على بعض لكن ذلك عهد واقرار مع العلم بانهم لا يدركونه وكذلك عن
 السدى لم يبعث الله نبيا قط من لدن نوح الا اخذ ميثاقه ليؤمنن بمحمد لينصرنه ان
 خرج وهو حي والا اخذ على قومه ان يؤمنوا به وينصروه ان خرج وهم احياء وقال
 محمد بن اسحق ثم ذكر ما اخذ عليهم وعلى انبيائهم الميثاق بتصديقه اذا
 هوجاءهم موافقارهم به على انفسهم فقال ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَآتِيَتْكُمْ مِّنْ
 كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٨١] وقوله ﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾
 [آل عمران: ٨١] رسول مصدق لما معكم متناول لمحمد بالاتفاق فان رسالته كانت عامة وقد
 قال الله له ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهِيمًا عَلَيْهِ﴾
 [المائدة: ٤٨] فكتابه مهيمن على ما بين يديه من كتب السماء وقد أوجب الله على اهل
 الكتابين وسائر اهل الارض الايمان به وهذا مذكور في غير موضع من القران والحديث

وهو مع انه اجماع من المسلمين فهو معلوم بالاضطرار من دينه متواتر عنه كما تواتر عنه غزوه اليهود والنصارى وهل يدخل في ذلك غيره من الرسل فيه قولان قيل ان الله اخذ ميثاق الأول من الانبياء ان يصدق الثاني وينصره وامره ان يأخذ الميثاق على قومه بذلك وقيل بل هذا الرسول هو محمد خاصة وهذا قول الجمهور وهو الصواب لان الانبياء قبله انما كانت دعوتهم خاصة لم يكونوا مبعوثين إلى كل احد فاذا لم يدخل في دعوته جميع اهل زمنهم ومن بعدهم كيف يدخل فيها من ادركهم من الانبياء قبلهم والله تعالى قد بعث في كل قوم نبيا كما قال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وقال ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وكذلك قوله ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١] والنصرة مع الايمان به هو الجهاد ونوح وهود ونحوهم من الرسل لم يؤمروا بجهاد ولكن موسى وبنوا اسرائيل امروا بالجهاد وقوله لما هذه اللام تسمى الموطئة للقسم فان الكلام اذا كان فيه شرط متقدم وقسم كان جواب القسم يسد مسد جواب الشرط والقسم جميعا وادخلت اللام الموطئة على اداة الشرط وما هنا شرطية واللام في قوله ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ [آل عمران: ٨١] هي جواب القسم ونظير اللام المؤطئة في قوله ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥] ونظير هذه الآية قوله ﴿وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [الأنكabut: ١٠] وقوله ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا﴾ [الإسراء: ٨٦] ﴿وَلَيْنَ آخَرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨] ولهذا قال النحاة كالبرد والزمجاج هذه لام التحقيق دخلت على ما الجزاء أي الشرطية كما تدخل على ان ومعناه لهما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به واللام في ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ [آل عمران: ٨١] جواب الجزاء وكذلك قال الفراء من فتح اللام جعلها لاما زائدة بمنزلة اليمين اذا وقعت على جزاء صرف بعد ذلك الجزاء على جهة فعل وحرف جوابه كجواب اليمين والمعنى أي كتاب آتيتكم ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به وجواب الجزاء في قوله لتؤمنن به ومعنى قولهم جواب الجزاء في هذا أي جواب القسم

تضمن ايضا جواب الجزاء فهو جواب لهما في المعنى والمقصود ان ما عليه جميع الامم من حكمة علمية وعملية اذا لم يكونوا ممن يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحا فان الله لا يمدحهم ولا يثني عليهم وهؤلاء الفلاسفة ارسطو وقومه كانوا مشركين يعبدون الأوثان ويننون الهياكل للكواكب فليست حكمتهم من الحكمة التي اثنى الله عليها وعلى اهلها ومن كان من الفلاسفة الصابئة المشركين فهو من جنسهم الصابئة وصواب التحقيق عنهم واما الصابئون الحنفاء فهم في الصابئين بمنزلة من كان متبعا لشريعة التوراة والانجيل قبل النسخ والتبديل من اليهود والنصارى وهؤلاء ممن حمدهم الله واثنى عليهم وبعض الناس يقول ان بقرات كان من هؤلاء ووهب بن منبه من اعلم الناس بأخبار الامم المتقدمة وقد روى ابن ابي حاتم بالاسناد الثابت انه قيل لوهب بن منبه ما الصابئون قال الذي يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفرا وكذلك روى عن الثوري عن ليث عن مجاهد قال هم قوم من المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين قال وروى عن علماء نحو ذلك أي ليس لهم شريعة مأخوذة عن نبي ولم يرد بذلك انهم كفار فان الله قد اثنى على بعضهم فهم متمسكون بالاسلام المشترك وهو عبادة الله وحده وايجاب الصدق والعدل وتحريم الفواحش والظلم ونحو ذلك مما اتفقت الرسل على ايجابه وتحريمه فان هذا دخل في الاسلام العام الذي لا يقبل الله ديناً غيره وكذلك قال عبد الرحمن بن زيد هم قد يقولون لا اله الا الله فقط وليس لهم كتاب ولا نبي وهذا كما كانت العرب عليه قبل ان يبتدع عمرو بن لحي الشرك وعبادة الأوثان فانهم كانوا حنفاء يعبدون الله وحده ويعظمون ابراهيم واسماعيل ولم يكن لهم كتاب يقرؤنه ويتبعون شريعته وكان موسى قد بعث إلى بني اسرائيل بشريعة التوراة وحج البيت العتيق ولم يبعث إلى العرب لا عدنان ولد اسماعيل ولا قحطان والناس متفقون على ان عدنان ولد اسماعيل وربيعة ومضر واما قحطان فقال بعضهم هم ايضا من ولد اسماعيل والصحيح انهم كانوا موجودين قبل ابراهيم بأرض اليمن ومنهم جرهم الذين سكنوا مكة ومنهم تعلم اسماعيل العربية واما من قال من السلف الصابئون فرقة من اهل الكتاب يقرؤون الزبور كما نقل ذلك عن ابي العالية والضحاك والسدي وجابر بن يزيد والربيع ابن انس فهؤلاء ارادوا من دخل في دين اهل الكتاب منهم وكذلك من قال هم صنف من النصارى كما يروى

عن ابن عباس انه قال هم صنف من النصارى وهم السائحون المحلقة أوساط رؤسهم
فهؤلاء عرفوا منهم من دخل في اهل الكتاب ومن قال انهم يعبدون الملائكة كما يروي
عن الحسن قال هم قوم يعبدون الملائكة وعن ابي جعفر الرازي قال بلغني ان الصابئين
قوم يعبدون الملائكة ويقرؤون الزبور ويصلون فهذا ايضا صحيح وهم صنف منهم
وهؤلاء كثير من الصابئين يعبدون الروحانيات العلوية لكن هؤلاء من المشركين منهم
ليسوا من الحنفاء وكذلك اختلاف الفقهاء في الصابئين هل هم من اهل الكتاب ام لا
ويذكر فيه عن احمد روايتان وكذلك قولان للشافعي والذي عليه محققوا الفقهاء انهم
صنفان فمن دان بدين اهل الكتاب كان منهم والا فلا وقال ابو الزناد الصابئون قوم مما
يلى العراق وهم يؤمنون بالنبين كلهم ويصومون من كل سنة ثلاثين يوما ويصلون إلى
الشمس كل يوم خمس صلوات فهؤلاء الصابئة الذين ادركهم الاسلام وكانوا بأرض
حوران والذين خبروهم عرفوا انهم ليسوا من اهل الكتاب بل مشركون يعبدون الكواكب
ولا يحل اكل ذبائحهم ولا نكاح نسائهم وان اظهروا الايمان بالنبين فهو من جنس ايمان
الفلاسفة بالنبين والفلاسفة الصابئون من هؤلاء واما قبول الجزية منهم فهو على خلاف
المشهور فمن قبلها من غير اهل الكتاب كما يقبل من المجوس قبلها من هؤلاء وهذا
مذهب مالك وابي حنيفة واحمد في احدى الروايتين ومن لم يقبلها الا من اهل الكتاب لم
يقبلها من هؤلاء كما اذا لم يدخلوا في دين اهل الكتاب كما هو قول الشافعي واحمد في
الرواية الاخرى عنه وكان ابوسعيد الاصطخري افتى بأن لا تقبل منهم الجزية ونازعه في
ذلك جماعة من الفقهاء^(١).

تفسير آيات أشكلت

هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب في التفسير إلا ما هو
خطأ فيها منها قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ [البقرة: ٦٢] ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٦٩] الآيتين فهو سبحانه وصف أهل السعادة من الأولين
والآخرين وهو الذي يدل عليه اللفظ ويعرف به معناه من غير تناقض ومناسبة لما قبلها

(١) الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٤٤٩-٤٥٧.

ولما بعدها وهو المعروف عند السلف ويدل عليه ما ذكره من سبب نزولها بالاسانيد الثابتة عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال سلمان سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم فذكر من عبادتهم فنزلت الآية ولم يذكر فيه أنهم فيه من أهل النار كما روى بأسانيد ضعيفة وهذا هو الصحيح كما في مسلم الا بقايا من أهل الكتاب والنبي ﷺ لم يكن يجيب بما لا علم عنده وقد ثبت أنه أثنى على من مات في الفترة كزيد بن عمرو وغيره ولم يذكر ابن أبي حاتم خلافا عن السلف لكن ذكر عن ابن عباس ثم أنزل الله ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] الآية ومراده أن الله يبين أن لا يقبل إلا الاسلام من الأولين والآخرين وكثير من السلف يريد بلفظ النسخ رفع ما يظن أن الآية دالة عليه فان من المعلوم أن من كذب رسولا واحدا فهو كافر فلا يتناوله قوله ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٢] الخ وظن بعض الناس أن الآية فيمن بعث إليهم محمد ﷺ خاصة فغلطوا ثم افرقوا على أقوال متناقضة^(١).

أهل الجنة والسعادة

فمن الناس من آمن بالله ورسوله وصدقهم فيما جاءوا به من عند الله وأطاعهم فيما أمروا به وهؤلاء هم المؤمنون في كل وقت وزمان وهم أهل الجنة والسعادة^(٢). فان الله سبحانه أوجب الجنة للمؤمنين وحرم الجنة على الكافرين وهذا من الاحكام الكلية في كل وقت ومكان قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] وقال تعالى لما ذكر قول اليهود والنصارى ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] فأمر أن يطالبهم بالبرهان على هذا النفي العام وما فيه من الاثبات الباطل ثم قال ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٤ ص: ٦٨ ودقائق التفسير ج: ١ ص: ٢١٤.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٣٣٤.

رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿البقرة: ١١٢﴾ فأخبر سبحانه عمن مضى ممن كان متمسكا بدين حق من اليهود والنصارى والصابئين وعن المؤمنين بعد مبعث محمد أنه من جمع الخصال الثلاث التي هي جماع الصلاح وهي الايمان بالخلق والبعث بالمبدأ والمعاد الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح وهو أداء المأمور به وترك المنهي عنه فإن له حصول الثواب وهو أجره عند ربه واندفاع العقاب فلا خوف عليه مما أمامه ولا يحزن على ما وراءه ولذلك قال ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] اخلاص الدين لله وهو عبادته وحده لا شريك له وهو حقيقة قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] فالأول وهو إسلام الوجه هو النية وهذا الثاني وهو الاحسان هو العمل وهذا الذي ذكره في هاتين الآيتين هو الايمان العام والاسلام العام الذي أوجبه الله على جميع عباده من الأولين والآخرين وهو دين الله العام الذي لا يقبل من احد سواه وبه بعث جميع الرسل كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]^(١).

قال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] وبمجموع هذين الوصفين علق السعادة فقال ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] كما علقه بالايمان باليوم الآخر والعمل الصالح في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] وهذا يدل على أن الاسلام الذى هو اخلاص الدين لله مع الاحسان وهو العمل الصالح الذى أمر الله به هو والايمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان فان الوعد على الوصفين وعد واحد وهو الثواب وانتفاء

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ٤٦٨-٤٧٠.

العقاب فإن انتفاء الخوف علة تقتضى انتفاء ما يخافه^(١).

فإن الإيمان بالكتب والرسول هو عمود الإيمان وقاعدته وجماعه وأمر فيها الخلق عموماً وخصوصاً وذكر فيها الإيمان بالخالق وآيات ربوبيته والإيمان بالمعاد والدار الآخرة والأعمال الصالحة التي أمر بها وأن من كان من أتباع الرسل من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين قائماً بهذه الأصول وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح فهو السعيد في الآخرة الذي له أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون بخلاف من بدل منهم الكتاب أو كذب بكتاب فإن هؤلاء من الكفار فمن كان متبعاً لشرع التوراة قبل مبعث المسيح غير مبدل له فهو من السعداء وكذلك من كان متبعاً لشرع الإنجيل قبل مبعث محمد غير مبدل له فهو من السعداء ومن بدل شرع التوراة أو كذب بالمسيح فهو كافر كاليهود بعد مبعث المسيح عليه السلام وكذلك من بدل شرع الإنجيل أو كذب محمداً فهو كافر كالنصارى بعد مبعث محمد فقدماء اليهود والنصارى الذين اتبعوا الدين قبل النسخ والتبديل سعدوا وأما اليهود والنصارى الذين تمسكوا بشرع مبدل منسوخ وتركوا اتباع الكتب والرسول الذي أرسل إليهم وإلى غيرهم وعدلوا عن الشرع المنزل المحكم فهم كفار ورد دعاوى اليهود والنصارى الكاذبة ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] مثل قول هؤلاء لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وقول هؤلاء لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى فقال ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] وبين من كفر اليهود والنصارى مما عرف بهم حالهم^(٢).

الأصول الثلاثة الموجبة للسعادة في كل ملة

وهذه الأصول الثلاثة وهي الإيمان بالله وبالיום الآخر والعمل الصالح هي الموجبة للسعادة في كل ملة كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٦١.

(٢) الجواب الصحيح ج: ٥ ص: ٦٤ والصفدية ج: ٢ ص: ٢٤٤.

وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ [البقرة: ٦٢] والشرع ما جاءت به الرسل وهو الأصل الرابع ذم الله التفرق والاختلاف في الكتاب والسنة فإن هذه الأصول الأربعة متلازمة والتفرق في ذلك بالأمر في بعضه والنهي عن بعض هو من التفرق والاختلاف الذي ذمه الكتاب والسنة من المختلفين وقال تعالى ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وقال تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ولهذا غضب النبي لما اختلفوا في القراءة وقال كلاهما محسن^(١).

فالفضيلة الدائمة في كل وقت ومكان ففي الإيمان والعمل الصالح^(٢).
أن المطلوب بالأمر والنهي طاعته فإنه لا بد من الإيمان بالله واليوم الآخر ومن العمل الصالح لكل أمة^(٣).

حصول الهداية والفلاح للمؤمنين دون غيرهم

أن أصل العلم الإلهي ومبداه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه ولما كان أصل العلم والهدى هو الإيمان بالرسالة المتضمنة للكتاب والحكمة كان ذكره حصول الهداية والفلاح للمؤمنين دون غيرهم ملء القرآن كقوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ۝﴾ [البقرة: ٢-٣] ثم ذم الذين كفروا والذين نافقوا وقال تعالى ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝﴾ [العصر: ١-٣] فحكم على النوع كله والأمة الإنسانية جميعها بالخذلة والسقوط إلى الغاية إلا المؤمنين الصالحين وكذلك جعل أهل الجنة هم أهل الإيمان وأهل النار هم أهل الكفر فيما شاء الله من الآيات حتى صار ذلك معلوما علما

(١) قاعدة في المحبة ج: ١ ص: ٤٢.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٧ ص: ٤٦ والجواب الصحيح ج: ٥ ص: ١١٧.

(٣) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ١١٢.

شائعا متواترا اضطراريا من دين الرسول عند كل من بلغته رسالته وربط السعادة مع إصلاح العمل به فى مثل قوله ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] وأحبط الأعمال الصالحة بزواله فى مثل قوله ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٤٧] ونحو ذلك كثير وذكر حال جميع الأمم المهتدية أنهم كذلك فى قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢] ولهذا أمر أهل العقل بتدبره وأهل السمع بسمعه فدعا فيه إلى التدبر والتفكير والتذكر والعقل والفهم وإلى الاستماع والإبصار والإصغاء والتأثر بالوجل والبكاء وغير ذلك وهذا باب واسع ولما كان الإقرار بالصانع فطريا كما قال ﷺ كل مولود يولد على الفطرة الحديث فإن الفطرة تتضمن الإقرار بالله والإنابة اليه وهو معنى لا إله إلا الله فإن الإله هو الذى يعرف ويعبد^(١).

ان توحيد الله والايمان برسله واليوم الآخر هى امور متلازمة مع العمل الصالح

أن التوحيد والايمان بالرسل متلازمان وكذلك الايمان باليوم الآخر هو والايمان بالرسل متلازمان فالثلاثة متلازمة ولهذا يجمع بينها فى مثل قوله ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٠] ولهذا أخبر ان الذين لا يؤمنون بالآخرة مشركون فقال تعالى ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ [الزمر: ٤٥] وأخبر عن جميع الأشقياء ان الرسل انذرتهم باليوم الآخر كما قال تعالى ﴿ كَلَّمَآ أَلْفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۖ ﴾ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٦.

وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿١٠﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ [الملوك: ٨-١١] فأخبر ان الرسل أنذرتهم وانهم كذبوا بالرسالة وقال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ ۚ﴾ [الزمر: ٧١] فأخبر عن اهل النار انهم قد جاءتهم الرسالة وانذروا باليوم الآخر وقال تعالى ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أُولِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَغَيْنَا عَلَىٰ أَلَّذِينَ أَجَلَّتْ لَنَا قَالِ النَّارُ مَوْنُكُمْ خَلِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذِّكُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٣٠] فأخبر عن جميع الجن والانس ان الرسل بلغتهم رسالة الله وهى آياته وأنهم اندروهم اليوم الآخر وكذلك قال ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٣١﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤] إلى قوله ﴿وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ [الكهف: ١٠٥] فأخبر انهم كفروا بآياته وهى رسالته وبلقائه وهو اليوم الآخر وقد اخبر ايضا فى غير موضع بأن الرسالة عمت بنى آدم وان الرسل جاءوا مبشرين ومنذرين كما قال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وقال تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى قوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَن ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨-٤٩] فأخبر ان من آمن بالرسل واصلح من الأولين والآخرين فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقال تعالى ﴿قُلْنَا أَهْطُوا مِنهَا جَمِيعًا ۖ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ [البقرة: ٣٨] ومثل ذلك قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] فذكر ان المؤمنين بالله وباليوم الآخر من هؤلاء هم اهل النجاة والسعادة وذكر فى تلك الآية الايمان بالرسول وفى هذه الايمان باليوم الآخر لأنهما متلازمان وكذلك الايمان بالرسول كلهم متلازم فمن آمن بواحد منهم فقد آمن بهم كلهم ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم كلهم كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٥٠] إلى قوله ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١] الآية التى بعدها فأخبر ان المؤمنين بجميع الرسل هم اهل السعادة وان المفرقين بينهم بالايمان ببعضهم دون بعض هم الكافرون حقا وقال تعالى ﴿وَكُلٌّ لِّإِنسِنَ الْزَمْنَةِ طَائِفَةٌ فِي عُنُقِهِ ۖ وَخُجِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَن أَهْتَدَىٰ فَأَتَمَّا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَلَا نُزِرُ وَاِزْرَةً ۖ وَزَرَّ أُخْرَىٰ ۖ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٥] فهذه الأصول الثلاثة توحيد الله والايمان برسله وباليوم الآخر هى امور متلازمة والحاصل ان توحيد الله والايمان برسله واليوم الآخر هى امور متلازمة مع العمل الصالح فأهل هذا الايمان والعمل الصالح هم اهل السعادة من الأولين والآخرين والخارجون عن هذا الايمان مشركون اشقياء فكل من كذب الرسل فلن يكون الا مشركا وكل مشرك مكذب للرسل وكل مشرك وكافر بالرسل فهو كافر باليوم الآخر وكل من كفر باليوم الآخر فهو كافر بالرسل وهو مشرك^(١).

قيل يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقضى نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هن من قدر الله
 أن المسلم مأمور أن يفعل ما أمر الله به ويدفع ما نهى الله عنه وان كانت أسبابه قد قدرت فيدفع قدر الله بقدر الله كما جاء فى الحديث الذى رواه الطبرانى فى كتاب

(١) مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٣٠-٣٤.

الدعاء عن النبي ﷺ إن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والارض وفي الترمذى قيل يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقى بها وتقى نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هن من قدر الله وإلى هذين المعنيين أشار الحديث الذى رواه الطبرانى أيضا عن النبي ﷺ انه قال يقول الله يا ابن آدم انما هى أربع واحدة لى وواحدة لك وواحدة بينى وبينك وواحدة بينك وبين خلقى فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئا وأما التى لك فعملك أجزيك به أحوج ما تكون اليه وأما التى هى بينى وبينك فممنك الدعاء وعلى الإجابة وأما التى بينك وبين خلقى فأت إلى الناس بما تحب أن يأتوه اليك ويرى أنه ما من دابة إلا ربى أخذ بناصيتها وأنه على كل شئ وكيل وانه رب العالمين وان قلوب العباد ونواصيهم بيده لا خالق غيره ولا نافع ولا ضار ولا معطى ولا مانع ولا حافظ ولا معز ولا مذل سواء ويشهد أيضا فعل المأمورات مع كثرتها وترك الشبهات مع كثرتها لله وحده لا شريك له وهذا هو الدين الجامع العام الذى اشترك فيه جميع الأنبياء والإسلام العام والإيمان العام وبه انزلت السور المكية وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] فجمع فى الملل الاربع من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا وذلك قبل النسخ والتبديل وخص فى أول الآية المؤمنين وهو الإيمان الخاص الشرعى الذى قال فيه ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] والشرعة هى الشريعة والمنهاج هو الطريقة والدين الجامع هو الحقيقة الدينية وتوحيد الربوبية هو الحقيقة الكونية فالحقيقة المقصودة الدينية الموجودة الكونية متفق عليها بين الأنبياء والمرسلين فأما الشرعة والمنهاج الإسلاميان فهو لأمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس وبها أنزلت السور المدنية إذ فى المدينة النبوية شرعت الشرائع وسنت السنن ونزلت الأحكام والفرائض والحدود فهذا التوحيد هو الذى جاءت به الرسل ونزلت به الكتب^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤٦٠.

اليهود والنصارى أصل دينهم حق

وأما اليهود والنصارى فأصل دينهم حق كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] لكن كل من الدينين مبدل منسوخ فإن اليهود بدلوا وحرفوا ثم نسخ بقية شريعتهم بالمسيح ونفس الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى مثل نبوة الأنبياء وهي أكثر من عشرين نبوة وغيرها تبين أنهم بدلوا وأن شريعتهم تنسخ وتبين صحة رسالة محمد فإن فيها من الأعلام والدلائل على نبوة خاتم المرسلين ما قد صنف فيه العلماء مصنفات^(١).

فمن كان متبعا للمسيح عليه السلام بدون تحريف لشريعته فهو مؤمن مسلم من أولياء الله من أهل الجنة الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقال تعالى ﴿كَذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عِدُوهُمْ فَاصْبَحُوا ظَهِيرِينَ﴾ [النصف: ١٤] فمن اتبع المسيح كان مؤمنا ومن كفر به كان كافرا لكن النصارى غيروا شريعة المسيح وبدلوها قبل مبعث محمد فصروا كفارا بتبديل شريعة المسيح وتكذيب شريعة محمد كما كفرت اليهود بتبديل شريعة التوراة وتكذيب شريعة الإنجيل ثم كفروا بتكذيب شريعة محمد وعلى سائر رسل الله أجمعين فإن المسيح لم يسن لهم التثليث والقول بالأقانيم ولا القول بأنه رب العالمين ولا سن لهم استحلال الخنزير وغيره من المحرمات ولا ترك الختان ولا الصلاة إلى المشرق ولا اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ولا الشرك واتخاذ التماثيل والصليب ودعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والصالحين وغيرهم وسؤالهم الحوائج ولا الرهبانية وغير ذلك من المنكرات التي أحدثوها ولم يسنها لهم المسيح ولا ما هم عليه هي السنة التي تسلموها من رسل المسيح عامة ما هم عليه من السنن أمور محدثة مبتدعة بعد الحواريين كصومكم خمسين يوما زمن الربيع واتخاذكم عيدا يوم الخميس والجمعة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٤ ص: ٢٠٨.

والسبت فإن هذا لم يسنه المسيح ولا أحد من الحواريين وكذلك عيد الميلاد والغطاس وغير ذلك من أعيادكم بل عيد الصليب إنما ابتدعته هيلانة الحرائية القندقانية أم قسطنطين فهم يقولون إنها هي التي أظهرت الصليب وصنعت لوقت ظهوره عيداً وذلك بعد المسيح والحواريين بمدة طويلة زمن الملك قسطنطين بعد المسيح بأكثر من ثلثمائة سنة وفي ذلك الزمان أحدثوا الأمانة لنصوص الأنبياء في غير موضع وأظهروا استحلال الخنزير وعقوبة من لم يأكله وابتدعوا في ذلك الزمان تعظيم الصليب وغير ذلك من بدعهم وكذلك كتب القوانين التي عندهم جعلوها سنة وشريعة فيها شيء عن الأنبياء والحواريين وكثير مما فيها ابتدعه من بعدهم لا ينقلونه لا عن المسيح ولا عن الحواريين فكيف يدعون أنهم على السنة والشريعة التي كان عليها المسيح عليه السلام وهذا مما يعلم بالاضطرار والتواتر أنه كذب بين^(١).

الصابئة نوعان

فان الصابئة نوعان صابئة حنفاء موحدون وصابئة مشركون فالأولون هم الذين اثنى الله عليهم بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰبِئِينَ مَن ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] فائثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من هذه الملل الاربع المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ والتبديل وكذلك الذين دانوا بالانجيل قبل النسخ والتبديل والصابئون الذين كانوا قبل هؤلاء كالمتابعين لملة ابراهيم امام الحنفاء صلى الله عليه وصلى الله على محمد وعلى آل محمد كما صلى على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انه حميد مجيد قبل نزول التوراة والانجيل وهذا بخلاف المجوس والمشركين فإنه ليس فيهم مؤمن فلهذا قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰبِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧] فذكر الملل الست هؤلاء واخبر انه يفصل بينهم يوم القيمة لم

(١) الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ٤٣٧-٤٣٩.

يذكر في الست من كان مؤمنا انما ذكر ذلك في الاربعة فقط ثم ان الصابئين ابتدعوا الشرك فصاروا مشركين والفلاسفة المشركون من هؤلاء المشركين اما قدماء الفلاسفة الذين كانوا يعبدون الله وحده لا يشركون به شيئا ويؤمنون بأن الله محدث لهذا العالم ويقرون بمعاد الابدان فأولئك من الصابئة الخنفاء الذين اثنى الله عليهم ثم المشركون من الصابئة كانوا يقرون بحدوث هذا العالم كما كان المشركون من العرب تقرر بحدوثه وكذلك المشركون من الهند وقد ذكر اهل المقالات ان أول من ظهر عنه القول بقدمه من هؤلاء الفلاسفة المشركين هم ارسطو^(١).

كان غالب صابئة المتأخرين الذين هم الفلاسفة ممتزجين بالحنيفية كما ان غالب من دخل في الفلسفة من الخنفاء مزج الحنيفية بالصباء ولبس الحق بالباطل اعني بالصباء المبتدع الذي ليس فيه ايمان بالنبوات كصباء صاحب المنطق وأتباعه واما الصبء القديم فذاك اصحابه منهم المؤمنون بالله واليوم الآخر الذين آمنوا وعملوا الصالحات^(٢).

أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين نمرود والكنعانيين الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم ونمرود هو ملك الصابئة الكلدانيين المشركين كما أن كسرى ملك الفرس والمجوس وفرعون ملك مصر والنجاشي ملك الحبشة وبطليموس ملك اليونان وقيصصر ملك الروم فهو اسم جنس لا اسم علم فكانت الصابئة الا قليلا منهم اذ ذاك على الشرك وعلمائهم هم الفلاسفة وان كان الصابئة قد لا يكون مشركا بل مؤمنا بالله واليوم الآخر كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالنُّصَارَىٰ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] وقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

(١) الرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٢٨٨-٢٨٩.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ١١.

شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿[الحج: ١٧]﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَرَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿[المائدة: ٦٩]﴾ لكن كثيرا منهم أو
أكثرهم كانوا كفارا أو مشركين كما أن كثيرا من اليهود والنصارى بدلوا وحرفوا وصاروا
كفارا أو مشركين فأولئك الصابئون الذين كانوا اذ ذاك كانوا كفارا أو مشركين وكانوا
يعبدون الكواكب وبينون لها الهياكل^(١).

أن المؤمنين بمحمد والذين هادوا الذين اتبعوا موسى عليه السلام وهم الذين كانوا
على شرعه قبل النسخ والتبديل والنصارى الذين اتبعوا المسيح عليه السلام وهم الذين
كانوا على شريعته قبل النسخ والتبديل والصابئين وهم الصابئون الحنفاء كالذين كانوا
من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق قبل التبديل والنسخ فإن
العرب من ولد إسماعيل وغيره الذين كانوا جيران البيت العتيق الذي بناه إبراهيم
وإسماعيل كانوا حنفاء على ملة إبراهيم إلى أن غير دينه بعض ولاية خزاعة وهو عمرو بن
لحي وهو أول من غير دين إبراهيم بالشرك وتحريم ما لم يحرمه الله ولهذا قال النبي رأيت
عمرو بن لحي يجر قصبه أي أمعاه في النار وهو أول من بجر البحيرة وسبب السوائب
وغير دين إبراهيم وكذلك بنو إسحاق الذين كانوا قبل مبعث موسى متمسكين بدين
إبراهيم كانوا من السعداء المحمودين فهؤلاء الذين كانوا على دين موسى والمسيح
وإبراهيم ونحوهم هم الذين مدحهم الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى
وَالصَّبِيَّةَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] فأهل الكتاب بعد النسخ والتبديل ليسوا ممن آمن بالله ولا باليوم
الآخر وعمل صالحا كما قال تعالى ﴿قَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا
يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ
عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] وقد تقدم أنه كفر أهل الكتاب الذين بدلوا دين موسى
والمسيح وكذبوا بالمسيح أو بمحمد في غير موضع وتلك آيات صريحة ونصوص كثيرة

(١) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٢١.

وهذا متواتر معلوم بالاضطرار من دين محمد^(١).

الصابئة صاروا كفارا من جهة تبديلهم لما أنزل الله

أن الذين اتنى الله عليهم من الذين هادوا والنصارى كانوا مسلمين مؤمنين لم يبدلوا ما أنزل الله ولا كفروا بشيء مما أنزل الله وكان اليهود والنصارى صاروا كفارا من جهة تبديلهم لما أنزل الله ومن وجهة كفرهم بما أنزل على محمد فكذلك الصابئة صاروا كفارا من جهة تبديلهم لما أنزل الله ومن جهة كفرهم بما أنزل الله على محمد وإن كانوا منافقين كما قد ينافق اليهودى والنصرانى وهؤلاء هم المستأخرون من اليهود والنصارى والصابئين وذلك أن متأخري الصابئين لم يؤمنوا أن الله كلاما أوتكلم ويقول أو أنه ينزل من عنده كلاما وذكرنا على أحد من البشر أوانه يكلم أحدا من البشر بل عندهم لا يوصف الله بصفة ثبوتية لا يقولون إن له علما ولا محبة ولا رحمة وينكرون أن يكون الله اتخذ إبراهيم خليلا أو كلم موسى تكليما وإنما يوصف عندهم بالسلب والنفي مثل قولهم ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا داخل العالم ولا خارجه أو باضافة مثل كونه مبدأ للعالم أو العلة الأولى أو بصفة مركبة من السلب والاضافة مثل كونه عاقلا ومعقولا وعقلا وعندهم أن الله لا يخص موسى بالتكليم دون غيره ولا يخص محمدا بارسال دون غيره فانهم لا يثبتون له علما مفصلا للمعلومات فضلا عن إرادة تفصيلية بل يثبتون إذا أثبتوا له علما جمليا كليا وغاية جميلة كلية ومن أثبت النبوة منهم قال إنهم فيض تفيض على نفس النبى من جنس ما يفيض على سائر النفوس لكن استعداد النبى اكمل بحيث يعلم ما لا يعلمه غيره ويسمع ما لا يسمع غيره ويبصر ما لا يبصر غيره وتقدر نفسه على ما لا تقدر عليه نفس غيره والكلام الذى تقوله الأنبياء هو كلامهم وقولهم وهؤلاء الذين يقولون عن القرآن ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥] فإن الوحيد الذى هو الوليد بن المغيرة كان من جنسهم كان من المشركين الذين هم صابئون أيضا فان الصابئين كأهل الكتاب تارة يجعلهم الله قسما من المشركين وتارة يجعلهم الله قسيما لهم كما قال تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١] وقال

(١) الجواب الصحيح ج: ٣ ص: ١٢٢-١٢٥.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [البينة: ٦] وكذلك لما ذكر الملل الست في الحج فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧] وقال تعالى ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] الآية وهذا بعد قوله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] إلى قوله ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢] وقال ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢] فإذا كان اليهود والنصارى قد يكونون مشركين فالصابئون أولى وذلك بعد تبديلهم فحيث وصفوا بالشرك فبعد التبديل وحيث جعلوا غير مشركين فلأن أصل دينهم الصحيح ليس فيه شرك فالشرك مبتدع عندهم فينبغي التفتن لهذه المعاني وكان الوحيد من ذوى رأى والقياس والتدبير من العرب وهو معدود من حكمائهم وفلاسفتهم ولهذا اخبر الله عنه بمثل حال المتفلسفة فى قوله ﴿إِنَّهُ، فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ (١٨) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ (١٩) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ ۖ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ (٢٣) فَقَالَ إِنَّ هَذَا لِلْأَبْرَرِ يُؤْتَرُ ۖ (٢٤) إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٥] (١).

أن الحسنات والعبادات ثلاثة أقسام عقلي وملي وشرعي

أن الحسنات والعبادات ثلاثة أقسام عقلية وهو ما يشترك فيه العقلاء مؤمنهم وكافرهم وملي وهو ما يختص به اهل الملل كعبادة الله وحده لا شريك له وشرعي وهو ما يختص به شرع الاسلام مثلاً وأن الثلاثة واجبة فالشرعي باعتبار الثلاثة المشروعة وباعتبار يختص بالقدر المميز وهكذا العلوم والأقوال عقلي وملي وشرعي فالعقل المحض مثل ما ينظر فيه الفلاسفة من عموم المنطق والطبيعي والالهي ولهذا كان فيهم المشرك والمؤمن والملي مثل ما ينظر فيه المتكلم من إثبات الصانع وإثبات النبوات والشرائع فان المتكلمين متفقون على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولكنهم فى

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٢ ص: ١٩-٢١.

رسائلهم ومسائلهم لا يلتزمون حكم الكتاب والسنة ففيهم السنى والبدعى ويجمعون هم والفلاسفة فى النظر فى الأمور الكلية من العلم والدليل والنظر والوجود والعدم والمعلومات لكنهم أخص بالنظر فى العلم الالهى من الفلاسفة وأبسط علما ولسانا فيه وإن شركهم الفلاسفة فى بعضه كما أ الفلاسفة أخص بالنظر فى الأمور الطبيعية وإن شركهم المتكلمون فى بعضه والشرعى ما ينظر فيه أهل الكتاب والسنة ثم هم إما قائمون بظاهر الشرع فقط كعموم أهل الحديث والمؤمنين الذين فى العلم بمنزلة العباد الظاهرين فى العبادة وإما عالمون بمعاني ذلك وعارفون به فهم فى العلوم كالعارفين من الصوفية الشرعية فهؤلاء هم علماء أمة محمد المحضة وهم أفضل الخلق وأكملهم وأقومهم طريقة والله أعلم ويدخل فى العبادات السماع فانه ثلاثة أقسام سماع عقلي وملى وشرعي فالأول ما فيه تحريك محبة أو مخافة أو حزن أو رجاء مطلقا والثانى ما فى غيرهم كمحبة الله ومخافته ورجائه وخشيته والتوكل عليه ونحو ذلك والثالث السماع الشرعي وهو سماع القرآن كما أن الصلاة أيضا ثلاثة أقسام وهذه الأقسام الثلاثة أصولها صحيحة دل عليها قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] فالذين آمنوا أهل شريعة القرآن وهو الدين الشرعى بما فيه من الملى والعقلى والذين هادوا والنصارى أهل دين ملى بشريعة التواره والانجيل بما فيه من ملى وعقلى والصابئون أهل الدين العقلى بما فيه من ملى أو ملى وشرعياتوقال فصلقاعدة جامعة كل واحد من الدين الجامع بين الواجبات وسائر العبادات ومن التحريمات كما قال تعالى ﴿وَلَا يُحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩] كما قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] وكما أخبر عما ذمه من حال المشركين فى دينهم وتحريمهم حيث قال ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] إلى آخر الكلام فانه ذكر فيه ما كانوا عليه من العبادات الباطلة من أنواع الشرك ومن الاباحة الباطلة فى قتل الأولاد ومن التحريمات الباطلة من السائبة والبحيرة والوصيلة والحامي ونحو ذلك فذم المشركين فى

عباداتهم وتحريماتهم وإباحتهم وذم النصارى فيما تركوه من دين الحق والتحريم كما ذمهم على الدين الباطل فى قوله ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١] وأصناف ذلك فكل واحد من العبادات وسائر المأمور به من الواجبات والمستحبات ومن المكروهات المنهى عنها نهى حظر أو نهى تنزيه ينقسم إلى ثلاثة أقسام عقلي وملي وشرعي والمراد بالعقلي ما اتفق عليه أهل العقل من بنى آدم سواء كان لهم صلة كتاب أو لم يكن والمراد بالملي ما اتفق عليه أهل الملل والكتب المنزلة ومن اتبعهم والمراد بالشرعي ما اختص به أهل الشريعة القرآنية وهم أمة محمد وأخص من ذلك ما اختص به أهل مذهب أو أهل طريقة من الفقهاء والصوفية ونحو ذلك لكن هذا التخصيص والامتياز لا توجهه شريعة الرسول مطلقا وإنما قد توجهه ما قد توجب بتخصيص بعض العلماء والعباد والأمراء فى استفتاء أو طاعة كما يجب على أهل كل غزاة طاعة أميرهم وأهل كل قرية استفتاء عالمهم الذى لا يجدون غيره ونحو ذلك وما من أهل شريعة غير المسلمين الا وفي شرعهم هذه الأقسام الثلاثة فان مأموراتهم ومنهياتهم تنقسم إلى ما يتفق عليه العقلاء وما يتفق عليه الأنبياء وأما السياسات الملكية التى لا تتمسك بملة وكتاب فلا بد فيها من القسم الأول والثالث فان القدر المشترك بين الأدميين لا بد من الأمر به فى كل سياسة وإمامة وكذلك لا بد لكل ملك من خصيصة يتميز بها ولو لم تكن الا رعاية من يواليه ودفع من يعاديه فلا بد لهم من الأمر بما يحفظ الولي ويدفع العدو كما فى مملكة جنكز خان ملك الترك ونحوه من الملوك ثم قد يكون لهم ملة صحيحة توحيدية وقد يكون لهم ملة كفرية وقد لا يكون لهم ملة بجال ثم قد يكون مما يوجبونه وقد يكون مما يستحبونه ووجه القسمة أن جميع بنى آدم العقلاء لا بد لهم من أمور يأمرهم بها وأمور ينهون عنها فان مصلحتهم لا تتم بدون ذلك ولا يمكن أن يعيشوا فى الدنيا بل ولا يعيش الواحد منهم لو انفرد بدون أمور يفعلونها تجلب لهم المنفعة وامور ينفونها تدفع عنهم المضرة بل سائر الحيوان لا بد فيه من قوتى الاجتلاب والاجتناب ومبدأهما الشهوة والنفرة والحب والبغض فالقسم المطلوب هو المأمور به والقسم المرهوب هو المنهى عنه فأما ان تكون تلك الأمور متفقا عليها بين العقلاء بحيث لا يلتفت إلى الشواذ منهم الذين خرجوا عند الجمهور عن العقل وإما أن

لا تكون كذلك وما ليس كذلك فاما أن يكون متفقا عليه بين الأنبياء والمرسلين وإما أن يختص به أهل شريعة الاسلام فالقسم الأول الطاعات العقلية وليس الغرض بتسميتها عقلية إثبات كون العقل يحس ويقبح على الوجه المتنازع فيه بل الغرض ما اتفق عليه المسلمون وغيرهم من التحسين والتقبيح العقلي الذي هو جلب المنافع ودفع المضار وإنما الغرض اتفاق العقلاء على مدحها مثل الصدق والعدل وأداء الأمانة والاحسان إلى الناس بالمال والمنافع ومثل العلم والعبادة المطلقة والورع المطلق والزهد المطلق مثل جنس التأله والعبادة والتسبيح والخشوع والنسك المطلق بحيث لا يمنع القدر المشترك أن يكون لأي معبود كان وبأي عبادة كانت فان هذا الجنس متفق عليه بين الآدميين ما منهم الا من يمدح جنس التأله مع كون بعضه فيه ما يكون صالحا حقا وبعضه فيه ما يكون فاسدا باطلا وكذلك الورع المشترك مثل الكف عن قتل النفس مطلقا وعن الزنا مطلقا وعن الظلم الخلق وكذلك الزهد المشترك مثل الامساك عن فضول الطعام واللباس وهذا القسم انما عبر أهل العقل باعتقاد حسنه ووجوبه لأن مصلحة دنياهم لا تتم إلا به وكذلك مصلحة دينهم سواء كان دينا صالحا أو فاسدا ثم هذه الطاعات والعبادات العقلية قسمان أحدهما ما هو نوع واحد لا يختلف أصلا كالعلم والصدق وهما تابعا للحق الموجود ومنها ما هو جنس تختلف أنواعه كالعدل وأداء الأمانة والصلاة والصيام والنسك والزهد والورع ونحو ذلك فانه قد يكون العدل في ملة وسياسة خلاف العدل عند آخرين كقسمة المواريث مثلا وهذه الأمور تابعة للحق المقصود لكن قد يقال الناس وإن اتفقوا على أن العلم يجب ان يكون مطابقا للمعلوم وأن الخبر مطابق للمخبر لكن هم يختلفون في المطابقة اختلافا كثيرا فان منهم من يعد مطابقا علما وصدقا ما يعده الآخر مخالفا جهلا وكذبا لا سيما في الأمور الالهية فكذلك العدل هم متفقون على أنه يجب فيه التسوية بين المتماثلين لكن يختلفون في الاستواء والموافقة والتماثل فكل واحد من العلم والصدق والعدل لا بد فيه من موافقة ومماثلة واعتبار ومقايسة لكن يختلفون في ذلك فيقال هذا صحيح لكن الموافقة العلمية والصدقية هي بحسب وجود الشيء في نفسه وهو الحق الموجود فلا يقف على أمر وإرادة وأما الموافقة العدلية فبحسب ما يجب قصده وفعله وهذا يقف على القصد والأمر الذي قد يتنوع بحسب الأحوال ولهذا لم

تختلف الشرائع فى جنس العلم والصدق كما اختلفت فى جنس العدل وأما جنس العبادات كالصلاة والصيام والنسك والورع عن السيئات وما يتبع ذلك من زهد ونحو ذلك فهذا مختلف مختلفا كثيرا وإن كان يجمع جنس الصلاة التأله بالقلب والتعبد للمعبود ويجمع جنس الصوم الامساك عن الشهوات من الطعام والشراب والنكاح على اختلاف أنواع ذلك وكذلك أنواع النسك بحسب الأمكنة التى تقصد وما يفعل فيها وفى طريقها لكن تجتمع هذه الأنواع فى جنس العبادة وهو تأله القلب بالمحبة والتعظيم وجنس الزهادة وهو الاعراض عن الشهوات البدنية وزينة الحياة الدنيا وهما جنس نوعي الصلاة والصيام القسم الثانى الطاعات الملية من العبادات وسائر المأمور به والتحريمات مثل عبادة الله وحده لا شريك له بالاخلاص والتوكل والدعاء والخوف والرجاء وما يقترن بذلك من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتحريم الشرك به وعبادة ما سواه وتحريم الايمان بالجبت وهو السحر والطاغوت وهو الأوثان ونحو ذلك وهذا القسم هو الذى حضت عليه الرسل ووكدت أمره وهو أكبر المقاصد بالدعوة فان القسم الأول يظهر أمره ومنفعته بظاهر العقل وكأنه فى الاعمال مثل العلوم البديهيية والقسم الثالث تكملة وتتميم لهذا القسم الثانى فان الأول كالمقدمات والثالث كالمعقبات وأما الثانى فهو المقصود بخلق الناس كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وذلك لأن التعبد المطلق والتأله المطلق يدخل فيه الاشراك بجميع أنواعه كما عليه المشركون من سائر الأمم وكان التأله المطلق هو دين الصابئة ودين التتار نحوهم مثل الترك فأنهم كانوا يعبدون الله وحده تارة وبينون له هيكلًا يسمونه هيكل العله الأولى ويعبدون ما سواه تارة من الكواكب السبعة والثوابت وغيرها بخلاف المشركة المحضة فانهم لا يعبدون الله وحده قط فلا يعبدونه إلا بالاشراك بغيره من شركائهم وشفعائهم والصابئون منهم يعبدونه مخلصا له الدين ومنهم من يشرك به والحنفاء كلهم يخلص له الدين، فلهذا صار الصابئون فيهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحا بخلاف المشركين والمجوس ولهذا كان رأس دين الاسلام الذى بعث به خاتم المرسلين كلمتان شهادة أن لا إله إلا الله تثبت التأله الحق الخالص وتنفي ما سواه من تأله المشركين أو تأله مطلق قد يدخل فيه تأله المشركين فأخرجت هذه الكلمة كل تأله ينافي

الملي من التأله المختص بالكفار أو المطلق المشترك والكلمة الثانية شهادة أن محمدا رسول الله وهي توجب التأله الشرعى النبوي وتنفي ما كان من العقلي والملي والشرعي خارجا عنه القسم الثالث الطاعات الشرعية التى تختص بشريعة القرآن مثل خصائص الصلوات الخمس وخصائص صوم شهر رمضان وحج البيت العتيق وفرائض الزكوات وأحكام المعاملات والمناكحات ومقادير العقوبات ونحو ذلك من العبادات الشرعية وسائر ما يؤمر به من الشرعية وسائر ما ينهى عنه فصل إذا تبين ذلك فغالب الفقهاء إنما يتكلمون به فى الطاعات الشرعية مع العقلية وغالب الصوفية إنما يتبعون الطاعات المليّة مع العقلية وغالب المتفلسفة يقفون على الطاعات العقلية ولهذا كثر فى المتفقهة من ينحرف عن طاعات القلب وعباداته من الاخلاص لله والتوكل عليه والمحبة له والخشية له ونحو ذلك. وكثر فى المتفكرة والمتصوفة من ينحرف عن الطاعات الشرعية فلا يبالون إذا حصل لهم توحيد القلب وتألهه أن يكون ما أوجبه الله من الصلوات وشرعه من أنواع القراءة والذكر والدعوات أن يتناولوا ما حرم الله من المطاعم وأن يتعبدوا بالعبادات البدعية من الرهبانية ونحوها ويعتاضوا بسماع المكاء والتصديّة عن سماع القرآن وأن يقفوا مع الحقيقة القدريّة معرضين عن الأمر والنهي فان كل ما خلقه الله فهو دال على وحدانيته وقائم بكلماته التامات التى لا يجاوزها بر ولا فاجر وصادر عن مشيئته النافذة ومدبر بقدرته الكاملة فقد يحصل للانسان تأله ملي فقط ولا بد فيه من العقلي والملي وهو ما جاءت به الرسل بحيث ينبى إلى الله ويحبه ويتوكل عليه ويعرض عن الدنيا لكن لا يقف عند المشروع من الأفعال الظاهرة فعلا وتركها وقد يحصل العكس بحيث يقف عند المشروع من الأفعال الظاهرة من غير أن يحصل لقلبه إنابة وتوكل ومحبة وقد يحصل التمسك بالواجبات العقلية من الصدق والعدل وأداء الامانة ونحو ذلك من غير محافظة على الواجبات المليّة والشرعية وهؤلاء الأقسام الثلاثة إذا كانوا مؤمنين مسلمين فقد شابوا الاسلام إما بيهودية وإما بنصرانية وإما بصابئية إذا كان ما انحرفوا اليه مبدلا منسوخا وإن كان أصله مشروعا فموسوية أو عيسوية^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٦٢-٧٣.

فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام
فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه
الإسلام واخباره أنه دينه الذي ارتضاه وأنه لا يقبل دينا غيره ومع هذا فما قال ان الجنة
أعدت للمسلمين ولا قال وعد الله المسلمين بالجنة بل انما ذكر ذلك باسم الايمان كقوله
﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٧٢] فهو يعلقها
باسم الايمان المطلق أوالمقيد بالعمل الصالح كقوله ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] الآيات في هذا
المعنى كثيرة فالوعد بالجنة والرحمة في الآخرة وبالسلامة من العذاب علق باسم الايمان
المطلق والمقيد بالعمل الصالح ونحو ذلك وهذا كما تقدم أن المطلق يدخل فيه فعل ما أمر
الله به ورسوله ولم يعلق باسم الإسلام فلو كان من اتى من الايمان بما يقدر عليه وعجز
عن معرفة تفاصيله قد يسمى مسلما لا مؤمنا لكان من اهل الجنة وكانت الجنة يستحقها
من يسمى مسلما وان لم يسم مؤمنا وليس الأمر كذلك بل الجنة لم تعلق الا باسم الايمان
وهذا أيضا مما إستدل به من قال إنه ليس كل مسلم من المؤمنين الموعودين بالجنة اذ
لوكان الأمر كذلك لكان وعد الجنة معلقا باسم الإسلام كما علق باسم الايمان وكما
علق باسم التقوى واسم البر في مثل قوله ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١]
وقوله ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٢] وباسم أولياء الله كقوله ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا
خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٢] الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكَلِمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

فلما لم يجر إسم الإسلام هذا المجرى علم أن مسماه ليس ملازما لمسمى الايمان
كما يلزمه اسم البر والتقوى وأولياء الله وأن إسم الإسلام يتناول من هو من أهل
الوعد وان كان الله يثيبه على طاعته مثل أن يكون في قلبه ايمان ونفاق يستحق به
العذاب فهذا يعاقبه الله ولا يخلده في النار لأن في قلبه مثقال ذرة أوأكثر من مثقال ذرة
من إيمان^(١).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٤٧.

أن الثواب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا

أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الإيمان هو ما فى القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب وحيث عطف عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمه الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨] وقوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وقوله ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢] فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [محمد: ٢] وهذه نزلت فى الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة: ٥] والصلاة والزكاة من العبادة فقوله ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧] كقوله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة: ٥] فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا غيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذى لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت فى الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على

أنه لم يدخل فى العام وقيل بل الأعمال فى الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما فى القلب ولكن هى لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة فى إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم فى كلام النبى فإذا عطفت عليه ذكرت لثلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنقيصا ليعلم أن الثواب الموعود به فى الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن إدعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه فى غير موضع أن الصادق فى قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان فى هؤلاء يدل على إنتفائه عن سواهم^(١).

الصب المحب المشتاق

وكذلك يسمى المحب المشتاق الذى صار حبه أقوى من العلاقة صبا وحالة صباية وهو رقة الشوق وحرارته والصب المحب المشتاق وذلك لانصباب قلبه إلى المحبوب كما ينصب الماء الجارى والماء ينصب من الجبل اى ينحدر فلما كان فى المنحدره يتحرك حركة لا يرده شىء سميت حركة الصب صباية وهذا يستعمل فى المحبة المحمودة والمذمومة ومنه الحديث ان أبا عبيدة رضى الله عنه لما أرسله النبى فى سرية بكى صباية وشوقا إلى النبى والصبابة والصب متفقان فى الاشتقاق الاكبر والعرب تعاقب بين الحرف المعتل والحرف المضعف كما يقولون تقضى البازى وتقضض وصبا يصبو معناه مال وسمى الصبى صبيا لسرعة ميله قال الجوهري والصبى أيضا من الشوق يقال منه تصابى وصبا يصبو صبوة وصبوا أى مال إلى الجهل والفتوة واصبته الجارية وقد يستعمل هذا فى الميل المحمود على قراءة من قرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ﴾ [البقرة: ٦٢] بلا همزة فى قراءة نافع فانه لا يهمز الصابئين فى جميع القرآن وبعضهم قد حمده الله تعالى^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٢٠٤.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٥ ص: ٥٧٣.

لطائف لغوية

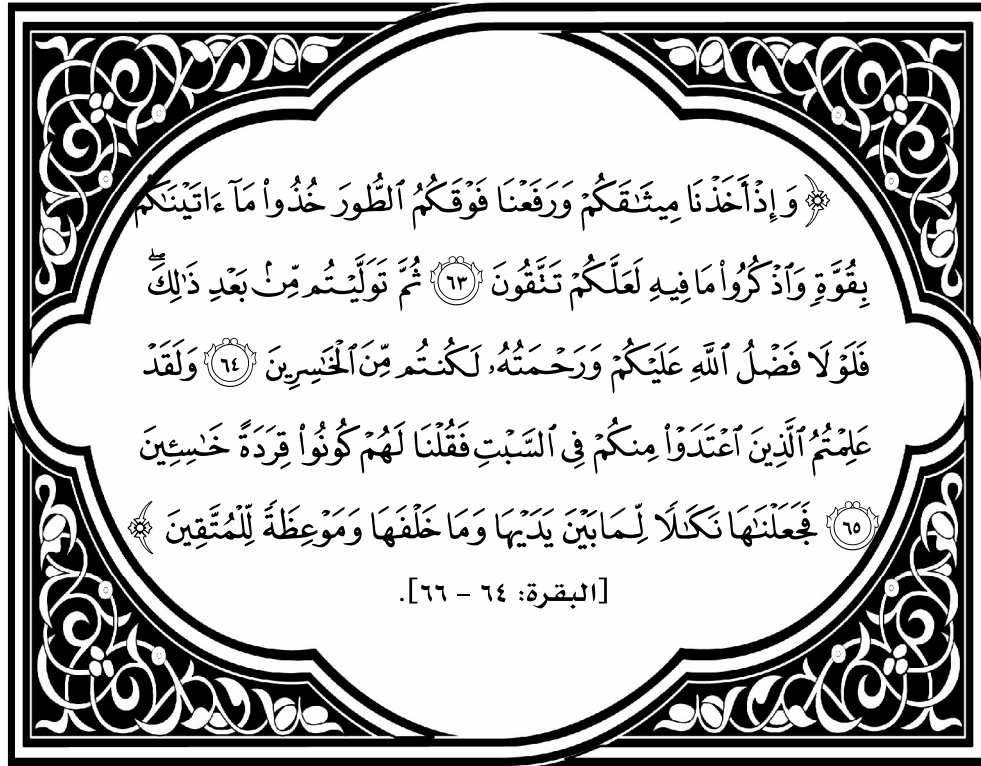
دين الإسلام الذي بعث الله به جميع الرسل وهو عبادة الله وحده لا شريك له فإن هذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديناً غيره فهذه الرسل وأممهم من نوح إلى الخواريين كلهم على الإسلام وكذلك كل من كان قبلنا من أهل السعادة فهو مؤمن قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّيِّئِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] وفي الآية الأخرى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّئُونَ وَالنَّصَارَى مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩] فإن النصارى أفضل من الصابئين فلما قدموا عليهم نصب لفظ الصابئون ولكن الصابئون أقدم في الزمان فقدما هاهنا لتقدم زمنهم ورفع اللفظ ليكون ذلك عطفاً على المحل فإن المعطوف على المحل مرتبته التأخير ليشعر أنهم مؤخرون في المرتبة وإن قدموا في الزمن واللفظ وهو سبحانه ذكر في سورة الحج ملل العالم فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧] فأخبر أنه يفصل بين أهل الملل أجمعين ولم يذكرهم هنا ليتبين المحمود منهم في الآخرة وفي سورة البقرة والمائدة ذكر أربعة أصناف المسلمين والذين هادوا والنصارى والصابئين ثم قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّيِّئِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] فدل على أن هذه الأربعة منهم من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً وأولئك هم السعداء في الآخرة بخلاف من لم يكن من هؤلاء مؤمناً بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً وبخلاف من كان من المجوس والمشركين فهؤلاء كلهم لم يذكر منهم سعيد في الآخرة^(١).

(١) الصنفية ج: ٢ ص: ٣٠٤.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّالِحِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]
لفظ الصلاح والفساد فاذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير وكذلك الفساد يتناول جميع
الشر وكذلك اسم المصلح والمفسد وقرن الصلاح والاصلاح بالايان في مواضع كثيرة
كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٨٢] ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨] ومعلوم أن الايمان أفضل الاصلاح وأفضل العمل الصالح كما
جاء في الحديث الصحيح أنه قيل يا رسول الله أى الأعمال أفضل قال ايمان بالله^(١).
ويذكر لفظ المؤمنين مقرونا بالذين هادوا والنصارى والصابئين ثم يقول ﴿مَنْ
ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] فالمؤمنون فى ابتداء الخطاب غير الثلاثة والايان الآخر عمهم كما
عمهم فى قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٨٦.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٤.



فان موجب العقد هو واجب بالعقد

وقد كتبت في قاعدة العهود والعقود القاعدة في العهود الدينية في القواعد المطلقة والقاعدة في العقود الدنيوية في القواعد الفقهية وفي كتاب النذر أيضا أن ما وجب بالشرع إن نذره العبد أو عاهد الله عليه أو بايع عليه الرسول أو الامام أو تحالف عليه جماعة فان هذه العهود والمواثيق تقتضي له وجوبا ثانيا غير الوجوب الثابت بمجرد الأمر الأول فتكون واجبة من وجهين بحيث يستحق تاركها من العقوبة ما يستحقه ناقض العهد والميثاق وما يستحقه عاصي الله ورسوله هذا هو التحقيق ومن قال من أصحاب احمد انه إذا نذر واجبا فهو بعد النذر كما كان قبل النذر بخلاف نذر المستحب فليس كما قال بل النذر إذا كان يوجب فعل المستحب فإيجابه لفعل الواجب أولى وليس هذا من باب تحصيل الحاصل بل هما وجوبان من نوعين لكل نوع حكم غير حكم الآخر مثل الجدة إذا كانت أم أم وأم أب أب فان فيها شيئين كل منهما تستحق به السدس وكذلك من قال من أصحاب أحمد ان الشروط التي هي من مقتضى العقد لا يصح اشتراطها أو

قد تفسده حتى قال بعض أصحاب الشافعي إذا قال زوجتك على ما أمر الله به من امساك بمعروف أو تسريح باحسان كان النكاح فاسدا لأنه شرط فيه الطلاق فهذا كلام فاسد جدا فان العقود إنما وجبت موجباتها لايجاب المتعاقدين لها على أنفسهما ومطلق العقد له معنى مفهوم فاذا اطلق كانا قد أوجبا ما هو المفهوم منه فان موجب العقد هو واجب بالعقد كموجب النذر لم يوجبه الشارع ابتداء وإنما أوجب الوفاء بالعقود كما أوجب الوفاء بالنذر فاذا كان له موجب معلوم بلفظ مطلق أو يعرف المتعاقدان إيجابه بلفظ خاص كان هذا من باب عطف الخاص على العام فيكون قد أوجبه مرتين أو جعل له إيجابا خاصا يستغنى به عن الايجاب العام وفي القرآن من هذا نظائر مثل قوله ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨] وقوله ﴿وَلِإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأحزاب: ٧] ومثل قوله ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٩] وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] وقوله ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٧] فان الله أعلن عهد الله الذي امرهم به من بعد ما أخذ عليهم الميثاق بالوفاء به فاجتمع فيه الوجهان العهدي والميثاقي وفي القرآن من العهود والمواثيق على ما وجب بأمر الله شيء كثير فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَلِإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣] الآية^(١).

لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل
وقد عاتب الله من أسقط الواجبات واستحل المحرمات بالحيل والمخادعات كما ذكر في سورة ن وفي قصة اهل السبت وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل وقال أيوب السخيتاني يخادعون الله كما

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ١٥٥-١٥٦

يخادعون الصبيان لوأثوا الأمر على وجهه لكان أهون علي^(١).

أبقى الله سبحانه آثار المكذبين لنعتبر بها ونتعظ

قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسول وما صارت اليه عاقبتهم وأبقى آثارهم

وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة وكذلك مسخ من مسخ قرده وخنازير لمخالفتهم

لأنبيائهم وكذلك من خسف به وأرسل عليه الحجارة من السماء وأغرقه فى اليم وأرسل

عليه الصيحة وأخذة بأنواع العقوبات وإنما ذلك بسبب مخالفتهم للرسول واعراضهم عما

جاءوا به واتخاذهم أولياء من دونه وهذه سنته سبحانه فيمن خالف رسله وأعرض عما

جاؤوا به واتبع غير سبيلهم ولهذا أبقى الله سبحانه آثار المكذبين لنعتبر بها ونتعظ لئلا

نفعل كما فعلوا فيصينا ما أصابهم كما قال تعالى ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

[العنكبوت: ٣٤ - ٣٥] وقال تعالى ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ (٣٦) وَإِنَّا لَنُفِئُونَ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ ﴿٣٧﴾ وَبِالْبَلَاءِ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٨﴾ [الصافات: ١٣٦ - ١٣٨] أي تمرون عليهم نهارا بالصباح وبالليل ثم قال ﴿أَفَلَا

تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٨] وقال تعالى فى مدائن قوم لوط ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن

سِجِّيلٍ﴾ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ [الحجر: ٧٤ - ٧٦] يعنى

مدائنهم بطريق مقيم يراها المار بها وقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩] وهذا كثير فى الكتاب العزيز يخبر الله سبحانه

عن إهلاك المخالفين للرسول ونجاة اتباع المرسلين ولهذا يذكر سبحانه فى سورة الشعراء

قصة موسى وإبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب ويذكر لكل نبي إهلاكه

لمكذبيهم والنجاة لهم ولأتباعهم ثم يختم القصة بقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ

﴿١١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٩٠ - ١٩١] فختم القصة باسمين من اسمائه

تقتضيها تلك الصفة وهو العزيز الرحيم فانتقم من أعدائه بعزته وانجى رسله واتباعهم

(١) مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ٣٣٦

برحمته^(١).

هذا الوعيد المذكور فصار تحذيرا لغيره من أن يفعل مثل فعله قال تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦] وقال تعالى عن فرعون ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزُّحُرْف: ٥٦] وقال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]^(٢).

المعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى

والمعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى فتكون من سيئات الجزاء مع أنها من سيئات العمل قال النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدوقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنه الثانية قد تكون من ثواب الأولى وكذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى قال تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]^(٣).

لطائف لغوية

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤] ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة^(٤).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٩ ص: ٩٨.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ١٦ ص: ١٧١.

(٣) الحسنه والسيئة ج: ١ ص: ٢٦.

(٤) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٦٥.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا
 بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُّنَاهُمْ وَوَلَّوْا قَالُوا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ
 ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
 فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ يَبْكُ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ
 ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْ نُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
 إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ
 لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ
 لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا
 تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا الْكَذَّابُ جَدٌّ بِالْحَقِّ
 فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْهُ ثُمَّ فِيهَا
 وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي
 اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ
 قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ
 لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ
 وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

[البقرة: ٦٧ - ٧٤]

شددوا فشدد الله عليهم

فان الذين قالوا الظاهر الذى لم يرد به ما يدل عليه ظاهره قد يؤخر بيانه احتجوا بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] وادعوا أنها كانت معينة واجر بيان التعيين وهذا خلاف ما استفاض عن السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان من أنهم أمروا ببقرة مطلقة فلو أخذوا بقرة من البقر فذبحوها أجزأ عنهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم والآية نكرة فى سياق الاثبات فهى مطلقة والقرآن يدل سياقه على أن الله ذمهم على السؤال بما هى ولو كان المأمور به معينا لما كانوا ملومين ثم ان مثل هذا لم يقع قط فى أمر الله ورسوله أن يأمر عباده بشيء معين ويبيهمه عليهم مرة بعد مرة ولا يذكره بصفات تختص به ابتداء واحتجوا بأن الله أخر بيان لفظ الصلاة والزكاة والحج وان هذه الالفاظ لها معان فى اللغة بخلاف الشرع وهذا غلط فان الله انما أمرهم بالصلاة بعد أن عرفوا المأمور به وكذلك الصيام وكذلك الحج ولم يؤخر الله قط بيان شيء من هذه الأمور ولبسط هذه المسألة موضع آخر^(١).

والحرمات لا تكون سببا محضا للإكرام والإحسان بل هى سبب للعقوبات إذا لم يتقوا الله تبارك وتعالى كما قال تعالى ﴿فِيْظَلِمَنَّ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُجَلَتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] وقال تعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُلْفٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] إلى قوله تبارك وتعالى ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وكذلك ما ذكره تعالى فى قصة البقرة من كثرة سؤاهاهم وتوقفهم عن امتثال أمره كان سببا لزيادة الايجاب ومنه قوله تعالى ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] وحديث النبي إن أعظم المسلمين فى المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته ولما سأله عن الحج أفي كل عام قال لا ولو قلت نعم لوجب ولو وجب لم تطيقوه ذروني ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤاهاهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتهم عن شيء فاجتنبوه وإذا

(١) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ١٠٥.

أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم^(١).

طريقة القرآن في بيان امكان المعاد

فالذي جاءت به السنة مطابق لما في القرآن في المستقبل أخبر تعالى بالقيامة والحسنات والجنة والنار ولم يخبر بأن العالم يعدم ويفنى بحيث لا يبقى شيء بل أخبر باستحالة العالم وأنها تستحيل أنواعا من الإستحالة لتعدد الأوقات وكذلك أخبر بإحياء الموتى وقيامهم من قبورهم في غير موضع وقرر سبحانه معاد الأبدان بأنواع من التقرير فتارة يخبر بوقوع إحياء الموتى كما أخبر بذلك في سورة البقرة في عدة مواضع في قوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا نَفْسًا فَادْرَأْهَا ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْنُحُونَ﴾ (البقرة: ٧٢ - ٧٣) فَقُلْنَا أَضْرِبُوهَا بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿[البقرة: ٧٢ - ٧٣] وذكر إحياء المسيح الموتى وذكر قصة أصحاب الكهف ونومهم ثلثمائة سنة وتسع سنين والنوم أخو الموت فهذه سبع مواضع ومنها إحياء الحيوان البهيم وإبقاء الطعام والشراب مائة سنة لم يتغير وذكر سبحانه إمكان ذلك بخلق الحيوان وهو الخلق الأول وبخلق النبات وهو نظيره وبخلق السموات والأرض وأن القادر على خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم فالأول بيان للوقوع وهذا بيان للإمكان^(٢).

وليس كل ما فرضه الذهن أمكن وجوده في الخارج وهذا الذي يسمى الامكان الذهني فان الامكان على وجهين ذهني وهوان يعرض الشيء على الذهن فلا يعلم امتناعه بل يقول يمكن هذا لا لعلمه بإمكانه بل لعد معلمه بامتناعه مع ان ذلك الشيء قد يكون ممتنعا في الخارج وخارجي وهو ان يعلم امكان الشيء في الخارج وهذا يكون بأن يعلم وجوده في الخارج أو وجود نظيره أو وجوده ما هو ابعد عن الوجود منه فاذا كان الابعد عن قبول الوجود موجودا ممكن الوجود فالأقرب إلى الوجود منه أولى وهذه طريقة القرآن في بيان امكان المعاد فقد بين ذلك بهذه الطريقة فتارة يخبر عن اماتهم ثم احياءهم كما اخبر عن قوم موسى الذين قالوا ﴿وَإِذْ قُلْنَا يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ

(١) مجموع الفتاوى ج: ٣٢ ص: ٨٨.

(٢) الصفدية ج: ٢ ص: ٢٢٦.

جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّلَاقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

[البقرة: ٥٥ - ٥٦] وعن ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وعن ﴿أَوَ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وعن ابراهيم اذ قال ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠] القصة وكما أخبر عن المسيح أنه كان يحيى الموتى باذن الله وعن اصحاب الكهف أنهم بعثوا بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين وتارة يستدل على ذلك بالنشأة الأولى فان الاعادة اهون من الابتداء كما فى قوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] الآية وقوله ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وتارة يستدل على ذلك بخلق السموات والارض فإن خلقهما اعظم من اعادة الانسان كما فى قوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لِحَافَتِهِنَّ يَفْقَدِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [الأحقاف: ٣٣] وتارة يستدل على امكانه بخلق النبات كما فى قوله ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُثْرًا﴾ [الأعراف: ٥٧] إلى قوله ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ [الأعراف: ٥٧] فقد تبين ان ما عند أئمة النظار اهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية على المطالب الالهية فقد جاء القرآن الكريم بما فيها من الحق وما هو ابلغ واكمل منها على احس وجه مع تنزهه عن الاغاليط الكثيرة الموجودة عند هؤلاء فان خطأهم فيها كثيرا جدا ولعل ضلالتهم اكثر من هدايتهم وجهلهم أكثر من علمهم ولهذا قال ابو عبد الله الرازي فى آخر عمره فى كتابه اقسام الذات لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت اقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ فى الاثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] واقرأ فى النفى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾

عَلَّمَ ﴿طه: ١١٠﴾ ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي ^(١).

من الخوارق الخارجة عن قوى النفوس إحياء الموتى

فمن الخوارق الخارجة عن قوى النفوس إحياء الموتى من الآدميين والبهائم وقد ذكر الله ذلك في غير موضع من كتابه فذكره في خمسة مواضع في سورة البقرة وقال تعالى ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] وهذه الأمور التي قصها الله من أحياء الآدميين من بعد موتهم مرة بعد مرة ومن إحياء الحمار ومن إبقاء الطعام والشراب مائة عام لم يتغير ومن إبقاء النيام ثلاثمائة وتسع سنين ومن تمزيق الطيور الأربعة وجعلهن أربعة أجزاء على الجبال ثم أتيانهن سعيًا لما دعاهن إبراهيم الخليل عليه السلام فيها أنواع من الاعتبار منها تثبيت المعجزات للأنبياء وأنها خارجة عن قوى النفس فإن الفلاسفة وسائر العقلاء متفقون على أن قوى النفوس لا تفعل مثل هذا بل ولا شيء من القوى المعروفة في العالم العلوي والسفلي الثاني أن في ذلك إثبات أن الله فاعل مختار يفعل بمشيئته وقدرته يحدث ما يشاء بحسب مشيئته وحكمته ^(٢).

فالله قد أخبر أنه أحيا من الموتى على يد موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل أعظم ممن أحياهم على يد المسيح ^(٣).

إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانته في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب

(١) مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٢٤ والرد على المنطقيين ج: ١ ص: ٣١٨ - ٣٢١ والجواب الصحيح

ج: ٦ ص: ٤٠٥ - ٤٠٦.

(٢) الصفدية ج: ١ ص: ١٨٤.

(٣) الجواب الصحيح ج: ٤ ص: ١٩.

الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]^(١).

إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الدينى وخلق الكونى
 إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الدينى وخلق الكونى فإن الله سبحانه خالق كل شىء ورب كل شىء ومليكه سواء فى ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته شىء ولا يكون شىء الا بمشيئته وقد فرق الله فى كتابه بين القسمين بين من قام بكلماته الكونيات وبين من اتبع كلماته الدينيات وذلك فى أمره وإرادته وقضائه وحكمه وإذنه وبعثه وارساله فقال فى الأمر الدينى الشرعى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] وقال فى الأمر الكونى القدرى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة فى مسألة الأمر الشرعى هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا فان التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية وإن كان مستلزما للإرادة الدينية الشرعية^(٢).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١ ص: ٧٣.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢ ص: ٤١١-٤١٢.

مدح الله وأثنى على من كان له عقل

قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ٥٤] أى العقول وقال تعالى ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ فَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الزجر: ٥] أى لدى عقل وقال تعالى ﴿وَأَتَقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقال ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] وقال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [المك: ١٠] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَانُوا لَنَا نَعْمَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَانُوا لَا نَعْمَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] ^(١).

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة فى الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذى ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل فى القرآن يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة ^(٢).

فالعقل إنما يسمى به العلم الذى يعمل به والعمل بالعلم

ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذى يسمى عرضاً قائماً بالعقل وعلى هذا دل القرآن فى قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] وقوله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] وقوله ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [١١٨] ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلاً وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذى لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذى يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٠ ص: ٤٣٧.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٨ ص: ٣١١.

أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿[الملوك: ١٠]﴾ وقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] والعقل المشروط فى التكليف لا بد أن يكون علوما يميز بها الانسان بين ما ينفعه وما يضره فالجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام ويميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التى فى الانسان التى بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن فى العين قوة بها يبصر وفى اللسان قوة بها يذوق وفى الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء^(١).

قسوة القلوب من ثمرات المعاصي

وقسوة القلوب من ثمرات المعاصي وقد وصف الله سبحانه بها اليهود فى غير موضع فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً يَحِرفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿[المائدة: ١٢ - ١٣]﴾ وإن قوما من هذه الأمة ممن ينسب إلى علم أو دين قد أخذوا من هذه الصفات بنصيب يرى ذلك من له بصيرة فنعوذ بالله من كل ما يكرهه الله ورسوله ولهذا كان السلف يحذرون هذا فروى البخاري فى صحيحه عن أبي الأسود قال بعث أبو موسى إلى قراء البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرءوا القرآن فقال أنتم

(١) مجموع الفتاوى ج: ٩ ص: ٢٨٦.

خيار أهل البصرة وقراءوهم فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم وإنا كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أنني حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيتها غير أنني حفظت منها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [التصف: ٢] فكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة فحذر أبو موسى القراء أن يطول عليهم الأمد فتقسوا قلوبهم ثم لما كان نقض الميثاق يدخل فيه نقض ما عهد الله إليهم من الأمر والنهي وتحريف الكلم عن مواضعه وتبديل وتأويل كتاب الله أخبر ابن مسعود رضي الله عنه بما يشبه ذلك فروى الأعمش عن عمارة بن عمير عن الربيع بن أبي عميلة الفزاري حدثنا عبد الله حديثا ما سمعت حديثا هو أحسن منه إلا كتاب الله أو رواية عن رسول الله ﷺ قال إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم فاخترعوا كتابا من عند أنفسهم اشتتهه قلوبهم واستحلته أنفسهم وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون فقالوا اعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل فإن تابعوكم فتركوهم وإن خالفوكم فاقتلوهم ثم قالوا لا بل أرسلوا إلى فلان رجل من علمائهم فاعرضوا عليه هذا الكتاب فإن تابعكم فلن يخالفكم أحد بعده وإن خالفكم فاقتلوه فلن يختلف عليكم بعده أحد فأرسلوا إليه فأخذ ورقة فكتب فيها كتاب الله ثم جعلها في قرن ثم علقها في عنقه ثم لبس عليها الثياب ثم أتاهم فعرضوا عليه الكتاب فقالوا أتؤمن بهذا فأوما إلى صدره فقال آمنت بهذا ومالي لا أؤمن بهذا يعني الكتاب الذي في القرن فخلوا سبيله وكان له أصحاب يغشونه فلما مات نبشوه فوجدوا القرن ووجدوا فيه الكتاب فقالوا ألا ترون قوله آمنت بهذا ومالي لا أؤمن بهذا إنما عنى هذا الكتاب فاختلف بنو إسرائيل على بضع وسبعين ملة وخير مللهم أصحاب ذي القرن قال عبد الله وإن من بقي منكم سيرى منكرا وبحسب امرئ يرى منكرا لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره^(١).

(١) اقتضاء الصراط ج: ١ ص: ٩١

حال الظالم لنفسه الذي هو قاسى القلب لا يلين للسمع والذكر وهؤلاء فيهم شبه من اليهود قال الله تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤] وقال تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦] ^(١).

ما من جماد إلا وهو مطيع لله خاشع له مسبح له فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله خاشع له مسبح له وقال في وصف الحجارة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] وقال البغوي أيضا في قوله ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] فإن قيل الحجر لا يفهم فكيف يخشى قيل الله يفهمها ويلهمها فتخشى بإلهامه قال ومذهب أهل السنة أن الله علما في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليه غيره ولها صلاة وتسبيح وخشية كما قال عز وجل ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال تعالى ﴿وَالطَّيْرُ صَفَّتْ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١] وقال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨] الآية فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله تعالى وذكر الحديث الصحيح عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ قال إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث وإني لأعرفه الآن وذكر حديث حنين الجذع وطرقه صحاح مشهورة وروى عن السدي ^(٢).

ان الله سبحانه وتعالى قد جعل في الجمادات قوى تفعل وقد أضاف الفعل إليها فإذا كان تبارك وتعالى قد جعل في الجمادات قوى تفعل وقد أضاف الفعل إليها

(١) مجموع الفتاوى ج: ١١ ص: ١٦

(٢) رسالة في قنوت الأشياء ج: ١ ص: ٤٠-٤٢.

ولم يمنع ذلك أن يكون خالقاً لأفعالها فلأن لا يمنع إضافة الفعل إلى الحيوان وإن كان الله خالقه بطريق الأولى فإن القدرية لا تنازع في أن الله خالق ما في الجمادات من القوى والحركات وقد أخبر الله أن الأرض تنبت وأن السحاب يحمل الماء كما قال تعالى ﴿فَلَحِمَلَتْ وَفَرَا﴾ [الذاريات: ٢] والرياح تنقل السحاب كما قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الأعراف: ٥٧] وأخبر أن الرياح تدمر كل شيء وأخبر أن الماء طغى بقوله تعالى ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُ كُرِّي فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] بل قد أخبر بما هو أبلغ من ذلك من سجود هذه الأشياء وتسييحها كما في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] وهذا التفصيل يمنع حمل ذلك على أن المراد كونها مخلوقة دالة على الخالق وأن المراد شهادتها بلسان الحال فإن هذا عام لجميع الناس وقد قال تعالى ﴿يَنْجِبَالُ أَوْيَ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبا: ١٠] وقال ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝ (١٨) وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨ - ١٩] فأخبر أن الجبال تؤوب معه والطير وأخبر أنه سخرها تسبح وقال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَبَّحَتْ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١] وقال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا أَكْثَرًا﴾ [الرعد: ١٥] وقال ﴿ثُمَّ فَسَّتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] ^(١).

لطائف لغوية

يقال قد إشتبه علينا هذا كقول بني إسرائيل ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٧٠]

(١) منهاج السنة النبوية ج: ٣ ص: ٢٤٥.

وإن كان فى نفسه متميزا منفصلا بعضه عن بعض^(١).

قال تعالى ﴿وَلَا تَسْقَى الْمَرْثَ﴾ [البقرة: ٧١] سمي الأرض المزروعة حرثا^(٢).

قال تعالى ﴿فَال هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] وقيل معناه فقهوه

بعد أن كادوا لا يفقهونه كقوله ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] فالمنفي بها مثبت والمثبت بها منفي^(٣).

وقد ذم الله قسوة القلوب المنافية للخشوع فى غير موضع فقال تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] قال الزجاج قست فى اللغة غلظت ويبست وعسيت فقسوة القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه والقاسى والعاسى الشديد الصلابة وقال ابن قتيبة قست وعست وعتت أى يبست وقوة القلب المحمودة غير قسوته المذمومة فانه ينبغى أن يكون قويا من غير عنف ولينا من غير ضعف وفى الأثر القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها إلى الله أصلبها وارقها وأصفها وهذا كاليد فانها قوية لينة بخلاف ما يقسو من العقب فانه يابس لا لين فيه وان كان فيه قوة^(٤).

قوله تعالى ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥] فيقال النهر كالقرية والميزاب كما

يستعمل لفظ القرية تارة فى السكان فى مثل قوله ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] وتارة فى المساكن ونحو ذلك يراد به الحال ويراد به المحل فاذا قيل حفر النهر أريد به المحل واذا قيل جرى النهر أريد به الحال^(٥).

(١) مجموع الفتاوى ج: ١٧ ص: ٣٩٠.

(٢) مجموع الفتاوى ج: ٢٩ ص: ١٢٤.

(٣) منهاج السنة النبوية ج: ٥ ص: ١٤١.

(٤) مجموع الفتاوى ج: ٧ ص: ٣٠.

(٥) مجموع الفتاوى ج: ٢٠ ص: ٤٦٤.

الفهرس حسب المواضيع

رقم الصفحة	اسم الموضوع
١ -	المقدمة
٢ -	مقدمة سورة البقرة
٣ -	سورة البقرة هي سنام القرآن
٤ -	اشتملت سورة البقرة على تقرير أصول العلم وقواعد الدين
٥ -	يقرر الله أصل الإيمان توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسله في سورة البقرة
٦ -	الشريعة الكاملة تجمع العدل والفضل كما في آخر سورة البقرة
٧ -	بين الله في سورة البقرة أصل الدعوة في القرآن
٨ -	الآيات (١ - ٥) سورة البقرة
٩ -	أسماء الحروف (فواتح السور)
١٠ -	افتحت بالإيمان الجامع وختمها بالإيمان الجامع ووسطها بالإيمان الجامع
١١ -	ذكر الله في أول سورة البقرة الأصناف الثلاثة للناس
١٢ -	عامة السور المدنية يذكر فيها المنافقين
١٣ -	﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]
١٤ -	لطيفة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]
١٥ -	يحذر من يقبل و ينتفع بالعلم من عمل به
١٦ -	من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم
١٧ -	ان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء
١٨ -	معرفة ما جاء به الرسول و ما أراده بألفاظ القرآن و الحديث هو أصل العلم والإيمان والسعادة والنجاة
١٩ -	فأن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل وله قابل

- ٢٠- يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
- ٢١- فالمعنى فى كونه غيبا هو انتفاء شهود ناله
- ٢٢- كل احد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله
- ٢٣- ﴿وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]
- ٢٤- إقامة الصلاة تتضمن إتمامها بحسب الإمكان
- ٢٥- ﴿وَمَارَزَقَهُمْ يَفْقُونَ﴾ [البقرة: ٣]
- ٢٦- هذه صدقة الأنبياء و ورثتهم العلماء
- ٢٧- الرزق يراد به ما أباحه الله تعالى للعبد و ملكه إياه و يراد به ما يتغذى به العبد
- ٢٨- إذا الرجل قطع الطريق و سرق أو أكل الحرام و نحو ذلك هل هو رزقه الذي ضمنه الله تعالى له أم لا أفتونا مأجورين؟
- ٢٩- ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَأْتِيهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [البقرة: ٤]
- ٣٠- أصل الإيمان الايمان بما أنزله
- ٣١- عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد
- ٣٢- ﴿وَيَأْتِيهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [البقرة: ٤] فاليقين طمأنينة القلب واستقرار العلم فيه
- ٣٣- النفس لها هوى غالب قاهر لا يصرفه مجرد الظن و إنما يصرفه العلم بأن العذاب واقع
- ٣٤- صفات الأتقياء والسعداء
- ٣٥- قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة
- ٣٦- قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله ٢٥

- ٣٧- ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]
- ٣٨- الايات (٦-٧) سورة البقرة
- ٣٩- قال أبو الدرداء لا تهلك أمة حتى يتبعوا أهواءهم ويتركوا ما جاءتهم به أنبيأؤهم من البينات
- ٤٠- صاحب العلم القلب وحجته سائر الأعضاء
- ٤١- الكافر المصر على كفره أن الإنذار لا ينفعه للحجب التي على قلبه و سمعه و بصره
- ٤٢- لطائف لغوية
- ٤٣- ليس كل من أظهر الإسلام يكون مؤمنا في الباطن فان الظاهر لا بد له من باطن يحققه
- ٤٤- الايات (٨-١٢) سورة البقرة
- ٤٥- أصلى الإيمان هما الإيمان بالله وباليوم الآخر التوحيد والمعاد
- ٤٦- أن جنس فعل المأمور به أعظم من جنس ترك المنهى عنه
- ٤٧- ان من جملة أفعالهم أسرار خلاف ما يظهرون وهم يرون هذا صلاحا
- ٤٨- فى الحديث أساس النفاق الذي يبني عليه الكذب
- ٤٩- اصل الشرك فى المشركين الذين فرقوا دينهم إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله
- ٥٠- التقية هى شعار النفاق
- ٥١- والمنافق عمله حابط فى الآخرة
- ٥٢- أنه لم يثبت المدح الا على ايمان معه العمل لا على ايمان خال عن عمل
- ٥٣- ان المرض والنفاق فى القلب يوجب الريب فى الأنباء الصادقة
- ٥٤- والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى و العلم النافع

- ٥٥- فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم
- ٥٦- مرض القلوب وتزكيتها
- ٥٧- النفاق يتبع بعض والكفر يتبع بعض ويزيد وينقص كما ان الايمان يتبع بعض ويزيد وينقص
- ٥٨- ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]
- ٥٩- اصل الصلاح التوحيد والإيمان وأصل الفساد الشرك والكفر
- ٦٠- الايات (١٣-١٥) سورة البقرة
- ٦١- الذام للصحابة و أهل الحديث والسنة جاهلا ظالما فيه شعبة نفاق إذا كان مؤمنا
- ٦٢- قال أبو ذر يا رسول الله أو للإنس شياطين قال نعم شر من شياطين الجن
- ٦٣- ذم من يتولى الكفار من أهل الكتاب قبلنا وبين أن ذلك ينافى الايمان
- ٦٤- قال رسول الله ﷺ لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة
- ٦٥- ان الجزاء من جنس العمل
- ٦٦- قال أصحاب محمد ﷺ كل من عمل سوءا فهو جاهل
- ٦٧- لطائف لغوية
- ٦٨- الآيات (١٧-٢٠) سورة البقرة
- ٦٩- أن المنافقين يفقدون النور الذي كان المؤمنون يمشون به
- ٧٠- التقسيم فى المثلىن لتنوع الاشخاص ولتنوع أحوالهم
- ٧١- وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته
- ٧٢- ضرب الأمثال للتصوير تارة وللتصديق أخرى
- ٧٣- أن العلم الحقيقي الراسخ فى القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل

- ٧٤- البصر والسمع هما الأصل في العلم بالمعلومات التي يمتاز بها الانسان عن البهائم
- ٧٥- قال الحسن البصرى ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل
- ٧٦- ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]
- ٧٧- وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن
- ٧٨- لطائف لغوية
- ٧٩- الايات (٢١-٢٤) سورة البقرة
- ٨٠- بعد تقسيم الخلق قرر أصول الدين
- ٨١- عبادة الله بمعرفته ومحبه هو أصل الدعوة فى القرآن
- ٨٢- دلائل الربوبية
- ٨٣- ففاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة
- ٨٤- العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة
- ٨٥- والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته
- ٨٦- ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]
- ٨٧- لطائف لغوية
- ٨٨- ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]
- ٨٩- ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]
- ٩٠- النبى ﷺ نهى أمته عن دقيق الشرك وجليلة
- ٩١- الشرك بالله أعظم ذنب عصى الله به
- ٩٢- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]

- ٩٣- آيات التحدي
- ٩٤- علينا أن نؤمن له ونؤمن بما جاء به
- ٩٥- فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله
- ٩٦- ﴿وَالْعَقِبَةُ لِلنَّوَى﴾ [طه: ١٣٢]
- ٩٧- العذاب انما اعد للكافرين فان جهنم لهم خلقت
- ٩٨- الاية (٢٥) سورة البقرة
- ٩٩- ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]
- ١٠٠- أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا
- ١٠١- فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل
- ١٠٢- الجنة لم تعلق الا باسم الايمان
- ١٠٣- ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]
- ١٠٤- قال ابن عباس ليس في الدنيا مما في الجنة الا الأسماء
- ١٠٥- لطائف لغوية
- ١٠٦- الايات (٢٦-٢٧) سورة البقرة
- ١٠٧- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]
- ١٠٨- والله سبحانه ضرب الأمثال للناس في كتابه لما في ذلك من البيان
- ١٠٩- إن الايمان بالقدر من تمام التوحيد
- ١١٠- الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب نقص في العقل و الإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع
- ١١١- قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة

- ١١٢- الفاسقون ضلوا به بسبب تحريفهم الكلم عن مواضعه و تأويله على غير ما أراد الله فتمسكوا بمتشابهه و أعرضوا عن محكمه
- ١١٣- يخبر الله تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب
- ١١٤- ان حصول المطلوب متوقف على فعل الفاعل و قبول القابل
- ١١٥- فصاحب البدعة يبقى صاحب هوى يعمل لهواه لا ديانة
- ١١٦- الاشتراك بين بني آدم تارة يثبت بفعلهم وهو التعاقد على ما فيه خيرهم وتارة يثبت بفعل الله تعالى
- ١١٧- أن ما وجب بالشرع إن نذره العبد أو عاهد الله عليه الخ تكون واجبة من وجهين
- ١١٨- العهود والأرحام هما جماع الأسباب التي بين بني آدم
- ١١٩- الايات (٢٨- ٢٩) سورة البقرة
- ١٢٠- فالحياة نعمة وإدراك اللذات نعمة وأما الإيمان فهو أعظم النعم وبه تتم النعم
- ١٢١- ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَيْنِ وَأَحْيَيْنَا أَثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]
- ١٢٢- الرد على الجهمية الذين أنكروا حكمة الله و رحمته و قالوا ليس فى القرآن لام كي لا فى خلقه و لا فى أمره
- ١٢٣- أن القرآن لم يخبر بفناء العالم فى المستقبل قط كما لم يخبر بأن الله خلق السموات والأرض من غير شيء
- ١٢٤- فنفي الحكم بالاستحباب لانتفاء دليل معين من غير تأمل باقى الأدلة خطأ عظيم
- ١٢٥- الأصل فى جميع الأعيان الموجودة على اختلاف أصنافها وتباين أوصافها أن تكون حلالا
- ١٢٦- قال الامام مالك الإستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة

- قال النبي ﷺ كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء
- ١٢٧ وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض
- ١٢٨ لطائف لغوية
- ١٢٩ الايات (٣٠ - ٣٩) سورة البقرة
- ١٣٠ المراد بخليفة
- ١٣١ في الخلافة والسلطان وكيفية كونه ظل الله في الأرض
- ١٣٢ فأصل الصلاح التوحيد والإيمان وأصل الفساد الشرك والكفر
- ١٣٣ عن النبي ﷺ أنه قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم
بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم
- ١٣٤ شرع من العقوبات في الدنيا ما يمنع الفساد والعدوان وقتل
النفس يحرم إلا بنفس أو فساد
- ١٣٥ وهو سبحانه خلق الانسان و خلق نفسه متحركة بالطبع حركة
لا بد فيها من الشر لحكمة بالغة
- ١٣٦ التسبيح قرين التحميد وسبحان الله وبجمده إثبات تنزيهه
وتعظيمه وإلهيته
- ١٣٧ فعبادة المخلوقات وتسبيحها هو من جهة إلهيته سبحانه وتعالى
- ١٣٨ المؤقت بظرف معين لا يكون قديما أزليا وانما فيه توقيت بعض
أقوال الرب بوقت معين
- ١٣٩ علم الله و قدرته و حكمته و رحمته في غاية الكمال الذي لا
يتصور زيادة عليها
- ١٤٠ علم الله من لوازم نفسه
- ١٤١ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]
- ١٤٢ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]

- ١٤٣ - الالفاظ والاسماء يراد بها المعانى والمسميات
- ١٤٤ - أن الله ألهم النوع الانسانى أن يعبر عما يريد ويتصوره بلفظه
- ١٤٥ - أن الله سبحانه علم آدم أسماء كل شئ
- ١٤٦ - معرفة حدود الاسماء واجبة
- ١٤٧ - التسبيح يقتضى تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده
- ١٤٨ - ففى أن يعلم أحد شيئا من علمه إلا بمشيئته ليس إلا أنه منفرد بالتعليم
- ١٤٩ - آدم وغيره من الأنبياء والأولياء أفضل من جميع الملائكة
- ١٥٠ - إن أكبر الكبائر الكفر والكبر
- ١٥١ - الكفر يحبط العمل
- الممتنع عن التزام مباني الاسلام الخمس استكبارا أو حسدا
- ١٥٢ - للرسول أو عصبية لدينه أو بغضا لما جاء به الرسول فهذا أيضا كافر بالاتفاق
- ١٥٣ - الجنة التى اسكنها آدم وزوجته هى جنة الخلد
- ١٥٤ - أن من الذنوب ما يكون سببا لخفاء العلم النافع أو بعضه و لا شتباه الحق بالباطل تقع الفتن
- ١٥٥ - ابتلى الله الأنبياء بالذنوب رفعا لدرجاتهم بالتوبة
- ١٥٦ - والمؤمن يبتلى بوسأوس الشيطان وبوسأوس الكفر
- ١٥٧ - الأعمال هي سبب فى الثواب والعقاب
- ١٥٨ - جميع الذنوب تدخل فى ظلم العبد نفسه
- ١٥٩ - إن الذنوب مطلقا من جميع المؤمنين هي سبب العذاب
- ١٦٠ - أن الله سبحانه يرفع عبده بالتوبة
- ١٦١ - خير الخاطئين التوابون
- ١٦٢ - أن الانبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله و دل القرآن على توبة

- الأنبياء من ذنوبهم واستغفارهم
- ١٦٣- أن آدم قد تاب الله عليه قبل أن ينزل إلى الأرض
- ١٦٤- الرد على تفسير الرافضي (٣) قوله تعالى ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]
- ١٦٥- ولم يعذر الله أحدا قط بالقدر (فمن تاب اشبه اباه آدم ومن اصر واحتج بالقدر اشبه ابليس)
- ١٦٦- خير الخلق الذين يصبرون على المصائب ويستغفرون
- ١٦٧- والناس الذين ضلوا في القدر على ثلاثة أصناف
- ١٦٨- فان الرسل جميعهم أمروا بالتوحيد
- ١٦٩- النعيم التام هو في الدين الحق
- ١٧٠- محركات القلوب
- ١٧١- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣]
- ١٧٢- فإن انتفاء الخوف علة تقتضى انتفاء ما يخافه
- ١٧٣- الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه
- ١٧٤- لطائف لغوية
- ١٧٥- الايات (٤٠-٤٧) سورة البقرة
- ١٧٦- ليس في القرآن آية واحدة تدل على اختصاص رسالته بالعرب
- ١٧٧- المسلمون عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا
- ١٧٨- فلا يزول فقر العبد وفاقته إلا بالتوحيد
- ١٧٩- تحقيق التوحيد
- ١٨٠- فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله

- ١٨١- لو صححت لم تخف احدا
- ١٨٢- من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس
- ١٨٣- أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول ﷺ
- ١٨٤- ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]
- ١٨٥- البدعة تشتمل على حق وباطل
- ١٨٦- جاء فى الحديث ما ابتدع قوم بدعة الا تركوا من السنة مثلها
- ١٨٧- والبدع التي يعارض بها الكتاب والسنة لا بد أن تشمل على لبس حق بباطل وكتمان حق
- ١٨٨- أهل البدع أهل الشبهات
- ١٨٩- ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]
- ١٩٠- الصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال
- ١٩١- وأمر الصلاة أعظم من ان يحاط به
- ١٩٢- تعظيمه تعالى للصلاة فى كتابه فوق جميع العبادات
- ١٩٣- قرن مع الصلاة الزكاة
- ١٩٤- إقامة الصلاة
- ١٩٥- أن الصلاة مقدرة محددة موقوتة
- ١٩٦- حكم إقامة الصلوات الخمس فى المساجد
- ١٩٧- خص الركوع بالذكر
- ١٩٨- الرد على تفسير الرافضى (١) لقوله تعالى ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾

[البقرة: ٤٣]

- ١٩٩- أن الشارع لم ينقل الأسماء ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة
- ٢٠٠- فمن عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود
- ٢٠١- ولفظ العقل في القرآن يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة
- ٢٠٢- فالعقل العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم
- ٢٠٣- مدح الله وأثنى على من كان له عقل
- ٢٠٤- بالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية
- ٢٠٥- فالصبر على أداء الواجبات واجب ولهذا قرنه بالصلاة
- ٢٠٦- ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]
- ٢٠٧- وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة الا في محبة الله
- ٢٠٨- فإن اللذة الحاصلة بذكر الله والصلاة باقية دافعة للهموم والاحزان
- ٢٠٩- فمن لم يجد قرة عينه وراحة قلبه في الصلاة فهو منقوص الايمان
- ٢١٠- الاشفاق التي في القرآن إما عملان وإما وصفان في عمل
- ٢١١- الامور التي يكون فيها الصبر واجب
- ٢١٢- قرن الصبر بالأعمال الصالحة
- ٢١٣- لا إيمان لمن لا صبر له
- ٢١٤- أهم أمر الدين الصلاة والجهاد
- ٢١٥- ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ﴾ [البقرة: ٤٦]
- ٢١٦- ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]
- ٢١٧- ﴿فَاذْكُرُواْ ءَالَآءَ اللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]
- ٢١٨- ذكر النعم من الذكر الذي أمروا به
- ٢١٩- الشفاعة نوعان
- ٢٢٠- قد ينتفع بالنفوس والأموال في الدنيا فنفي الله هذه الأقسام الثلاثة

- ٢٢١- ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]
- ٢٢٢- أن الله الشفاعة جميعا فعلم أن الشفاعة منتفية عن غيره إذ لا يشفع أحد الا بإذنه وتلك فهي له
- ٢٢٣- الرد على المنكرين لشفاعة الرسول ﷺ لأهل الذنوب من أمته
- ٢٢٤- ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]
- ٢٢٥- لطائف لغوية
- ٢٢٦- الايات (٥٦-٤٩) سورة البقرة
- ٢٢٧- العذاب قد يكون عذاب سماوي وقد يكون بفعل العباد
- ٢٢٨- أن آيات الانبياء مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم
- ٢٢٩- ظلم النفس
- ٢٣٠- ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]
- ٢٣١- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ [آل عمران: ٨٩] التائب أحق بالإبتلاء
- ٢٣٢- أنا نبي الرحمة وأنا نبي الملحمة
- ٢٣٣- فالؤمن يستغفر من الذنوب والمعائب والجاهل الظالم يحتج بالقدر
- ٢٣٤- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تُنْظَرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]
- ٢٣٥- فمن الخوارق الخارجة عن قوى النفوس إحياء الموتى
- ٢٣٦- طريقة القران في بيان امكان المعاد
- ٢٣٧- ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]
- ٢٣٨- آيات موسى

- ٢٣٩- كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل
- ٢٤٠- ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب
- ٢٤١- لطائف لغوية
- ٢٤٢- الايات (٥٧- ٦١) سورة البقرة
- ٢٤٣- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ...﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩]
- ٢٤٤- عن النبي ﷺ أنه قال لهم ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم ويقولون حبة في شعرة
- ٢٤٥- السجود اسم جنس وهو كمال الخضوع لله
- ٢٤٦- أن الله يحب الايمان و العمل الصالح
- ٢٤٧- ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]
- ٢٤٨- إن الله سبحانه وتعالى لا يحدث شيئا إلا بإحداث أسباب ودفع موانع
- ٢٤٩- من آيات موسى
- ٢٥٠- الفساد نوعان
- ٢٥١- لطائف لغوية
- ٢٥٢- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]
- ٢٥٣- أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه
- ٢٥٤- التقصير والاعتداء هو الذي استحق به أهل الكتاب العقوبة
- ٢٥٥- عقوبة من كذب بالحق
- ٢٥٦- وكل من اذى أو قتل نبيا فهذا حاله

- ٢٥٧- وجماع دين الإسلام أن يعبد الله وحده لا شريك له ويعبد بما شرعه سبحانه وتعالى
- ٢٥٨- اليهود من حين ضربت عليهم الذلة لم يكونوا بمجردهم ينتصرون وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم
- ٢٥٩- اليهود مغضوب عليهم
- ٢٦٠- يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل
- ٢٦١- لطائف لغوية
- ٢٦٢- الايات (٦٢) سورة البقرة
- ٢٦٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مَن ءَامَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢]
- ٢٦٤- أن الله لا يقبل من أحد دينا سوى الخيفية
- ٢٦٥- والايان بالرسل يجب أن يكون جامعا عاما مؤتلفا
- ٢٦٦- وجعل الأمة الإسلامية خير أمة
- ٢٦٧- الحكمة معرفة الدين والعمل به
- ٢٦٨- تفسير آيات أشكلت
- ٢٦٩- أهل الجنة والسعادة
- ٢٧٠- الأصول الثلاثة الموجبة للسعادة في كل ملة
- ٢٧١- حصول الهداية والفلاح للمؤمنين دون غيرهم
- ٢٧٢- ان توحيد الله والايان برسله واليوم الآخر هي امور متلازمة مع العمل الصالح
- ٢٧٣- قيل يا رسول الله أرأيت أدوية ننداوى بها ورقى نسترقى بها وتقى نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هن من قدر الله

- ٢٧٤- اليهود والنصارى أصل دينهم حق
- ٢٧٥- الصابئة نوعان
- ٢٧٦- الصابئة صاروا كفارا من جهة تبديلهم لما أنزل الله
- ٢٧٧- أن الحسنات والعبادات ثلاثة أقسام عقلي وملي وشرعي
- ٢٧٨- فان الله لم يعلق وعد الجنة الا باسم الايمان لم يعلقه باسم الإسلام
- ٢٧٩- أن الثواب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا
- ٢٨٠- الصب المحب المشتاق
- ٢٨١- لطائف لغوية
- ٢٨٢- الايات (٦٣-٦٦) سورة البقرة
- ٢٨٣- فان موجب العقد هو واجب بالعقد
- ٢٨٤- لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل
- ٢٨٥- أبقي الله سبحانه آثار المكذبين لنعتر بها ونتعظ
- ٢٨٦- المعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى
- ٢٨٧- لطائف لغوية
- ٢٨٨- الايات (٦٧-٧٤) سورة البقرة
- ٢٨٩- شددوا فشد الله عليهم
- ٢٩٠- طريقة القرآن في بيان امكان المعاد
- ٢٩١- من الخوارق الخارجة عن قوى النفوس إحياء الموتى
- ٢٩٢- إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله
- ٢٩٣- إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الدينى وخلق الكونى
- ٢٩٤- مدح الله وأثنى على من كان له عقل
- ٢٩٥- فالعقل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم
- ٢٩٦- قسوة القلوب من ثمرات المعاصي

رقم
الصفحة

اسم الموضوع

- ٢٩٧- ما من جماد إلا وهو مطيع لله خاشع له مسبح له
٢٩٨- ان الله سبحانه وتعالى قد جعل في الجمادات قوى تفعل وقد
أضاف الفعل إليها
٢٩٩- لطائف لغوية

This document was created with Win2PDF available at <http://www.daneprairie.com>.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.